الفصل الأول

نشأة البلاغة وتطورها

المبحث الأول: البلاغة في طور النشأة

المرحلة الأولى: الجذور الأولى وما قبل التدوين.

١- البلاغة في العصر الجاهلي.

٢- البلاغة في صدر الإسلام.

٣- البلاغة في العصر الأموي.

المرحلة الثانية: بداية التدوين البلاغي على هامش العلوم في العصر العباسي:

أولاً: طائفة الكتاب.

ثانيًا: طائفة الشعراء.

ثالثًا: طائفة اللغويين.

رابعًا: طائفة المتكلمين.

خامسًا: طائفة المفسرين.

obeikandl.com

البلاغة في طور النشأة والتكوين

المرحلة الأولي:

الجذور الأولى وما قبل التدوين:

يرجع عصر النشأة والتكوين إلى القرن الثـــاني الهجـــري، حيـــث دُوِّنـــت الملاحظات التي تُعْنَى ببيان أسرار فصاحة النثر والنظم مختلطة بمباحث العلوم الأخـــرى، فلم يكن هناك ما يعرف باسم "علوم البلاغة"، وإن كانت الكلمة معروفة مســـتخدمة من قبل ولكنهم ما كانوا يعنون بها ما عني بها أخيرًا من دلالتها علي علوم ثلاثة، هـــي علوم (المعاني، والبيان، والبديع).

وإذا كنا قد أرجعنا نشأة البلاغة إلى القرن الثاني الهجـــري باعتبـــار أن هـــذا التاريخ هو بداية التدوين البلاغي؛ فإننا مع ذلك نستطيع أن نرجع جذورها إلى العصر الجاهلي فما بعده.

ويحسن بنا أن نلم إلمامة سريعة بالبلاغة في تلك العصور الأولى قبـــل تفصـــيل القول في عصر بداية التدوين.

obeikandl.com

١- البلاغة في العصر الجاهلي:

لم يزل العرب منذ جاهليتهم الأولى أرباب لَسَن[١]، وأهل فصاحة وبلاغة وبيان.

وكما كانت العرب تتكلم بالكلام المستقيم المعرب بلا لحن ولا اضطراب ولا فساد -وذلك قبل أن توضع قواعد النحو وإعراب الكلام- كذلك كانت تتكلم بالكلام الفصيح البليغ ولمّا توضعْ قواعد البلاغة وطرق الفصاحة والبيان.

ولم تقسَّم البلاغة إلى علوم ثلاثة، مع تمييزها عن الفصاحة وجعلها مقدمة لها[٢]، أو فنا قسيما للبلاغة ونظيرًا لها[٣]، لم تقسم إلى تلك الأقسام إلا في القرن السابع الهجري على يد أبي يعقوب السكاكي ت (٦٢٦هـ).

وكانت مسائلها قبل ذلك، من تشبيه واستعارة وكناية ومجاز ومشاكلة وتجريد وجناس وتورية ومبالغة وتقسيم... إلى آخر تلك الفنون، كان يطلق عليها جميعًا اسم: البديع أو البيان أو الفصاحة أو البراعة، دون تمييز، وكانت ترد في الشعر والنثر القديم ناصعة صافية وبلا تكلف ولا تصنع. فكان لها أثرها في إبراز المعنى وإظهار جماله وحسنه.

من ذلك ما نشعر به في قول امرئ القيس مشبها إذ يقول:

أيقتُلُني والمشْرَفيُّ[٤] مُضاجِعِي ومسنونةٌ زرقٌ كأنيابِ أغوالِ

وقوله مجانسا:

وإن كنتِ قد ساءتْكِ منيِّ خليقةٌ فسلِّي ثيابي من ثيابِك تنسلِ

وقوله:

لقد طمح الطماحُ من بعد أرضِه ليُلْبِسَنِي من دائهِ ما تلبَّسا

---

(١) اللسن بالتحريك: الفصاحة. [لسان العرب: (لسن)]

(٢) كما فعل الخطيب القزويني ت (٧٣٩هـ) في "إيضاحه".

(٣) كما فعل الطيبِي ت(٧٤٣هـ) في "تبيانه".

(٤) المشرفي: سيف منسوب إلى مشارف الشام، وهي قرى من أرض العرب تدنو من الريف. [القاموس المحيط: (شرف)]

وقوله مطابقا ومشبها ومبالغًا في وصف فرسه:

مِكَرٍّ مفَــرٍّ مُقبِــلٍ مُدبِــرٍ معــا ... كجلمودِ صخرٍ حطَّهُ السيلُ من عَلِ

وقوله مبالغا في وصف فرسه أيضًا:

فعادى عداءً بين ثــورٍ ونعجــةٍ ... دراكا ولم يَنضَحْ بمــاءٍ فيُغسَــلِ

وقوله رادًّا أعجاز الكلام على صدوره:

إذا المرءُ لم يخزُنْ عليه لسانَــه ... فليس على شيءٍ ســواهُ بخــازنِ

وقوله مصرِّعا أول القصيدة:

ألا عِم صباحًا أيها الطَّللُ البالي ... وهل ينعمَنْ من كان في العصرِ الخالي

وقوله في حسن الابتداء:

قفا نَبكِ من ذكرى حبيبٍ ومنــزلِ ... بسقطِ اللّوى بين الدَّخولِ فحَوْمــلِ

وفي قول زهير بن أبي سلمى في الاستعارة:

صحا القلبُ عن سلمى وأقصرَ باطله ... وعُرِّي أفراسُ الصِّبــا ورواحلُــه

وقوله مطابقا:

ليثٌ بعثّــرَ يصطــادُ الرجــالَ إذا ... ما الليثُ كذَّبَ عن أقرانه صَدَقَــا

وقوله في حسن التقسيم -وكان عمر رضي الله عنه يعجب منه ويردده-:

فــإنَّ الحــقَّ مقطعــهُ ثــلاثٌ ... يمــينٌ أو نفــارٌ أو جــلاءُ

وقوله في التذييل:

ولســتَ بمستبــقٍ أخــا لا تلُمُّــه ... على شَعَثٍ أيُّ الرجــالِ المهــذبُ

وقول لبيد في الاستعارة:

وغداةَ ريحٍ قــد كَشَفْتُ وقــرَّةٍ ... إذ أصبحتْ بيدِ الشمالِ زمامُهــا

وفي قول طرفة بن العبد محترسا:

فســقى ديــارَكِ غيرَ مفسدِهــا ... صوبُ الغمــامِ وديمــةٌ تهمــي

وقول حسان مبالغا:

لنا الجفناتُ الغرُّ يَلمعْنَ في الضحى ... وأسيافُنا يَقطُرن من نجــدةٍ دمــا

obeikandl.com

وقوله في حسن الاستطراد:

إن كنتِ كاذبةَ الـذي حدثْتِـني فنجوتِ مَنجى الحارثِ بنِ هشام

ترك الأحِبـةَ أنْ يقاتِـلَ دونهُـم ونجـا بـرأسِ طِمـرّةٍ ولجـامِ

وقول الخنساء في الكناية عن أخيها:

طويلُ النجـادِ رفيـعُ العِمـا دِ سـاد عشيرتَـه أمـردا

وفي قول الأعشى موغلا:

كناطحٍ صخـرةً يـومًا ليوهِنَهـا فلم يَضِرْها وأوهى قرنَهَ الوعَـلُ

وقوله مغاليًا:

فتًى لو ينادي الشمسَ ألقَتْ قناعَها أو القمرَ الساري لألقى المقالِـدا

وفي قول النابغة الجعدي مغاليًا:

بلغنا السماءَ مجدُنـا وسناؤُنـا وإنا لنرجو فوقَ ذلك مَظْهـرا

لم يكن هؤلاء القدماء يعرفون أسماء تلك الفنون، ولا وضعوا لها قواعدها واصطلاحاتها، فلم تكن تلك الاصطلاحات قد وضعت بعد.

ومع ذلك فقد رأيناهم ينظمون تلك الفنون في أشعارهم، ويأتون بها في جيد نثرهم، يجرون في ذلك على السليقة العربية، وعلى نهج العرب في الإنشاء والقول.

كل ذلك يدلنا على أن البلاغة والفصاحة والبيان وإن لم تكن إذ ذاك قواعد وفنا له أصوله، فإنها كانت لدى العرب فطرة وسليقة. ومن أكبر الدلالة على أنهم كانوا أهل فصاحة وبيان دعوة القرآن لهم أن يأتوا بسورةٍ من مثله، فلو أنهم لم يكونوا من أهل تلك الصناعة لما جاز ذلك التحدي القرآني لهم، ويدل ذلك على أن لهم بصرًا بتمييز أقدار الألفاظ والمعاني وتبيّن ما فيها من البلاغة والبيان.

يروى أن الوليد بن المغيرة -وكان من الراسخين في الكفر، وكان قد وسطته قريش بينها وبين النبي ﷺ ليحاول إثناءه عن دعوته- يروى أنه استمع من النبي ﷺ لبعض آيات من القرآن، فلم يتمالك نفسه حتى شهد لهذا الكلام بالتميز والعلو، فقال:

"والله لقد سمعت من محمد كلاما، ما هو من كلام الإنس ولا من كلام الجن، وإن له لحلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإن أعلاه لمثمر، وإن أسفله لمغدق"[1].

وهذا يدل على مدى معرفتهم بأقدار الكلام، والبصر بما فيه من روعة النظم، وجودة الأداء، وبراعة التصوير.

وقد كان العرب يحبون البيان والطلاقة... والتحبير والبلاغة والتخلص والرشاقة -كما يقول الجاحظ- فإنهم كانوا يكرهون السلاطة والهذر والتكلف والإسهاب والإكثار؛ لما في ذلك من التزيّد والمباهاة واتباع الهوى والمنافسة في العلو والقدر كما كانوا يكرهون الفضول في البلاغة؛ لأن ذلك يدعو إلى السلاطة، والسلاطة تدعو إلى البذاء.

وقد ورد عنهم من الأخبار والآثار ما يفيد أنهم كانوا يوائمون بين الألفاظ والمعاني، وذلك كالذي تجده في قصة طرفة مع المسيب بن علس، فقد مر المسيب بمجلس بني قيس بن ثعلبة فاستنشدوه فأنشدهم، فلما بلغ قوله:

وقد أتناسى الهمَّ عند ادّكارِه ... بناجٍ عليه الصَّيْعَرِيَّةُ مِكدمِ

فقال طرفة: "استَنْوَق الجمل".

وأساس نقد طرفة للمسيب: أنه وصف الجمل بما توصف به الناقة؛ إذ إنهم قالوا للناقة: ناجية، و لم يقولوا للبعير: ناج.

وهذا وإن كان النظر فيه إلى الربط بين الألفاظ والمعاني من حيث الصحة اللغوية؛ فإنه كان بداية لرعاية المشاكلة بين اللفظ والمعنى، ورعاية الملاءمة والمناسبة بينهما، كذلك فقد ورد في نقد العرب لشعرائهم ما يدل على رعايتهم لأساس البلاغة ومقصدها الأعظم، وهو مطابقة الكلام لمقتضى الحال.

---

(١) انظر: تفسير الكشاف للزمخشري في سورة المدثر. ومعنى مغدق: أي كثير المياه، وهو كناية عن خصوبة معانيه.

obeikandl.com

ففي أخبار النابغة الذبياني أن الشعراء الناشئين كانوا يحتكمون فيها إليه، وكان في أثناء ذلك يبدي بعض الملاحظات على معاني الشعراء وأساليبهم، ويقال: إنه فضل الأعشى على حسان بن ثابت، وفضل الخنساء على بنات جنسها. وثار حسان عليه، وقال له: أنا والله أشعر منك ومنها! فقال له النابغة: حيث تقول ماذا؟!

قال: حيث أقول:

لنا الجفناتُ الغرُّ يلمعنَ بالضحى وأسيافُنا يَقْطُرن من نجدة دَما
ولدنا بني العنقاءِ وابني محرّقٍ فأكرِمْ بنا خالاً وأكرم بنا ابنما

فقال له النابغة: "إنك لشاعر لولا أنك قللت عدد جفانك وفخرت بمن وَلَدْتَ ولم تفخر بمن وَلَدَك. وفي رواية أخرى: فقال له: إنك قلت: الجفنات فقللت العدد، ولو قلت: الجفان لكان أكثر، وقلت: يلمعن في الضحى، ولو قلت: يبرقن بالدجى لكان أبلغ في المديح؛ لأن الضيف بالليل أكثر طروقا، وقلت: يقطرن من نجدة دما، فدللت على قلة القتل، ولو قلت: يجرين لكان أكثر؛ لانصباب الدم، وفخرت بمن ولدت ولم تفخر بمن ولدك. فقام حسان منكسرا منقطعًا.

فاعتراض النابغة على حسان يتمثل في عدم مطابقة ألفاظه لمقام الفخر الذي يقتضي المبالغة والتكثير.

كما يتمثل ذلك الاعتراض أيضًا في عدم المناسبة بين الألفاظ والمعاني، وهما بابان عليهما أساس البلاغة.

هذه مجرد أمثلة تدل على أن الشعراء في العصر الجاهلي كانوا يقفون عند اختيار الألفاظ والمعاني والصور، وكانوا يأتون في أشعارهم بألوان شتى من فنون البيان والبديع ورعاية النظم، ومطابقة مقتضى الحال وغير ذلك مما عرفه المتأخرون بعدهم ووضعوا لكلٍّ المصطلحَ الخاص به.

٢- البلاغة في صدر الإسلام:

جاء الإسلام، وكان القرآن هو لسان حجته الباهرة، وشمس أنواره الظاهرة، وانقسم الناس بين مصدق بالقرآن ومكذب له، ولكنهم جميعًا -المصدقين والمكذبين- كانوا مشدوهين بحلاوة نظمه، وبديع لفظه، وجمال صوره، وكان منهم من يتخفى فيسترق السمع ليصغي إلى قراءة رسول الله ﷺ دون أن يشعر به، وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على إعجاب هؤلاء القوم بهذا الكتاب؛ وإدراكهم لعظمته، ووقوعهم في أسر بيانه.

وأما الرسول ﷺ فكانت أحاديثه وخطبه ذائعة مشهورة، يتلقفها الصحابة عن النبي ﷺ يحصونها كلمة كلمة؛ خشية أن يتفلّت حرف منها.

ولِمَ لا؟ وهو ﷺ الذي "لم ينطق إلا عن ميراث حكمة، ولم يتكلم إلا بكلام قد حُف بالعصمة.. وهو الكلام الذي ألقى الله عليه المحبة، وغشاه بالقبول، وجمع له بين المهابة والحلاوة، وبين حسن الإفهام وقلة عدد الكلام، مع استغنائه عن إعادته، وقلة حاجة السامع إلى معاودته.. ثم لم يسمع الناس بكلام قط أعم نفعًا ولا أقصد لفظًا ولا أعدل وزنا ولا أجمل مذهبًا ولا أكرم مطلبًا ولا أحسن موقعًا ولا أسهل مخرجا ولا أفصح معنى ولا أبين في فحوى من كلامه ﷺ"[1].

وقد صح عن النبي ﷺ ما يدل أنه كان يُعْنَى أشد العناية بتخير لفظه، فقد أثر عنه أنه كان يقول: "لا يقولن أحدكم: خبثت نفسي، ولكن ليقل: لقست نفسي"؛ كراهية أن يضيف المسلم الخبث إلى نفسه.

وقد كان الصحابة – رضوان الله عليهم – يتعجبون لفصاحة النبي ﷺ ويرون أنه أفصح العرب، فابن الأعرابي يحدثنا بأن رسول الله كان جالسًا مع الصحابة، فسألوه عن سحابة فأجابهم، فقالوا: يا رسول الله، ما أفصحك! ما رأينا الذي هو أفصح منك! فقال: وما يمنعني؟ وإنما أنزل القرآن بلساني، بلسان عربي مبين.

---

(١) البيان والتبيين (١٧/٢).

كذلك فقد كان الخلفاء الراشدون – رضوان الله عليهم – خطباء مفوهين، يتخيرون الألفاظ، ويعنون بالنظم، وقد ورد عنهم ما اتخذه البلاغيون بعدهم أساسًا لأبواب من البلاغة والفصاحة والبيان، فمن ذلك ما يروى عن أبي بكر -رضي الله عنه- من أنه عرض لرجل معه ثوب فقال له: أتبيع الثوب؟ فأجابه: لا، عافاك الله. وتأذى أبو بكر مما يوهمه ظاهر اللفظ؛ إذ قد يظن أن النفي مسلط على الدعاء، فقال له: "لقد علمتم لو كنتم تعلمون، قل: لا، وعافاك الله"(١).

ولقد كان شيوع هذه الرواية وترددها على ألسنة البلاغيين هو الذي حدا بهم إلى أن يفتحوا في البلاغة بابًا خاصًّا هو: باب "الفصل والوصل".

وكان عمر -رضي الله عنه- فصيحا بليغًا، فقد ضرب الرواة مثلا لفصاحته وبلاغته بأنه كان يستطيع أن يخرج "الضاد" من أي شدقيه شاء.

وعلي بن أبي طالب – رضي الله عنه – لم يكن يجاريه أحد في مضمار الفصاحة والبلاغة، وخير ما يثبت هذا: كتاب "نهج البلاغة" المنسوب إليه، وقد عَرَّف هو البلاغة، فقال: "البلاغة: إيضاح الملتبسات بأسهل ما يكون من العبارات".

وإلى جانب بلاغة الكتاب والسنة وخطب الخلفاء الراشدين وملاحظاتهم في نقد الكلام وبلاغته، فقد وجدت عدة عوامل دعت إلى الاهتمام بصياغة القول، ونظم التراكيب، وتصوير المعاني صورًا رائعة جذابة.

ومن هذه العوامل: الصراع حول العقيدة بين المسلمين والمشركين، وانطلاق الشعراء من المشركين في هجاء الإسلام والمسلمين، وانطلاق الشعراء من المسلمين في الرد عليهم بهجاء الشرك والمشركين.

---

(١) البيان والتبيين (٢٦١/١).

وقد كان يمثل شعراء المشركين: عبد الله بن الزِّبَعْرَى، كما كان يمثل شعراء المسلمين: حسان بن ثابت الأنصاري[1].

ومنها الخلاف الذي نشب بين علي ومعاوية، ذلك الخلاف الذي أدى إلى انقسام المسلمين في ذلك الوقت إلى أحزاب ثلاثة:

حزب يؤيد عليًّا، ويرى أنه أحق بالخلافة من معاوية، وهو حزب الشيعة. وحزب يؤيد معاوية، ويرى أنه أحق بالخلافة من علي، وهو حزب بني أمية. وحزب ثالث لا ينضم إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء، فهو يرى أن الخلافة ليست من حق علي، وأنها ليست من حق معاوية كذلك، وإنما هي لمن يصلح لتوليها من عامة المسلمين، وهو حزب الخوارج.

واحتاج كل حزب من هذه الأحزاب الثلاثة في الدفاع عما يدعو إليه من رأي، إلى بلاغة الخطباء والشعراء وفصاحتهم إلى جانب ما يحتكم إليه في ساحة القتال من الحسام.

٣- البلاغة في عصر بني أمية:

وإذا تحولنا إلى عصر بني أمية، وجدنا الخطابة بجميع ألوانها من سياسية وحفلية ووعظية تزدهر ازدهارًا عظيمًا، وفي كل لون من هذه الألوان يشتهر غير خطيب، أما في السياسة فيشتهر من ولاة بني أمية: زياد والحجاج، وفي زياد يقول الشعبي:"ما سمعت متكلمًا على منبر قط تكلم فأحسن إلا أحببت أن يسكت؛ خوفًا من أن يسيء، إلا زيادًا؛ فإنه كلما أكثر كان أجود كلاما". وفي الحجاج يقول مالك بن دينار: "ربما سمعت الحجاج يخطب، يذكر ما صنع به أهل العراق وما صنع بهم، فيقع في نفسي أنهم يظلمونه وأنه صادق؛ لبيانه وحسن تخلصه بالحجج".

---

(١) انظر في تفصيل هذه النقطة: معالم على طريق النقد الأدبي. د/عبدالحميد هنداوي، ص(١٣١) وما بعدها، ط. دار الثقافة.

ومن خطباء الشيعة زيد بن الحسين بن علي، وكان لَسِنًا جَدِلاً يجذب الناس بحلاوة لسانه وسهولة منطقه وعذوبته. ومن خطباء المحافل سَبْحان وائل وقد خطب بين يدي معاوية بخطبة باهرة سميت من حسنها باسم "الشوهاء"، ومثله صُحار العبدي الذي راع معاوية بخطابته، فسأله: ما تعدون البلاغة فيكم؟ قال: الإيجاز، فقال له معاوية: وما الإيجاز؟ قال صحار: أن تجيب فلا تبطئ، وتقول فلا تخطئ.

أما خطباء الوعظ فقد بلغوا الغاية من روعة البيان، وفي مقدمتهم: غَيْلان الدمشقي والحسن البصري وواصل بن عطاء، ويقول الجاحظ: إن أدباء العصر العباسي كانوا يتحفظون كلام الحسن وغيلان، حتى يبلغوا ما يريدون من المهارة البيانية، ويشيد ببلاغة واصل مدللاً عليها بإسقاطه الراء من كلامه لِلُثْغَتِه فيها، مع ما انتظم له من الطلاوة والجزالة. ونرى الجاحظ في غير موضع من "بيانه" يسوق ملاحظات الناس على الخطباء، كما يسوق ملاحظات الخطباء أنفسهم، وخاصة أصحاب الوعظ منهم؛ إذ كان تلاميذهم يتحلقون حولهم، وكانوا يدربونهم على إحسان الأداء وقرع الأدلة بالأدلة الناصعة. ومن طريف ما ساقه من ملاحظات الناس: ما رواه الرواة عن عمران ابن حطان إذ قال: "إن أول خطبة خطبتها عند زياد -أو عند ابن زياد- فأعجب بها الناس، وشهدها عمي -أو أبي- ثم إني مررت ببعض المجالس، فسمعت رجلا يقول لبعضهم: هذا الفتى أخطب العرب لو كان في خطبته شيء من القرآن".

ومما ساقه من كلام الوعاظ، قول شبيب بن شيبة: "الناس موكلون بتفضيل جودة الابتداء وبمدح صاحبه، وأنا موكل بتفضيل جودة القطع وبمدح صاحبه، وحظ جودة القافية وإن كانت كلمة واحدة، أرفع من حظ سائر البيت". ويسوق الجاحظ حوارًا طريفًا بين أبي الأسود الدؤلي وغلام كان يتقعر في كلامه، وقد تَلَوَّمَه أبو الأسود تلوُّمًا عنيفًا لاستخدامه ألفاظًا مفرطة في الغرابة.

والحق أن الملاحظات البيانية كثرت في هذا العصر، وهي كثرة عملت فيها بواعث كثيرة؛ فقد تحضر العرب واستقروا في المدن والأمصار، ورقيت حياتهم العقلية، وأخذوا يتجادلون في جميع شئونهم السياسية والعقيدية، فكان هناك الخوارج والشيعة

والزبيريون والأمويون، وكان هناك المرجئة والجبرية والقدرية والمعتزلة، ونما العقل العربي نموًّا واسعًا، فكان طبيعيًّا أن ينمو النظر في بلاغة الكلام، وأن تكثر الملاحظات المتصلة بحسن البيان، لا في مجال الخطابة والخطباء فحسب، بل أيضًا في مجال الشعر والشعراء، بل لعل المجال الثاني كان أكثر نشاطًا؛ لتعلق الشعراء بالمديح وتنافسهم فيه، وقد فتح لهم الخلفاء والولاة والقواد والأجواد أبوابهم، فوفدوا من كل فج، وكانوا يجعلون جوائز كل منهم بقدر شعره وبراعته فيه، فاشتد التنافس بينهم، وهيأ من بعض الوجوه لاندلاع الهجاء بين فريق منهم. والمهم أنه هيأ لكي يتخير كل منهم معانيه وألفاظه؛ بحيث تصغي لها القلوب والأسماع، وتساق إليه الجوائز الضخمة.

وأخذ الشعراء –بحكم استقرارهم في المدن– يلقى بعضهم بعضًا في المساجد والأندية والأسواق وعلى أبواب من يمدحونهم وفي حضرتهم، فكثرت المحاورات – بينهم من جهة وبينهم وبين سامعيهم من جهة ثانية – في براعتهم وفي بعض معانيهم وأساليبهم.

وقامت في هذا العصر سوق "المربد" في البصرة وسوق "الكناسة" في الكوفة مقام سوق "عكاظ" في الجاهلية، بل لقد تحولا إلى ما يشبه مسرحين كبيرين، يغدو عليهما شعراء البلدتين، ومن يفد عليهما من البادية، لينشدوا الناس خير ما صاغوه من أشعار[1].

ومن الأمثلة على ظهور الملاحظات البلاغية في هذا العصر، أن جريرًا سمع عمر ابن لجأ التيمي ينشد في أرجوزة له يصف إبله، يقول:

قد وردتْ قبلَ أنَي ضحائِها وتَفرِسُ الحياتِ في خَرْشائها[2]

جرَّ العجوزِ الثني من ردائها

---

(١) البلاغة تطور وتاريخ، د/شوقي ضيف، ص(١٤-١٦).

(٢) أني: وقت، من أنى يأني إذا حان وقته. تفرس: تحطم وتدق. الخرشاء: جلد الحيات.

فتعرض له يقول: كان أولى بك أن تقول: "جر العروس" لا "جر العجوز" التي تتساقط خورًا وضعفا، واستشاط عمر غضبًا، فهجاه، واحتدم بينهما الهجاء.

وهذا النقد الموجه إلى عمر بن لجأ في هذا البيت كان أساسا لما سماه البلاغيون بعد بمراعاة النظير.

ونستطيع أن نقرر أن الملاحظات البلاغية والبيانية قد ازدادت في هذا العصر لعدة عوامل تتلخص في:

١- ازدهار الخطابة في هذا العصر؛ نتيجة لأمور سياسية ودينية واجتماعية، فقد تنوعت الخطابة إلى: سياسية، ودينية، وحفلية.

٢- ومنها أن العرب قد تحضروا، واستقروا في المدن والأمصار، وأخذوا يتجادلون في أمورهم السياسية والعقيدية.

٣- ومنها قيام الأسواق الأدبية على غرار سوق "عكاظ" في الجاهلية.

٤- ظهور النقائض بين جرير والفرزدق، وكثرة الهجاء الذي يدعو إلى التنافس وحرص كل واحد من الشاعرين المتهاجيين على قهر خصمه والتفوق عليه.

ونستطيع أن نجمل الحديث عن طبيعة البلاغة في هذا العصر بأنها لا تعدو مجرد ملاحظات انطباعية غير مقننة ولا مدونة، لم يقصد منها أن تكون علما بقدر ما قصد منها إلى التعبير عن الحس والذوق البلاغي المستكنّ لدى أصحابه.

obeikandl.com

المرحلة الثانية

بداية التدوين البلاغي على هامش العلوم

البلاغة في العصر العباسي:

اتسعت الملاحظات البلاغية في العصر العباسي اتساعًا يمثل طفرة كبيرة كانت استجابة لعدة عوامل أثرت في جميع مجالات الحياة في العصر العباسي وليس في مجال الأدب وحده.

وقد نشأ عن هذه العوامل أن شاركت في نشأة البلاغة وتدوين الملاحظات البيانية في هذا العصر عدة طوائف، تتمثل في الطوائف التالية:

obeikandl.com

أولاً: طائفة الكتاب من الفرس والموالي

تطورت الحياة العقلية والحضارية في هذا العصر بتأثير الحضارات الوافدة، وبتأثير دخول كثير من الفرس والموالي في دواوين الحكم، واتخاذ الخلفاء لهم كتَّابًا ووزراء وقادة من هؤلاء الموالي، وقد أتقن هؤلاء الموالي العربية وحذقوها، وبرعوا فيها أيما براعة، مع صبغتها بما اكتسبوه من لغتهم وثقافتهم الخاصة بهم.

ويكفي أن نذكر في هذا الصدد ابن المقفع (المتوفى سنة ١٤٣ للهجرة)، فقد ترجم عن الفارسية كتبا تاريخية مختلفة وأخرى أدبية وسياسية، كما ترجم "كليلة ودمنة" وأجزاء من منطق أرسطاليس. واتسعت الترجمة بعده، وأسست لها "دار الحكمة"، وأكب المترجمون من السريان وغيرهم ينقلون التراث اليوناني والفارسي والهندي. وكان ذلك تحولا كبيرًا في الفكر العربي؛ إذ اصطبغ بثقافات أجنبية كثيرة، وأخذت أوعية لغته تحمل كل التراث الحضاري القديم، واتسعت جنباتها سعة شديدة، وهي سعة أتيح لها منذ أول الأمر كاتب فذ خبر أساليب اللغة ومرن عليها مرانة دقيقة -ونقصد ابن المقفع- وهو بدون ريب يعد في طليعة من ثبتوا الأسلوب العباسي الجديد الذي سمي باسم الأسلوب المولد، وهو أسلوب يمتاز بالنصاعة والدقة في اختيار الألفاظ ووضعها في أمكنتها الصحيحة وبث المعاني المستحدثة فيها دون عوج أو تعقيد[1]. وقد ذكر الرواة أنه سئل عن البلاغة وتفسيرها، فقال:

"البلاغة اسم جامع لمعان تجري في وجوه كثيرة، فمنها ما يكون في السكوت، ومنها ما يكون في الاستماع، ومنها ما يكون في الإشارة، ومنها ما يكون في الاحتجاج، ومنها ما يكون جوابا، ومنها ما يكون شعرا، ومنها ما يكون سجعا وخطبا، ومنها ما يكون رسائل.

---

(١) البلاغة تطور وتاريخ، ص(١٩-٢٠).

obeikandi.com

وفي هذا القول تحديد واضح لمفهوم البلاغة، ومنه أخذ البلاغيون المتأخرون تعريفهم للبلاغة بأنها: "مطابقة الكلام لمقتضى الحال مع فصاحته"[١]. فالإيجاز له مواضع والإطناب له مواضع وما يصلح لهذا لا يصلح لذاك فلكل مقام مقال.

كما أن في كلامه- أيضًا-إشارة إلى ما سمي فيما بعد:"براعة الاستهلال" ليكن في صدر كلامك دليل على حاجتك". وإشارة أخرى إلى ما عرف باسم"رد الأعجاز على الصدور". "خير أبيات الشعر البيت الذي إذا سمعت صدره عرفت قافيته".

وقد كان ابن المقفع واحدًا من كتاب الدواوين الذين عُنوا بصياغة النثر العربي حينئذ واتخذوا الكتابة صناعة لهم، وكانوا يختارون من الفصحاء البلغاء، وقد استطاعوا أن يجعلوا من الدواوين العباسية ما يشبه مدرسة نثرية كبيرة، إذ كانوا يتعهدون من تحت أيديهم من صغار الكتاب، وكانوا لا يزالون يراجعونهم فيما يكتبون من رسائل، فإذا وقفوا منهم على ناشئ تنم كتابته عن تفنن في القول شجعوه، وربما قدمه إلى الخليفة أو إلى بعض الوزراء فلمع اسمه وتألق نجمه. وكانوا يأخذون أنفسهم بالتثقف ثقافة واسعة بكل ما نقل من التراث الأجنبي، وخاصة الفلسفة اليونانية، كما كانوا يأخذون أنفسهم بثقافة عربية أصيلة. وهي ثقافة ما زالوا يكبّون عليها حتى وقفوا على تصاريف الكلام ووجوه استعماله وميزوا بين جيده ورديئه ومقبوله ومرذوله، وبلغوا من ذلك كله مبلغا جعل الجاحظ ينوه بهم في بيانه طويلا، يقول: "أما أنا فلم أر قط أمثل طريقة في البلاغة من الكتاب، فإنهم قد التمسوا من الألفاظ ما لم يكن متوعرًا وحشيًا ولا ساقطًا سوقيا[٢] "فهم يجتنبون في كتابتهم الساقط والوحشى، وهم يدققون في انتخاب ألفاظهم وفي التخلص إلى المعاني الطريفة. وعنايتهم بالمعاني لم تكن تقل عن عنايتهم بالألفاظ، غير أن الجاحظ التفت إلى عنايتهم الثانية، لأنهم بلغوا فيها – على ما يظهر – الغاية. وقد عاد مرة في بيانه يشيد بعنايتهم بالطرفين جميعًا هم وناهى الشعراء،

---

(١) الإيضاح ٢٦/١.

(٢) البيان والتبيين ١٣٧/١.

obeikandi.com

يقول: "ورأيت عامتهم لا يقفون إلا على الألفاظ المتخيرة والمعاني المنتخبة وعلى الألفاظ العذبة والمخارج السهلة والديباجة الكريمة وعلى الطبع المتمكن وعلى السبك الجيد وعلى كل كلام له ماء ورونق، وعلى المعاني التي إذا صارت في الصدور عمرتها وأصلحتها من الفساد القديم، وفتحت للسان باب البلاغة، ودلت الأقلام على مدافن الألفاظ، وأشارت إلى حسان المعاني. ورأيت البصر بهذا الجوهر من الكلام في رواة الكتاب أعم، وعلى ألسنة حذاق الشعراء أظهر"(١).

ومما لا شك فيه أن هؤلاء الكتاب كانوا يعيشون لإحسان الكتابة في أساليبها ومعانيها، وكان ذوقهم مترفا بعامل ما انغمسوا فيه من الحضارة، وكانت عبارة تعجب في كتاب أو رسالة لهم خليفة أو وزيرًا فإذا هم يصعدون إلى أعلى المناصب، لذلك مضوا يصفون كلامهم ويتخيرونه مما يجمع الجزالة والرصانة مع السلامة والنصاعة، مع الرونق والطلاوة. وكانوا لا يزالون يبدئون ويعيدون في صفات البيان الحسن والبلاغة، يشركهم في ذلك من حولهم حتى من تسنموا منصب الوزارة مثل جعفر بن يحيى البرمكي، وكان في الذروة من الفصاحة والبلاغة، وفيه يقول الجهشياري "كان جعفر بليغًا كاتبًا، وكان إذا وقع نسخت توقيعاته وُتدورست بلاغاته"(٢) وفيه يقول ثمامة بن أشرس: "كان جعفر بن يحيى أنطق الناس، قد جمع الهدوء والتمهل والجزالة والحلاوة وإفهامًا يغنيه عن الإعادة، ولو كان في الأرض ناطق يستغني بمنطقه عن الإشارة لاستغنى جعفر عن الإشارة كما استغنى عن الإعادة، وقال ثمامة مرة: ما رأيت أحدًا كان لا يتحبس ولا يتوقف ولا يتلجلج ولا يتنحنح ولا يرتقب لفظًا قد استدعاه من بعد، ولا يلتمس التخلص إلى معنى قد تعصى عليه طلبه أشد اقتدارًا ولا أقل تكلفًا من جعفر بن يحيى(٣). ونرى ثمامة إعجابا منه بجعفر وبيانه البليغ وفتنة منه بما يحسن من

(١) البيان والتبيين ٢٤/٤ وانظر العمدة لابن رشيق (طبعة أمين هندية) ٨٤/٢.

(٢) الوزراء والكتاب للجهشاري (طبعة الحلبي) ص٢٠٤.

(٣) البيان والتبيين ١٠٥/١.

التعبير وما يكسوه من تفننه يسأله: ما البيان؟ فيجيبه بقوله: "أن يكون الاسم يحيط بمعناك، ويجلى عن مغزاك، وتخرجه عن الشركة، ولا تستعين عليه بطول الفكرة، والذي لابد منه أن يكون سليما من التكلف، بعيدًا من الصنعة، بريئًا من التعقيد، غنيا عن التأويل"(١).

وجعفر يريد بالاسم اللفظ، ويقول إنه ينبغي أن يحيط بالمعني بحيث يحصره من جميع أطرافه، كما ينبغي أن يجلى عن مغزاه بحيث يشف عنه، وأيضًا فإنه ينبغي أن يخرج عن الشركة، بحيث تختار له الكلمات الدقيقة التي تدل على المعنى في وضوح دون أن تشترك معه معان أخرى. وينبغي أن يبرأ من التكلف والتعقيد بحيث لا يظهر فيه التعمل والتصنع، وبحيث لا يحتاج إلى شرح أو تفسير. وانصب من هذا التعريف معان كثيرة في "البيان والتبيين" إذ نرى الجاحظ من حين إلى حين يوصى بالوضوح وينهى عن التكلف والتعمية والتعقيد والاستغلاق.

وجعفر إنما هو مثل واحد من أمثلة هؤلاء الكتاب الذين برعوا في فنون التعبير، والذين طالما أداروا بينهم آراءهم في البيان والبلاغة (٢).

---

(١) البيان والتبيين ١/١٠٦.

(٢) انظر البلاغة تطور وتاريخ ٢١-٢٣.

ثانيًا: الشعراء وأثرهم في تطور البلاغة في العصر العباسي

لم يكن تأثير الشعراء في هذا العصر بأقل من تأثير الكتاب في نهضة فنون البلاغة وتطورها والالتفات إلى أبوابها ومسائلها.

لقد وجدنا الشاعر العباسي كبشار -مثلا- يترع مترعين مختلفين:

مترعا يحتفظ فيه بشار بالتقاليد الموروثة مع شيء من التطور بتأثير ما حدث من رقى العقل العربي لكثرة ما تزود به من المعارف الأجنبية، وأيضًا بتأثير ما داخل الحس العربي من تحضر ومن رقة الشعور ورفاهته، وهو مترع كان يضطر إليه اضطرارًا حين يعنى بمديح الخلفاء والوزراء والقواد والأمراء؛إذ كان هو الذي يرضيهم فيضفون عليه نوالهم الغمر. وكان يقابل هذا المترع عنده مترع ثان لم يكن يعني فيه بالمديح. إنما كان يعني بتصوير حياته الشخصية وأهوائه وميوله ولهوه وطربه وخمره وحبه. وتبعه الشعراء العباسيون يترعون في شعرهم نفس المترعين، مضيفين إلى أنغام المترع الثاني أنغاما كثيرة، وهي أنغام أهملوا فيها أو على الأقل في جمهورها ما عرف به العرب من العفة والوقار، والارتفاع عن الدنيات، إذ أطلقوا العنان لأنفسهم في اللهو والمجون، وفي تصوير عواطفهم وأهوائهم دون أي احتشام.

وأخذ الشعراء في المترعين جميعًا يعنون عناية شديدة بالعربية وراح فريق منهم إلى البادية، يتقدمهم بشار وأبو نواس، ومن أقام منهم في الحاضرة لزم اللغويين في المساجد الجامعة يروي عنهم الشعر القديم، وما يزال يرويه حتى تستقيم له سليقته العربية، وحتى يغدو كأنه عربي أصيل. وقد مضوا يلائمون بين لغة الشعر القديم وبين ما عاشوا فيه من حضارة ومن رقي عقلى، مستخدمين كل ما يملكون من مهارة، وبذلك ثبتوا بدورهم الأسلوب المولد الجديد كما ثبته الكتاب والمترجمون من أمثال ابن المقفع، وهو أسلوب يمتاز بالكلمة المنتخبة الرشيقة، وبالمعني المصيب الدقيق، أسلوب يمتاز حينا بالصفاء والنقاء والنعومة والعذوبة، وحينا بالجزالة والرصانة[١].

---

(١) البلاغة تطور وتاريخ ص٢٤.

ومن الأمثلة على وجود هذين المترعين إلى القديم والجديد عند الشعراء العباسيين ومحاولتهم الجمع بين المترعين، مع التفاقم إلى نهج العرب وطرقهم في بيانهم وبلاغتهم، ما ورد عن بشار:" ما زلت أروى في بيت امرئ القيس:

كأنّ قلوبَ الطَّير رطْبًا ويابسًا لدى وكْرها العنَّابُ والحشَفُ البالى[١]

إذ شبه شيئين بشيئين، حتى صنعت:

كأنّ مُثارَ النَّقْع فوق رءوسِنَا وأسيافَنا ليلٌ تهاوى كواكِبُه"[٢]

وهو إنما يريد مجرد تشبيه شيئين بشيئين، إذ التشبيهان مختلفان. ولعل في ذلك ما يشير إلى أن الشاعر العباسي كان يحاول محاكاة الشاعر القديم في وسائله البلاغية من تشبيه وغير تشبيه، مستعينًا بفكره الدقيق ولطف مسالكه إلى المعاني والأخيلة وبحسه الحضرى الرقيق ومشاعره المرهفة"[٣].

وعلى هذا النحو كان الشعراء والكتاب يكثرون من ملاحظاتهم البلاغية، محاولين بكل ما وسعهم أن يذللوا المادة الأدبية القديمة لتحمل عصرهم ونفوسهم وأحاسيسهم وعقولهم وأخيلتهم، واستطاعوا أن يستوعبوا خصائص الأدب القديم وأن ينموها ليبلغوا كل ما كانوا يرومونه من روعة الشعر والنثر. إن الأدب في رأيهم تفهم ودراسة لنماذجه القديمة، حتى يتشبع بها الشاعر والكاتب، ثم يأخذ في أن يجد نفسه ومحيطه، ويصورهما في لغة منمقة تزخر بالمحسنات أو في لغة شفافة لطيفة كالغلائل الرقيقة[٤].

---

(١) العناب: عنب الديب. الحشف: أسوأ التمر.

(٢) أغاني ٣/١٩٦.

(٣) البلاغة تطور وتاريخ ص٢٥.

(٤) السابق ص٢٨.

ثالثًا: طائفة اللغويين وأثرهم في نشأة البحث البلاغي

وإذا كان دور الكتاب والشعراء في هذا العصر قد اقتصر في تمثلهم لوجوه البيان العربي مع ما أضافوه إليه من أثر الثقافات الأجنبية وظهور أثر ذلك في أدبهم، مع ظهور بعض الملاحظات البلاغية التي تدل على بداية تنبههم لمسائل البلاغة وفنونها، أقول: إذا كان دور الكتاب والشعراء قد اقتصر على ذلك، فإن ثمة طائفة أخرى كان لها الدور الأكبر في الانتقال بالبلاغة إلى مرحلة التقنين والتقعيد، وقد امتد تأثيرهم إلى بداية التأليف المنهجي في علوم البلاغة، واستمر كذلك لم ينقطع عن علم البلاغة حتى بعد استقلالها وتميزها، وهذه الطائفة هي طائفة اللغويين بدءًا من الخليل وسيبويه حيث تطرقوا إلى كثير من الملاحظات البيانية والبلاغية أثناء بحوثهم اللغوية، وقد كانت تلك الملاحظات بمثابة الثمرة والنتيجة للأبحاث اللغوية، حيث إن هؤلاء اللغويين لم تقصر همتهم -كمن بعدهم- عند وضع القواعد والضوابط اللغوية بل كانوا يتطرقون أحيانًا لبيان أثر تلك الأبحاث أو المسائل اللغوية على المعاني؛ ومن ثم وجدنا عند الخليل وسيبويه بوادر كثيرة من المسائل التي خصص بها علم المعاني فيما بعد، فقد تحدث سيبويه في الكتاب عن بعض خصائص التراكيب، والمناسبة بين الألفاظ والمعاني، كما تحدث عن التقديم والتأخير والتعريف والتنكير والحذف، وعن معاني بعض الأدوات مثل أدوات الاستفهام وأدوات الشرط وغير ذلك.

وقد التفت الخليل إلى المناسبة بين الألفاظ وبين المعاني التي وضعت لها في لغة العرب، مما كان أساسًا لرعاية المشاكلة بين اللفظ والمعني فيما بعد.

فمما جاء عن الخليل في ذلك قوله: "كأنهم توهموا في صوت الجندب استطالة ومدا فقالوا: (صرّ) وتوهموا في صوت البازى تقطيعا فقالوا: (صرصر)[1] "نلمح هنا إشارة الخليل إلى ما بين الفعل الثلاثي المضعف"صر" وبين معناه من التناسب، من حيث

---

(١) ابن جني: "الخصائص" (١٥٢/٢) تحقيق د/ محمد على النجار، وانظر بتحقيقي ط. دار الكتب العلمية – بيروت.

بنية الصيغة، ودلالتها على المعنى الإفرادى لتلك الكلمة. فنحن نلاحظ أن تضعيف الراء الناشيء من التشديد فيها ينتج عنه نوع من المط والاستطالة في نهاية الكلمة يناسب ما في صوت الجندب من مدّ واستطالة، فالمناسبة هنا ظاهرة بين صيغة الكلمة أو هيئتها ومعناها الذي تدل عليه.

فإذا انتقلنا إلى كلام سيبويه في هذا الموضع فإننا نجد أن سيبويه قد أصل سبق الخليل إلى هذا الباب، فهو يقول: "هذا باب افعوعل وما هو على مثاله مما لم نذكره، قالوا:خشن وقالوا: اخشوشن، وسألت الخليل فقال: كأنهم أرادوا المبالغة والتوكيد، كما أنه إذا قال (اعشوشبت الأرض) فإنما يريد أن يجعل ذلك كثيرًا عاما قد بالغ..."(١) لقد التفت الخليل وسيبويه هنا إلى أثر زيادة المبنى في زيادة المعنى، كما قد التفتا- كذلك- إلى الغرض من تلك الزيادة وهو هنا المبالغة والتوكيد، وقد عقد سيبويه لذلك بابا في كتابه وسماه "ما جاء على مثال واحد حين تقاربت المعاني"(٢).

ونحتاج أن نقف أمام بعض هذه المواضع لتأمله، وبيان مدى وقوف سيبويه على هذه الظاهرة. فلنتأمل على سبيل المثال قوله: "ومن المصادر التي جاءت على مثال واحد حين تقاربت المعاني قولك: النزوان والنقران والقفزان، وإنما هذه الأشياء في زعزعة البدن واهتزازه في ارتفاع، ومثله العسلان والرتكان.. ومثل هذا الغليان لأنه زعزعة وتحرك ومثله الغثيان لأنه تجيش نفسه وتثور، ومثله الخطران واللمعان لأن هذا اضطراب وتحرك، ومثل ذلك اللهبان والصخدان والوهجان لأنه تحرك الحر وثؤوره فإنما هو بمنزلة الغليان ..."(٣).

وبتأمل هذا النص نقف على الآتي:

---

(١) سيبويه / الكتاب، ٢٤١/٢ط المطبعة الكبرى الأميرية ببولاق مصر المحمية ١٣١٧.

(٢) المرجع السابق ٢١٩/٢. وثمة مواضع أخر كثيرة في كتابه انظر على سبيل المثال الكتاب ٢١٤/٢-٢١٦.

(٣) سيبويه الكتاب ٢١٨/٢.

obeikandi.com

التفات سيبويه إلى المناسبة بين الصيغ والمعاني حيث إنه قد وقف على ظاهرة مهمة وهي مجيء مجموعة من الألفاظ المتقاربة المعنى على صيغة واحدة، أو بتعبير سيبويه على (مثال واحد)، وكأنه يشير إلى التفات سيبويه إلى الدلالة المركزية المشتركة بين هذه الألفاظ التي استدعت مجيئها على تلك الصيغة، فالتروان والنقزان والقفزان والعسلان والرتكان والغليان والغثيان والخطران واللمعان واللهبان والوهجان.. ونحوها تشترك جميعها في معنى مشترك فيما بينها هو الحركة والاهتزاز والاضطراب، ومن ثم يرى سيبويه أن هذه المصادر قد جاءت على ذلك المثال الواحد أو تلك الصيغة الواحدة (**فعلان**) حين تقاربت المعاني.

ويعلل سيبويه مجيء بعض الألفاظ على أكثر من صيغة كما يعلل تقارب المعاني التي تدل عليها صيغتان بما بين الصيغتين من التشابه في مناسبة المعني، فيقول: "ومثله العسلان والرتكان وقد جاء على فعال نحو النزاء والقماص كما جاء عليه الصوت نحو الصراخ والنباح لأن الصوت قد تكلف فيه من نفسه ما تكلف من نفسه في التروان ونحوه"[1] فالعسلان والرتكان جاءا على فعلان كما جاءا على فعال التي تأتي عليها الأصوات نحو الصراخ والنباح، وذلك لما بين الصيغتين من تشابه في مناسبة المعاني، فكل من الفعال والفعلان يدل على حركة وتكلف، فالصراخ والنباح (فعال) يدل على صوت يتكلف المرء فيه من نفسه، ما يتكلفه من نفسه في التروان ونحوه.

والحق أن سيبويه قد وقف كثيرا على ظاهرة مجيء ألفاظ متقاربة المعنى على صيغة واحدة كما أنه وقف كثيرا على هذه الألفاظ لاستخراج المعنى الإجمالي المشترك بينها والذي جاءت لأجله على ذلك المثال أو تلك الصيغة، ولكنه – والحق يقال – كان قلما يعلل مجيء ذلك المعنى على تلك الصيغة، بمعنى أنه –وإن وقف على ظاهرة المناسبة بين الصيغة والمعنى – لم يعلل لمجيء المعنى على تلك الصيغة بذاتها دون غيرها على نحو ما اهتم بذلك ابن جني مثلا فيما بعد.

---

(١) سيبويه الكتاب ٢/٢١٨.

فسيبويه يقول على سبيل المثال:

"ومما جاءت مصادره على مثال لتقارب المعاني قولك: يئست يأسا ويآسة وسئمت سأما وسآمة وزهدت زهدا وزهادة فإنما جملة هذا لترك الشيء....

وقالوا زهد كما قالوا ذهب، وقالوا الزهد كما قالوا المكث، وجاء أيضًا ما كان من الترك والانتهاء على فعل يفعل فعلا وجاء الاسم على فعل وذلك أجم يأجم أجما وهو آجم وسنق[1] يسنق سنقا وهو سنق، وغرض يغرض غرضا وهو غرض، وجاءوا بضد الزهد والغرض على بناء الغرض وذلك هوى يهوى هوى وهو (هَوٍ)، وقالوا: قنع يقنع قناعة كما قالوا: زهد يزهد زهادة وقالوا قانع، كما قالوا زاهد وقنع كما قالوا: غرض، لأن بناء الفعل واحد وأنه ضد ترك الشيء، ومثل هذا في التقارب: بطن يبطن بطنا، وهو بطين وبطن، وتبن تبنا وهو تبن، وثمل يثمل ثملا وهو ثمل، وقالوا طبن يطبن وهو طبن[2] "[3] فهذا كلام سيبويه بتمامه في هذا الموضع قد التفت فيه إلى مجيء ألفاظ على صيغة واحدة هي (**فَعِل يفْعَل فَعَلا، والاسم فيها على فَعِل**) مشتركة في معني إجمالي واحد، هو ما عبر عنه بقوله "فإنما جملة هذا لترك الشيء" ولكنه لم يقف ليعلل لنا سبب مجيء هذه الصيغة للدلالة على الترك، أو ما المناسبة بينها وبين معنى الترك، حتى استدعى ذلك مجيء الألفاظ على تلك الصيغة مفيدة ذلك المعنى.

وكذلك فعل في باب "ما جاء من الأدواء على مثال وجع يوجع وجعا وهو وجع لتقارب المعاني" وكذلك فعل فيما جاء بعضه على فعال كما جاء فعال وفعول قالوا: نعس نعاسا وعطس عطاسا، ومزح مزاحا، وأما السكات فهو داء كما قالوا العطاس"[4] فيقول "فهذه الأشياء لا تكون حتى تريد الداء (جعل) كالنحاز والسهام

---

(١) السنق: البشم وهو الشبعان كالمتخم. لسان العرب (سنق).

(٢) طبن: أي فطن. اللسان (طبن).

(٣) سيبويه ٢/٢١٨-٢١٩.

(٤) الكتاب ٢/٢١٦.

وهما داآن وأشباههما"[1] وكذلك يقول في (باب فعلان ومصدره وفعله)، أما ما كان من الجوع والعطش فإنه أكثر ما يبنى من الأسماء على فعلان ويكون المصدر الفعل ويكون الفعل على فعل يفعل وذلك نحو ظمىء يظمأ ظمأ وهو ظمآن وعطش يعطش عطشا وهو عطشان، وصدى يصدى صدى وهو صديان، وقالوا الظماءة كما قالوا السقاية لأن المعنيين قريب كلاهما ضرر على النفس وأذى لها"[2].

وإذا كان سيبويه قد التفت إلى تلك الظاهرة مع عدم التعليل لها؛ فإننا نجد أن ابن جني قد اهتم بذلك التعليل في كتابه الخصائص، حيث عقد لتلك الظاهرة بابا في كتابه سماه: (باب في إمساس الألفاظ أشباه المعاني) يقول فيه:

"اعلم أن هذا موضع شريف لطيف، وقد نبه عليه الخليل وسيبويه، وتلقته الجماعة بالقبول له والاعتراف بصحته"[3].

ثم ذكر عبارة الخليل وسيبويه اللتين سبق نقلهما ولكن ابن جني لم يكتف بمجرد النقل لكلام سيبويه ولكنه يكمل ما تركه سيبويه من تعليل مجيء ذلك المعني على تلك الصيغة حيث يقول:"فقابلوا بتوالي حركات المثال توالى حركات الأفعال"[4].

فابن جني يلمح المناسبة بين تلك الحركات المتوالية في صيغة (فعلان) التي جعلت تلك الصيغة بتلك الهيئة مناسبة أتم المناسبة لمعناها الدال على الحركة والاضطراب.

والحق أن ابن جني قد أطال النفس جدا في هذا الباب، وقد أفاد فيه وأجاد، ونحتاج أن نقف هنا أمام كلامه في هذا الباب وقفات متأنية لنرى إلى أي حد تكون المناسبة بين صيغ الألفاظ ومعانيها.

---

(١) السابق، والنحاز: داء يأخذ الدواب والإبل في رئاتها، فتسعل سعالا شديدًا (نحز). والسهام الضمر وتغير اللون وذبول الشفتين وهو أيضا داء يأخذ الإبل. اللسان (سهم).

(٢) الكتاب ٢/٢٢٠.

(٣) الخصائص ٢/١٥٢.

(٤) السابق.

قال ابن جني بعد ذكر كلام الخليل وسيبويه السابق نقله: "ووجدت أنا من هذا الحديث أشياء كثيرة على سمت ما حداه[1] ومنهاج ما مثلاه. وذلك أنك تجد المصادر الرباعية المضعفة تأتي للتكرير، نحو الزعزعة، والقلقة، والصلصلة، والقعقعة، والصعصعة[2] والجرجرة، والقرقرة. ووجدت أيضًا (الفعلى) في المصادر والصفات إنما تأتي للسرعة، نحو البشكى، والجمزى والولقى.. فجعلوا المثال المكرر للمعنى المكرر – أعني باب القلقلة – والمثال الذي توالت حركاته للأفعال التي توالت الحركات فيها[3].

يلمح ابن جني في هذا النص ما بين المصادر الرباعية المضعفة ومعناها من المناسبة، إذ إن هذه المصادر بما اشتملت عليه من تضعيف وتكرير تناسب ما تدل عليه معانيها من التكرير المشترك بين ألفاظ تلك الصيغة، مما يضيف إلى معناها المعجمي معنى آخر تضيفه الصيغة وتدل عليه بهيئتها الصرفية.

كما يلمح ابن جني كذلك ما بين (الفعلى) من تكرار الحركات وتلاحقها وتتابعها وما تدل عليه من معنى السرعة والتتابع وتوالى الحركات في الفعل كما توالت الحركات في النطق.

يقول ابن جني: "ومن ذلك –وهو أصنع منه– أنهم جعلوا (استفعل) في أكثر الأمر للطلب، نحو استسقى، واستطعم، واستوهب، واستمنح، واستقدم عمرا، واستصرخ جعفرا، فرتبت في هذا الباب الحروف على ترتيب الأفعال. وتفسير ذلك أن الأفعال المحدثة عنها أنها وقعت عن غير طلب تفجأ حروفها الأصول، أو ما ضارع بالصيغة[4] الأصول.

فالأصول نحو قولهم: طعم ووهب، ودخل وخرج، وصعد ونزل،فهذا إخبار بأصول فاجأت عن أفعال وقعت، و لم يكن معها دلالة تدل على طلب لها ولا إعمال

---

(١) في الأصل حداه. وفي الهامش عن بعض النسخ (حذياه)

(٢) الصعصعة: التحريك والقلقلة، اللسان / صعصع.

(٣) الخصائص ٢/١٥٣.

(٤) كذا بالأصل، وفي بعض النسخ (بالصنعة).

فيها. وكذلك ما تقدمت الزيادة فيه على سمت الأصل، نحو أحسن وأكرم، وأعطى وأولى فهذا من طريقة الصنعة (الصيغة) بوزن الأصل في نحو دحرج، وسرهف، وقوقى، وزوزى، وذلك أنهم جعلوا هذا الكلام عبارات عن هذه المعاني، ازدادت العبارة شبها بالمعني كانت أدل عليه، وأشهد بالغرض فيه. فلما كانت إذا فاجأت الأفعال فاجأت أصول المثل الدالة عليها أو ما جرى مجرى أصولها، نحو وهب، ومنح، وأكرم، وأحسن، كذلك إذا أخبرت بأنك سعيت فيها وتسببت لها، وجب أن تقدم أمام حروفها الأصول في مثلها الدالة عليها أحرفا زائدة على تلك الأصول تكون كالمقدمة لها، والمؤدية إليها، وذلك نحو: استفعل، فجاءت الهمزة والسين والتاء زوائد، ثم وردت بعدها الأصول الفاء والعين واللام، فهذا من اللفظ وفق المعنى المقصود هناك، وذلك أن الطلب للفعل والتماسه والسعي فيه والتأني لوقوعه تقدمه، ثم وقعت الإجابة إليه، فتبع الفعل السؤال فيه والتسبب لوقوعه، فكما تبعت أفعال الإجابة أفعال الطلب، كذلك تبعت حروف الأصل الحروف الزائدة التي وضعت للالتماس والمسألة، وذلك نحو: استخرج، واستقدم، واستوهب، واستمنح، واستعطى، واستدنى"(١).

في هذا النص يقارن ابن جني بين الصيغ المجردة (الأصول) والصيغ المزيدة في دلالتها على معانيها. فالصيغ المجردة وهي ما سماها بالأصول هي نحو: طعم، ووهب، ودخل، وخرج... إلخ.

أما الصيغ المزيدة فيجعلها نوعين:

- **مزيد جرى مجرى الأصول**: نحو: أحسن، وأكرم، فهذا يجري مجرى الأصول في مشابهته الرباعي المجيء على (فعلل).
- **ومزيد زاد على الأصول**، ومثل له بما زاد على الأصول بأحرف متقدمة على الأصول (كاستفعل).

(١) الخصائص (٢/١٥٣، ١٥٤).

ثم يلمح ابن جني المشابهة والمناسبة بين كل من هذه الصيغ وما تدل عليه من المعاني. فالصيغ المجردة إنما تدل على المفاجأة للسمع بالإخبار عن الحدث دون تمهيد بأحرف تسبقه، فهي إخبار بأصول فاجأت عن أفعال وقعت، و لم يكن معها دلالة تدل على طلب لها ولا إعمال فيها.

وذلك نحو طعم ووهب وخرج ودخل وكذلك ما تقدمت الزيادة فيه على سمت الأصل، وهو ما جرى مجرى الأصول الرباعية على (فعلل)، فجعل ما جاء على وزن (أفعل) كأحسن وأكرم جاريا مجرى الأصول على (فعلل) في نحو دحرج وسرهف.. إلخ.

أما ما دل على سعي وتسبب وتعمل تقدمه، فهذا يحتاج إلى أحرف تتقدم على الأصول لتشعر بما تقدم الفعل من سعي وتسبب وتعمل. فلما كانت إذا فاجأت الأفعال فاجأت أصول الصيغ الدالة عليها أو ما جرى مجرى أصولها نحو: وهب، ومنح، وأكرم، وأحسن، كذلك إذا أخبرت بأنك سعيت فيها وتسببت لها وجب أن تقدم أمام حروفها الأصول في صيغها الدالة عليها أحرفًا زائدة على تلك الأصول تكون كالمقدمة لها، والمؤدية إليها.

ويزيد ابن جني في بيان المناسبة بين الصيغة والمعني فيقول: "ومن ذلك أنهم جعلوا تكرير العين في المثال[1] دليلا على تكرير الفعل، فقالوا: كسر، وقطع، منح، وغلق. وذلك أنهم لما جعلوا الألفاظ دليلة المعاني فأقوى اللفظ ينبغي أن يقابل به قوة الفعل، والعين أقوى من الفاء واللام؛ وذلك لأنها واسطة لهما، ومحفوفة بهما، فصار كأنهما سياج لها، ومبذولان للعوارض دونها، ولذلك نجد الإعلال بالحذف فيهما دونها.. فلما كانت الأفعال دليلة المعاني كرروا أقواها، وجعلوه دليلا على قوة المعنى المحدث به، وهو تكرير الفعل، كما جعلوا تقطيعه في نحو: صرصر وحقحق دليلا على

---

(١) يقصد بالمثال هنا (الصيغة) كما هو واضح من النص، وكما توصلت إليه بالاستقراء التي عبر فيها عن الصيغة بالمثال فانظر على سبيل المثال ٢/١٥٥، ١٥٧، ٣/٩٨، ١٨٨.

تقطيعه.."[1] لقد استطاع ابن جني في هذا النص السابق أن يكشف لنا عن المناسبة الوثيقة بين صيغة (فعل) ودلالتها على التكرار في الحدث.

ويكشف ابن جني كذلك عن المناسبة بين بعض الصيغ ودلالتها على المبالغة، فيقول: "وقد أتبعوا اللام في باب المبالغة العين، وذلك إذا كررت العين معها في نحو: دمكمك وصمحمح وعركرك وعصبصب وغشمشم، والمواضع في ذلك للعين، إنما ضامتها اللام هنا تبعا لها ولاحقة بها، ألا ترى إلى ما جاء عنهم للمبالغة في نحو اخلولق، اعشوشب، واغدودن، واحمومى، واذلولى، واقطوطى، وكذلك في الاسم نحو عثوثل، وغدودن، وحفيدد، وعقنقل، وعبنبل، وهجنجل.. كما ضاعفوا العين للمبالغة، نحو عتل، وصمل، وقمر، وحزق.."[2] وقد أطال ابن جني في توجيه ذلك، وهو واضح في أن زيادة المبنى فيه قد ناسبت زيادة المعنى وهو إرادة المبالغة.

كما ورد عن الخليل في كتابه العين بعض الملاحظات التي اتخذها البلاغيون المتأخرون بعد ذلك أساسًا لبعض ما قرروه في باب الفصاحة فمن ذلك قوله في أوصاف اللفظة المفردة:

"العين والقاف لا يدخلان في بناء إلا حسناه لأنهما أطلق الحروف"[3].

فقد كان ذلك أساسًا لما قرره البلاغيون بعد ذلك في درس الفصاحة مما ينبغي أن تكون عليه الكلمة من حيث تركيب حروفها.

هذا وقد تحدث سيبويه عن سر بلاغة التقديم عند جواز تقديم المفعول على الفاعل: "كأنهم إنما يقدمون الذي بيانه أهم لهم، وهم ببيانه أعني، وإن كانا جميعًا يهماهم ويعنياهم"[4].

---

(١) الخصائص (٢/١٥٥).

(٢) الخصائص (٢/١٥٥-١٥٦).

(٣) العين للخليل (١/٥٣)، وقد نقله عن الطيبي في التبيان في فن الفصاحة بتحقيقي ط المكتبة التجارية بمكة المكرمة.

(٤) الكتاب (١/١٥).

ويتحدث عن همزة الاستفهام فيذكر أن قولك:أزيد لقيت أم عمرًا؟ تقديم الاسم فيه أحسن وأفضل، ولو قلت ألقيت زيدًا أم عمرًا؟ لكان جائزًا حسنًا[1]. وما أجازه سيبويه وعده حسنًا وفضله عبد القاهر والبلاغيون المستفهم عنه الهمزة إذا كانت للتصور فلا يجوز عندهم في المثال المذكور إلا: "أزيدًا لقيت أم عمرا؟..وهو ما جعله سيبويه أحسن وأفضل[2]. وقد ذكر صاحب دلالات التراكيب وجهًا حسنا في التوفيق بين الرأيين فارجع إليه[3].

ويشير إلى المجاز العقلي عند حديثه عن بيت الخنساء:

تَرتعُ ما غَفلتْ حتىّ إذا ادّكرتْ فإنمَّا هي إقبالٌ وإدبارُ

فيقول: "جعلتها الإقبال والإدبار مجازًا على سعة الكلام[4] كما يتحدث عن التشبيه ويورد أمثلة له نحو قولك: مررت برجل مثل الأسد، إذا كنت تشبهه[5].

الأصمعي (ت٢١١هـ): لم يترك الأصمعي كتابا في صيغ التعبير القرآني كالفراء وأبي عبيدة، ولكن من جاءوا بعده كابن المعتز وابن رشيق وأبي هلال وقدامة نقلوا آراءه وإشاراته البلاغية، فقد تحدث عن الجناس ويقال إنه ألف فيه كتابا وتحدث عن المطابقة وعن صورة أخرى للالتفات غير الصورة التي ذكرها أبو عبيدة. كما تحدث عن الإيغال وعن المبالغة.

يقول ابن المعتز: التجنيس هو أن تجيء الكلمة تجانس أخرى في بيت شعر وكلام، ومجانستها لها أن تشبهها في تأليف حروفها على السبيل التي ألف الأصمعي كتاب الأجناس عليها[6] ويقول ابن رشيق: ذكر الأصمعي المطابقة في الشعر فقال:

---

(١) انظر الكتاب (٣/١٦٧).

(٢) انظر دلائل الإعجاز (١٤١).

(٣) ارجع إلى دلالات التراكيب (٢١٩) للدكتور محمد أبو موسى.

(٤) الكتاب (١/١٦٩).

(٥) انظر الكتاب (١/٢٣١).

(٦) كتاب البديع (٢٥).

أصلها وضع الرجل في موضع اليد في مشي ذوات الأربع، ثم قال: أحسن بيت قيل لزهير في ذلك:

ليثٌ بِعَثَّرَ يصطادُ الرجال إذا
ما الليثُ كذَّبَ عن أقرانه صَدقًا[1]

رابعًا: طائفة المتكلمين:

إزاء طائفة اللغويين ظهرت طائفة ثانية كان لها أثر كبير في نشأة الدرس البلاغي وتميزه كعلم مستقل بذاته له أصوله وفنونه.

هذه الطائفة هي طائفة المتكلمين الذين عنوا ببحث مسائل العقيدة، والكلام فيها، ومجادلة المخالفين لهم حول أصولهم واعتقاداتهم.

ونحن وإن كنا نحمّل هؤلاء المتكلمين النصيب الأكبر من أسباب اختلاف المسلمين وتفرقهم، بما أثاروه وشققوه من القضايا والمسائل العقدية التي لا يعود الجدال فيها بكبير طائل؛نظرا لأنها مما لم يكلفنا الله تعالى ببحثه واستقصائه كقضية الجبر والاختيار، والذات والصفات، وهل الصفات هي عين الذات أم خارجة عنها؟

وكالاختلاف حول ما أثبته الله تعالى لنفسه من الصفات في كتابه وسنة رسولهﷺ هل هي من باب الحقيقة أو المجاز؟ مع استحداث عدد من القضايا التي لا أصل لها في الكتاب أو السنة مما تعد من البدع والمحدثات كالقول: بخلق القرآن مثلاً، وكالزعم بأن الإيمان هو مجرد المعرفة أو القول أو التصديق دون العمل، وغير ذلك من القضايا الكلامية التي استحدثتها تلك الفرق فكانت سببًا في غرس بذور الفتنة والشقاق والفرقة بين صفوف المسلمين.

وانقسم المسلمون إزاء تلك القضاياْ وغيرها إلى فرق عديدة من خوارج وشيعة ومرجئة ومعتزلة وجبرية وقدرية.. إلخ.

---

(١) العمدة ٢/٧، وعثر: موضع قبل تبالة من أرض اليمن.

فقد أخذوا ينقسمون منذ أواخر القرن الأول للهجرة فرقا تتجادل في نظرياتها العقيدية من إرجاء وجبر واختيار، وكانت تزخر بهم مساجد الكوفة والبصرة وبغداد بعد إنشائها. ومنذ ظهورهم في عصر بني أمية، وهم يتخاصمون ويتحاورون حوارًا عنيفًا، كل يحاول أن يقهر خصمه ويظهر عليه، وسرعان ما أصبحت هذه المحاورات والخصومات، بل قل المناظرات - شغل الناس الشاغل، فهم يعجبون بهذا المُنَاظر أو ذاك، وهم يتحدثون فيمن كان له الظفر ومن هزم وغلب على أمره، ويحاولون أن يتبينوا أسباب الظفر والهزيمة، فيعودوا إلى النظر في حجج الخصمين وفي لغتهما ومخارج حروفهما وإشاراتهما وهيئاتهما.

وكلما تقدمنا مع الزمن احتدمت المناظرات بين هؤلاء المعلمين، واحتدمت معها الأسئلة في نجاح المناظر والخطيب، إذ كان جمهور هؤلاء المعلمين يعنى بوعظ الناس، وكان منهم من يحسن الخطابة والمناظرة والجدل، ومنهم من لا يوفيها جميعًا حقوقها، فكثر الحديث في قوة الحجج وفي وضوح العبارة ودقتها وفي جهارة الصوت، وفي ملامح المتكلم وفي ملاءمته بين كلامه والمستمعين. وكان يعني كل صاحب نحلة فيهم أن يجمع من حوله الشباب وأن لا ينصرفوا إلى خصومه، فأخذوا يقفونهم على النقص في الحجج والأدلة والنقص في الأداء والبيان، كما أخذوا يقفونهم على أسرار المهارة في الإقناع والظفر بالخصوم وأسرار البراعة في القول(١).

وقد حاول هؤلاء المتكلمون في سبيل تحقيق الظفر والانتصار على خصومهم أن يتسلحوا بكافة الأسلحة التي تعينهم على مهمتهم الجدلية البرهانية التي تقوم على الاستدلال ومحاولة إقناع الخصوم بأصولهم وأفكارهم.

---

(١) انظر البلاغة تطور وتاريخ ص(٣٢-٣٥)، وانظر: د/ بدوي طبانة، البيان العربي ص(٤٢)، والشيخ أمين الخولي، فن القول، ص(٧٢)، وانظر كلام الجاحظ في الحيوان ط. الحلبي (١٤٣/٢).

لذا فقد أخذوا أنفسهم بثقافة عربية أصيلة واستعانوا عليها بالأبحاث الفلسفية، وتسلحوا لها بالمنطق، حتى ليقول الجاحظ "لا يكون المتكلم جامعًا لأقطار الكلام، متمكنًا في الصناعة يصلح للرياسة،حتى يكون الذي يحسن من كلام الدين في وزن الذي يحسن من كلام الفلسفة، والعالم عندنا (يريد المعتزلة) هو الذي يجمعهما".

"وهؤلاء المتكلمون لم يتفوقوا على معاصريهم في الخطابة والبلاغة القولية فحسب،بل تقدموهم أيضًا في بحث المسائل البلاغية من الوجهة النظرية والتعليمية، فلا غرو أن نجد أقدم تعريف دقيق للبلاغة عند عمرو بن عبيد المعتزلي المتوفى (سنة ١٤٤هـ) إذ عرفها بأنها تخير اللفظ في حسن الإفهام"[(١)].

هذا وقد رأينا تأثير ما جلبه هؤلاء المتكلمون من مباحث الفلسفة وحدود المنطق ومباحث الكلام في تراثنا البلاغي منذ ذلك العصر وحتى عصر استقرار المباحث البلاغية وتحديدها بصورتها النهائية على يد السكاكي ومن حذا حذوه.

وفي سبيل تعلم الخطابة والبيان لإقناع المجادلين، أقبل هؤلاء المتكلمون على بحث كثير من المسائل والقضايا البلاغية، كما جرهم إلى ذلك أيضًا كثير من مباحث الكلام ككلامهم في تعريف الإيمان وأنه لا يطلق على العمل إلا مجازًا، وكذلك نفيهم أو تأويلهم لكثير مما وصف الله تعالى به نفسه أو وصفه به رسوله ﷺ بحجة أنه من المجاز[(٢)] فكان ذلك كله مما حفز المتكلمين للخوض في مبحث المجاز وهو عمود الدراسة البيانية ولعل كتاب ابن قتيبة (تأويل مشكل القرآن) خير شاهد على ذلك"[(٣)].

---

(١) الجاحظ: البيان والتبيين، تحقيق وشرح أ/ عبد السلام هارون، مطبعة لجنة التأليف والنشر، القاهرة ١٩٤٩.

(٢) ابن تيمية، الفتاوى، جمع وترتيب عبد الرحمن بن قاسم العاصمي النجدي الحنبلي، ط١ ١٣٨٢هـ الجزء السابع، كتاب الإيمان ص(٨٨).

(٣) د/شفيع السيد، البحث البلاغي عند العرب، تأصيل وتقييم، ص(٢١-٢٢) وانظر ابن قتيبة، تأويل مشكل القرآن، تحقيق وشرح السيد أحمد صقر، ط٢، دار التراث، ١٣٩٣ هـ ١٩٧٣.

هذا وقد أثرت هذه المباحث الكلامية كذلك في الدراسة البيانية التي تمت حول القرآن أو حول قضية الإعجاز، ولعل خير الأمثلة على ذلك كشاف الزمخشري والحواشي العديدة التي ألفت عليه، وكان من أهم أهدافها الرد على الزمخشري في اعتزاله، وقد رأينا من بين هذه الحواشي حاشية الطيبي، وقد تتبع الطيبي فيها ألفاظ الزمخشري" وتعرض لمذاهبه في الاعتزال بأدلة تزيفها، وتبين أن البلاغة إنما تقع في الآية على ما يراه أهل السنة لا على ما يراه المعتزلة"[1] كما يقول ابن خلدون. هذا بالإضافة إلى أن مباحث البلاغة بصورتها التي قد استقرت عليها في عصر السكاكي ومن بعده كالقزويني والطيبي لم تكن إلا محصلة تلك الجهود السابقة في مختلف العصور. وقد أسهم هذا الاتجاه الكلامي بنصيب كبير في إرساء كثير من قواعد البلاغة وفي إثارة كثير من مباحثها وقضاياها، فقد رأينا أئمة المعتزلة يشاركون في بحث أهم القضايا البلاغية التي شغلت كثيرًا من دارسي البلاغة بعد ذلك.

كما وضع بشر بن المعتمر أساس التعريف البلاغي المشهور "مطابقة الكلام لمقتضى الحال" الذي يعرفون به البلاغة.

وقد يخصون بهذا التعريف علما من علومها هو "علم المعاني". والناظر إلى صحيفته تلك يجد أنها قد اشتملت على عدد من الأفكار والقضايا البلاغية والنقدية يحسن أن نعرض هنا لموجزها:

صحيفة بشر بن المعتمر (ت٢١٠هـ)

تعد صحيفة بشر من الأصول البلاغية المهمة التي أفاد منها الدارسون كثيرًا فقد ألهمتهم كثيرا من الأفكار والقضايا وقد رواها الجاحظ في كتابه "البيان والتبيين" وإليك خلاصة ما تضمنته هذه الصحيفة من أفكار.

---

(١) مقدمة ابن خلدون، ٧٨٨/٢-٧٨٩.

١- يوصي بشر في أول صحيفته الأديب أن يقبل على عمله في وقت نشاطه وعندما يكون مستعدًا لهذا العمل فارغ البال مما سواه وألا يخوض في أدبه عندما يكون مجهدًا متعبًا.

٢- ينبغي للأديب سواء كان خطيبًا أم كاتبًا أم شاعرًا أن يبتعد عن التعقيد وعن الألفاظ الغريبة الوعرة وأن يتخير الألفاظ الملائمة للمعني الذي ينشده.

٣- المعنى الشريف الكريم يلائمه اللفظ الشريف فينبغي للأديب أن يصون معانيه وألفاظه عما يفسدهما ويهجنهما.

٤- ينبغي للأديب أن يلائم ويوازن ويراعي المقامات والأحوال؛ مقامات الكلام وأقدار المعاني وأحوال المستمعين، فإن كان من المتكلمين ويخاطب غيرهم تجنب ألفاظ المتكلمين، وإن خاطب المتكلمين كان الأولى والأجدر استعمال ألفاظهم ومصطلحاتهم،إذ هم على فهمها أقدر وإليها أميل وبها أشغف، فعلي الأديب -إذا- أن يلائم بين الألفاظ والمعاني وأحوال المستمعين الذين يوجه إليهم الحديث.

٥- ثم يضع بشر الأديب في منزلة من منازل ثلاث:

أولاها: منزلة البليغ التام وهو الذي يقدر على أن يصوغ معانيه في ألفاظه رشيقة عذبة وسهلة فخمة، وأن تكون معانيه ظاهرة واضحة وقريبة معروفة،وأن يمكنه إفهام العامة معاني الخاصة بأن يكسوها الألفاظ الواسطة التي لا تلطف عن الدهماء ولا تجفو عن الأكفاء فالمعنى لا يشرف بأن يكون من معاني الخاصة، ولا يتضع بأن يكون من معاني العامة، وإنما مدار الشرف على الصواب وإحراز المنفعة مع موافقة الحال وما يجب لكل مقام من المقال.

ثانيتها: منزلة من لا تسعفهم طبائعهم بالألفاظ والقوافي الجيدة المتمكنة بل يجدون في ذلك عسرا وصعوبة، ومثل هؤلاء يحسن أن يتأنوا، لأن طبائعهم لا تسمح لهم بالكلام الجيد لأول وهلة؛ فعليهم أن يتركوا العمل إذا تأبى عليهم سواد الليل وبياض النهار ثم يعاودوه عند نشاطهم واستعدادهم واكتمال تهيئهم، فإن كان لهم في الأدب طبيعة ومنزع فسيواتيهم عندئذ وإن لم يكن غزيرا.

ثالثها: مترلة من شحت طبائعهم وقضبت ينابيع القول في نفوسهم، فهم مهما تأنوا وهيئوا ونشطوا وخلصوا أنفسهم من أي شاغل آخر، لا يقعون من الأدب إلا على المستكره المرذول أو لعلهم لا يقعون على شيء منه أبدا،وهؤلاء حرى بهم أن يهجروا صناعة الأدب إلى صناعة أخرى تشاكلهم وتناسبهم.

هذه القضايا التي اشتملت عليها صحيفة بشر كانت أساسًا لكثير من القضايا البلاغية والنقدية التي شغلت بال النقاد والبلاغيين إلى وقتنا الحالي.

obeikandl.com

الجاحظ (ت٢٥٥هـ):

يعد الجاحظ أبو عثمان عمرو بن بحر المعتزلي الكبير صاحب اللبنة الأولى للبيان العربي بكتابه الموسوعي العظيم (البيان والتبيين) ولا غرو إذ وصفه د/طه حسين وغيره من الباحثين والنقاد بأنه مؤسس هذا البيان لا لأنه "وصل بجهده الخاص إلى قاعدة بيانية بعينها،"وإنما" لأنه جمع طائفة من النصوص توضح لنا توضيحًا حسنًا كيف كان العرب يتصورون البيان العربي في القرن الثاني والنصف الأول من القرن الثالث وتعطينا صورة مجملة لنشأة البيان العربي[(١)].

ولقد تحدث الجاحظ في كتبه عن كثير من القضايا البلاغية والنقدية التي تداولها البلاغيون والنقاد من بعده.

فمن ذلك ما عرف في تراثنا النقدى باسم قضية اللفظ والمعنى حيث ذهب فريق من النقاد إلى أن قيمة الأدب ترجع إلى جمال ألفاظه الموجودة في صياغته؛ وبراعة الأديب فيما يضيفه عليه من تحسين وتزيين.

وذهبت طائفة إلى أن قيمة الأدب ترجع إلى معانيه، وما يشتمل عليه من بديع الحكم، ولطائف الكلم، وشرف المعنى وغير ذلك.

وكان مذهب الجاحظ أن قيمة الأدب ترجع إلى إقامة الوزن وتخير اللفظ، وسهولة المخرج، وإلى صحة الطبع وجودة السبك، لأن الأدب أو الشعر صناعة وضرب من الصبغ وجنس من التصوير. أما المعاني فإنها – في نظره – مطروحة في الطريق يعرفها العربي والعجمي، والبدوي والقروي.

"وهذا الرأي يدل على مذهب من المذاهب، كان الجاحظ أول من نادى به في نقد الأدب العربي، وهو مذهب الصناعة، والافتنان في الصياغة فالنظرة إلى الأدب

---

(١) د/شفيع، السابق، ص(٦٤)، مقدمة كتاب نقد النثر، د/ طه حسين ط. المكتبة العلمية بيروت، ص٣، د/محمد عبد المنعم خفاجي، الإيضاح ص(٢٤-٦١)، د/شوقي ضيف، البلاغة تطور وتاريخ ص(٥٧-٥٨). د/بدوي طبانة، البيان العربي، ص(٩٤-٥٠).

ينبغي أن تكون إلى مقدار ما حوى من آثار الصنعة من جودة التشبيه، وحسن الاستعارة، وابتكار الصورة التي يتميز صاحبها على غيره من الأدباء بمقدار ما تأنق فيها، وبمقدار ما غالى في إبراز الفكرة على هيئة غير ما عرف الناس.

وهو يبني رأيه في تصنيع الأدب على أن للصنعة أثرها البعيد في خلود الأدب، وفي سهولة حفظه وجريانه على ألسنة الناس والرواة جيلا بعد جيل، ولولاها لاندثر كما يندثر سائر الكلام المنثور، و لم يحفظ ويؤثر إلا ما كساه التصنيع.

ويرى الجاحظ مصداق ذلك أنه قيل لعبد الصمد بن الفضل بن عيسى الرقاشيّ: لم تؤثر السجع على المنثور، وتلزم نفسك القوافي وإقامة الوزن؟ قال: إن كلامي لو كنت لا أؤمل فيه إلا سماع الشاهد لقل خلافي عليك، ولكني أريد الغائب والحاضر، والراهن والغابر، فالحفظ إليه أسرع، والآذان لسماعه أنشط، وهو أحق بالتقييد وبقلة التفلت(١). وما تكلمت به العرب من جيد المنثور أكثر مما تكلمت به من جيد الوزن، فلم يحفظ من المنثور عشره الموزون، ولا ضاع من الموزون عشره.

ثم هو يرى أن المعاني إذا كسيت الألفاظ الجيدة زادت على حقيقة قدرها، ويؤيد ذلك بما نسبه إلى بعض أهل المعرفة من البلغاء "أنذركم حسن الألفاظ، وحلاوة مخارج الكلام، فإن المعنى إذا اكتسى لفظًا حسنًا، وأعاره البليغ مخرجًا سهلا، ومنحه المتكلم دلا متعشقا، صار في قلبك أحلى، ولصدرك أملا، والمعاني إذا كسيت الألفاظ الكريمة، وأكسبت الأوصاف الرفيعة، تحولت في العيون عن مقادير صورها، وأربت على حقائق أقدارها، بقدر ما زينت، وحسب ما زخرفت، فقد صارت الألفاظ في معاني المعارض، وصارت المعاني في معنى الجواري(٢).

وقد عالج الجاحظ في كتابه بعض وسائل هذا التصنيع فذكر "البديع" وذهب إلى أنه مقصور على العرب، ومن أجله فاقت لغتهم كل لغة، وأربت على كل لسان،

---

(١) البيان والتبيين: (٢٨٧/١).

(٢) البيان والتبيين: (٢٥٤/١).

كما أشاد بأصحاب البديع من الشعراء: فالراعى كثير البديع في شعره، وبشار حسن البديع، وليس في المولدين أصوب بديعا من بشار وابن هرمة، والعتابي يذهب شعره في البديع، وعلى ألفاظه وحذوه ومثاله في البديع يقول جميع من يتكلف مثل ذلك من شعراء المولدين، كمنصور النمرى ومسلم بن الوليد وأشباههما(١). وذكر "السجع" في أكثر من موضع من البيان، وأطال في سرد كثير من النصوص المسجوعة والمزدوجة مما أثر عن أمراء البيان(٢)، وخصص بابًا للمزدوج من الكلام"(٣) مثل فيه بقول النبي ﷺ في معاوية: "اللهم علمه الكتاب والحساب وقه العذاب" وقول رجل في تعزية: إنه فرط افترطته، وخير قدمته، وذخر أحرزته. وإجابة المعزى: ولد دفنته وثكل تعجلته، وغيب وعدته، وكان مالك بن الأخطل سمع شعر جرير والفرزدق، فقيل: جرير يغرف من بحر، والفرزدق ينحت من صخر، فأيهما أشعر؟ فقال: الذي يغرف من بحر أشعرهما".

وتكلم في "الاستشهاد بالقرآن الكريم وبالشعر"(٤)، وفي "الألفاظ الغريبة والحوشية(٥) "وفي "الإيجاز" الذي هو كالوحى وكالإشارة و"الإطناب"(٦) و"مراعاة الحالة النفسية للسامعين"(٧)، و"جودة الابتداء المقطع"(٨)، و"الإلغاز"(٩) أورد قول النمر بن تولب:

أعاذلَ إنْ يصبحْ صَداي بقَفْرَةٍ ... بعيدًا نآنى صاحِبى وقَريبى

تَرَىْ أَنَّ ما أبقيتُ لم أكُ ربَّه ... وأن الذى أمضيتُ كانَ نَصيبِي

---

(١) البيان والتبيين: ج١ص٥١ وج٢ س ٦٥ وج٤ س٥٥، ٥٦.

(٢) البيان والتبيين: ج١ ص٢٨٤، ٢٨٧، ٢٩١، ٢٩٧، ٤٠٨ وج٣ ص٦.

(٣) البيان والتبيين: ج١١٧/٢ ص١١٦.

(٤) البيان والتبيين: ج١ ص١١٨ وج٢ ص٦، وج١ ص١١٨.

(٥) البيان والتبيين: ج١ ص١٤٤، ٣٧٧، ٣٧٨، ٣٨، وج٢ ص٢٧٠.

(٦) البيان والتبيين: ج١ ص١٠٧، ١٤٩، ١٥٥، ١٧٦ وج٢ ص٢٧٨، ٢٨١.

(٧) البيان والتبيين: ج١ ص١٠٣، ١٠٤.

(٨) البيان والتبيين: ج١ ص١١٢.

(٩) البيان والتبيين: ج٢ ص١٤٧.

وقال فيه: الصدى هنا "مستعار" أي إن أصبحت أنا[1] وفي قول الشاعر:

طفقت سحابــةٌ تغشاهــا تبكي على عراصها عَيْناهــا

جعل المطر بكاء من السحاب على طريق "الاستعارة" وتسمية الشيء باسم غيره إذا قام مقامه[2] وقال الله عز وجل: ﴿**هذا نُزلهم يومَ الدين**﴾ والعذاب لا يكون نُزلا، ولكن لما قام العذاب لهم في موضع النعيم لغيرهم، سمى باسمه، وقال الشاعر:

فقلتُ أطعمــنى عُميــرُ تمــرًا فكان تمرى كهرةً وزبْرًا

والتمر لا يكون كهرة ولا زبرًا، ولكنه على ذاك[3]. وفيما سماه البلاغيون بعده "التوشيح"، أو الإرصاد أو التسهيم"، وما يشبه "رد أعجاز الكلام على ما تقدمها" عند ابن المعتز يقول الجاحظ: وليكن في صدر كلامك دليل على حاجتك، كمـا أن خـير أبيات الشعر البيت الذي إذا سمعت صدره عرفت قافيته.. ولكل فن صدر يدل علـى عجزه[4]، وذكر "الكناية والتعريض"، وأورد قول شريح: "الحدة كناية عـن الجهـل: "وقول أبي عبيدة: العارضة كناية عن البذاء. وإذا قالوا: فلان مقتصد، فتلك كناية عن البخل وإذا قيل للعامل "مُستقص" فذلك كناية عن الجور.

ورأى أن "الكناية والتعـريض" لا يعمـلان في العقـول عمـل الإفصـاح والكشف[5]، و"ألفاظ المتكلمين" التي تحسن في مثل شعر أبي نواس وفي كل ما قـالوه

---

(١) البيان والتبيين: ج١ ص٢٨٤.

(٢) البيان والتبيين: ج١ ص١٥٣.

(٣) البيان والتبيين: ج١ ص١٥٣ والكهرة: الانتهار، والزبر: الزجر والمنع.

(٤) البيان والتبيين: ج١ ص١١٦.

(٥) البيان والتبيين: ج١ ص١١٧، ٢٦٣.

على وجه التظرف والتملح[١]، و"الهزل يدخل في باب الجدّ"[٢]، وأشار إلى "التقسيم والتفصيل"[٣] حين أورد قول الشاعر:

المرءُ ساعٍ لشيءٍ ليس يُدركُهُ   والعيشُ شحٌّ وإشفاقٌ وتأميلُ

قال: وقد كرر عمر الشطر الثاني متعجبًا من حسن ما قسم وما فصل. ودرس "الاحتراس" بالتمثيل، واستشهد له ببيت طرفة الذي يستشهد به البلاغيون:

فسقى ديارَكِ غيرَ مُفسِدِها   صوبُ الربيعِ وِديمةٌ تَهْمِي

قال: إنه طلب الغيث على قدر الحاجة، لأن الفاضل ضار، وقال النبي ﷺ في دعائه: "اللهم اسقنا سقيا نافعا" لأن المطر ربما جاء في غير إبان الزراعات، وربما جاء والتمر في الجرن والطعام في البيادر، وربما كان في الكثرة مجاوزًا لمقدار الحاجة[٤].

وبهذا الأسلوب ونحوه عرض الجاحظ بعض المصطلحات البلاغية، سواء ما اهتدى إليه منها بفهمه وتقديره، وما نقله عن غيره من العلماء والرواة.

ونلاحظ أن الجاحظ قد عرض لهذه المصطلحات في دلالتها اللغوية والأدبية وهما دلالتان يجيدهما الجاحظ بثقافته ومعرفته، وبذوقه وحسه الفني. وعلى الرغم من أن الجاحظ، قد عني بوضع حدود البلاغة كما تصورها، وكما نقل عن العلماء من العرب والأعاجم، حتى تستبين أمام الدارس معالمها، فإنه لم يعرض هذه المصطلحات عرضًا علميًا منظمًا يلمح فيه الحد والحصر واستيفاء الأقسام، ولكنه عرضها عرضًا أدبيًا كما قدمنا، ومثل لها بأمثلة من الروائع الأدبية التي تهيأت له نظمًا ونثرًا مما يدل عليها.

ومن الإنصاف أن نقرر أنه لم يكن من المتوقع أن يفعل الجاحظ أكثر من هذا الذي عمل، إذا قدرنا أن هذا الموضوع يكتب فيه الجاحظ للمرة الأولى بحثًا مستحدثًا، تراه أشبه بالنظرات أو اللمحات منه بمحاولة تحديد المصطلح العلمي وتجريده، وهي

---

(١) البيان والتبيين: ج١ ص١٣٩-١٤١.

(٢) البيان والتبيين: ج١ ص٩٣.

(٣) البيان والتبيين: ج١ ص٢٤١.

(٤) البيان والتبيين: ج١ ص٢٨٨.

obeikandi.com

لمحات شتى تناولت كما رأينا الأدب من نواحيه المختلفة، كما تناولت الأديب وعوامل نجاحه وإخفاقه، كما تناولت دفاعًا حارًا عن العرب وبيانهم.

ويلاحظ بعد ذلك أن هذه الفنون البلاغية التي ذكرناها، أو التي فاتتنا الإشارة إلى بعضها، لا تختص بالبيان وحده كما حدَّد مباحثه البلاغيون فيما بعد، وإنما فيها من مباحث علومها الثلاثة "البيان والمعاني والبديع" وهكذا كان اسم "البيان" شاملاً لفنونها المختلفة، لتعلقها جميعًا بالبيان، الذي هو المنطق الفصيح، المعرب عما في الضمير[١].

ونستطيع أن نقول إن أهمية ما كتبه الجاحظ لاسيما في كتابه (البيان والتبيين) أنه يعد بمثابة الأصول الأولى أو الروافد التراثية لقضايا البلاغة والنقد الأدبي التي أثيرت بعده.

فقد عرض الجاحظ لملاءمة اللفظ للمعنى، وملائمة الكلام للمقام ولأحوال المستمعين وقد مرت بنا صحيفة بشر التي ذكرها، كما عرض الجاحظ وأشار للنظم إلى كتاب له في "نظم القرآن" ولكنه لم يصل إلينا[٢]. وقد أرجع الجاحظ إعجاز القرآن الكريم إلى نظمه البديع الذي لا يقدر على مثله العباد[٣] ويعد من أخطر القضايا النقدية والبلاغية التي أثارها الجاحظ وأثرت في مسيرة البلاغة العربية تأثيرًا كبيرًا قضية اللفظ والمعنى والمفاضلة بينهما.

وقد تصور كثير من الباحثين خطأ أن الجاحظ يقدم اللفظ على المعني مستندين إلى عبارته: "المعاني مطروحة في الطريق يعرفها العجمي والعربي والبدوي والقروي، وإنما الشأن في إقامة الوزن وتخير اللفظ وسهولة المخرج وكثرة الماء وفي صحة وجودة السبك وإنما الشعر صياغة وضرب من التصوير..."[٤] وحينما نتأمل هذه العبارة لا نجد

---

(١) انظر البيان العربي د/بدوي طبانة – ص٧٣-٧٤ ط ٣ مكتبة الأنجلو..

(٢) حاول الزميل د/ سعد عبد العظيم جمع ما يوجد منه مما تفرق في كتبه في كتاب مستقل له ط مكتبة الزهراء.

(٣) الحيوان ٤/٩٤.

(٤) الحيوان ٣/١٣١.

تقديما للفظ على المعنى وإنما نجد أن المقدم هو النظم: أي اللفظ المسبوك الموزون، المصاغ شعرا يصور به المعنى. أما اللفظ المجرد الذي لم يوضع في نظم فلا مزية له، ويقوى هذا قول الجاحظ في موضع آخر: "ثم اعلم -حفظك الله- أن حكم المعاني خلاف حكم الألفاظ؛ لأن المعاني مبسوطة إلى غير غاية وممتدة إلى غير نهاية؛ وأسماء المعاني مقصورة معدودة ومحصلة محدودة"(١) فهو هنا يقدم المعاني لأنها مبسوطة ممتدة ويؤخر الألفاظ لأنها معدودة محدودة ولكن المعاني المقدمة هنا؟ هي المعاني المركبة، أي إنها هي الصياغة والتصوير والسبك، وليس المراد بها المعاني المجردة واللفظ المؤخر هنا هو اللفظ المجرد، لأنه هو المحدود المعدود أما الألفاظ المنظومة المركبة فهي ممتدة لا نهاية لها فالمزية إذا مرجعها عند الجاحظ إلى النظم. ونستطيع أن نقول إن الجاحظ يفرق هنا بين مستويين من المعني:

المعني الأول: هو ما يمكن أن نعبر عنه بأصل المعني أو المعنى المجرد، وهو ما يرادف الفكر، والخواطر الإنسانية التي يشترك فيها الناس جميعًا كاستحسان الصدق واستقباح الكذب، والفرح بالنور، والنفور من الظلمة، وغير ذلك، فهذه المعاني والأفكار كلها يعرفها العربي والعجمي.. إلخ. وهي من حيث كونها أفكارًا مجردة فهي مطروحة في الطريق، وليس الشأن فيها وإنما الشأن في جمال النظم وروعته، وهو المستوى الثاني من المعني، وهو ما يمكن التعبير عنه بالمعنى، أو النظم، أو الصياغة أو جودة السبك.. إلخ ما عبر به الجاحظ في كلامه.

هذه هي أهم القضايا البلاغية التي عرض لها الجاحظ ولعلنا سوف نتبين أنها أصبحت بعد ذلك عمود البلاغة العربية في دراسات المتأخرين بعده.

---

(١) البيان والتبيين ٧٦/١.

خامسًا: طائفة المفسرين:

لعل من أعظم الطوائف منة وفضلاً على البلاغة العربية هي طائفة المفسرين، وقد كان لهم تأثير كبير في نشأة البحث البلاغي وتطوره.

فمن هؤلاء المفسرين اللغويين في هذا العصر:

الفراء (ت٢٠٧هـ) تحدث الفراء في كتابه "معاني القرآن" عن مسائل بلاغية مختلفة، كالتقديم والتأخير والإيجاز والإطناب والمعاني التي تفيدها بعض الأدوات كأدوات الاستفهام والتشبيه والاستعارة والكناية، وهي إشارات موجزة يقف عليها الناظر في كتابه "معاني القرآن". فنراه مثلا يشير إلى الكناية في الآية الكريمة: ﴿**ولكن لا تواعدوهن سرًا**﴾[البقرة: ٢٣٥] فيقول: "السر في هذا الموضع: النكاح، ثم يرويه عن ابن عباس – رضي الله عنه – وينشد لامرىء القيس:

ألا زعَمَتْ بسباسةُ اليومَ أنَّني كَبِرتُ وألا يشهدَ السِّرَّ أمثالي(١)

ويتحدث عن الاستعارة في قوله تعالى: ﴿**وإنهما لبإمام مبين**﴾[الحجر: ٧٩] فيقول: "بطريق لهم يمرون عليها في أسفارهم فجعل الطريق إمامًا لأنه يؤم ويتبع"(٢).

ويتحدث عن إفادة الاستفهام لغير طلب الفهم في الآية الكريمة: ﴿**كَيْفَ تكْفرون بالله وكنتم أمْوَاتًا فأحْياكمْ**﴾[البقرة: ٢٨]. فيقول: "وقوله: "كيف تكفرون".. على وجه التعجب والتوبيخ لا على الاستفهام المحض أي: ويحكم كيف تكفرون؟"(٣).

وهذه إشارة دقيقة لو تنبه لها البلاغيون المتأخرون ما تعبوا وأتعبوا، فقد قالوا: إن إفادة الاستفهام لمعانيه البلاغية عن طريق المجاز، ثم راحوا يلتمسون العلاقات بين طلب الفهم وبين المعاني البلاغية كالإنكار والتعجب والتهكم والوعيد والتقرير. وقد

---

(١) معاني القرآن ١/١٥٣.

(٢) معاني القرآن ٢/٩١.

(٣) معاني القرآن ١/٢٣.

تعبوا كثيرًا في الوصول إلى علاقات مناسبة لا تسمن ولا تغنى، ولا تفيد الدارس شيئًا، وكانوا في غنى عن هذا التعب لو أنهم تنبهوا لإشارة الفراء إلى أن تلك المعاني دخلت الاستفهام وشابته فأفادها بالإضافة إلى إفادة طلب الفهم، وصار بإفادته إياها استفهامًا غير محض(١).

أبو عبيدة (ت٢٠٨هـ): ألف أبو عبيدة كتابه "مجاز القرآن" بسبب مسألة تتعلق بالتشبيه إذ سأله سائل في مجلس الفضل بن الربيع عن التشبيه في قوله تعالى: ﴿**طَلْعها كأنه رءوس الشياطين**﴾[الصافات: ٦٥]، فقال: إنما يقع الوعد والإيعاد بما قد عرف مثله وهذا لم يعرف، فأجاب أبو عبيدة، إنما كلم الله تعالى العرب على قدر كلامهم، أما سمعت قول امرىء القيس:

أيقتُلني والمشرفيُّ مُضاجِعي ومسنونةٌ زرقٌ كأنيابِ أغوالِ

وهم لم يروا الغول قط، ولكنهم لما كان أمر الغول يهولهم أوعدوا به(٢)، والمجاز عند أبي عبيدة لا يراد به المجاز الاصطلاحي المقابل للحقيقة، وإنما يراد به المعنى اللغوي لكلمة "مجاز" فهي مصدر ميمي أو اسم من جاز يقال: جاز الطريق وجاز مجازا إذا عبر. فالمراد إذا بمجاز القرآن: التفسير وبيان الطرق التي يسلكها القرآن في التعبير عن المعاني أو قل إن المراد بالمجاز عنده: هو ما تؤول إليه الألفاظ من المعاني وهذا وإن لم يكن هو المجاز الاصطلاحي فإنه يدخل فيه كثير من صور هذا المجاز. وقد أشار أبو عبيدة إلى هذا المراد حيث يقول في الآية الكريمة: ﴿**إن علينا جمعه وقرآنه**﴾[القيامة: ١٧]: مجازه تأليف بعضه إلى بعض، ثم قال:﴿**فإذا قرأناه فاتبعْ قرآنه**﴾: مجازه فإذا ألفنا منه شيئا فضممناه إليك فخذ به واعمل به وضمه إليك"(٣). وفي أثناء تفسيره للآيات الكريمة تحدث عما فيها من استعارة وتشبيه وكناية وتقديم وتأخير وحذف وتكرار،

---

(١) د/ بسيوني عبد الفتاح، علم البديع ص(٢٣).

(٢) نزهة الأدباء (٧٠).

(٣) مجاز القرآن: (١١).

كما أشار إلى الصورة العامة للالتفات وإن لم يسمعه بهذه التسمية إذ يقول: "ومن مجاز ما جاءت مخاطبته مخاطبة الشاهد ثم تركت وحولت مخاطبته هذه إلى مخاطبة الغائب قوله تعالى:﴿**حتى إذا كنتم في الفلك وجرين بهم**﴾[يونس: ٢٢]. أي: بكم"(١).

كل هذا يدلنا على أن كلمة المجاز لديه وإن لم تكن مساوية للمعنى الاصطلاحي فإنها أوسع منه بحيث تشمله وغيره.

إذا كانت الطوائف السابقة لاسيما طائفة المتكلمين قد وضعوا أسس البلاغة النظرية، فإننا نستطيع أن نقرر أن المفسرين هم الذين وضعوا أسس البلاغة التطبيقية، من خلال التطبيق على أرفع وأسمى نموذج لغوى ألا وهو القرآن الكريم.

ونستطيع هنا أن نقرر أنه إذا كان لنا أن نفاضل بين الاتجاهين النظري والتطبيقي، فإننا نقرر مطمئنين أن الاتجاه التطبيقي في الدرس البلاغي كان أجدى وأنفع وأثمر للبلاغة من الدرس النظري لأمور كثيرة:

أولها: الاقتراب من النصوص؛ مما يساعد على التوصل إلى نتائج يؤيدها الواقع اللغوي.

ثانيًا: الابتعاد عن كثرة التقسيمات والتفريعات التي تولدت نتيجة القسمة المنطقية العقلية التي لا يؤيدها الواقع اللغوي.

ثالثًا: روعة التحليل، وجمال التعبير، وأدبية المعالجة وذلك بطبيعة المنهج التحليلي للنصوص.

رابعًا: الارتباط بالنص الخالد الذي لا يغير ولا يبدل ولا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، ومن ثم فإن البلاغة المرتبطة بالقرآن الكريم سوف تبقي ببقائه إلى آخر الدهر.

---

(١) مجاز القرآن: (١١).

خامسًا: الثراء الدلالي والفني والمضي قدمًا إلى ما لا نهاية في مجال استنباط المعاني الفنية، والوقوف على روعة التصوير، والتزيين فيما اشتمل عليه الكتاب العزيز من فنون بيانية وبديعية عديدة.

سادسًا: تحقيق التكامل والتفاعل بين علوم اللغة كافة في تحليل النصوص والوقوف على دلالاتها. ونستطيع أن نعد في المقابل مثالب البلاغة النظرية متمثلة في:

١- الابتعاد عن النصوص، ومن ثم عدم التوصل إلى نتائج صحيحة.

٢- التورط في القسمة المنطقية والافتراضات العقلية البعيدة عن الواقع اللغوي.

٣- اقتضاب التحليل، وجفاف التعبير، وصعوبة المعالجة وذلك بطبيعة المنهج التقعيدي.

٤- الوصول إلى طريق مسدود، وغاية محدودة، وذلك لأن القسمة المنطقية محدودة، للأبواب والمسائل والقضايا، وهذا هو الواقع المشاهد إذ وقفت البلاغة العربية عندما انتهى إليه السكاكي بعقليته المنطقية الفذة في حصر أبواب البلاغة العربية ومسائلها فلم يستطع أحد من الباحثين بعده أن يزيد على ما أجمله السكاكي شيئًا ذا بال.

٥- الفصل بين البلاغة وغيرها من علوم العربية في حين أنها لا تتوصل إلى نتائجها مستقلة عن العلوم الأخرى التي هي بمثابة الأدوات المعينة لها.

٦- عدم مواكبة الأساليب العصرية المستحدثة، ومن ثم تتلاشى الطريقة التقعيدية القديمة، أو يتم استحداث قواعد بلاغية جديدة تتناسب مع اللغة العصرية الجديدة، وهذا هو ما جعل الأصوات ترتفع لتنادى ببلاغة عصرية جديدة تواكب العصر، بعدما استقصى على هؤلاء الباحثين معالجة وتحليل النصوص الأدبية المعاصرة بتلك القواعد البلاغية القديمة البالية في نظرهم.

وسوف نعود لهذه النقطة في نهاية البحث؛ لنسجل فيها تصورنا للمخرج من هذه الأزمة المعاصرة.

ونستطيع أن نقرر هنا على سبيل الإيجاز أن المخرج إنما يتمثل في العودة إلى البلاغة السائدة في النص المدروس بحيث لا تفرض عليه قواعد خارجة عنه.

فإذا كنا نؤمن باختلاف الأذواق اللغوية باختلاف البيئات والعصور، ونؤمن بأن التطور الواقع في المجتمع في مختلف مناحيه السياسية والاقتصادية والاجتماعية وغير ذلك لابد أن يؤثر على الواقع اللغوي ويؤدي إلى تطوره، كما وقفنا على شيء من ذلك عند الحديث عن نشأة البلاغة في العصر العباسي، وأثر الطفرة الحضارية التي حدثت في هذا العصر على الواقع اللغوي.

فأقول: إذا كنا نؤمن بوقوع ذلك التطور اللغوي فإن محاولة فرض مجموعة من القواعد الفنية التي أوحي بها الذوق في عصر بعينه في بيئة بعينها على الواقع اللغوي في سائر العصور والبيئات بعده، أقول: إن هذه المحاولة لا تعدو أن تكون نوعًا من العبث تثير سخرية الناس واستهزائهم بتلك القواعد والتنكر لها، واتهامها بالفساد والبطلان حتى في واقعها اللغوي السابق، وهذا فيه ظلم لتلك القواعد، بقدر ما فيه من ظلم للواقع الجديد الذي نحاول فرضها عليه.

ونرجئ الحديث عن هذه القضية إلى حينها لنرجع إلى ما نحن بصدده، وهو تقرير الأفضلية لطائفة المفسرين بطريقتهم التطبيقية التحليلية في الدرس البلاغي خاصة، والدرس اللغوي بعامة.

أحوجنا إلى الإطالة في هذه النقطة ما رأيته من تهوين طائفة من الباحثين لتأثير ذلك العامل المهم في نشأة البلاغة ألا وهو جهود طائفة المفسرين.

وهؤلاء الباحثون جميعًا لا ينكرون صلة البلاغة بالتفسير ولا جهود المفسرين وتأثيرها في تطور البلاغة في مراحلها التالية، ولكنهم يهونون من دور هؤلاء المفسرين في مرحلة النشأة وحدها.

وفي هذا الصدد يقول أستاذنا الجليل أ.د / علي عشري: "أما علم التفسير فقد كانت صلته بالبلاغة أسبق من صلة علم الكلام بها، وإن كان تأثيره على نشأة البلاغة وتطورها لم يكن في قوة تأثير علم الكلام، على الرغم من أن صلة علم التفسير بالبلاغة أكثر منطقية – كما سبقت الإشارة إلى ذلك – من صلة علم الكلام بها.

ورغم أنه يقرر أن صلة البلاغة قد بدأت بعلم التفسير منذ نشأة المحاولات الأولى لعلم التفسير، فقد كانت هذه المحاولات هي أول مؤلفات اشتملت على ملاحظات بلاغية ذات شأن، فكتاب "مجاز القرآن" لأبي عبيدة معمر بن المثنى (٢١٠هـ) وهو من المحاولات الأولى في مجال تفسير القرآن معدود من المؤلفات الأولى التي حوت بعض الآراء والأفكار البلاغية ذات القيمة.

ويأخذنا العجب من إقرار أستاذنا بقيمة تلك الملاحظات البلاغية ووصفه لها بأنها ذات شأن، وأن كتاب أبي عبيدة يعد أول كتاب في علم البلاغة، ثم إذا هو يهون من شأن تلك الجهود في نشأة البلاغة، ويقدم عليها جهود المتكلمين في ذلك العصر.

وكما سبق أن قلت: إننا إذا اعتبرنا جهود المتكلمين في هذا العصر أمثال بشر ابن المعتمر والجاحظ وغيرهما هي النواة الأولى للدرس النظري لعلوم البلاغة؛ فإننا نقرر أن ما كتبه الفراء والأخفش وأبو عبيدة وغيرهم حول القرآن في هذه المرحلة يعد هو الأساس الأول للدراسات البلاغية التطبيقية التي نرى أنها هي المنهج الذي سيكتب له الخلود، بخلود النص القرآني الذي قد اقترن به.

سمات التدوين البلاغي في هذه المرحلة

يمكننا أن نجمل سمات التدوين البلاغي في هذه المرحلة في النقاط الآتية:

١-عدم التبويب.

٢-اضطراب مدلولات المصطلحات.

٣-اختلاط القضايا البلاغية بموضوعات العلوم الأخرى.

٤-عدم تميز علوم البلاغة الثلاثة بعضها عن بعض.

ويرى باحث كبير أن هذه السمات كلها يمكن أن تندرج تحت عنوان أساسي واحد هو (غياب المنهج العلمي)[١]

وبالنسبة للسمة الأولى وهي:

١-عدم التبويب: فإننا نتفق مع ما قرره أستاذنا / على عشري في ذلك حيث يؤكد أن المؤلفات البلاغية في تلك المرحلة لم تعرف التبويب العلمي الدقيق الذي هو أبرز خصائص المنهج العلمي، وإنما كان طابعها الخلط والاستطراد الذي يخرج بالقارئ عن الخط الأساسي الذي يعالجه المؤلف إلى موضوعات وقضايا فرعية أخري لا تمت إلى الموضوع المطروح بكبير صلة، ويضل القارئ وسط هذه الاستطرادات الكثيرة العثور على الخيط الأساسي في فكرة المؤلف.

إلى جانب هذا الاستطراد والخروج عن الموضوع الأصلي كان المؤلف يبعثر الحديث عن القضية الواحدة أو الفكرة الواحدة في أكثر من موضع من مواضع الكتاب مما يجهد القارئ في لم شتات تلك الفكرة وجمع أجزائها المتناثرة. كما كان المؤلف أحيانًا يكرر الفكرة الواحدة في أكثر من موضع من مواضع الكتاب بدون مبرر منهجي واضح.

---

(١) انظر: د/ علي عشري زايد، البلاغة العربية ص(٣٥).

وأخيرًا لم يكن هناك ترابط علمي بين فصول تلك الكتب وأبوابها، مما يفقدها وحدتها العلمية.

وقد كانت ظاهرة عدم التبويب العلمي بصورها المتعددة تلك شركة بين مؤلفات تلك المرحلة، لم يكد يخلو منها كتاب، ولكنها كانت أكثر بروزا في مؤلفات الجاحظ. حتى لتكاد هذه المؤلفات تكون عنوانًا صارخًا على تلك الظاهرة، فعلى الرغم من أن كتابيه الكبيرين "البيان والتبيين" و "الحيوان" من أهم المؤلفات البلاغية في تلك المرحلة – بل لعلهما أهمها على الإطلاق – فإن افتقار الكتابين إلى التبويب العلمي الدقيق يجعل الإفادة الكاملة منهما على قدر كبير من الصعوبة والعسر، ويقتضي قارئهما بذل الكثير من الجهد في سبيل استخلاص آراء الجاحظ المبعثرة بدون تنسيق خلال الكتابين إذ "إن من يحاول الاهتداء إلى آراء الجاحظ من كتبه، عليه أن يستوعب تلك الكتب من أولها إلى آخرها وسيجد حتمًا كثيرًا من العنت حتى يوفق إلى ما يريد ويستطيع أن يجمع تلك الأفكار المشتتة، ويضم الإلف منها إلى إلفه حتى تتضح له الفكرة المبثوثة في مواضع متفرقة، وحينئذ وبعد هذا العناء يستطيع أن يقف على الجاحظ، وأن يحكم على أفكاره، وأن يحلها ما هي جديرة به من المنازل"(١).

ولقد فطن العلماء منذ وقت مبكر إلى تفشى هذه الظاهرة في كتابات الجاحظ، حتى أولئك الذين لم تنج كتبهم منها، وإن لم يكن بمثل وضوحها في كتب الجاحظ، مثل أبي هلال العسكري الذي أشار في مقدمة "الصناعتين" إلى أن وجود هذه الظاهرة في "البيان والتبيين" كان من بين الأسباب التي دفعته إلى تأليف كتابه؛ فمع أن كتاب "البيان والتبيين" في رأيه كتاب كثير الفوائد، جم المنافع، لما اشتمل عليه من الفصول الشريفة والفقر اللطيفة.. إلا أن الإبانة عن حدود البلاغة وأقسام البيان

---

(١) د. بدوي طبانة: دراسات في نقد الأدب العربي. الطبعة الخامسة مكتبة الأنجلو المصرية: ص(١٨٠).

والفصاحة مبثوثة في تضاعيفه، ومنتشرة في أثنائه، فهي ضالة بين الأمثلة لا توجد إلا بالتأمل الطويل. والتصفح الكثير"(١).

بل إن الجاحظ نفسه أدرك هذه الظاهرة في تآليفه، وحاول أن يدافع عنها في كتابه "الحيوان" بأنه "لما قال الخليل بن أحمد لا يصل أحد من علم النحو إلى ما يحتاج إليه حتى يتعلم ما لا يحتاج إليه.

قال أبو شمر:إذا كان لا يتوصل إلى ما يحتاج إليه إلا بما لا يحتاج إليه فقد صار مالا يحتاج إليه يحتاج إليه، وذلك مثل كتابنا هذا؛ لأنه إن حملنا جميع من يتكلف قراءة هذا الكتاب على الحق، وصعوبة الجد، وثقل المئونة، وحيلة الوقار لم يصبر عليه مع طوله إلا من تجرد للعلم وفهم معناه، وذاق ثمرته"... إلخ(٢).

على أن هذا التبرير يحمل من روح الدعابة والسخرية التي جبل عليها الجاحظ أكثر مما يحمل من الموضوعية والقدرة على الإقناع. ولعل التبرير الأكثر إقناعًا يكمن في طبيعة الجاحظ الموسوعية حيث كان رجلاً متعدد الثقافات والمعارف والاهتمامات العلمية، فكانت موسوعيته تغلبه فلا يستطيع لها كبحًا. هذا بالإضافة إلى ما سبق الإشارة إليه من طبيعة العصر ذاته من حيث المستوى العلمي، إذ أن معظم العلوم العربية الإسلامية كانت ما تزال تخطو خطواتها الأولي تتلمس طريقها نحو النضج والتبلور، فكان طبيعيا أن تكون المحاولات الأولى على هذا النحو من الاختلاط وعدم التحدد.

وإذا كانت كتب الجاحظ هي العنوان البارز على تلك السمة من سمات غياب المنهج العلمي فإنها لم تنفرد بها، وإنما أخذت كل مؤلفات المرحلة بحظها منها، وإن تفاوتت تلك الحظوظ(٣).

---

(١) أبو هلال العسكري: "الصناعتين" تحقيق الأستاذين على محمد البجاوى ومحمد أبو الفضل، الطبعة الثانية، مطبعة الحلبي، القاهرة سنة ١٩٧١: ص(١١).

(٢) الجاحظ: "الحيوان" تحقيق الأستاذ عبد السلام هارون: مطبعة الحلبي ١٩٣٨ م: (١/٢٧، ٣٨)، وانظر د بدوي طبانة: دراسات في نقد الأدب العربي: ص(١٨٢).

(٣) د/علي عشري للبلاغة العربية ص(٣٨).

ونحن مع موافقتنا التامة لرأي أستاذنا في هذه النقطة، فإننا نقرر هنا أن هذه الطريقة التي اتبعت في التأليف في هذه العصر لم يكن في الإمكان أبدع منها وقتئذ إذ إن طبيعة العصر تحتمها، وهكذا يكون الأمر بالنسبة لمن يغامر ويخاطر في التصنيف في أي علم أو موضوع لم يسبق إليه، فإنه لا يكون لديه إلا خواطر وفكر يبثها كلما سنحت له، ولعل هذا قد نشأ من عدم فصلهم بين البلاغة وأخواتها من علوم العربية آنذاك، وهذا في حد ذاته محمود لدينا؛ وذلك لأن بداية نضوب البحث البلاغي وجفافه وانقطاعه إنما حدثت منذ استقل البحث البلاغي عما سواه من علوم العربية.

٢- اضطراب مدلول المصطلحات:

ترددت في كتب المؤلفين في تلك المرحلة عدد كبير من المصطلحات البلاغية التي اعتمدها البلاغيون من بعدهم، من هذه المصطلحات: (البلاغة) و(الفصاحة) و(البيان) و(البديع) و(المجاز) و(الكناية) و(التشبيه) و(الاستعارة) و(الإيجاز) و(الإطناب).

ويرى د/ عشري أنهم لم يكونوا يستخدمون تلك المصطلحات بمدلولات علمية خاصة، على نحو ما تحدد لها فيما بعد من مدلولات، وإنما كانت تدور في مؤلفاتهم بمدلولات عامة أقرب ما تكون إلى دلالتها اللغوية الوضعية، أي أن هذه الكلمات كانت بالنسبة لهم مفردات لغوية عادية أكثر منها مصطلحات بلاغية ذات مدلول علمي محدد، وإن كان بعضهم قد حاول أن يضفي على بعض هذه الكلمات نوعا من الدلالة الخاصة، التي تبتعد به قليلا عن دلالته اللغوية، غير أن هذه المحاولات كانت جهودا فردية لم يقدر لها أن تنال حظا من الاتفاق والذيوع يرقى بها إلى مستوى المصطلح العلمي، وعلى هذا فقد ظلت هذه المصطلحات في تلك المرحلة مضطربة الدلالة، يختلف مدلولها ما بين مؤلف وآخر، بل يختلف لدى المؤلف الواحد وفي الكتاب الواحد ما بين موضع وآخر.

ومن الملاحظ أن مدلولات المصطلحات العامة الأساسية في العلم كمصطلح "البلاغة" ذاته الذي أصبح فيما بعد عنوانًا على العلم كله -ومصطلحى "البيان" و"البديع"

اللذين أصبحا بدورهما عنوانين على فرعين من فروعه الثلاثة الأساسية- كانت أكثر اضطرابًا وعمومية من المصطلحات الجزئية، كمصطلحات: "التشبيه" و"الإيجاز" و"الإطناب" مثلاً، فهذه الأخيرة كانت تستعمل في مدلولات شديدة القرب من مدلولاتها البلاغية التي تحددت لها فيما بعد، وإن لم تكن هي نفس هذه المدلولات بالتحديد. أما المصطلحات الثلاثة الأولى، ويمكن أن نضيف إليها مصطلح "المجاز" فقد كانت على قدر كبير من العمومية والاضطراب، وقد رأينا منذ قليل اضطراب مدلول مصطلح "المجاز" عند أبي عبيدة، على الرغم من أنه كان عنوانًا لكتابه.

أما مصطلح "البلاغة" فقد أورد له الجاحظ عددًا من المدلولات المختلفة، كلها بعيدة عن مدلوله الذي استقر له فيما بعد.

و لم يكن مصطلح "البيان" بأسعد حظا من زميله "البلاغة" من حيث اضطراب مفهومه وعدم تحدده، على الرغم من أن الجاحظ قد جعله عنوانًا على كتابه الشهير "البيان والتبيين". والبيان في عنوان الكتاب وفي الفصل الذي عقده الجاحظ في الكتاب تحت عنوان "البيان" ليس مقصودًا به المدلول البلاغي الدقيق للمصطلح أي "معرفة كيفية إبراز المعنى الواحد في صور متفاوتة المعنى في وضوح الدلالة على هذا المعنى، وإنما مقصود به معناه اللغوى الشامل أي ما يرادف الوضوح والظهور والكشف، وهو بهذا المعنى أعم من مصطلح "البلاغة" ذاته، الذي أصبح "البيان" بمدلوله البلاغي فرعًا من فروعه فيما بعد، وهو أعم من هذا المصطلح حتى بدلالته اللغوية العامة التي استعمله بها الجاحظ، لأن البلاغة حتى بهذا المفهوم الواسع عند الجاحظ محصورة في إطار الكلام البليغ، أما البيان فهو عنده "اسم جامع لكل شيء كشف لك قناع المعنى، وهتك الحجاب دون الضمير حتى يفضى السامع إلى حقيقته ويهجم على محصوله كائنًا ما كان ذلك البيان ومن أي جنس كان ذلك الدليل، لأن مدار الأمر والغاية التي يجرى إليها القائل والسامع إنما هو الفهم والإفهام فبأى شيء بلغت الإفهام وأوضحت عن المعنى. فذلك هو البيان في ذلك الموضع"[1].

---

(١) البيان والتبيين: (١/٧٦).

ويحدد الجاحظ أنواع الدلالة الموصلة إلى البيان والكشف ويحصرها في خمسة أشياء:

(١) اللفظ.

(٢) الإشارة.

(٣) العقد.

(٤) الخط.

(٥) دلالة الحال (النصبة)[١].

وواضح من هذا التقسيم أن مفهوم البيان عند الجاحظ أوسع كثيرًا من مفهومه البلاغي الدقيق المحصور في إطار فرع من فروع البلاغة الثلاثة، بل أوسع حتى من الكلام بليغًا كان أو غير بليغ، إذ إن نوعين فقط من بين أنواع الدلالة الخمسة هما اللذان يتصلان بالكلام، وهما دلالة اللفظ ودلالة الخط، أما الثلاثة الباقية فلا صلة لها بالكلام أساسا فضلا عن الكلام البليغ، ومن هنا يتضح لنا مدى اضطراب دلالة مصطلح "البيان" عند الجاحظ، الذي كان أكثر مؤلفى المرحلة اهتمامًا بهذا المصطلح وسعيًا وراء تحديد مدلوله.

أما مصطلح "البديع" الذي سيصبح في المرحلة التالية على امتداد حقبة طويلة من تاريخ البلاغة العربية أهم المصطلحات البلاغية وأكثرها شيوعًا – فإنه لم يلق في هذه المرحلة مثل حظ مصطلحى "البلاغة" و"البيان" من الرواج وحفاوة العلماء والمؤلفين.

ولعل الجاحظ كان أول من اعتنى بالبديع وصوره، وأطلقه على فنون البلاغة المختلفة.. ولكنه لم يعرفه أو يشر إلى فنونه، بل كان يطلق هذا المصطلح إطلاقًا[٢].

---

(١) السابق ص(٧٦) وما بعدها، و"الحيوان" تحقيق الأستاذ عبد السلام هارون طبعة الحلبي. القاهرة ١٩٣٨: (١/٤٥).

(٢) د/أحمد مطلوب: مصطلحات بلاغية: ص(٨٢).

وقد تردد المصطلح مرات معدودة في كتاب "البيان والتبيين" والجاحظ يستعمل المصطلح بمعنى قريب من دلالته اللغوية، أي بما يرادف الجدة والطرافة والبراعة، وإن كان يستعمله في سياق يوحي بأنه يقصره على الأساليب الجديدة والطريفة في الشعر، فمرة يذهب في سياق حديثه عن كلثوم بن عمرو العتابي إلى أنه "على ألفاظه وحذوه ومثاله في البديع يقول جميع من يتكلف مثل ذلك من شعراء المولدين كنحو منصور النمرى ومسلم بن الوليد الأنصارى وأشباههما، وكان العتابي يحتذى حذو بشار في البديع، ولم يكن في المولدين أصوب بديعًا من بشار وابن هرمة"(١).

ومرة أخرى في سياق تعليقه على أبيات الأشهب بن رميلة التي بينها بيته المشهور:

هُم ساعدُ الدّهرِ الذي يُتقَّى بِه وما خير كفّ لا تنوءُ بساعدِ

يقول: قوله "هم ساعد الدهر" إنما هو مثل، وهذا الذي تسميه الرواة البديع، وقد قال الراعي:

هُم كاهلُ الدّهر الذيُ يتقَّى بِه ومنكبةُ إن كانَ للدهّرِ منكبُ

وقد جاء في الحديث "مُوسَى اللهِ أَحَدُّ وساعِدُ اللهِ أشدُّ"(٢).

وهو مرة ثالثة – في نفس الموطن السابق – يذهب إلى أن "البديع" مقصور على العرب، ومن أجله فاقت لغتهم كل لغة، وأربت على كل لسان"(٣).

ومرة رابعة – وفي نفس الموطن أيضًا – يحدد طابع كل شاعر من رواد البديع الأوائل؛ فـ "الراعى كثير البديع في شعره، وبشار حسن البديع، والعتابي يذهب شعره في البديع"(٤).

---

(١) البيان والتبيين: (٥١/١).

(٢) السابق: (٥٥/٤)، والحديث أخرجه أحمد في المسند (٤٧٣/٣) مطولا من حديث أبي الأحوص، وذكره الهيثمي في "المجمع" (١٣٣/٥) مختصرًا، وقال: "رواه الطبراني في الصغير ورجاله رجال الصحيح".

(٣) السابق: ص(٥٥، ٥٦).

(٤) البيان والتبيين: ص(٥٦).

وهكذا نجد الجاحظ في كل هذه السياقات يحصر البديع في نطاق الشعر الجديد الطريف؛ وإن كان لم يحدد خصائص هذا البديع وحدوده، ولم يضع مفهومًا واضحًا للمصطلح، مما يجعله مشاركًا لمصطلحي "البلاغة" و"البيان" – ولغالبية المصطلحات البلاغية في تلك المرحلة – في غموض مفهومه واضطرابه(١).

ولنا على ما ذكره أستاذنا في هذا الموضع بعض الآراء:

أولاً: لا يجوز لنا أن نجعل ما انتهى إليه المتأخرون من المعاني الاصطلاحية لهذه المصطلحات البلاغية معيارًا يحكم به على مدلولات تلك المصطلحات لدى المتقدمين بالصواب والخطأ، وذلك لأن هؤلاء المتقدمين قد وسعوا في مدلولات تلك المصطلحات نظرًا لعدم تعدد المصطلحات وكثرتها، وعدم ميلهم إلى التقسيم والتشقيق والتفريع الذي ولع به المتأخرون.

ثانيًا: إذا كنا نعيبُ على المتأخرين تقسيمهم البلاغة إلى علوم ثلاثة هي: المعاني والبيان والبديع مع مصطلح رابع جعلوه مغايرًا لها وهو الفصاحة التي جعلوها مقدمة للبلاغة.

أقول إذا كنا نعيب ذلك عليهم، فمقتضى ذلك هو موافقة المتقدمين في جعل تلك المصطلحات جميعا كالألفاظ المترادفة وهذا هو ما ذهب إليه عبد القاهر الجرجاني وهو مَنْ هو مِنْ حيث التقدم والإمامة في هذا العلم، وقد سبق بيان ذلك ونقله عنه.

ثالثًا: وبالنسبة لمصطلح البلاغة فنحن لا نوافق أستاذنا على أن ما أورده الجاحظ من معاني البلاغة كانت كلها بعيدة عن مدلوله الذي استقر له فيما بعد.

وقد سبق أن ذكرنا جملة من تلك التعريفات وبينا أنها وإن لم يكن كل تعريف منها صالحا بمفرده لتعريف البلاغة، فإن كل واحد منها كان يمثل أبواب البلاغة أو أهم أسسها التي اتفق عليها البلاغيون فيما بعد.

---

(١) د/ على عشري: البلاغة العربية ص(٤٣).

رابعًا: وبالنسبة لمصطلح البيان فإننا نقرر أن الجاحظ وإن كان قد استخدمه استخداما أوسع من مدلوله الذي استقر عليه عند المتأخرين، فإننا لا يجوز لنا أن نلزمه بتعريف المتأخرين له: كما أن هذا التعريف للمتأخرين ليس مسلما لهم على الإطلاق، ولا محل اتفاق، بل إن وجهة النظر المعاصرة تتبرأ من هذا التقسيم الثلاثي للبلاغة على الجملة.

وإذا كان الجاحظ قد استخدم مصطلح البيان بدلالته المشتركة التي سبق بيانه لها، فإننا لا نعيب ذلك عليه ما دام قد أبقى للبلاغة مصطلحًا خاصًا بها لا يخلط فيها بينها وبين غيرها من العلوم ألا وهو مصطلح البلاغة، فقد نجا من مثل ذلك الاشتراك أو الاضطراب في مدلول مصطلح البيان.

خامسًا: وما قررناه هنا بالنسبة لمصطلح البيان هو ما نقرره بالنسبة لمصطلح البديع، فلا يجوز إلزام الجاحظ بمدلول المتأخرين له، على أن الواضح في استخدام الجاحظ لمصطلح البديع أنه قد استخدمه مرادفا للبلاغة بما دخل عليها من تطور وصنعة في عصره.

٣- امتزاج القضايا البلاغية بقضايا العلوم الأخرى:

يرى أستاذنا أن القضايا البلاغية في هذه المرحلة قد امتزجت بموضوعات العلوم الأخرى التي نشأت البلاغة على هامشها، وأن يكون هذا الامتزاج سمة من أبرز سمات الكتابة البلاغية في تلك المرحلة، وقد ساعد على بروز هذه السمة في مؤلفات تلك المرحلة عاملان بارزان:

أولهما: أن العلوم العربية والإسلامية التي نشأت البلاغة على هامشها لم تكن هي ذاتها قد تبلورت لها معالم واضحة محددة، على الرغم من أن بعضها كان قد تجاوز مرحلة البداية بقليل، ولكن حتى في تلك المرحلة من حياة العلوم تختلط قضايا العلم بقضايا العلوم الأخرى، حيث لا تكون حدوده على قدر من الصلابة يحول دون تسرب موضوعات العلوم الأخرى ومباحثها، ومن ثم فقد تداخلت حدود هذه العلوم وتشابكت إلى الحد الذي يندر معه العثور على كتاب خالص لعلم من العلوم في تلك

المرحلة، وقد رأينا كيف كانت تتشابك في الكتاب الواحد قضايا علوم عدة، بصورة تجعل مؤرخي كل علم من هذه العلوم يعدون هذا الكتاب من بين كتب العلم الذي يؤرخون له، والمثال البارز لذلك كتاب "مجاز القرآن" لأبي عبيدة، حيث يعده علماء التفسير كتاب تفسير، ويعده اللغويون كتاب لغة، ويعده مؤرخو البلاغة كتاب بلاغة، والذي ساعد على توزع الكتاب بين هذه العلوم الثلاثة أن أيا منها لم يكن قد بلغ مرحلة النضج والتبلور النهائي، وإنما كانت كلها في مرحلة البداية أو تجاوزتها بقليل.

العامل الثاني: أن علماء تلك المرحلة كانوا علماء موسوعيين، لم يكن الواحد منهم يحصر نفسه في دائرة معرفة واحدة لا يتجاوزها، وإنما كانت تتعدد معارفهم وتتنوع ثقافاتهم، الأمر الذي ترتب عليه عدم وجود المؤلف المتخصص في البلاغة، أو في أي علم من العلوم، فكان المؤلف البلاغي مثلا متكلمًا أو ناقدًا أو لغويًا... وقد يكون هذه الأشياء كلها؛ فمؤلف كالجاحظ مثلاً كان أديبًا ومؤرخًا للأدب، وناقدًا ومتكلمًا تنسب إليه فرقة من فرق المعتزلة هي فرقة الجاحظية. وما يقال عن الجاحظ يقال عن مثله عن أبي عبيدة وثعلب والفراء وغيرهم ممن وضعوا اللبنات الأولى في صرح البلاغة العربية. حيث كان هؤلاء جميعًا لغويين ونقادًا ومؤلفين في العلوم القرآنية قبل أن يكونوا بلاغيين،ونتيجة لتعدد ثقافات هؤلاء العلماء وتنوعها واختلاطها كانت هذه الثقافات المتنوعة تنعكس على كتاباتهم فتتسلل قضايا كل علم من هذه العلوم إلى مؤلفات العلوم الأخرى.

ولقد كانت أبرز العلوم التي امتزجت قضاياها بقضايا البلاغة علوم المجموعات الثلاث التي نشأت البلاغة على هامشها، وهي مجموعة العلوم القرآنية، ومجموعة العلوم اللغوية، ومجموعة العلوم الأدبية، وقد رأينا مدى امتزاج قضايا البلاغة بقضايا المجموعتين الأوليين في "مجاز القرآن". أما امتزاج القضايا البلاغية بموضوعات العلوم الأدبية فلعل مثالها البارز كتاب الجاحظ "البيان والتبيين" الذي يعد موسوعة أدبية ضخمة حوت الكثير من الأفكار والآراء النقدية والبلاغية، ومن النصوص الأدبية وتراجم كبار الأدباء والكتاب وأخبارهم. وقد امتزجت القضايا البلاغية بقضايا الأدب والنقد في هذا

الكتاب إلى الحد الذي جعل أبا هلال العسكرى يعتبر هذا الخلط في كتاب الجاحظ سببًا من أسباب تأليف كتابه " الصناعتين" الذي يقول في مقدمته بعد أن يشيد بكتاب الجاحظ وبقيمته العلمية "إلا أن الإبانة عن حدود البلاغة وأقسام البيان والفصاحة مبثوثة في تضاعيفه ومنتشرة في أثنائه، فهي ضالة بين الأمثلة لا توجد إلا بالتأمل الطويل والتصفح الكثير، فرأيت أن اعمل كتابي هذا..."(١) إلخ.

و لم يكن اختلاط قضايا البلاغة بقضايا العلوم الأخرى مقصورًا على مؤلفات العلوم القرآنية والعلوم اللغوية والعلوم الأدبية – وإن كان أكثر شيوعًا بينها – وإنما تجاوز ذلك إلى علوم ومؤلفات هي أبعد ما تكون عن مظنة الاحتواء على أفكار بلاغية مثل كتاب "الحيوان" للجاحظ الذي يعد مصدرًا من أهم مصادر آراء الجاحظ وأفكاره البلاغية، على الرغم من أنه -بحسب عنوانه وبحسب موضوعه- أبعد ما يكون عن مجال البلاغة، بل عن مجال الدراسات الأدبية كلها، وتكفي في هذا الشأن الإشارة إلى أن عبارة الجاحظ المشهورة حول الألفاظ والمعاني، والتى اعتبره مؤرخو النقد العربي والبلاغة بها إمام أنصار اللفظ إنما وردت في هذا الكتاب، و لم ترد في "البيان والتبيين" مثلا، وأعني بتلك العبارة قول الجاحظ".. المعاني مطروحة في الطريق، يعرفها العجمى والعربي والبدوى والقروى والمدنى. وإنما الشأن في إقامة الوزن وتخير اللفظ وسهولة المخرج وكثرة الماء، وفي صحة الطبع وجودة السبك، فإنما الشعر صياغة، وضرب من النسج وجنس من التصوير"(٢).

كما أن هناك كثيرًا من آراء الجاحظ وأفكاره البلاغية الصائبة قد تناثرت في هذا الكتاب واختلطت بموضوعاته، كبعض آرائه في التشبيه(٣)، وغيره من الموضوعات البلاغية.

---

(١) الصناعتين: (١١).

(٢) الحيوان: (٣/١٣١، ١٣٢).

(٣) السابق: (١/٢١١).

وأقول إن هذا الذي يأخذه الباحثون على التدوين البلاغي في هذه المرحلة أرى أنه يعد ميزة من ميزات التأليف أو التصنيف اللغوي في هذه المرحلة، وأنه كان بداية لنشأة المنهج التكاملي في المراحل التالية حيث تتكامل مباحث البلاغة مع النقد والأدب، وتتكامل مع مباحث اللغة من نحو وصرف ومعجم وفقه لغة وغير ذلك، أو تأتي متضافرة مع التفسير القرآني كما في الكشاف للزمخشرى، أو تأتي بطريقة تطبيقية وأسلوب أدبي رصين في الموازنة بين الشعراء، أو الوساطة بينهم ونحو ذلك.

أو تأتي مؤيدة لمبحث من أهم مباحث علم الكلام وهو مبحث الإعجاز الذي أثرى البلاغة العربية بما صنف حوله من المصنفات.

٤- عدم تميز علوم البلاغة الثلاثة:

يرى د/ عشري أنه لم يكن من المتوقع أن تتميز علوم البلاغة الثلاثة ويستقل بعضها عن بعض في مثل تلك المرحلة المبكرة من تاريخ البلاغة التي لم تكن فيها البلاغة ذاتها كعلم قد استقلت عن سواها من العلوم الأخرى التي نشأت على هامشها. فعلى الرغم من أن علماء تلك المرحلة قد اكتشفوا كثيرًا من الأساليب البلاغية، وأشاروا -ولو بشكل مبهم- إلى كثير من الفنون التي أصبحت فيما بعد هي الركائز التي نهض عليها كل علم من علوم البلاغة الثلاثة، فإن تصنيف هذه الفنون وهذه الأساليب إلى ثلاث مجموعات يمثل كل منها فرعًا من فروع البلاغة الثلاثة قضية لم تطرح في مؤلفات هذه المرحلة على أي نحو. فلم يكن هناك أي نوع من الفصل بين الفنون التي نهض عليها فيما بعد علم البيان، مثل التشبيه والاستعارة والكناية والمجاز، وقد أشار إليها جميعًا علماء تلك المرحلة، وهذه التي أصبحت ركائز علم المعاني، كالإيجاز والإطناب، والتقديم والتأخير، وخروج الاستفهام عن معناه الحقيقي إلى معان أخرى... وغير ذلك من المباحث التي اندرجت فيما بعد تحت علم المعاني، وتلك التي صنفت في المرحلة الثالثة من حياة البلاغة تحت علم البديع.

وإذا كان مصطلحان من المصطلحات الثلاثة أصبحت فيما بعد عناوين للعلوم البلاغية الثلاثة قد عرفا واستخدما في مؤلفات تلك المرحلة، وهما مصطلحا "البيان"

و"البديع" فإنهما لم يستخدما في مدلولهما الذي تحدد لهما فيما بعد، أي باعتبارهما عنوانين على فرعين متميزين من فروع البلاغة الثلاثة، ويكفي أن نتذكر أن مدلول مصطلح "البيان" عند الجاحظ كان أعم من مدلول مصطلح "البلاغة" الذي صار "البيان" فرعًا من فروعه، كما أن الجاحظ كان يطلق اسم "البديع" على بعض الفنون التي صنفت في المراحل التالية تحت علم البيان كالاستعارة... والتشبيه، كما فعل في تعليقه على بيت الأشهب بن رميلة الذي سبقت الإشارة إليه:

هُم ساعدُ الدهْرِ الذي يُتقَّـى بِـه ... ما خيرُ كفٍّ لا تنوءُ بساعدِ

حيث يقول: "قوله: هم ساهد الدهر، إنما هو مثل. وهذا الذي تسميه الرواة البديع".

ونحب أن نوضح أننا لا نختلف مع أحد في عد هذه النقطة سمة من سمات التأليف البلاغي في هذا العصر، ولكن الذي نتمسك به ونصر عليه ونريد تصحيحه هو أن عد ذلك الأمر سمة من سمات التأليف البلاغي في هذه العصر لا يعني مطلقًا أنه عيب من عيوب المنهج في تلك المرحلة المبكرة، بل على العكس من ذلك إننا نعد ذلك من حسنات تلك المرحلة، ونطالب بعودة البحث البلاغي إلى تلك السمة المهمة وهي عدم تشقيقه وتقسيمه إلى تلك القسمة الثلاثية أو الرباعية التي لا حاجة إليها على الإطلاق، ولا تفيد البحث البلاغي بشيء سوى تشتيت الظواهر البلاغية وتفرقها بلا طائل.

مرحلة الدراسة المتداخلة

شارك في التصنيف البلاغي في هذه المرحلة عدة طوائف هي:

أولاً: طائفة اللغويين:

"ظل نشاط اللغويين في هذه المرحلة مستمرًا..وحقًا ظلت هذه البيئة تعني بتسجيل ملاحظاتها على الشعر، ولكنها اتجهت بها غالبًا نحو نقد لغوي ونحوي جاف على نحو ما نرى في كتاب الموشح للمرزباني. ثم نشط البحث اللغوي في القرن الرابع عند أبي علي الفارسي وتلميذه ابن جني، ولكنه نشاط يتصل بالكشف عن فقه اللغة ومعرفة أسرارها وقلما اتصل بأبحاث البلاغة والفصاحة[1]" ومع ذلك لا نعدم في خلال ذلك أن نجد بعض المباحث البلاغية أو بعض فنونها.

ثانيًا: طائفة المتكلمين:

ظل نشاط المتكلمين في هذه المباحث متصلا وكان من أهم ما وصلهم بها أنهم عنوا بتعليل إعجاز القرآن وتفسيره بلاغيا.

لقد كان البحث حول سر إعجاز القرآن الكريم في ذلك الوقت هو الشغل الشاغل لمعظم الباحثين.

ففي هذا العصر سعى كثير من الملاحدة والزنادقة إلى تشكيك الأمة في دينها وعقيدتها وقرآنها، فلقد دخل في الإسلام كثير من المغرضين الحاقدين من أبناء فارس وغيرها، فاشتعلت الأحقاد الدفينة في حركة عنصرية عرفت باسم (الشعوبية) فكان الكلام في القرآن وإعجازه من مظاهر الخصوصية بين العرب وغيرهما، وتعددت مذاهب القول فيه، فكان أهم الدواعي التي دعت إلى الكلام في البيان العربي الدفاع عن القرآن ضد الذين ذهبوا إلى أن في كلام العرب ما يشبهه أو يدانيه، وإلى أنه كان في

---

(١) د/ شوقي ضيف، السابق، ص(٦٢-٦٣)، الشيخ المراغي، تاريخ علوم البلاغة، ص(٢٠/١٤).

العرب من يستطيعون معارضته والإتيان بمثله، لأن حروفه كحروفهم، وألفاظه من جنس ألفاظهم لولا أن الله صرفهم عن محاولة المعارضة.

وقد دان بهذا القول بعض علماء من المسلمين، كإبراهيم بن سيار النظام، الذي قال في إعجاز القرآن: إنه من حيث الإخبار عن الأمور الماضية والآتية ومن جهة صرف الدواعي عن المعارضة، ومنع العرب عن الاهتمام به جبرًا وتعجيزًا، حتى لو خلاهم لكانوا قادرين على أن يأتوا بسورة من مثله بلاغة وفصاحة[1]. وأصبح الناس في ذلك العصر -كما يرى الباقلاني- بين رجلين: ذاهب عن الحق، ذاهل عن الرشد، وآخر مصدود عن نصرته، مكدود في صنعته، وقد أدى ذلك إلى خوض الملحدين في أصول الدين، وتشكيكهم أهل الضعف في كل يقين، وقد قل أنصاره، واشتغل عنه أعوانه. وأسلمه أهله، فصار عرضة لمن شاء أن يتعرض فيه، حتى عاد مثل الأمر الأول وعلى ما خاضوا فيه عند ظهور أمره، فمن قائل إنه سحر، وقائل يقول إنه شعر، وقائل يقول: إنه أساطير الأولين وقالوا: (لو نشاء لقلنا مثل هذا). إلى الوجوه التي حكى الله عز وجل عنهم أهم قالوا فيه، وتكلموا به فصرفوه إليه، وذكر عن بعض جهالهم أنه يساويه ببعض الأشعار، ويوازن بينه وبين غيره من الكلام، ولا يرضى بذلك حتى يفضله عليه. وليس ببديع من ملحدة هذا العصر؛ وقد سبقهم إلى عظم ما يقولون إخوانهم من ملحدة قريش وغيرهم، إلا أن أكثر من كان طعن فيه في أول الأمر استبان رشده، وأبصر قصده، فتاب وأناب، وعرف من نفسه الحق بغريزة طبعه وقوة إتقانه، لا تصرف لسانه، بل لهداية ربه وحسن توفيقه. والجهل في هذا الوقت أغلب، والملحدون فيه عن الرشد أبعد وعن الواجب أذهب[2]. وبهذا يتضح أن العامل الديني كان أهم البواعث في إثارة الهمم وحفز العزائم، وأن تلك الغيرة على العقيدة وكتابها، هي التي دفعت إلى البحث في متصرفات الخطاب؛ وترتيب وجوه الكلام، وما تختلف فيه طرق

---

(١) انظر معجم الأدباء. (١٩/١٥٩) (طبعة المأمون – القاهرة).

(٢) الباقلاني: إعجاز القرآن. ص(١٠) (المطبعة السلفية – القاهرة ١٤٤٩هـ).

البلاغة، وتتفاوت من جهاته سبل البراعة، وما يشتبه له ظاهر الفصاحة، ويختلف فيه المختلفون من أهل صناعة العربية، والمعرفة بلسان العرب في أصل الوضع، ثم ما اختلفت به مذاهب المستعملين في فنون ما ينقسم إليه الكلام من شعر ورسائل وخطب وغير ذلك من مناحي الخطاب[١].

إذا كانت البلاغة علمًا من علوم العربية فهي كذلك معدودة من جملة العلوم الإسلامية، وهي العلوم التي نشأت بتأثير هذا الدين الجديد، وكان لها دخل واضح في نشأتها وتطورها وتنوع مباحثها، وكانت البلاغة من أهم ما اعتمد عليه في خدمة العقيدة الإسلامية، لأنها تعمل على إبراز ما في القرآن الكريم، وهو كتاب العقيدة الإسلامية وآيتها المعجزة، من وجوه الجمال التي يمتاز بها، ويتبين سر الإعجاز الذي بان به كلام الله وامتاز به من كلام العرب، سواء من ناحية مقاصده ومعانيه، أو من ناحية أساليب تأديتها والعبارة عنها.

"وذلك أن النبي ﷺ قد تحدي العرب قاطبة بأن يأتوا بسورة من مثله فعجزوا عنه وانقطعوا دونه. وقد بقي ﷺ يطالبهم به مدة عشرين سنة مظهرًا لهم النكير، زاريا على أديانهم، مسفها آراءهم وأحلامهم، حتى نابذوه وناصبوه الحرب، فهلكت فيه النفوس، وأريقت المهج، وقطعت الأرحام، وذهبت الأموال.

ولو كان ذلك في وسعهم وتحت أقدامهم لم يتكلفوا هذه الأمور الخطيرة، ولم يركبوا تلك الفواقر المبيرة، ولم يكونوا تركوا السهل الدمث من القول إلى الحزن الوعر من الفعل، هذا ما لا يفعله عاقل، ولا يختاره ذو لب. وقد كان قومه قريش خاصة موصوفين برزانة الأحلام، ووقارة العقول والألباب، وقد كان فيهم الخطباء المصاقع والشعراء المفلقون، وقد وصفهم الله تعالى في كتابه بالجدل واللدد، فقال سبحانه: **﴿ما ضربوه لك إلا جدلا بل هم قوم خَصِمون﴾** وقال سبحانه: **﴿وتُنذرَ به قوما لُدّا﴾** فكيف كان يجوز على قول العرب ومجرى العادة مع وقوع الحاجة ولزوم الضرورة أن

---

(١) بدوى طبانة: البيان العربي ص(١٨-١٩).

يغفلوه ولا يهتبلوا الفرصة فيه وأن يضربوا عنه صفحا، ولا يجوزوا الفلج والظفر فيه، لولا عدم القدرة عليه والعجز المانع عنه، ولقد كان القرآن عربيا، نزل بلسان عربي مبين"[١].

"وفرق ما بين نظم القرآن وتأليفه ونظم سائر الكلام وتأليفه، فليس يعرف فروق النظر واختلاف البحث إلا من عرف القصيد من الرجز، والمخمس من الأسجاع، والمزاوج من المنثور، والخطب من الرسائل، وحتى يعرف العجز العارض الذي يجوز ارتفاعه من العجز الذي هو صفة في الذات.

فإذا عرف صنوف التأليف عرف مباينة نظم القرآن لسائر الكلام، ثم لم يكتف بذلك حتى يعرف عجزه وعجز أمثاله عن مثله، وأن حكم البشر حكم واحد في العجز الطبيعي، وإن تفاوتوا في العجز العارض"[٢].

ومتى سلمت بذلك العقول، ورضيت الأذواق، واطمأنت إلى إدراك الإعجاز، اطمأنت إلى سلامة دينها، وآمنت بأنه من عند الله، وأنه ليس من تأليف الرسول، وليس بقول شاعر، ولا بقول كاهن، لأنه أبعد من متناول الكهنة والشعراء.

وقد كان بُعْدُ العهد بين المسلمين في العصر العباسي والمسلمين من العرب الخلص في صدر الإسلام سببا في خفاء بعض المعاني القرآنية عليهم، فانطلقوا يسألون عنها العارفين بالعربية وأسرارها. ومن ذلك ما يذكر من أن أبا عبيدة معمر بن المثنى (المتوفى سنة ٢٠٨هـ) كان في مجلس الفضل بن الربيع، فقال له إبراهيم بن إسماعيل الكاتب: قد سألت عن مسألة، أفتأذن لي أن أعرفك إياها؟ فقال أبو عبيدة: هات، قال إبراهيم: قال الله عز وجل: ﴿**طلعُها كأنه رءوس الشياطين**﴾ وإنما يقع الوعد والإيعاد

---

(١) بيان إعجاز القرآن للخطابي: ص(١٧) (مطبعة دار التأليف – القاهرة ١٩٥٣م) بشرح وتعليق عبد الله الصديق.

(٢) كتاب العثمانية للجاحظ: ص(١٦) (مطبعة الكتاب العربي – القاهرة ١٩٥٥م) بتحقيق الأستاذ عبد السلام هارون.

بما عرف مثله، وهذا لم يعرف؟ فقال أبو عبيدة: إنما كلّم الله تعالى العرب على قدر كلامهم، أما سمعت قول امرىء القيس:

أيقتُلني والمشرفيُّ مُضاجِعي ومسنُونةٌ زُرْق كأنياب أغْوالِ

وهم لم يروا الغول قط، ولكنهم لما كان أمر الغول يهولهم أوعدوا به! فاستحسن الفضل ذلك؛ واستحسنه السائل، وعزم أبو عبيدة من ذلك اليوم أن يضع كتابا في القرآن في مثل هذا وأشباهه؛ وما يحتاج إليه من علمه. فلما رجع أبو عبيدة إلى البصرة عمل كتابه الذي سماه "مجاز القرآن"[1].

وفي سبيل هذا الهدف النبيل وهو رد مزاعم الطاعنين في كتاب الله تعالى، وجلاء الحقيقة أمام المشككين-الذين دقت على أفهامهم أسرار بيانه، وخفيت عليهم لطائف نظمه-في سبيل هذا الهدف نجد عددا من المصنفات من بين كتب ورسائل، شغلت كلمة "الإعجاز" عناوينها جميعا بشكل أو بآخر، يعنينا منها تلك التي كتبت في مرحلة متقدمة تاريخيا، قبل أن يستقر البحث البلاغي في صورته الأخيرة المتداولة بين الدارسين.

من أوائل هذه المصنفات "النكت في إعجاز القرآن" لأبي الحسن على بن عيسى الرماني (٢٩٦-٣٨٦هـ)، و"بيان إعجاز القرآن" لأبي سليمان أحمد بن محمد ابن إبراهيم بن الخطاب المعروف بالخطابي (٣١٩-٣٨٨هـ) و"إعجاز القرآن" للباقلاني (ت٤٠٣هـ)، و"إعجاز القرآن" للقاضي عبد الجبار (ت٤١٥هـ)، ثم "دلائل الإعجاز" لعبد القاهر الجرجاني (ت٤٧١هـ).

---

(١) انظر معجم الأدباء. (١٥٩/١٩) (طبعة دار المأمون – القاهرة).

ثالثًا المفسرون:

وكما ازدادت وتطورت جهود اللغويين والمتكلمين في هذا العصر في خدمة البلاغة العربية ازدادت كذلك جهود المفسرين.

فلم تكن علاقة الدين بمنهج البحث البياني مقصورة على الدفاع عن القرآن والتماس وجه إعجازه من طريق بيانه، بل إن له به علاقة أخرى، وهي الضرورة التي يحسها المسلم من جهة فهم معانيه، ولا يتم هذا الفهم إلا بتعرف أساليبه، وما يمكن أن ينطوي وراء تعبيراته من المعاني والمقاصد. وتلك الغاية لا تقل في الأهمية عن الغاية الأولى، وهي التصدي لهجمات الطاعنين ورد طعناتهم وكيدهم للدين أو لمعتنقيه.

وبهذا وذاك اتسعت دائرة الدراسات الأدبية، أو اتسعت دائرة "البيان" وكان العامل دينيًا إسلاميًا أو قرآنيًا. ولذلك عد "البيان" من العلوم الإسلامية وبقى الغرض الديني بارزًا في توجيه علوم اللسان العربي؛ ومن أركانها هذا البيان بعد دور التكوين وأصبحت معرفتها ضرورية على أهل الشريعة، إذ مأخذ الأحكام الشرعية كلها من الكتاب والسنة، وهما بلغة العرب، ونقلتهما من الصحابة والتابعين عرب، وشرح مشكلاتهما من لغتهم، فلابد من معرفة العلوم المتعلقة بهذا اللسان.

وبذلك نفهم قول ابن خلدون: "إن علم البيان علم حادث في الملة[1]"، ومعناه أن تنظيم البحث في الأدب، والكلام في عناصره، وما يسمو به وما ينحط، كان جهدًا جديدًا، ودراسة لا عهد للعرب بها في جاهليتهم ولا في العصر الإسلامي، وأن البيان كان من العلوم التي تولى غرسها المسلمون في سبيل فهم كتابهم، والذبّ عن قرآنهم؛ وكان نماؤه بعد ذلك وتشعب مباحثه بتأثير الدين، وبتوجيه المفكرين من حملته ورجاله[2].

---

(١) انظر مقدمة ابن خلدون. ص(٥٤٥).

(٢) السابق ص(٢٠).

وفي سبيل هذه الغاية الشريفة وهي الكشف عن معاني القرآن، وإماطة الحجب عن مكنون أسراره ودقائق أفكاره، وحقائق إعجازه صُنفت عدة مصنفات جليلة مثل:

١-مجاز القرآني لأبي عبيدة وقد سبق الحديث عنه في المرحلة السابقة.

٢-تأويل مشكل القرآن لابن قتيبة.

٣-تلخيص البيان في مجازات القرآن للشريف الرضي.

٤-الكشاف للزمخشرى.

٥-روح المعاني للألوسى.

٦-تفسير أبي السعود.

٧-حاشية الطيبى على كشاف الزمخشري، وما تبعها من حواش عديدة.

٨-تفسير المراغي.

٩-تفسير التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور.

١٠-الظلال لسيد قطب.

obeikandl.com

رابعًا: طائفة المتفلسفة:

أخذت تنشط في النصف الثاني من القرن الثالث الهجري بيئة جديدة، عنيت بشئون البلاغة، هي بيئة المتفلسفة، وكان مما ساعد على ظهورها كثرة ما نقل عن اليونان واحتفال العرب بفلسفتهم وكل ما خلّفوه في شئون الفكر من منطق وغير منطق. وبذلك وجدت طبقة كبيرة من المتفلسفة، وكانوا طائفتين: طائفة من نقلة السريان ومترجميهم، وأكثرهم من النصارى، وطائفة من العرب الذين أكبوا على قراءة المترجمات والمصنفات اليونانية. وأدى التفلسف بكثيرين من هذه الطبقة إلى أن يتخذوا من الفلسفة اليونانية ومعايير اليونان البلاغية أساسًا في تقويم نماذج الأدب العربي وتقدير قيمها البيانية.

هذه الطائفة الذين تسلحوا بالمنطق اليوناني والفلسفة اليونانية كانوا هم الذين اتجهوا بالدرس البلاغي نحو اتجاه تصعيدي جاف يعتمد وضع الحدود والاستدلالات المنطقية الصارمة أكثر منه تجاوبا مع الواقع اللغوي بحس وذوق مرهف يتناسب مع طبيعة هذه العلوم الأدبية.

ومن ثم ظهرت عدة مصنفات في هذه المرحلة تعبر عن هذه الطريقة المنطقية القاعدية الجافة، منها على سبيل المثال لا الحصر:

(١)نقد الشعر لقدامة بن جعفر.

(٢)نقد النثر أو البرهان في وجوه البيان لابن وهب الكاتب.

خامسًا: طائفة النقاد:

اختلطت في هذه المرحلة مباحث البلاغة بمباحث النقد الأدبي كما اختلطت بمباحث اللغة والتفسير وعلم الكلام، وتكلم في كثير من مسائل البلاغة في ذلك العصر عدد من النقاد الذين استطاعوا أن يوظفوا ما انتهوا إليه من قواعد البلاغة وفنونها إلى عصرهم في استنباط الأحكام النقدية.

وتتميز معالجة هؤلاء النقاد والبلاغيين بأدبية الأسلوب، وروعة التحليل، وجمال العبارة وسلاستها، حتى إنه يمكننا أن نعد ما كتبوه من كتب نقدية أو بلاغية في هذه المرحلة من خير ما يمكن أن ينصح الشبيبة بقراءته كنماذج لنصوص أدبية عالمية رفيعة المستوى.

وهذا يؤيد ما سبق أن ذكرناه من أن البلاغة لم تصل إلى أوج مجدها إلا مقترنة ومتضامة إلى العلوم الأخرى المتداخلة معها كالنقد الأدبي وعلوم العربية، والتفسير، وقضية الإعجاز باعتبارها من أعظم قضايا علم الكلام التي تمثلت فيها وضوح العلاقة بين البلاغة والدين، أو قضايا القرآن والعقيدة على الخصوص.

(كتابات النقـاد)

نلمح في هذا الصدد عددًا من الكتب النقدية البلاغية مثل: "عيار الشعر" لابن طباطبا العلوي (ت٣٢٢هـ) والموازنة بين أبي تمام والبحتري "للآمدي (ت٣٧١هـ)، وكتاب "الوساطة بين المتنبي وخصومه" لعلي بن عبد العزيز الجرجاني (ت٣٩٢هـ).

ونستطيع هنا أن نقسم كتابات تلك الطوائف في تلك المرحلة إلى ثلاثة اتجاهات رئيسية.

اتجاهات التأليف في الدرس البلاغي:

أولاً: الاتجاه الأدبي في الدرس البلاغي.

ثانيًا: الاتجاه المنطقي الفلسفي في الدرس البلاغي.

ثالثًا: الاتجاه الكلامي وامتداده.

أولاً: الاتجاه الأدبي في الدرس البلاغي:

فمن أهم أعلام هذا الاتجاه في هذه المرحلة ممن كان له أكبر الأثر في مسيرة البلاغة العربية، عبد الله بن المعتز. (ت٢٦٩هـ) صاحب كتاب البديع.

وهنا نجد أنفسنا أمام تأليف ومؤلف يغلب عليه الأسلوب الأدبي وذلك بأمثلته العذبة الرقيقة التي استشهد بها، والتي يبدو فيها دقة ذوقه وصفاؤه في اختيار تلك الأمثلة والشواهد فكان بذلك أول من رسم منهج البلاغة، ووسائل تحسين الأسلوب الأدبي ومهد السبيل لكثير من العلماء الذي خاضوا بحار الصنعة الزاخرة، فاستخلصوا فنونًا لا يكاد يدركها الحصر[١].

وقد تكلم ابن المعتز في كتابه عن ثمانية عشر نوعًا، جعل الخمسة الأولى هي البديع: وهي الاستعارة، والتجنيس والمطابقة، ورد الأعجاز على الصدور، والمذهب الكلامي والباقي أطلق عليه اسم المحسنات.

ومما يلاحظ علي دراسة ابن المعتز لتلك الفنون أنها دراسة فنية لعناصر الجمال في الفن الأدبي، تلك العناصر التي لا حدود لها ولا فصل بين فنونها، ولذا لم يكن ابن المعتز يعني من "البديع" أو يفهم منه ما فهمه البلاغيون المتأخرون، من أنه العلم الذي يبحث في وجوه تحسين الكلام بعد رعاية تطبيقه على مقتضى الحال. ووضوح الدلالة على المعنى المراد[٢].

وبهذا لا يعدو البديع أن يكون مجرد حلية أو زينة يتحلى بها الأسلوب بعد أن يكون قد استوفى أغراضه من حيث المطابقة والوضوح[٣]، وقد كان هذا من جراء التقسيم الصارم للبلاغة الذي استقرت عليه عند السكاكي والقزويني من بعده متأثرة بالمنهج العقلي والاتجاه الفلسفي المنطقي في الدرس البلاغي.

---

(١) انظر د/حفني شرف، ابن أبي الإصبع، ص(٥٨). د/طبانة، البيان العربي، ص(٦٥)، د/شوقي ضيف، البلاغة تطور وتاريخ، ص(٧٥).

(٢) القزويني، الإيضاح ص(٤٧٧).

(٣) انظر د/طبانة، ص(٦٤)، د/عبد الواحد علام، قضايا ومواقف في التراث البلاغي، ص(١٣).

إلا أن المدرسة الأدبية قد نحت من هذا التقسيم الصارم؛ وذلك لأنها كانت أقرب إلى روح الفن، لبعدها عن ذلك المنهج العقلي الصارم، والتفكير الفلسفي المنطقي في الدرس البلاغي.

ولذا تجد أن ابن المعتز، وهو من رواد هذه المدرسة، ومن مؤسسيها، قد جمع في بديعه ومحاسن الكلام عنده أصول "علم البيان" عند البلاغيين، كالاستعارة التي جعلها أول البديع، والتشبيه والكناية والتعريض. كما اشتمل البديع على مباحث من (علم المعاني) عندهم كالالتفات، والاعتراض. وبقية البديع، ومحاسن الكلام عند ابن المعتز، هي أصول (علم البديع) عندهم، كالتجنيس، والمطابقة، ورد أعجاز الكلام على ما تقدمها.. إلخ ما سبق ذكره من أنواع البديع التي ذكرها في كتابه.

ويمكننا أن نجمل ملامح الاتجاه الأدبي في الدرس البلاغي في الآتي:

البعد عن إصدار أحكام عقلية على النص الأدبي بل يحكم الذوق الأدبي المرهف بعيدا عن صرامة العقل وأقيسة المنطق، وتقوم فيه الشواهد الأدبية الكثيرة مقام الدليل والبرهان العقلي، وتبعًا لذلك فلا تحفل تلك المدرسة، أو قل ذلك الاتجاه بالتحديد ووضع التعريفات وإخراج محترزاتها، أو غير ذلك من سمات المدرسة المنطقية كاقتباس مباحث الفلسفة والمنطق والكلام، أو مصطلحاتها الخاصة بها(١).

هذا وقد سلك هذا الاتجاه أئمة أعلام جاءوا بعد ابن المعتز، وكان لهم دورهم البارز في مسيرة البلاغة العربية، فقد وجدنا هذا الاتجاه عند طائفة من أصحاب الدراسات النقدية التي أثرت في البلاغة، لقيامها على الأسس البلاغية، أمثال: "عيار الشعر" لابن طباطبا العلوي (ت٣٢٢هـ) "والموازنة بين أبي تمام والبحتري "للآمدي (ت٣٧١هـ)، وكتاب "الوساطة بين المتنبي وخصومه" لعلي بن عبد العزيز الجرجاني

---

(١) انظر الشيخ أمين الخولي، فن القول، ص٨٧-٩٠. د/حفني شرف، ابن أبي الأصبع، ص(٣٧٠-٣٧١).

(ت٣٩٢هـ). فقد كانت هذه الدراسات تعني دائمًا ببيان دقائق الشعر المعنونة ومحاسنه التصويرية واللفظية، فتنظر في معاني الشعراء، وصورهم البيانية المعنوية ومحاسنه التصويرية واللفظية، فتنظر في معاني الشعراء، وصورهم البيانية والبديعية وتريد أن تردها إلى أصولها الموروثة، وبذلك اختلطت فيها أبحاث النقد بالبلاغة(١). وعرضت فيها الأصول البلاغية وتقاليدها الموروثة دون معاناة لجفاف التقعيد والتنظير، واستغني فيها بتحكيم الذوق والشاهد الأدبي عن تحكيم العقل وأقيسة المنطق.

وقد وجدنا جانبا آخر من نمو البحث البلاغي قد سار على هذا الدرب: "وخير ما يمثل ذلك كتاب الصناعتين لأبي هلال العسكري، ت٣٩٥هـ، والعمدة في صناعة الشعر ونقده لابن رشيق القيرواني، ت ٤٦٣ هـ"(٢).

هنا نجد أن أبا هلال العسكري قد تناول البلاغة بروح أدبية كما تناول النقد بروح بلاغية، ويمكن القول بأن كتاب الصناعتين نقطة تحول في الدراسات البيانية والنقدية، وأنه جنح بتلك المعالم الذوقية اتجاهًا قاعديًا بما وضع من أسس فن البلاغة التي يعد كتابه من أهم مصادرها(٣).

علي أن هذا الاتجاه القاعدي لدي أبي هلال لا يكاد يخرجه من الاتجاه الأدبي في كتابته، إلى طريقة المتكلمين أو المناطقة لأنه لم يعرج علي طريقتهم في كتابه، بل تجده يعلن براءته من هذه الطريقة مبينًا أنه سيسلك في كتابه الطريقة الأدبية حيث يقول "ليس الغرض في هذا الكتاب سلوك مذهب المتكلمين، وإنما قصدت فيه مقصد صناع الكلام من الشعراء والكتاب"(٤).

---

(١) د/شوقي ضيف، البلاغة تطور وتاريخ، ص(١٢١-١٢٢).

(٢) السابق، ص(١٤٠). وانظر تحقيقنا لكتاب العمدة. ط المكتبة العصرية-بيروت.

(٣) د/بدوي طبانة، البيان العربي، ص(٨١).

(٤) أبو هلال العسكري، الصناعتين، ط. الأستانة، ص(٨).

أما ابن رشيق فقد ظهر عنده بوضوح تام أهم خصائص المدرسة الأدبية في الإحساس بالجمال الفني واعتماد الذوق حاكمًا لإدراك جمال القول وليس العقل والعلم والقواعد(١).

هذا ولا يكاد يخرج عن هذا الاتجاه الأدبي ابن سنان الخفاجي (ت٤٦٦هـ) في كتابه "سر الفصاحة" إذ إنه يعد دراسة منظمة لعناصر الجمال الأدبي مع آراء سديدة في النقد والبلاغة وفنون الأدب، تدل علي تبحر وسعة اطلاع ورأي منظم وعمق في التفكير الأدبي، هذا ويمكن أن نقول إن ابن سنان الخفاجي (ت٤٦٦هـ)، ومن قبله أبو هلال العسكري (ت٣٩٥هـ) ومن حذا حذوه، ومن بعدهم عبد القاهر الجرجاني (ت٤٧١هـ) يكادون يمثلون اتجاهًا وسطًا بين الاتجاه الأدبي الذي يجافي الروح العلمية والاتجاه القاعدى وبين الاتجاه المنطقي الفلسفي الذي يغالي في التقسيم والتنويع والتحديد، وإصدار الأحكام العقلية المجانبة لتحكيم الذوق الفني والإقلال من الشاهد الأدبي، والنموذج البلاغي، أما عبد القاهر فقد وصل بالاتجاه الأدبي في الدرس البلاغي إلى الغاية من مراعاة الذوق الفني وتحكيمه في دراسة الأدب، وتذوق بلاغة الكلم، معتمدًا في ذلك على أسلوبه التحليلي العميق، والذي لم يظفر البيان العربي بمثل استقصائه ودقته من قبل، حتى عند أصحاب هذا الاتجاه الأدبي أنفسهم..(٢) هذا ويمكن أن نضم إلى هذا الاتجاه كذلك ما كتبه ضياء الدين بن الأثير (ت٦٣٧هـ) في كتابه (المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر) وهو وإن جاء في عصر استقرار المباحث البلاغية في تقسيمها النهائي علي يد السكاكي الذي كان معاصرًا له إلا أنه قد أفلت من قيد المنطق وخرج علي سلطانه المطاع آنذاك فكان كاتبًا ممتازًا ومؤثرًا طريقة الأدباء. التي تليق بأمثاله من الكتاب، وهو لا يفتأ يشيد بالذوق والطبع ووجوب توفر ذلك لمن أراد أن يلم بالبلاغة والفصاحة(٣).

---

(١) د/حفني شرف، ابن أبي الإصبع العدواني، بين علماء البلاغة، ص(٧٢-٧٣).

(٢) البيان العربي، ص(١٢٢-١٣٣).

(٣) د/شوقي ضيف، البلاغة تطور وتاريخ، ص(٣٣٤).

obeikandl.com

ثانيًا: الاتجاه المنطقي الفلسفي في الدرس البلاغي:

ومن أعلامه: قدامة بن جعفر والرازي والسكاكي: إذا نظرنا إلى كتاب نقد الشعر لقدامة بن جعفر، فإننا نجد أنفسنا أمام اتجاه آخر مخالف للاتجاه الذي سلكه ابن المعتز في كتابه البديع، فهو وإن اشترك معه في تنظيم المادة العلمية التي عرض لها تنظيمًا منهجيًا إلا أنه قد بالغ في ذلك مبالغة غير محمودة(١)، ولعل عذره في ذلك أنه كان أول من قنن للشعر ووضع لنقده أصولاً ومعالم توضح كل أصل منها في ضوء ما وضعه للشعر من نعوت الجودة(٢)، وقد غلب عليه في ذلك ثقافته العميقة بالفلسفة والمنطق اليونانيين فهو يستمد مباشرة من منطق أرسطو وما ذكره عن الحدود والتعريفات وأجزائها التي تتكون منها(٣) وللفلسفة – ولا سيما المنطق – أثر واضح في طريقة بحثه.

ومن ينظر في كتاب قدامة هذا يجد أنه يبذل جهدًا عقليًا كبيرًا في تطبيق ما فهمه من مقاييس البلاغة اليونانية عند أرسطو على البلاغة العربية، ولكنه في الوقت نفسه يستقي تلك المقاييس كذلك من مؤسسي البيان العربي أمثال الجاحظ وابن المعتز والأصمعي وثعلب وغيرهم ممن سبقوه إلى النظر في وجوه البيان العربي واستنباط محاسن الكلام فيه.

ومن ثم، فإذا كان ابن المعتز قد رسم المنهج الأدبي في دراسة البلاغة العربية، فنستطيع هنا أن نقول إن قدامة بن جعفر – في المقابل – قد اختط طريقة المنهج العقلي ذي الاتجاه المنطقي الفلسفي في دراسة البلاغة، ذلك الاتجاه الذي يعني بصياغة التعريفات صياغة منطقية تهتم بوضع الحدود وبيان المحترزات بطريقة عقلية صارمة لا يهمها أن تراعي روح الفن الأدبي بقدر اهتمامها بالتقسيم والتنويع والتحديد والتقنين، وأن تكون التعريفات جامعة مانعة ضابطة لمباحث هذا العلم وفنونه وأنواعه وإصدار

---

(١) أ.د/شفيع السيد، البحث البلاغي عند العرب تأصيل وتقييم – دار الفكر (١/٧٢-٧٣).

(٢) د/ بدوي طبانة، البيان العربي – مكتبة الأنجلو المصرية – ط٢، ص(٧٥).

(٣) د/شوقي ضيف، البلاغة تطور وتاريخ – دار المعارف ط٦، ص(٨٠).

الأحكام العقلية في الاختصار الشديد في كثير من المواطن والإقلال من الشواهد الأدبية، مع التعريج على الفلسفة ومصطلحاتها ومباحثها، والتأثر بالثقافة الأجنبية وخاصة الثقافة اليونانية، مع تطبيق تلك المقاييس الأجنبية على البلاغة العربية، وإن لم يتجاهل التراث العربي والإفادة منه في ذلك[1].

ومن ثم فيمكن أن نعد قدامة بن جعفر هو رائد هذا الاتجاه المنطقي الفلسفي في الدرس البلاغي، ذلك الاتجاه الذي امتد تأثيره إلى عصر استقرار التأليف البلاغي فيما بعد، حيث استقرت مباحث البلاغة وتقسيماتها على يد السكاكي ومن حذا حذوه من بعده.

إلا أنه مما يميز كتاب قدامة أنه قد تميز بالشرح والتوضيح لأغلب الشواهد[2] مع مزج النقد بالبلاغة[3] فكان ذلك بداية لنهج السكاكي ومن حذا حذوه في مرحلة استقرار التأليف البلاغي.

أما الرازي فهو كما يقول د/ ضيف: يمتاز في مؤلفاته بدقة التفكير، وحدة المنطق والقدرة على تشعيب المسائل وتفريعها وحصر أقسامها حصرا يحيط بها إحاطة تامة.. واتجه بهذه الطريقة في التأليف إلى البلاغة باعتبارها مدار الإعجاز القرآني فألف فيها مصنفه (نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز)، وواضح من عنوانه أنه قصد فيه إلى الإجمال والاختصار[4]. وفي منهج الرازي تتجلى سمات المدرسة المنطقية تمامًا حيث يخلو الكتاب من روعة التحليل للنصوص الأدبية، وفي أحيان كثيرة يمضي دون استشهاد أو تمثيل وكأنما هو بصدد قواعد خالصة كقواعد النحو، لا بصدد دراسة بلاغية تمتع الذوق والشعور، هذا مع جفاف أسلوبه وكثرة تقسيماته المزعجة لأن فيه ثلاث

---

(١) أمين الخولي، فن القول، دار الفكر العربي، ١٣٦٦هـ ١٩٤٧م،ص(٧٨-٩٢).

(٢) د/ شفيع السيد. البحث البلاغي عند العرب. تأصيل وتقييم – ص(٧٢).

(٣) د/ حفني شرف – ابن أبي الإصبع المصري بين علماء البلاغة ط١ – مكتبة نهضة مصر بالفجالة. ص(٥٩).

(٤) د/ شوقي ضيف، البلاغة تطور وتاريخ، ص(٢٧٤-٢٧٥).

مقدمات مختلفة، وركنين، وخمس قواعد، وخمسة عشر بابًا، وأربعة أقسام، وواحدًا وعشرين وجهًا، ومائة وثلاثة وثلاثين فصلا[1].

ونستطيع أن نقول إن الرازي قد غالي كثيرًا في الطريقة المنطقية والاتجاه الفلسفي الذي كان أقرب رشدًا إلى روح الفن الأدبي عند قدامة.

ثالثًا: الاتجاه الكلامي وامتداده:

رأينا في المرحلة السابقة كيف قام المتكلمون بدور فعال في نشأة علوم البلاغة لنصرة مذهبهم الكلامي ويجدر بنا أن نميز هنا من بين أصحاب هذا الاتجاه الكلامي طائفة عنيت عناية كبيرة بالتحلي بسمات الاتجاه الأدبي في دراستهم للبيان العربي وكان الجاحظ على رأس هذه الطائفة.

فقد ألم في كتاباته بالصور البيانية المختلفة وبكثير من فنون البديع غير أنه لم يسق ذلك في تعريفات وتحديدات[2] كما فعل قدامة أو ابن وهب – وإنما كان مشغولاً بإيراد النماذج البلاغية التي قلما يعني بها أصحاب الاتجاه المنطقي، كما نجد أن الجاحظ ومن حذا حذوه من المتكلمين يأخذون أنفسهم بثقافة عربية أصيلة بجوار ما استفادوه من الثقافة الأجنبية، كما نلاحظ أن الجاحظ وهؤلاء المتكلمين ممن حذا هذا الحذو (حين طلبوا معرفة آراء الأمم الأجنبية في البيان والبلاغة لم يكونوا يقصدون إلى تمثلها واعتناقها، إنما كانوا يريدون أن يوازنوا بين آراء الأجانب وآراء العرب في بلاغة الكلام، محاولين أن يضعوا للبلاغة العربية قواعدها وقوانينها الذاتية[3].

---

(١) السابق، ٢٨٦، ومقدمة نهاية الإيجاز، المحقق ص(٤١).

(٢) د/ شوقي ضيف، السابق ص(٥٦).

(٣) د/ محمد عبد المنعم خفاجي، مقدمة الإيضاح ص(٤٩).

obeikandi.com

ولذا فقد اضطر بعض الباحثين أن يجعله هو وبشر بن المعتمر وسهل بن هارون من زعماء المعتزلة من أصحاب الاتجاه الأدبي وإن رأي أن اتجاهه قد شابه بعض سمات الاتجاه العقلي الكلامي[1].

فإذا ما قيس ذلك بما عليه الاتجاه المنطقي الذي يتزعمه قدامة وابن وهب ومن بعدهما من جفاف الأسلوب، والمغالاة في التقعيد والتقنين والتقسيم والتنويع، وضبط الحدود والتعريفات، وإخراج المحترزات وغير ذلك وجدنا أن بين الفريقين كما بين المشرق والمغرب، ولذا فقد وجب التفريق بين هذين الفريقين لاختلاف المنهج عند كل منهما.

ولذا فقد اضطرب كثير من الباحثين في الحكم على هذا الفريق من أصحاب هذا الاتجاه الكلامي والذي يعني في كتابة ودراسة البلاغة بسمات الاتجاه الأدبي من أمثال الجاحظ وعبد القاهر وأصحاب الدراسات حول إعجاز القرآن وكذلك أصحاب الدراسات التطبيقية – للبلاغة من خلال القرآن كالزمخشري والطيبي وغيرهما، فيتحيرون في الحكم بجعلهم من أصحاب الاتجاه المنطقي الكلامي أو من أصحاب الاتجاه المنطقي أو من أصحاب الاتجاه الأدبي.

ومن ثم فإني أرى أن عدم تمييز أمثال عبد القاهر الجرجاني والزمخشري – وكذا الطيبي من بعد كما سنرى – من بين أصحاب هذا الاتجاه المنطقي فيه إجحاف لهم، إذ إني لا أنكر أنهم قد تأثروا بعلم الكلام أو المنطق تأثرًا واضحًا في دراستهم البلاغية إلا أننا لا نستطيع رغم ذلك أن ننكر ظهور ملامح الاتجاه الأدبي واضحًا في دراساتهم النظرية أو التطبيقية على السواء، كما أن ما احتج به البعض على تمثل عبد القاهر

---

(١) د/ حفني شرف. ابن أبي الإصبع العدواني بين علماء، البلاغة، ص(٣٧١-٣٧٢)، د / عبد الستار مبروك، كتاب التبيان للطيبي تحقيق دراسة دكتوراه، كلية اللغة العربية الأزهر ص(٣٦-٣٧).

لطريقة المتكلمين من نحو إذا قلتم قلنا، وما إلى ذلك، قليل لا يطفىء بهاء الطريقة الأدبية، ولا يذهب بها، كما أنه مما تقتضيه طبيعة البحث في الكتاب.

ومن هنا أرى أن هذه الدراسات التي تمت في هذه المرحلة حول قضية الإعجاز وكذلك الدراسات التي تمت من قبل حول القرآن من تأويل مشكله والرد على الطاعنين عليه من الملحدين وغيرهم كانت امتدادًا لذلك الاتجاه الكلامي الذي يعني بسمات الطريقة الأدبية في الدرس البلاغي مع شيء من التفاوت بين من صنفوا في ذلك في أسلوبهم ونقدهم وتنظيرهم البلاغي ونصيبهم في الأخذ بالثقافات الأجنبية بحيث نستطيع أن نميز هذه الطائفة من المتكلمين عن طائفة المتفلسفة الذين ظهرت لديهم صرامة المنطق، وحدة الجدل العقيم في دراستهم البيانية.

وقد تنبه د/ شوقي ضيف إلى فصل هذه الطائفة من المتكلمين عن طائفة المتفلسفة في مواضع من كتابه[1]. وبالرغم من محاولة هؤلاء المتكلمين أن يخففوا من صرامة هذا الاتجاه العقلي في الدرس البلاغي، فقد ظلت الدراسة المنطقية الصارمة هي السائدة والمسيطرة على دراسة البلاغة العربية وذلك حتى عصر استقرار مباحثها على يد السكاكي ومدرسته.

---

(١) د/ شوقي ضيف، البلاغة تطور وتاريخ، ص(٦٥-٦٦ -١٠٢).

الجامع الكبير

في

صناعة المنظوم من الكلام والمنثور

المرجح نسبته لـــ

عز الدين بن الأثير

[ت ٦٣٠ هـ]

تحقيق

أ.د/ عبد الحميد هنداوي

الأستاذ بكلية دار العلوم جامعة القاهرة

obeikandl.com

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله مبدي النعماء[*] أولاً وآخرا، مسدي الولاء باطنًا وظاهرًا، الذي فطر الإنسان بحكمته ولطفه، وركب فيه آلة النطق فبلغ به كمال وصفه، فكان ذلك عليه من أتم الإحسان، الذي تميز به عن جميع أصناف الحيوان، ولولا فضله لما ورد في القرآن المجيد، مقرونًا بالإخراج من العدم إلى الوجود، فقال تعالى: ﴿الرَّحْمَنُ (١) عَلَّمَ الْقُرْآنَ (٢) خَلَقَ الإِنْسَانَ (٣) عَلَّمَهُ الْبَيَانَ﴾[١]. نحمده على ترادف آلائه وتماديها، والتحاق رائحها بغاديها[٢]، حمدًا يكون بالزيادة ضمينًا، وبإيلاء[٣] الخيرات قمينًا، ونصلي على رسوله محمد الصادع بأمره، القائم بدينه في سره وجهره، وعلى آله مصابيح الإيمان وزهره، وأصحابه ملاذ الإسلام وذخره.

أما بعد؛ فلما كان تأليف الكلام، مما لا يوقف على غوره، ولا يعرف كنه[٤] أمره، إلا بالاطلاع على علم البيان، الذي هو لهذه الصناعة بمنزلة الميزان، احتجت حين شدنت[٥] نبذة من الكلام المنثور، إلى معرفة هذا المذكور، فشرعت عند ذلك في تطلبه،

(*) كذا في (ح) و(ت)، وفي (أ) و(ب) و(ط) (مبدئ النعم) واخترنا ما في (ح، ت) لما فيها من موافقة لطريقة المصنف في الموازاة بين الجمل، فـ(مبدي النعماء) موازية لـ(مسدي الولاء) و(أولاً وآخرًا) موازية لـ(باطنًا وظاهرًا).

(١) الرحمن: ١-٣.

(٢) في (ب) وغاديها.

(٣) في (ب) ومايلا إلى الخيرات.

(٤) غور كل شيء: قعره، وكُنه كل شيء: قدره، ونهايته وغايته [انظر: اللسان (غور، كنه)].

(٥) شدن الصبي يشدن شدونًا: قوى وصلح جسمه وترعرع ومَلَك أمَّه فمشى معها، ويقال للمهر أيضًا: قد شدن، وقال أبو عبيدة: الشادن من أولاد الظباء الذي قد قوي وطلع قرناه واستغنى عن أمه [انظر: اللسان (شدن)، والصحاح (شدن)].

وقال ذو الرمة:

ذكرتك أن مرت بنا أم شادن ... أمام المطايا تشرئب وتسنح

والبحث عن تصانيفه وكتبه، فلم أترك في تحصيله سبيلاً إلا نهجتُه، ولا غادرت في إدراكه بابًا إلا ولجتُه، حتى اتضح عندي باديه وخافيه، وانكشفت لي أقوال الأئمة المشهورين فيه، كأبي الحسن علي بن عيسى الرماني(١)، وأبي القاسم الحسن بن بشر الآمدي(٢)، وأبي عثمان الجاحظ(٣)، وقدامة بن جعفر الكاتب(٤)، وأبي هلال العسكري(٥)، وأبي العلاء محمد بن غانم المعروف بالغانمي(٦)، وأبي محمد عبد الله بن

---

(١) هو علي بن عيسى بن علي بن عبدالله أبو الحسن الرماني كان يعرف أيضًا بالإخشيدي وبالوراق، وهو بالرماني أشهر، ولد سنة ٢٧٦هـ وأخذ عن الزجاج وابن السراج وابن دريد، كان إمامًا في العربية، علامة في الأدب، وكان يمزج النحو بالمنطق، صنف من المؤلفات، مات في حادي عشر جمادي الأولى سنة ٣٨٤هـ [بغية الوعاة (١٨٠/٢)].

(٢) الكاتب أبو القاسم صاحب كتاب الموازنة بين الطائيين، كان حسن الفهم، جيد الرواية والدراية، أخذ عن الأخفش والزجاج والحامض وابن السراج وابن دريد ونفطويه وغيرهم، وله شعر حسن وحفظ، وله تآليف حسنة كثيرة، توفي سنة ٣٧١هـ [بغية الوعاة (٥٠٠/١)، ومعجم الأدباء (٧٥/٨)].

(٣) هو عمرو بن بحر بن محبوب أبو عثمان الجاحظ من أهل البصرة، أحد شيوخ المعتزلة، له كتاب البيان والتبيين، وكتاب الحيوان، وكتاب العُرجان والبُرصان والقُرعان، توفي في المحرم سنة خمس وخمسين ومائتين [بغية الوعاة (٢٢٨/٢)].

(٤) قدامة بن جعفر بن قدامة بن زياد البغدادي، أبو الفرج: كاتب من البلغاء الفصحاء المتقدمين في علم المنطق والفلسفة، كان في أيام المكتفي بالله العباسي، وأسلم على يده، وتوفي ببغداد سنة ٣٣٧هـ، يضرب به المثل في البلاغة [الأعلام للزركلي (١٩١/٥)].

(٥) هو الحسن بن عبدالله بن سهل بن سعيد بن يحيى بن مهران أبو هلال العسكري صاحب الصناعتين، كان موصوفًا بالعلم والفقه، والغالب عليه الأدب والشعر، وكان يتبزّز احترازًا من الطمع والدناءة، توفي سنة ٣٩٥هـ [بغية الوعاة (٥٠٦/١)].

(٦) الإمام الفقيه العابد الأديب، أبو المحاسن، مسعود بن محمد بن غانم بن محمد الغانمي الهروي، ولد بطوس في سنة ٤٦٤هـ، كان إمامًا ورعًا، كثير العبادة، تورع عن طعام والده لاختلاطه بالدولة، وعُمِّر في الطاعة، وكان سريع النظم، مات في ربيع سنة ٥٥٣هـ [سير أعلام النبلاء للذهبي (٢٥٩/٢٠)].

سنان الخفاجي[1]، وغيرهم ممن له كتاب يشار إليه، وقول تعقد الخناصر عليه، ثم لما مضى على ذلك ملاوة[*] من الدهر، وانقضي دونه برهة من العمر، لمحت في أثناء القرآن الكريم، من هذا النحو أشياء طريفة، ووجدت في مطاويه من هذا النوع نكتا دقيقة لطيفة، فعرضتها عند ذلك على الأقسام التي ذكرها هؤلاء العلماء وشرحوها، والأصناف التي بينوها في تصانيفهم وأوضحوها، فألفيتهم قد غفلوا عنها، و لم ينبهوا على شئ منها، وكان ذلك باعثا لي على تصفح آيات القرآن العزيز، والكشف عن سره المكنون، فاستخرجت منه حينئذ ثلاثين ضربًا من علم البيان، لم يأت بها أحد من أولئك العلماء الأعيان، وكان ما ظفرت به أصل هذا الفن وعمدته وخلاصة هذا العلم وزبدته، فحيث أحرزت هذه الفضيلة، وحصلت عندي هذه العقيلة، أحببت أن أفرد لها كتابا، وأفصلها فيه أقسامًا وأبوابًا، ليكون مقصورا على شوارد هذا العلم وغرائبه، ورموزه الخفية وعجائبه، وليجعله مؤلف الكلام رأس بضاعته، ويعلم به مواقع الصواب في صناعته، فلما شرعت في تلفيقه، وبدأت بإيضاح القول فيه وتحقيقه، عاودت النظر في تصانيف العلماء المذكورين، والتبصر[2] في أقوال أئمة هذه الصناعة المشهورين، فسنح لي عند ذلك لطائف رائقة[3]، ونوادر حسنة فائقة، هي كالشاهد[4] لما بينوه، والمشيدة لما نصوا عليه وعينوه، وقلما تركت قولا من أقوالهم بحاله، من غير زيادة

---

(١) هو عبدالله بن محمد بن سعيد بن سنان، أبو محمد الخفاجي الحلبي، ولد سنة ٤٢٣هـ، شاعر أخذ الأدب عن أبي العلاء المعري وغيره، وكانت له ولاية بقلعة (عزاز) من أعمال حلب، وعصى بها، فاحتيل عليه بإطعامه طعام مسموم، فمات سنة ٤٦٦هـ، وحمل إلى حلب [سر الفصاحة ص(٤٤)].

(*) المِلاوة والمُلاوة والملاوة والملا والمَلِيُّ، كله: مدّة العيش، وأملى الله له: أمهله وطوَّل له، وفي الحديث: "إن الله ليملي للظالم"، والإملاء: الإمهال والتأخير وإطالة العمر [اللسان: (ملا)].

(٢) في (ت): (التنصر) وهو خطأ.

(٣) في (ط): رائعة، وما اخترناه من (ت).

(٤) في (ط): الشاهدة، وما اخترناه من (ت).

أودعها في خلاله فصار هذا الكتاب لغوامض علم البيان مبينًا، ولما ذكره أرباب هذه الصناعة وما لم يذكروه متضمنًا، فأوردت في صدره ما يجب على مؤلف الكلام علمه، وينبغي له معرفته وفهمه، ثم شفعت ذلك بذكر الفصاحة والبلاغة، وصغت الكلام فيهما أحسن الصياغة، فأوضحت ما أشكل من طريقتهما، وبينت أقوال العلماء في حقيقتهما، مع ما أضفته إلى ذلك من زيادات مناسبة واحترازات واجبة.

ثم شرحت بعد ذلك جميع أنواع علم البيان، وشفيت القول فيها[1] بحسب الإمكان، وسميته بكتاب: "الجامع الكبير في صناعة المنظوم من الكلام والمنثور" وجعلت مدار الكتاب على قطبين: (القطب الأول) في الأشياء العامة، (القطب الثاني) في الأشياء الخاصة.

وينقسم القطب الأول إلى فنين: الفن الأول: فيما يجب على مؤلف الكلام الابتداء به، وهو أربعة أبواب: (الباب الأول) في آلات التأليف، (الباب الثاني) في أدواته، (الباب الثالث) في الطريق إلى صناعة النثر والنظم، (الباب الرابع) في الحقيقة والمجاز.

الفن الثاني: في الكلام على الألفاظ والمعاني، وتفضيل الكلام المنثور على المنظوم، وهو ثلاثة أبواب: (الباب الأول) في الألفاظ المفردة والمركبة وهو قسمان (الباب الثاني) في الكلام على المعاني، (الباب الثالث) في تفضيل الكلام المنثور على المنظوم.

(القطب الثاني) وفيه فنان: (الفن الأول) في الفصاحة والبلاغة، (الفن الثاني) في ذكر أصناف البيان وانقساماتها، وهو بابان : (الباب الأول) في الصناعة المعنوية، (الباب الثاني) في الصناعة اللفظية.

وينقسم الباب الأول إلى تسعة وعشرين نوعًا: "الأول" في الاستعارة، "الثاني" في التشبيه، "الثالث" في شجاعة العربية، وهو أربعة أقسام، "الرابع" في الإيجاز وهو

---

(١) كذا في (ت) وفي (ط) و(أ): "فيهما"، وهو خطأ.

قسمان، "الخامس" في الإطناب، "السادس" في توكيد الضمير المتصل بالمنفصل، "السابع" في الكناية والتعريض، "الثامن" في استعمال العام في النفي، والخاص في الإثبات، "التاسع" في التفسير بعد الإبهام، "العاشر" في التعقيب المصدري، "الحادي عشر" في التقديم والتأخير، "الثاني عشر" في عطف المظهر على ضميره، "الثالث عشر" في التخلص والاقتضاب، "الرابع عشر" في المبادئ والافتتاحات، "الخامس عشر" في قوة اللفظ لقوة المعنى، "السادس عشر" في خذلان المخاطب، "السابع عشر" في الاشتقاق، "الثامن عشر" في الحروف العاطفة والجارة، "التاسع عشر" في التكرير، "العشرون" في تناسب المعاني من المقابلة والتقسيم والتفسير، "الحادي والعشرون" في الخطاب بالجملة الفعلية والخطاب بالجملة الاسمية، "الثاني والعشرون" في لام التأكيد، "الثالث والعشرون" في الاقتصاد والإفراط والتفريط، "الرابع والعشرون" في المعاظلة(*)، "الخامس والعشرون" في التضمين، "السادس والعشرون" في الاستدراج، "السابع والعشرون" في الإرصاد، "الثامن والعشرون" في التوشيح، "التاسع والعشرون" في الأخذ والسرقة.

وينقسم الباب الثاني إلى سبعة أنواع: "الأول" في السجع والازدواج، "الثاني" في التجنيس، "الثالث" في الترصيع، "الرابع" في لزوم ما لا يلزم، "الخامس" في الموازنة "السادس" في اختلاف صيغ الألفاظ، "السابع" في تكرير الحروف، وسنذكر ترجمة الأبواب والأنواع عند ذكرها إن شاء الله تعالى.

(*) العظال والمعاظلة: التراكب والتلازم في السفاد من الكلاب والسباع والجراد وغير ذلك، يقال: عظلت وعظّلت: إذا ركب بعضها بعضًا ولزم بعضها بعضًا في السفاد، ومنه أخذت المعاظلة في الاصطلاح وهي التعقيد والتراكب في الكلام، وسيأتي بيانها تفصيلاً في موضعها.

obeikandl.com

الباب الأول

من الفن الأول من القطب الأول

آلات التأليف

اعلم أن صناعة[1] تأليف الكلام من المنثور والمنظوم، تحتاج إلى أسباب كثيرة، وآلات جمة، وذلك بعد أن يركِّب الله تعالى في الإنسان الطبع القابل لذلك، المجيب إليه، فإنه متى لم يكن ثَمَّ طبعٌ، لم تفد تلك الآلات شيئًا ألبتة[2]. فَمَثَل الطبع كمَثَل النار الكامنة في الزناد، ومثل الآلات كمثل الحُرَاق[3] والحديدة التي يقدح بها، ألا ترى أنه إذا لم يكن في الزناد نار لا يفيد ذلك الحراق ولا تلك الحديدة شيئًا؟ إلا أن الطباع القابلة للعلوم مختلفة الأنحاء؛ فمنها ما يكون قابلا لعلم الأدب: كالنحو والتصريف وغيرهما، ومنها ما يكون قابلا للعلوم الدينية: كأصول الفقه وأصول الدين وما جرى هذا المجرى، ومنها ما يكون قابلاً لغير ذلك، كالعلم الرياضي: كالحساب والهندسة، ومنها ما يكون قابلا لغير ذلك: كالصنائع والحرف. وقد يوجد في الطباع ما يكون قابلا لجميع العلوم. ومن أدل دليل على اختلاف الطباع وتباينها، أنا نرى مؤلف الكلام يكون تارة مؤلفا مطلقًا، ونعني بالمطلق أن يكون عارفا بصناعة المنظوم من الكلام والمنثور، ويكون مؤلفا غير مطلق، ونعني بغير المطلق أنه يكون عارفًا بأحد هذين القسمين دون الآخر، وهو مع ذلك عالم بجميع آلات التأليف نظمًا ونثرًا، كما هو المؤلف المطلق ولا فرق. فإذا ركب الله في الإنسان الطبع القابل لمعرفة تأليف الكلام

---

(١) في نسخة: (صياغة) وهو خطأ.

(٢) البتُّ: القطع، يقال: لا أفعله بتة ولا أفعله ألبتة: لكل أمر لا رجعة فيه، وألبتة هي المنقطعة التي لا رجعة فيها إلا بعد زوج، وورد في "التاج": "لا أفعله ألبتة" بقطع الهمزة وضبطت في "الصحاح" بوصلها، وقالوا: كأنه قطع فعله، ولا أفعله بتَّة بغير اللام، ونصبه على المصدر، وقال ابن بَرِّي: مذهب سيبويه وأصحابه أن ألبتة لا تكون إلا معرفة: ألبتة، لا غير، وإنما أجاز تنكيره الفراء وحده، وهو كوفي [انظر: الصحاح (بتت)، وتاج العروس (بتت)].

(٣) الحُرَاق والحُرَاقة: ما تقع فيه النار عند القدح [اللسان: حرق].

على الإطلاق فيحتاج حينئذ إلى تحصيل الآلات التي يخرج بها ما في القوة إلى الفعـل.

وتنحصر آلات التأليف في قسمين:

الأول: يشترك فيه النظم والنثر، وهو سبعة أنـواع: "الأول" معرفـة علـم العربية من النحو والتصريف والإدغام، "الثاني" معرفة ما يحتاج إليه من اللغة، "الثالث" معرفة أمثال العرب وأيامهم، "الرابع" الاطلاع على تأليفات من تقدمه من أرباب هذه الصناعة، المنظوم منها والمنثور، والتحفظ للكثير من ذلك، "الخامس" معرفة الأحكـام السلطانية في الإمامة والإمارة والقضاء وغير ذلك، "السادس" حفظ القـرآن الكـريم، والممارسة لغرائبه، والخوض في بحور عجائبه، "السابع" حفظ ما يحتاج إليه من الأخبار الواردة عن الرسول ﷺ.

وأما القسم الثاني: فإنه يخص النظم دون النثر، وذلك علم العَرُوض والقوافي، الذي يقام به ميزان الشعر. ولنذكر بعد ذلك فائدة كل نوع من هذه الأنواع فنقول:

أما علم النحو: فهو الذي يستقيم به معاني الكلام، وتصان عُرَا تأليفـه عـن الانحلال والانفصام، ولولا ذلك لفسدت معانيه واختلت مبانيه، ولنضرب لهذا مثـالاً يوضحه فنقول: لو قال لنا قائل: "ما أحسن زيد" و لم يبين الإعراب، لما فهمنا غرضـه من هذا القول؛ إذ يحتمل أن يريد به التعجب من حسنه، ويحتمل أن يريد به الاستفهام عن أي شيء فيه أحسن، ويحتمل أن يريد الإخبار بنفي الإحسان عنـه. ولـو بـين الإعراب في ذلك، فقال: ما أحْسَنَ زيدًا! وما أحسنُ زيدٍ؟ وما أحسن زيدٌ، علمنا غرضـه وفهمنا مغزى كلامه؛ لانفراد كل قسم من هذه الأقسام الثلاثة بما يعرف به من الإعراب، فوجب حينئذ على المؤلف -بهذا الدليل- معرفة النحو؛ إذ كان ضابطًا لمعـاني كلامـه(*)، حافظًا لها من الاختلالات. فإن قيل: أما علم النحو فمسلم إليك أنه على مؤلـف الكـلام

(*) مما يبين قيمة علم النحو لطالب علم النظم والمعاني أن الإمام عبدالقاهر الجرجاني قد أقام نظريته في علم النظم على علم النحو حتى جعل النظم هو توخِّي قواعد النحو في ترتيـب الكـلام وتأليفه.

معرفته، لكن التصريف والإدغام لا حاجة به إليهما؛ لأن التصريف إنما هو معرفة أصل الكلمة وزيادها، وهذا لا يضر مؤلف الكلام جهله، ولا ينفعه معرفته. ولنضرب لذلك مثالاً كيف اتفق، فنقول: إذا قال القائل: رأيت "سِرداحًا"[1]، لا يلزمه أن يعرف أن الألف في هذه اللفظة زائدة هي أم أصل؛ لأن العرب لم تنطق بها إلا كذلك، ولو قالت: "سِرْدَح" بغير ألف، لما جاز لأحد أن يزيد الألف من عنده، فيقول "سرداح". فعلم بهذا أن مؤلف الكلام إنما ينطق بالألفاظ كما سمعها عن العرب، من غير زيادة فيها ولا نقصان، وليس عليه بعد ذلك أن يعرف أصلها ولا زيادها؛ لأن ذلك أمر خارج عما تقتضيه صناعته، وكذلك الإدغام، فإنه إذا قال القائل: "مررت برجل ضَفّ الحال"[2] لا يلزمه أن يعلم أن الأصل في "ضف" ضفف، وأن هذه الكلمة إنما أدغمت لكونها مِثْلين عينا ولاما، أو لأجل أنها على وزن الفعل؛ لأن ذلك لا يجب عليه علمه، ولا يضطر إلى معرفته ألبتة، وذلك أنه إنما ينقل هذا وأمثاله عن العرب.

فالذي يسمع أنهم قد تكلموا به يحذو حذوهم فيه، من غير أن يتصرف بشيء من عنده، فإن كان مؤلف الكلام لم يسمع أن العرب قالوا: "رجل ضفٌّ الحال" فقال هو "ضَفِفُ الحال" ولا سمع أنهم قالوا: "ضَفِفُ الحال"، فقال هو: "ضَفَفُ الحال" فإنما تكلم بما سمعه عن العرب من غير زيادة فيه ولا نقصان منه.الجواب عن ذلك أنا نقول: اعلم أنا لم نجعل معرفة التصريف والإدغام ضرورة على مؤلف الكلام كمعرفة النحو؛ لأن المؤلف إذا كان عارفًا بالمعاني، مختارًا لها، قادرًا على الألفاظ، مجيدًا فيها، و لم يكن عارفًا بعلم النحو فإنه يفسد ما يصوغه من الكلام، ويختل عليه ما يقصده من المعاني، كما أريناك في ذلك المثال المتقدم.

---

(١) السِّرداح والسِّرداحةُ: الناقة الطويلة، وقيل: كثيرة اللحم، وجمعها السَّرادِحُ [اللسان: سردح].

(٢) ضفّ الحال: كذا في (ط) و(ح). والضَّفَفُ: الضيق والشدة، ومنه ما روي عن الحسن -رضي الله عنه-: "ما شبع رسول الله ﷺ من خبز ولحم إلا على ضَفَفٍ" [اللسان: (ضفف)].

obeikandl.com

وأما التصريف والإدغام فإن المؤلف إذا لم يكن عارفًا بهما لم يفسد عليه معاني كلامه، وإنما تفسد عليه(*) الأوضاع(١) وإن كانت المعاني صحيحة مفهومة، وسيأتي بيان ذلك في تحرير الجواب. فنقول: أما قولك أيها المترخص: إن التصريف والإدغام لا حاجة لمؤلف الكلام إليهما، واستدلالك على هذا بما ذكرته من هذين المثالين اللذين ضربتهما؛ فإن ذلك لا يستمر لك الكلام فيه ألبتة. أما التصريف وتمثيلك إياه بلفظة "سرداح" وقولك: "إن المؤلف لا يحتاج إلى معرفة أن الألف التي فيها زائدة هي أم أصل؛ لأنه ينقلها عن العرب على ما هي عليه من غير زيادة ولا نقصان"، فإن ذلك لا يطرد إلا فيما هذا سبيله من نقل الألفاظ على هيئتها، من غير تصرف فيها بحال من الأحوال، فأما إذا أراد المؤلف تصغيرها، أو جمعها، أو النسبة إليها، فإنه إذا لم يعرف الأصل في حروف الكلمة وزيادتها وحذفها وإبدالها؛ يضل عن السبيل ويصير عليه مجال للطاعن والعائب، ألا ترى أنه إذا قيل للنحوي، وكان جاهلا بعلم التصريف: كيف تصغر"اضطراب"؟ فإنه يقول: "ضُطَيريب" لا يلام على جهله بذلك؛ لأن الذي تقتضيه صناعة النحو قد أتى به، وذلك أن النحاة يقولون في كتبهم: "إذا كانت الكلمة على خمسة أحرف، وفيها حرف زائد، ولم تكن حذفته [حذفته](**)، نحو قولهم في "منطلق":

(*) في (ط): على، والصواب ما أثبتناه.

(١) هذا الكلام لا نسلم به لابن الأثير؛ وذلك لأن مؤلف الكلام إن كان جاهلاً بعلم التصريف صعب عليه التفريق في كلامه بين الصيغ المتشابهة في اللفظ المختلفة في المعنى، كاسم المرة واسم الهيئة، وخفي عليه التفريق بين الدلالات الدقيقة للصيغ وما بينها من فروق دقيقة كالتفريق بين دلالة الصيغ الاسمية والفعلية عمومًا، ثم التفريق بين دلالة كل صيغة وأخرى كاسم الفاعل واسم المفعول والزمان والمكان والمصادر بأنواعها، وغير ذلك. وانظر في ذلك تفصيلاً: رسالتنا للدكتوراه بعنوان: (التوظيف البلاغي لصيغة الكلمة)، وقد نشرت بعنوان "الإعجاز الصرفي في القرآن الكريم" ط. المكتبة العصرية – بيروت.

(**) زيادة اقتضاها السياق.

"مطيلق" وفي "جحمرش": "جحيمر"[1]. فلفظة "منطلق" على خمسة أحرف، وفيهـا حرفان زئدان، هما الميم والنون، إلا أن الميم زيدت فيها لمعـنى؛ فلـذلك لم تحـذف، وحذفت النون.

وأما لفظة "جحمرش" فخماسية لا زيادة فيها، وحذف منها حرف أيضا، و لم يعلم النحوي أن علماء النحو إنما قالوا ذلك مهملا، اتكالا منهم على تحقيقه من علـم التصريف؛ لأنه لا يلزمهم أن يقولوا في كتب النحو أكثر مما قالوا، ولـيس علـيهم أن يذكروا في باب من أبواب النحو شيئًا من التصريف لأن كلاًّ من النحو والتصريف علم منفرد برأسه، غير أن أحدهما مرتبط بالآخر، ويحتاج إليه. وإنما قلت: إن النحـوي إذا سُئل عن تصغير"اضطراب" يقول: "ضطيريب"؛ لأنه لا يخلو: إما أن يحذف من لفظـة "اضطراب" الألف، أو الضاد، أو الطاء، أو الراء، أو الباء، هذه الحروف المذكورة غير الألف ليست من حروف الزيادة، فلا تحذف، بل الأولى أن يحذف الحرف الزائد ويترك الحرف الذي ليس بزائد؛ فلأجل ذلك قلنا: إن النحوي يصغر لفظة "اضطرب" علـى "ضطيريب"، فيحذف الألف التي هي حرف زائد، دون غيرها مما ليس من حـرف[2]

---

(١) في نسخة (جحيمرش)، والأولى حذف الحرف الأخير.

قال ابن الحاجب في الشافية: "وإذا صغر الخماسي على ضعفه، فالأولى حذف الخامس، وقيل: مـا أشبه الزائد، وسمع الأخفش سفيرجل".

وقال الأسترابادي في شرحه للشافية: "الأولى حذف الخامس؛ لأن الكلمة ثقيلة بالخمسة الأصول، فإذا زادت عليها ياء التصغير زادت ثقلاً، وسبب زيادة الثقل وإن كانت زيادة الياء لكنـه لا يمكن حذفها إذ هي علامة التصغير، فحذف ما صارت به مؤدية إلى الثقل بزيادة حرف آخر عليها، وذلك هو الخامس، ألا ترى أن الرباعي لا يستثقل بزيادة الياء عليه، فحذف الحـرف الخامس مع أصالته..".

ومن النحاة من يثبت الحروف الخمسة كراهة لحذف حرف أصلي [الشيخ رضى الدين الأسترابادي – شرح شافية ابن الحاجب – تحقيق: مجموعة من باحثي اللغة العربي – ط دار الكتب العلمية – بيروت – لبنان – ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م – (١/٢٠٤)].

(٢) كذا في المطبوع.

الزيادة. وأما أن يعلم النحوي أن الطاء في "اضطراب" مبدلة من تاء، وأنه إذا أريد تصغيرها يعاد إلى الأصل الذي كانت عليه، وهو التاء، فيقول: "ضتيريب"، فإن هذا لا يعلمه إلا التصريفي، وتكليف النحوي الجاهل بعلم التصريف معرفة ذلك كتكليفه معرفة علم الغيب. فثبت بهذا الدليل الذي ذكرناه، أن مؤلف الكلام يحتاج إلى علم التصريف؛ لئلا يغلط في مثل هذه الأماكن، فيستوجب عند ذلك المذمة والعيب.

ومن العجب أن يقال: إن مؤلف الكلام لا يحتاج إلى التصريف. ألم تعلم أن نافع بن أبي نعيم(١)، وهو أكبر القراء السبعة قدرًا، وأفخمهم شأنًا، قال في "معايش": "معائش" بالهمز، ولم يعلم بالأصل في ذلك، فأخذ عليه وعيب من أجله، ومن جملة من عابه على ذلك أبو عثمان المازني(٢)، فقال في كتابه في التصريف: "إن نافعا لم يدرِ ما العربية!". وكثيرا ما يقع أولو العلم في مثل هذه المواضع، فكيف الجهال الأغمار، الذين لا خبرة لهم بها، ولا اطلاع لهم عليها؟

وإذا كان المؤلف عارفًا بحقيقة الأمر في ذلك، لا يقع في ورطة تؤخذ عليه، وهذه لفظة "معايش" لا يجوز همزها ألبتة بإجماع من علماء العربية(٣)؛ لأن الياء فيها

---

(١) هو أحد القراء السبعة المشهورين، أصله من أصبهان، واشتهر في المدينة وانتهت إليه رياسة القراءة فيها، وأقرأ الناس نيفًا وسبعين سنة، وتوفي بها سنة ١٦٩هـ [الأعلام (٥/٨)].

(٢) هو بكر بن محمد بن حبيب بن بقية، من مازن شيبان، أحد الأئمة في النحو، من أهل البصرة ووفاته فيها سنة ٢٤٩هـ، ومن أهم تصانيفه: كتاب التصريف، والعروض، والديباج [الأعلام (٦٩/٢)].

(٣) قال ابن منظور: "جمع المعيشة: معايش على القياس، ومعائش على غير قياس، وجميع النحويين البصريين يزعمون أن همزها خطأ، وذكروا أن الهمزة إنما تكون في هذه الياء إذا كانت زائدة مثل: صحيفة وصحائف، فأما معيشة فمن العيش، الياء أصلية.

قال الجوهري: جمع المعيشة: معايش بلا همز إذا جمعتها على الأصل، وأصلها معيشة، وتقديرها مَفْعِلَةٌ، والياء أصلها متحركة فلا تنقلب في الجمع همزة، وكذلك مكايل ومبايع ونحوها، وإن جمعتها على الفرع همزت وشبهت مَفْعِلة بفَعِيلة كما همزت المصائب؛ لأن الياء ساكنة" [انظر: اللسان (عيش)، والصحاح (عيش)، وتاج العروس (عيش)].

ليست مبدلة من همزة، وإنما الياء التي تبدل من الهمزة في هذه المواضع تكون بعد ألف الجمع المانع من الصرف، ويكون بعدها حرف واحد، لا يكون عينا، نحو: سفائن. وفي هذا الموضع غلط نافع لا شك، اعتد أن معيشة بوزن فَعِيلة، وجمع فعيلة على وزن فعائل، و لم ينظر إلى أن الأصل في معيشة "مَعْيِشة" على وزن مَفْعِلة؛ وذلك لأن أصل هذه الكلمة من عاش التي أصلها عَيَشَ على وزن "فَعَلَ"، ويلزم مضارع فَعَلَ المعتل العين بالياء "يَفْعِلُ" لتصح الياء نحو "يَعْيِشُ"، ثم تنقل حركة العين إلى الفاء فيصير "يَعِيْش"، ثم يبنى من "يَعيش" مفعول، فيقال: "مَعْيُوْش به" كما يقال: "مسيور به"، ثم يخفف ذلك بحذف الواو فيقال: "معيش [به](*)" كما يقال: "مسير به"، ثم تؤنث هذه اللفظة فتصير "معيشة"، فاعرف ذلك وقس عليه.

وهاهنا نكتة أخرى، وهي من أعظم الأسباب الموجبة لمعرفة علم التصريف، وذلك أن المعتل من الكلام إذا بني من ماضيه مستقبل، يجهل مواقع الصواب فيه إذا لم يكن المؤلف عارفاً بعلم التصريف. مثال ذلك: إذا أراد المؤلف أن يبني من وزن "فَعَلَ" المعتل فاؤه بالواو مستقبلا، فإن كان جاهلا بذلك قال في "وَعَدَ": "يَوْعِد"؛ قياسًا على الصحيح في "ضرب" "يضرب"، وإن كان عالمًا به حذف الواو؛ لوقوعها بين ياء وكسرة، فقال: "وَعَدَ" "يَعِدُ"، وكذلك إذا أراد أن يبني من وزن "فَعِلَ" أو وزن "فَعُلَ" المعتَلِّ الفاء بالواو مستقبلا؛ فإنه إن كان جاهلاً ذلك، وكان قد سمع بعض العلماء يقول في "وَعَدَ": "يعدُ"، حمل "فَعِلَ وفَعُلَ" على ذلك الأسلوب؛ فقال: "وَجِلَ يجِل" وفي "وضؤَ": "يضؤ"، وإذا كان عارفًا بمعنى الأمر في ذلك لم يحذف الفاء في مستقبل "فعِل وفَعُل"، بل يقول: "وَجِلَ يَوْجلُ" و"وضؤ يوْضُؤ"، وكثيرًا ما يقع الخطأ في تصريف الكلام المعتل من الماضي إلى المستقبل، وهو موضوع من العربية وعر المسلك، فينبغي لمؤلف الكلام مراعاته والاعتناء به، وأمثال هذا كثير فاعرفها.

(*) زيادة يقتضيها السياق.

وأما الإدغام وقولك: إن المؤلف لا يحتاج إلى معرفته، واستدلالك عليه بما ذكرته من المثال، وهو قولك: "مررت برجل ضف الحال"، فإن ذلك لا يسلم إلا في هذه الصورة، وما يجري مجراها في نقل الألفاظ على هيئتها، ومِنْ شَرْط الأمثلة أن تكون شائعة في جنسها. ولنضرب لذلك مثالا كيف اتفق، فنقول: إذا قال النحوي في تعريف الحال: "إنها هيئة الفاعل أو المفعول، وهي نكرة منصوبة مشتقة، أو في تقدير المشتقة، تأتي بعد معرفة، ويحسن تقدير "في" معها وسؤال "كيف"، ثم مثَّل ذلك بقوله: "جاء زيد راكبا"، فلا يجوز أن يكون هذا المثال غير مطرد في جنسه؛ لأنه لو لم يكن مطردًا في جنسه لما جاز أن يجعل مثالا لما تقدمه من هذه المصادر، وكذلك هذا المثال الذي مثلت به ما ادعيته في الإدغام فإنه ليس بشائع في جنسه، وبيان ذلك أنا نقول: قد ورد عن بعضهم هذان البيتان وهما:

اذهبي في كَلاءةِ الرَّحمنِ ... أنتِ منِّي في ذِمَّةٍ وأمانِ

ترهَبِيني والجيدُ منْكِ لِلَيْلَى ... والحشا والبُغامُ والعينانِ[1]

فماذا يقول هذا الشاعر إذا سئل عن قوله: "ترهبيني" وقيل: إن الأصل في ذلك "ترهبينني" بحذف إحدى النونين؟ فلا أجده يستطيع الجواب عن ذلك، إلا أن يكون عارفًا بالإدغام، وهو: إذا كان المِثْلان في كلمتين وقبلهما ساكن، وهو حرف مدّ أو لين، يجوز إدغام أحدهما في الآخر، ولمّا وجد هذا السبب في "ترهبينني" أدغمت إحدى النونين في الأخرى، ثم خفف الإدغام فصارت "ترهبيني"؛ فيجب حينئذ على مؤلف الكلام -بهذا الدليل- معرفة الإدغام، ليسلم من اعتراض متعرض[2] أو تعنت متعنت.

وأما النوع الثاني: وهو قولنا إن المؤلف يحتاج إلى معرفة اللغة، فلسنا نعني بذلك إلا ما كان مألوفا متداولا بين أرباب هذه الصناعة، وسيأتي ذكر ذلك في كتابنا

---

(١) البيتان من الخفيف وهما لمجنون ليلى في "ديوانه" من قصيدةٍ البيتُ الأولُ مطلعُها، وفي "الشعر والشعراء" ص(٥٨٣)، و"زهر الآداب وثمر الألباب" ص(٧٠٩)، و"مصارع العشاق" ص(٧٧١).

(٢) كذا في (ط).

هذا. ويفتقر المؤلف أيضا إلى معرفة عدة أسماء لما يقع استعماله في النظم والنثر، ليجد إذا ضاق به موضع في كلامه بإيراد بعض الألفاظ فيه، العدول عنه إلى غيره مما هو في معناه.

وكذلك يحتاج إلى معرفة الأسماء المشتركة؛ ليستعين بها على استعمال التجنيس في كلامه. واعلم أن هذا الموضع ينبغي أن يذكر فيه الأسماء ألبتة، وانقسام دلالتها على المعاني، فإن المؤلف إذا كان عالما بذلك، فهو مما لا يستغني عنه، فنقول:

الألفاظ تنقسم دلالتها على المعاني ستة أقسام: مترادفة، ومشتركة، ومتباينة، ومتواطئة، ومشككة، ومتشابهة. فأما الثلاثة الأولى التي هي: المترادفة، والمشتركة، والمتباينة؛ فيحتاج مؤلف الكلام إلى معرفتها. وإنما أوجبنا عليه معرفة الأسماء المتباينة؛ لأن منها ما يوهم أنه من المترادفة، وليس كذلك. وأما الثلاثة الأخر التي هي: المتواطئة، والمشككة، والمتشابهة، فإنه لا يحتاج مؤلف الكلام إلى معرفتها؛ لأن ورودها في التأليف لا ينتج فائدة تذكر، كالمترادفة والمشتركة، وما شابه المترادفة من المتباينة، وإنما ذكرنا هذه الثلاثة الأخر هَاهنا؛ لنكون قد استوفينا جميع أقسام الأسماء في كتابنا هذا، فاعرفه.

فأما الأسماء المترادفة: فهي المختلفة الدالة على معنى يندرج تحت حقيقة واحدة: كالخمر، والراح، والعقار؛ فإن المسمى بهذه الأسماء شيء واحد، وهو الشراب المسكر المعتصر من العنب.

وأما الأسماء المشتركة: فهي اللفظ الواحد المطلق على موجودات مختلفة بالحد والحقيقة إطلاقًا متساويًا: كالعين؛ فإنها تطلق على العين الباصرة، وعلى ينبوع الماء، وعلى المطر. وكل من هذه الثلاثة مختلف بالحد والحقيقة.

وأما المتباينة: فهي الأسماء المختلفة الدالة على معان مختلفة: كالفرس، والحمار، والجدار، وغير ذلك، وقد يوجد من المتباينة ما يوهم أنه من المترادفة وليس كذلك، وهو أن يتحد الموضوع، ويتعدد الاسم، بحسب تباين اعتبارات، فمن ذلك أن يكون أحد الاسمين له من حيث هو موضوعه، والآخر من حيث هو صفة له، كقولنا: السيف، والصارم؛ فإن الصارم دل على موضوع بصفة الحِدَّة، وذلك بخلاف ما دل

عليه السيف؛ لأنه موضوع بإزاء هذه الآلة كيف كانت. ومن ذلك أن يكون أحد الاسمين له بسبب وصف، والآخر بسبب وصف للوصف، كقولنا: الناطق، والفصيح؛ فإن الفصيح وصف للناطق الذي هو وصف الإنسان.

وأما الأسماء المتواطئة: فهي الدالة على أعيان متعددة بمعنى واحد مشترك بينها، كدلالة اسم الحيوان على الإنسان، والفرس، والحمار؛ لأنها مشتركة في الحيوانية؛ والاسم موضوع بإزاء ذلك المعنى المشترك المتعاطى(*).

وأما المشككة: فهي كل اسم دل على شيئين فصاعدًا، بمعنى هو واحد في نفسه، لكن يختلف ذلك المعنى فيها من جهة أخرى، كالتقدم والتأخر، والأشد والأضعف، أما التقدم والتأخر فكالوجود للجوهر قبل العرض، وأما الأشد والأضعف فكالبياض الواقع على الثلج والعاج؛ فإن الثلج أشد بياضا من العاج.

وأما المتشابهة: فهي الأسماء التي لا يجمعها معنى واحد، لكن بينها تشابه ما، من حيث ذاتها، كالطين المصور على صورة الإنسان؛ إذ يطلق لفظ الإنسان عليه، وعلى الإنسان الحقيقي، بطريق المشابهة لا بطريق التواطؤ؛ لأنهما مختلفان في الحد والحقيقة.

هذا ما ينبغي ذكره في الأسماء وانقسامها في الدلالة على المعاني، فاعرفه.

وأما النوع الثالث: فهو معرفة أمثال العرب وأيامهم؛ فإن مؤلف الكلام شديد الحاجة إلى ذلك؛ وذلك أن العرب لم تضع الأمثال إلا لأسباب أوجبتها، وحوادث اقتضتها، فصار المثل المضروب لأمر من الأمور عندهم كالعلامة التي يعرف بها الشيء. وليس في كلامهم أوجز منها، ولا أشد اختصارًا، وسبب ذلك ما أذكره لك، لتكون من معرفته على يقين.

(*) والفارق بين هذا النوع من المشترك المنعوت بالمتواطئ والنوع الأول من الأسماء المشتركة، أن هذا المتواطئ بينه اشتراك في الحد والحقيقة، وذلك كاسم الحيوان فإنه مشترك من جهة الحد والحقيقة بين الإنسان والحيوان، لاشتراكهما في معنى الحيوانية، بخلاف الأسماء المشتركة غير المتواطئة بينها اختلاف تام في الحد والحقيقة.

فأقول: قد جاء عن العرب من جملة أمثالهم: "إنْ يَبْغِ عليكَ قومُك لا يَبْغِ عليك القمر"[1]، وهو مثل يضرب للأمر الظاهر المشهور، والأصل فيه:

قال المفضل بن محمد[2]: إنه بلغنا أن بني ثعلبة بن سعد بن ضبة في الجاهلية تراهنوا على الشمس والقمر ليلة أربع عشرة من الشهر، فقالت طائفة: تطلع الشمس والقمر يرى، وقالت طائفة: يغيب القمر قبل أن تطلع الشمس، فتراضوا برجل جعلوه بينهم حكمًا، فقال واحد منهم: إن قومي يبغون علي، فقال له الحكم: "إن يبغ عليك قومك لا يبغ عليك القمر"؛ فذهبت مثلا. ومن المعلوم أن قول القائل: "إن يبغ عليك قومك لا يبغ عليك القمر" إذا أخذ على حقيقته من غير نظر إلى القرائن المنوطة به والأسباب التي قيل لأجلها، لا يعطي من المعنى ما قد أعطاه المثل؛ وذلك لأن المثل له مقدمات وأسباب، قد عرفت وصارت مشهورة بين الناس معلومة عندهم، وحيث كان الأمر كذلك جاز إيراد هذه اللفظات في التعبير عن المعنى المراد، ولولا تلك المقدمات المعلومة والأسباب المعروفة، لما فهم من قول القائل: "إن يبغ عليك قومك لا يبغ عليك القمر" ما ذكرناه في المعنى المقصود، بل ما كان يفهم من هذا القول معنى مفيد ألبتة؛ لأن البغي هو الظلم، والقمر ليس من شأنه أن يظلم أحدًا، فكان يصير معنى المثل: "إن كان يظلمك قومك لا يظلمك القمر"، وهذا الكلام مختل ليس بمستقيم.

فلما كانت الأمثال كالرموز والإشارات، التي يلوح بها على المعاني تلويحًا، صار من أوجز الكلام وأكثره اختصارًا، وحيث هي بهذه المثابة فلا ينبغي لمؤلف الكلام أن يخل بها.

---

(١) انظر: الأمثال للمفضل الضبي ص(١٤٠)، والمثل السائر في أدب الكاتب والشاعر لابن الأثير ص(٣٩)، والمستقصي في أمثال العرب ص(٥١٩).

(٢) الأديب أبو العباس، وقيل: عبدالرحمن، كان عالمًا بالنحو والشعر والغريب وأيام الناس، وكان يكتب المصاحف ويضعها في المساجد تكفيرًا لما كتبه بيده من أهاجي الناس [بغية الوعاة: (٢/٢٩٧)].

وأما أيام العرب فإنها تتنوع وتتشعب، فمنها أيام فخار، ومنها أيـــام محاربــة، ومنها أيام مذمة وعار، ومنها غير ذلك. ولا يخلو المؤلف من الانتصاب لوصف يوم يمر به في بعض الأوقات، مشبها بذلك مماثلا له، فإذا جاء بذكر بعض تلك الأيام المناســبة لمراده، الموافقة له، وقاس عليه يومه، فقال: "أشهر من يوم كذا" أو "أسْيَر" أو ما جرى هذا المجرى، فإنه يكون في غاية الحسن والرونق، وهذا لا خفاء به.

وأما النوع الرابع: وهو الاطلاع على كلام المتقدمين من المنظوم والمنثور، فإن فيه للمؤلف فوائد جمة؛ وذلك أن يعلم منه أغراض الناس ونتائج أفكـــارهم، ويعــرف مقاصد كل فريق منهم، وإلى أين ترامت به صنعته في ذلك؛ فإن هذه الأشياء مما تشحذ القريحة، وتذكي الفطنة، وإذا كان المؤلف عارفًا بها، تصير المعاني التي ذكرها أربــاب هذه الصناعة، وتعبوا في استخراجها، كالشيء الملقى بين يديه، يأخذ منه ما أراد ويترك ما أراد، وأيضا فإنه إذا كان مطلعًا على المعاني المسبوق إليها، فقد ينقدح له من بينــها معنى غريب لم يسبق[*]، ومن المعلوم أن خواطر المؤلفين وإن كانت متفاوتة في الجــودة والرداءة، فإن بعضها قد يكون عاليًا على بعض، أو منحطًّا عنه بشيء يسير. وكثيرا ما تتساوى القرائح والأفكار في الإتيان بالمعاني، حتى إن بعض المؤلفين قد يأتي بمعنى مــن المعاني مصوغا بلفظه، ثم يأتي الآخر بعده بذلك بالمعنى واللفظ بعينهما، من غير علم منه بما جاء به المؤلف الأول، وهذا هو الذي تسميه أرباب هذه الصناعة: "وقع الحافر على الحافر"، كقول امرئ القيس:

وقُوفًـــا بهـــا صَـــحْبِي علـــيَّ مَطِـــيَّهم يقولـــون لا تَهْلِـــكْ أَسًـــى وتجمَّـــلِ[1]

([*]) في (ط) زيادة (إليه).

(١) البيت من الطويل، وهو في ديوانه، تحقيق: مصطفى عبدالشـــافي، ط دار الكتـــب العلميـــة ص(١١١)، وبلا نسبة في رصف المباني ص(٢٦٨)، وفي الإيضاح في علوم البلاغة للخطيـــب القزويني- تحقيق د/عبدالحميد هنداوي- مؤسسة المختار، ص(٣٤٠).

وقول طرفة بن العبد البكري بعده:

وُقُوفًا بها صَحْبِي عَلَيَّ مَطِيَّهم يقولون لا تَهْلِكْ أَسًى وتَجَلَّدِ[1]

وسيأتي لذلك باب مفرد في كتابنا هذا.

وأما النوع الخامس: وهو معرفة الأحكام السلطانية من الإمامة والإمارة، وغير ذلك، فإنما أوجبنا على مؤلف الكلام معرفتها والإحاطة بها؛ لأنه قد يحدث في الإمامة حادث في بعض الأوقات، أو يجري فيها أمر من الأمور؛ بأن يكون الإمام القائم من المسلمين، ثم يتولى من بعده من لم تتكامل فيه شرائط الإمامة، أو يكون كامل الشرائط غير أن الإمام الذي كان قبله عهد بها إلى آخر غيره وهو ناقص الشرائط، أو يكون قد تنازع الإمامة شخصان، أو يكون أرباب الحل والعقد قد اختاروا إماما، وهم غير كاملي الشرائط التي يجب أن توجد فيهم، أو يكون أمر غير ما ذكرنا، فتختلف الأطراف في ذلك، وينتصب ملك من ملوك الأرض له عناية بالإمام الذي قام للمسلمين، فيتقدم إلى كاتبه بكَتْبِه كتابًا في معناه إلى الأطراف المخالفة له، وإذا لم يكن الكاتب عند ذلك عارفا بالحكم في هذه الحوادث، واختلاف أقوال العلماء فيها، وما هو رخصة في ذلك وما ليس برخصة - فإنه لا يكتب كتابًا ينتفع به ألبتة، ولسنا نعني بهذا القول أن يكون الكتاب مقصورا على فقه محض فقط؛ لأنا لو أردنا ذلك لما كنا نحتاج فيه إلى كَتْبِه كتابًا، بل كنا نقتصر على إنفاذ مصنَّف من مصنفات الفقه عوضا عن الكتاب الذي نريد أن نكتبه، وإنما قصدنا بذلك أن يكون الكتاب الذي يكتب في هذا المعنى مشتملاً على الترغيب والترهيب، والتسامح في موضع والمُحَاقَّة في موضع، مشحونا كذلك بالنكت الشرعية التي تليق به وتناسبه، كما فعل الصابئ[2] في الكتاب الذي كتبه عن عز الدولة بن بويه إلى الطائع لما مات المطيع، فإنه من محاسن الكتب التي يكتب بها في هذا الفن.

---

(١) البيت في ديوانه- (٦)، وفي الإيضاح- (٣٤٠).

(٢) هو إبراهيم بن هلال بن إبراهيم بن زهرون الحراني، أبو إسحاق الصابئ نابغة كتاب جيله، تقلد دواوين الرسائل والمظالم والمعاون تقليدًا سلطانيًّا في أيام المطيع لله العباسي، ولد سنة ٣١٣هـ، وكانت وفاته سنة ٣٨٤هـ [الأعلام (٧٨/١)].

وأما النوع السادس: وهو حفظ القرآن الكريم، والاطلاع على غرائبه، وعجائبه، فإن مؤلف الكلام ينبغي له أن يكون عارفًا بذلك؛ لأن فيه فوائد كثيرة، ومنافع زائدة، منها: أن يضمن كلامه الآيات في أماكنها اللائقة بها، ومواضعها المناسبة لها، ولا شبهة فيما يصير للكلام بذلك من الفخامة والجزالة والرونق، كما فعل الشيخ عبد الرحيم بن نباتة[1] في خطبه؛ فإنه أبدع في تضمين الآيات فيها، وسيأتي بيان ذلك في باب التضمين.

ومنها: أن المؤلف إذا عرف مواقع البلاغة وأسرار صناعة الكلام في تأليف القرآن الكريم، اتخذه بحرًا يستخرج منه الدرر والجواهر، ويودعها في مطاوي كلامه. وكفى بالقرآن الكريم وحده آلة لمؤلف الكلام؛ فعليك أيها المترشح لهذه الصناعة بحفظه، والفحص عن سره الخفي، وغامض علمه المستور؛ فإنها تجارة للمؤلف لا تبور، ومنبع لا يغور، وكنز يرجع إليه، وذخر يعوِّل في جميع كلامه عليه.

وأما النوع السابع: وهو تحفظ أخبار الرسول ﷺ مما يحتاج مؤلف الكلام إلى استعماله؛ فإن الأمر يجري في ذلك مجرى القرآن الكريم، وقد تقدم القول فيه، فاعرفه.

---

(١) هو عبدالرحيم بن محمد بن إسماعيل بن نباتة الفارقي، أبو يحيى صاحب الخطب المنبرية، كان مقدمًا في علوم الأدب، وأجمعوا على أن خطبه لم يعمل مثلها في موضوعها، ولد في ميافارقين بديار بكر ونسبته إليها سنة ٣٣٥هـ، واجتمع بالمتنبي في خدمة سيف الدولة الحمداني، وكان تقيًّا صالحًا، توفي بحلب سنة ٣٧٤هـ [الأعلام (٣/٣٤٧)].

obeikandl.com

القسم الثاني

وهو ما يخص الناظم دون الناثر

وذلك معرفة العروض، وما يجوز فيه من الزحاف وما لا يجوز؛ فإن الشاعر محتاج إليه، ولسنا نوجب عليه المعرفة بذلك لينظم بعلمه؛ فإن النظم مبني على الذوق، ولو نظم بتقطيع التفاعيل لجاء شعره متكلفا غير مرضيّ، وإنما أريد للشاعر معرفة العروض؛ لأن الذوق قد ينبو عن بعض الزحافات، ويكون ذلك جائزا في العروض، وقد ورد للعرب مثله؛ فإذا كان الشاعر غير عالم به لم يفرق بين ما يجوز من ذلك وبين ما لا يجوز.

وكذلك أيضا يحتاج الشاعر إلى العلم بالقوافي والحركات؛ ليعلم الرَّوِيَّ، والرِّدف، وما لا يصح من ذلك، فإذا أكمل مؤلف الكلام معرفة هذه الآلات، وكان ذا طبع مجيب وقريحة مؤاتية؛ فعليه بالنظر في كتابنا هذا، والتدبر لمشكلاته، والتصفح لما أودعناه من حقائق علم البيان، ونبهنا عليه من أصول ذلك وفروعه.

الباب الثاني

من الفن الأول من القطب الأول

في أدوات التأليف

اعلم أيها المنتصب لهذه الصناعة، أنه يجب عليك إذا أردت أن تؤلف شيئا من الكلام، منثورا كان أو منظوما، أن تأخذ من نفسك ساعة نشاطك وفراغ بالك، وإجابتها لك، فإن قليل تلك الساعة أجدى عليك بما يعطيك يومك بالكد والمطاولة(*). وإياك والتوعُّر؛ فإنه يسلمك إلى التعقيد، والتعقيد هو الذي يستهلك معانيك، ويشين ألفاظك، وسنبين لك فيما يأتي من هذا الكتاب ما تتوقى به ذلك؛ فإذا حاولت أمرا بديعا فالتمس له لفظا يناسبه؛ فإنه جدير بالمعنى الشريف أن يكون لفظه شريفًا، وإذا وجدت ذلك، فهو الدرجة التي لا أمد وراءها، والمترلة التي لا مطلع فوقها، وعليك بتنقيح(١) الألفاظ وتحسينها، فإن الخطب الرائقة والأشعار البارعة، لم تعمل لإفهام المعاني فقط؛ لأنه لو قصد بها الإفهام فقط لكان الرديء من الألفاظ يقوم مقام الجيد في الإفهام، وإنما عملت الخطب والأشعار لأجل الإتيان ببداعة اللفظ، وإحكام صنعته. ولسنا نعني بذلك أن يجعل المؤلف همته مقصورة على تجويد الألفاظ، ويهمل المعاني المنوطة تحتها، وإنما المعنيُّ به أن تكون المعاني المقصودة ذات ألفاظ حسنة رائقة، وسنذكر معرفة اللفظ الجيد من الرديء، والفرق بينهما، فيما يأتي من كتابنا هذا.

واعلم أن المعنى هو عماد اللفظ، واللفظ هو زينة المعنى، والمعاني بمترلة الأرواح، والألفاظ بمترلة الأجساد، فأول ما يجب على المتكلم أن لا يؤلف كلامه من

(*) كثير مما ذكره المصنف في هذا الفصل، وفي هذه الديباجة على الخصوص قد أفاده مما ذكره البلاغيون والنقاد قبله، وتجد كثيرًا منه في صحيفة بشر بن المعتمر التي رواها الجاحظ في كتابه البيان والتبيين، وقد تعرضت لتحليل ما جاء في هذه الصحيفة من القيمة البلاغية والنقدية في كتابي: "أضواء على مسيرة البلاغة العربية" ط دار الهاني – جامعة القاهرة ص(١١٤).

(١) نَقَّحَ الكلامَ: فتَّشه وأحسن النظر فيه، وقيل: أصلحه وأزال عيوبه [اللسان: (نقح)].

ألفاظ رديئة، ثم إن ألفه من ألفاظ جيدة حسنة؛ فإنه لا يكون لها مزية ورونق إلا بإيداعها معنى شريفًا واضحًا؛ لأن الألفاظ لا تراد لنفسها، وإنما تجعل أدلة على المعاني، فإذا عدمت الذي يراد منها لم يعتد لها بالأوصاف التي تكون لها. ألا ترى أن قولك: "فعولن مفاعيلن...." ليس له من الحلاوة والرونق ما لقولك:

تَضَوَّعَ مسكا بطنُ نعمان إذ مشت ... به زينب في نسوة خفرات[1]

وذلك لخلوه من المعنى المفهوم؟ وهذا مما لا يحتاج فيه إلي زيادة في القول؛ لبيانه ووضوحه، ومن المعلوم أن جماعة العقلاء من الخاصة والعامة يعرفون المعاني، ويصيبون فيها، إلا أنهم لا يقدرون على إبرازها في لباس أنيق مناسب لها؛ لعدم الطبع المجيب إلى ذلك. ألا ترى أنه حكي عن المبرد[2]، وهو من أكبر علماء العربية وأفخمهم شأنًا، وصاحب قول ومذهب، أنه قال: لا أحتاج إلى وصف نفسي لعلم الناس بي؛ إنه ليس أحد يختلج في قلبه مسألة مشكلة إلا لقيني بها، وأعدني لها؛ فأنا عالم ومتعلم، وحافظ ودارس، لا يخفى عليَّ مشتبه من الشعر والنحو، والكلام المنثور من الخطب والرسائل، ولربما احتجت إلى اعتذار من قلة إلى بعض الأصدقاء، أو التماس لحاجة، فأجعل المعنى الذي أقصده نصب عيني، ثم لا أجد سبيلا إلى التعبير عنه بما أرتضيه، ولقد بلغني أن عبيد الله بن سليمان[3] ذكرني بجميل، فحاولت أن أكتب إليه رقعة أشكره فيها، وأعرِّضُ ببعض أموري، فأتعبت نفسي يومًا في ذلك، فلم أقدر على ما أرتضيه، فكنت أحاول الإفصاح عما في ضميري؛ فينحرف لساني إلى غيره.

---

(١) البيت من الطويل، وهو لعبدالله بن نمير الثقفي في لسان العرب- (ضوع)، (نعم)، ولمحمد ابن عبدالله النميري الثقفي في الأغاني- (٦/٢٠٦، ٢٠٩، ٢١٣، ٢١٤)، والكامل- (٦٢٩، ٧٧٠، ١٠٩٣)، وتاج العروس- (ضوع)، ونَعمانُ -بالفتح: اسم واد في طريق الطاف يخرج إلى عرفات.

(٢) هو محمد بن يزيد بن عبدالأكبر الثمالي الأزدي، أبو العباس إمام العربية ببغداد في زمنه، وأحد أئمة الأدب والأخبار، مولده بالبصرة سنة ٢١٠هـ، ووفاته ببغداد سنة ٢٨٦هـ [الأعلام (٧/١٤٤)].

(٣) عبيدالله بن سليمان بن وهب الحارثي، أبو القاسم، وزير، من أكابر الكتاب، ولد سنة ٢٢٦هـ، استوزره المعتمد العباسي، وأقره بعده المعتضد، واستمرت وزارته عشر سنين إلى وفاته، وهو ابن وزير، ووالد وزير (القاسم بن عبيدالله)، وتوفي سنة ٢٨٨هـ [الأعلام (٤/١٩٤)].

obeikandl.com

فإذا كان هذا قول المبرد- مع علو مترلته، وارتفاع قدره- فما ظنك بمن لم يستنشق رائحة هذه الصناعة؟ ولذلك قيل: زيادة المنطق على الأدب خير، وزيادة الأدب على المنطق هجنة، فاعرف ذلك وقس عليه.

ولأجل تجويد الألفاظ وتهذيبها كان الكاتب في الرسالة، والخطيب في الخطبة، والشاعر في القصيدة، بعد الفراغ من معانيها يشتغل بتنقيح ألفاظها، والتأنق في تجويدها؛ ليدل بذلك على براعته والتقدم في صناعته، ولو كان قصد هؤلاء القوم إفهام المعاني فقط اطَّرحوها، وربحوا كدًّا كبيرًا، وأسقطوا عن أنفسهم تعبًا زائدًا.

فينبغي لمؤلف الكلام حينئذ أن تكون ألفاظه رشيقة لائقة، متصفة بالصفات التي يرد ذكرها في هذا الكتاب، ويكون معناه صوابا فيما قصد له، وإذا كان حسن التأليف لا يؤاتيك، ولا تصل قدرتك إليه وتجد اللفظة لا تقع موقعها، ولا تصير إلى مركزها، ولا تتصل بسلكها، وكانت قلقة في مكانها، نافرة عن موضعها، فلا تكرهها على اغتصاب الأماكن، والترول في غير موطنها؛ فإنك إن لم تتعاط صناعة التأليف من المنظوم والمنثور لم يعبك على ذلك أحد، ولو تكلفت ذلك و لم تكن حاذقًا به، ولا محكمًا له؛ استحققت عند ذلك العيب، واستوجبت الذم، وجعلت نفسك غرضًا لسهام الملام.

وإن كانت قريحتك لا تسمح لك، وتعصي عليك، بعد إجالة الفكر، وإطالة النظر فلا تعجل واترك نفسك في تلك الحالة، ثم عاود أمرك عند نشاطك وفراغ بالك؛ فإنك لا تعدم حالة الإجابة من خاطرك، والمؤاتاة إن كان لك قلب مجيب.

واعلم أنه ينبغي أن تستعمل في كتابك إن كنت كاتبًا، مخاطبة كل فريق من الناس على قدر طبقاتهم، وقوتهم في الفهم، والدليل على ذلك أن رسول الله ﷺ لما أراد أن يكتب إلى أهل فارس، كتب إليهم ما يمكنهم ترجمته، وهو: "من رسول الله ﷺ إلى كسرى أبرويز عظيم فارس، سلام على من اتبع الهدى، وآمن بالله ورسوله، وشهد أن لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، وأن محمدًا عبده ورسوله، وأني رسول الله إلى الناس كافة، لينذر من كان حيًّا ويحقَّ القول على الكافرين، فأسلم تسلم، وإن أبيت فإثم المجوس عليك"[١].

---

(١) ذكره ابن جرير الطبري في "تاريخ الأمم والملوك" ط. دار الكتب العلمية – بيروت – سنة ١٤٠٧هـ الطبعة الأولى - (٢/١٣٣).

ألا ترى كيف سهل الألفاظ غاية التسهيل، بحيث إنها لا تخفى على من له أدنى تَشَبُّث باللغة العربية، ولما أراد أن يكتب إلى قوم من العرب خاطبهم على قدر قـوهم وعادهم لسماع مثله، فكتب لوائل بن حُجر(١): "من محمد رسول الله ﷺ إلى الأقيال(٢) العباهلة(٣) أهل حضرموت بإقام الصلاة وإيتاء الزكاة؛ على التيعة(٤) شاة، والتيمـة(٥) لصاحبها، وفي السيوب(٦) الخمـس لا خـلاط(٧)، ولا وراط(٨)، ولا شـناق(٩)، ولا شغار(١٠)، ومن أجبى(١١)، فقد أربى(١٢) وكل مسكر حرام"(١٣).

---

(١) هو وائل بن حُجر الحضرمي القحطاني، أبو هنيدة من أقيال حضرموت، وكان أبوه من ملوكهم، وفد على النبي ﷺ فرحب به واستعمله على أقيال من حضرموت، وأعطاه كتابًا للمهاجر بن أبي أمية وكتابًا للأقيال والعباهلة، وأقطعه أرضًا، توفي سنة ٥٠هـ [الأعلام (١٠٦/٨)].

(٢) قال أبو عبيدة: الأقيال: ملوك باليمن دون الملك الأعظم، واحدهم: قَيْل يكون ملكًا على قومه ومخلافه ومحجره [اللسان: (قول)].

(٣) العباهلة واحده: عبهل، وهم الذين أقروا على ملكهم لا يزالون [أساس البلاغة: (عبهل)].

(٤) التيعة بالكسر: الأربعون من غنم الصدقة، وقيل: التيعة الأربعون من الغنم من غير أن يخـص بصدقة ولا غيرها [اللسان: (تيع)].

(٥) التيمة يقال: إنها الشاة الزائدة عن الأربعين حتى تبلغ الفريضة الأخرى، ويقال لها: إنها الشـاة تكون لصاحبها في مترله وليست بسائمة، وهي من الغنم الربائب، وربما احتاج صـاحبها إلى لحمها فيذبحها [تهذيب اللغة: (تام)].

(٦) السيوب: هي الركائز؛ لأن الركائز يجب فيه الخمس، لا الزكاة [اللسان: (سيب)].

(٧) الخلاط: أن يخالط صاحب الثمانين صاحب الأربعين في الغنم، وفيهما شاتان لتؤخذ واحدة.

(٨) الوراط: هي خداع المصدق بأن يكون له أربعون شاة فيعطي صاحبه نصفها لئلا يأخذ المصدق شيئًا، وهي في الأصل الهوة الغامضة، فجعلت مثلا لكل خُطة ماكرة.

(٩) الشناق: أخذ شيء من الشَّنق، وهو ما بين الفريضتين، سمي شنقًا لأنه ليس بفريضة تامة فكأنه مشنوق أي مكنوف عن التمام [اللسان: (شنق)].

(١٠) الشِّغَار: أن يشاغر الرجل الرجل، وهو أن يزوجه أخته على أن يزوجه هو أخته ولا مهر إلا هذا، من قولهم: شغرت بني فلان من البلد إذا أخرجتهم.

(١١) أجبى: باع الزرع قبل بدو صلاحه، وأصله الهمز من جبأ عن الشيء إذا كفَّ عنه.

(١٢) الإرباء: الحول في الربا، والمعنى أنه إذا باعه على أن فيه كذا قفيزًا، وذلك غير معلوم، فـإن نقص عما وقع التعاقد عليه أو زاد فقد حصل الربا في أحد الجانبين.

(١٣) كره الزمخشري في الفائق في غريب الحديث – تحقيق: على محمد البجاوي – محمـد أبـو الفضل إبراهيم – دار المعرفة – لبنان – الطبعة الثانية (١٧-١٤/١).

فانظر أيها المتأمل لهذا الكلام، كيف خاطب هؤلاء القوم بالضد مما خاطب أهل فارس، وليس سبب ذلك إلا ما ذكرناه من مخاطبة كل فريق من الناس على قدر معرفتهم، فاعرف ذلك وقس عليه.

obeikandl.com

الباب الثالث

من الفن الأول من القطب الأول في الطريق

إلى صناعة النظم والنثر

اعلم أيها المتأمل لكتابنا هذا، أنا مارسنا هذه الصناعة، وبيناها من طرق كثيرة، وأبواب متعددة، وخبرنا ما ينفع المتدرب من ذلك، وما يكون أعون له، وأجدى عليه وأقرب إلى تعليمه وإفادته، فلم نجد ما هو أسهل مأخذًا، وأقرب متناولاً، سوى طريق واحد نحن ذاكروه في هذا الكتاب، فنقول:

يجب على المبتدئ في هذا الفن والمترشح له إذا آتاه الله طبعًا مجيبًا، وقريحة مواتية، وكان مستكملا لمعرفة ما يجب على المؤلف معرفته، مما أشرنا إليه في صدر هذا الكتاب، أن يأخذ رسالة من الرسائل، أو قصيدة من الشعر، يقف على معانيها، ويتدبر أوائلها وأواخرها، ويقرر ذلك في قلبه، ثم يكلف نفسه عمل مثلها مما هو في معناها، ويأخذ تلك الألفاظ التي فيها، ويقيم عوض كل لفظة لفظة من عنده، تسد مسدها، وتؤدي المعنى المندرج تحتها. ولا يزال كذلك، حتى يأتي على آخرها، ثم بعد فراغه منها يشتغل بتنقيح ألفاظها وتجويدها، وارتباط بعضها ببعض، فإذا استتم عمله انتقل منه إلى غيره، وفعل فيه فعله أولاً، ولا يزال على هذه القدم، يدمن في معارضة الرسائل إن كان كاتبًا، أو في معارضة القصائد، إن كان شاعرًا، حتى يحصل له بذلك الدربة الوافرة، وتتمرن قريحته عليه أو يعتاد خاطره هذا الأمر اعتيادًا زائدًا، ولا ينبغي له أن يكون قانعًا من ذلك بالقليل، ولا راضيًا بمعرفة الطريق، دون سلوكه إياه، مرارًا كثيرة، وخبرته بسهله وحزنه[1]، وقريبه وبعيده، فإذا تدرب واعتاد، وصار ذلك له خليقة وطبعًا، تفرعت عنده المعاني، وانقدحت في خاطره، فتسهل عليه حينئذ صياغتها، وإبرازها فيما يليق بها من اللباس. وهذا أنفع الطرق وأكثرها فائدة، لمن يروم[2] الدخول في زمرة الكتاب والشعراء، ولا تجد أيها المنتصب لهذه الصناعة طريقًا يجدي عليك من النفع ما يجديه هذا الطريق، فاعرفه.

---

(١) الحَزْنُ: المكان الغليظ الصعب من قولهم: أحزن وأسهل إذا ركب الحَزْنَ والسَهْل [اللسان: حزن].

(٢) الرَّوْمُ: طلب الشيء، والمرام: المطلب، رام يروم رومًا ومرامًا، طَلَبَ [العين: (١٦٤/٢) بتحقيقنا].

الباب الرابع

من الفن الأول من القطب الأول

في الحقيقة والمجاز

اعلم أن الحقيقة: هي اللفظ الدال على موضوعه الأصلي، وقيل: هي اسم مشترك يراد به ذات الشيء وحده، ويراد به ما استعمل بإزاء موضوعه اللغوي. وأما المجاز: فهو ما أريد به غير المعنى الموضوع له في أصل اللغة، اتساعًا، وقيل: هو ما نقل عن موضوعه الأصلي إلى غيره، بسبب مشابهة بين محل الحقيقة ومحله، في أمر مشهور[(١)].

واعلم أن المجاز ينقسم إلى أقسام، وقد أودعنا كتابنا هذا منها ما سنح لنا، وهو أربعة عشر قسما:

"الأول": ما جعل للشيء بسبب المشاركة في خاصة، كما يقال للبليد: حمار، وللشجاع أسد.

"الثاني": الزيادة في الكلام لغير فائدة كقوله تعالى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ﴾[(٢)] فما هاهنا زائدة لا معنى لها أي "فبرحمة من الله لنت لهم"، "الثالث": النقصان الذي لا يبطل به معنى الكلام لحذف الموصوف وإقامة الصفة مقامه، كقوله تعالى:

---

(١) انظر: المثل السائر ص(١٠٧).

(٢) آل عمران: ١٥٩، والتمثيل بهذه الآية على ما ذكر غير مقبول، وليس في القرآن حرف زائد لغير معنى، بل كل حرف فيه له معنى عظيم علمه من علمه وجهله من جهله، هذا هو الواجب اعتقاده في القرآن، وغاية ما يقال فيما نجهل معناه من الحروف الزائدة في القرآن أن يقال فيها إنها جارية على سنن الفصاحة والبلاغة في لغة العرب، وعلى طريقتهم في الكلام، وقد نزل القرآن بلغتهم، فهو جار على طريقتهم في الفصاحة والبلاغة، وإن جهل بعض الناس قيمته وفائدته التي لا تخلو أن تكون تتميمًا للمعنى أو تحسينًا للفظ بغير كلفة مع موائمة المعاني، والله تعالى أعلم.

﴿وَمَنْ يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِ بَرِيئًا﴾[1] يريد شخصًا بريئًا، وكحذف المضاف وإقامة المضاف إليه مقامه كقوله تعالى: ﴿وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ﴾[2] أي أهل القرية، وللنحاة في ذلك اختلاف قال سيبويه[3]: إن القياس ممتنع في حذف الموصوف وإقامة الصفة مقامه، فلا يجوز في جاءني رجل طويل "جاءني طويل"، وقال الفارسي[4] وغيره من علماء العربية: القياس جائز في حذف المضاف وإقامة المضاف إليه مقامه، وسيبويه لم ينص في ذلك بشيء، وقال أبو الحسن الأخفش[5] تارة إنه ممتنع، وتارة إنه جائز. والقوي عنده أن لا يقاس، وغيره لا يمنع القياس.

"الرابع": تسمية الشيء باسم ما يؤول إليه كقوله تعالى: ﴿إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا﴾[6] وإنما كان يعصر عنبا.

"الخامس": تسمية الشيء باسم مجاوره كقوله للمزادة "راوية" وإنما الراوية الجمل الذي يحملها.

---

(١) النساء: ١١٢.

(٢) يوسف: ٨٢.

(٣) هو عمرو بن عثمان بن قنبر إمام البصريين في النحو، أصله من البيضاء من أرض فارس، ونشأ بالبصرة، وأخذ عن الخليل ويونس وأبي الخطاب الأخفش وعيسى بن عمر، وورد على يحيى البرمكي فجمع بينه وبين الكسائي للمناظرة، مات بالبيضاء وقيل غيرها سنة ١٨٠هـ [بغية الوعاة (٢/٢٢٩)].

(٤) هو الحسن بن أحمد بن عبدالغفار بن محمد بن سليمان، ولد بفارس، أخذ عن الزجاج وابن السراج ومبرمان، وطوّف بلاد الشام، صحب عضد الدولة بن بويه وصنف له كتاب الإيضاح في النحو، والتكملة في التصريف، توفي ببغداد سنة ٣٧٧هـ [بغية الوعاة (١/٤٩٦)].

(٥) علي بن سليمان بن الفضل النحوي أبو الحسن الأخفش الأصغر، قرأ على ثعلب والمبرد وبرع في العربية، قدم إلى مصر وخرج إلى حلب، له تصانيف كثيرة، توفي فجأة ببغداد سنة ٣١٥هـ [سير أعلام النبلاء (١٤/٤٨٠)].

(٦) يوسف: ٣٦.

"السادس": تسمية الشيء بكله كقولك في جواب "ما فعل زيـد": القيـام. والقيام إنما هو جنس يتناول جميع أنواعه.

"السابع" تسمية الشيء بجزئه كقولك لمن تبغضه: "أبعد الله وجهه عني" تريد بذلك عامة جسده.

"الثامن" تسمية الشيء بدواعيه كتسميتهم الاعتقاد قولا نحو قولك "هذا يقول بقول الشافعي" أي: يعتقد اعتقاده.

"التاسع" تسمية الشيء باسم أصله كقولك للآدمي "مضغة".

العاشر" تسمية الشيء باسم فرعه كقول الشاعر:

وما العيشُ إلا نومةٌ وتَشَرُّقُ ... وتَمْرٌ على رأسِ النَّخيلِ وماءُ[(١)]

فسمّى الرطب "تمرا".

"الحادي عشر": تسمية الشيء باسم ضده كقولهم للأسود والأبيض "جون".

"الثاني عشر": تسمية الشئ بمكانه كقولهم للمطر "سماء"؛ لأنه يترل منها.

"الثالث عشر": تسمية الشيء بفعله كتسمية الخمر مسكرا.

"الرابع عشر": تسمية الشيء بحكمه كقوله تعالى: ﴿**وَامْرَأَةً مُؤْمِنَةً إِنْ وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ**...﴾[(٢)] الآية؛ فسمي النكاح هبة. فهذه ضروب المجاز التي وقعت، فاعرفها.

وأما الفرق بينه وبين الحقيقة، فهو أن الحقيقة جارية على العموم في نظـائره، ألا ترى أنا إذا قلنا "فلان عالم" لما صدق على كل ذي علم واحد صدق على كل ذي علم، بخلاف ﴿**وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ**﴾ لأنه لا يصح إلا في بعض الجمادات دون بعـض؛ لأن

---

(١) البيت بلا نسبة في أساس البلاغة- (شرق)، وفيه "كأكباد الجراد" بـدلاً مـن "علـى رأس النخيل".

(٢) الأحزاب: ٥٠.

obeikandi.com

المراد أهل القرية؛ لأنهم ممن يصح السؤال لهم، ولا يجوز أن يقال: "واسأل الحجر أو التراب"، وقد يحسن أن يقال "واسأل الربع أو الطلل".

واعلم أن كل مجاز فله حقيقة، وليس من ضرورة كل حقيقة أن يكون لها مجاز؛ وذلك أن من الأسماء قسمين لا مجاز فيهما:

"الأول": أسماء الأعلام، كأنها وضعت للفرق بين الذوات لا للفرق بين الصفات.

"الثاني": الأسماء التي لا أعم منها، كالمعلوم والمجهول والمدلول، وغير ذلك، مما أشبهه.

واعلم أنه قد صار المجاز في تعارض الناس بمنزلة الحقيقة، بل هو أقرب إلى التعريف من الحقيقة، وأولى بالاستعمال منها، وأحق بالإفهام؛ لأنه لو لم يكن كذلك لكانت الحقيقة التي هي الأصل أولى منه حيث هو فرع عليها. ألا ترى أن قوله تعالى: ﴿وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ﴾(١) أبلغ من أن يقال: "إذا انتشر" لأن التنفس يعطي من الدلالة ما لا يعطيه الانتشار؛ وذلك لما فيه من بيان الروح على النفس، عند إضاءة الصبح، فجعل ظهور الصبح وانتشاره من خلال الليل، شيئًا فشيئًا كالتنفس؛ لأن أول ما يبدو الصباح ثم ينمي في انتشاره بالتدرج، كإخراج الإنسان نفسه.

واعلم أنه إنما يعدل عن الحقيقة إلى المجاز لمعان ثلاث، وهي: الاتساع والتشبيه والتوكيد، فإن عدمت هذه الأوصاف كانت الحقيقة ألبتة؛ فمن ذلك قوله تعالى: ﴿وَأَدْخَلْنَاهُ فِي رَحْمَتِنَا﴾(٢) الآية؛ فهذا مجاز، وفيه الأوصاف الثلاثة المذكورة، وأما الاتساع؛ فهو أنه زاد في أسماء الجهات والمحال اسما هو الرحمة، وأما التشبيه؛ فإنه شبه الرحمة، وإن لم يصح دخولها بما يجوز دخوله. وأما التأكيد؛ فإنه أخبر عما لا يدرك بالحاسة، وذلك تغال بالمخبر عنه، وتفخيم له، إذ صير إلى منزلة ما يشاهد ويعاين. ألا

---

(١) التكوير: ١٨.

(٢) الأنبياء: ٧٥.

ترى إلى قول بعضهم في الترغيب في الجميل: "لو رأيتم المعروف لرأيتموه حسنًا جميلا" وإنما يرغب بأن ينبه عليه، ويعظم من قدره، فيصور في النفوس، على أشرف أحواله وأعلى صفاته، وذلك بأن يخيل متجسمًا، لا عرضا متوهمًا.

واعلم أن المجاز إذا كثر لحق بالحقيقة، وذلك أن أكثر اللغة مجاز لا حقيقة فيه، فمن ذلك عامة الأفعال نحو "قام زيد، وقعد عمرو"، و"جاء الصيف وانصرف الشتاء" ألا ترى أن الفعل يفاد منه معنى الجنسية، فقولك "قام زيد" معناه كان منه القيام أي هذا الجنس من الفعل، ومعلوم أنه لم يكن منه جميع القيام، وكيف يكون ذلك، وهو جنس مطبِّق جميع أنواعه من الماضي والحاضر والمستقبل؛ الكائنات من كل (من)(*) وجد منه القيام؟. فإذا كان الحال كذلك علمت أن قيام زيد مجاز لا حقيقة، وإنما هو على وضع الكل موضع البعض، للاتساع والتوكيد، وتشبيه القليل بالكثير، ويدل على انتظام ذلك في جميع جنسه أنك تعمل في جميع أجزاء ذلك الفعل، فتقول: قمت قومة، وقومتين، ومائة قومة، وقياما حسنًا، وقياما قبيحا، فإعمالك إياه في جميع أجزائه يدل على أنه موضوع عندهم على صلاحيته، لتناول جميعها، ألا ترى إلى قول بعضهم:

وقد يَجْمَعُ اللهُ الشَّتِيتَيْنِ بعدما يَظُنَّانِ كلَّ الظَّنِّ أنْ لا تَلاقِيا(١)

فقوله "كل الظن" يدل على صحة ما أشرنا إليه.

وكذلك قولك "ضربت زيدا" مجاز أيضا؛ لأنك إنما فعلت بعض الضرب لا كله، وإنما ضربت بعضه لا جميعه؛ لأنك قد تضرب يده، أو رجله، أو ناحية من نواحي جسده، ولهذا إذا احتاط الإنسان واستظهر جاء ببدل البعض؛ فقال"ضربت زيدًا

(*) زيادة اقتضاها السياق.

(١) البيت من الطويل، وهو للمجنون "قيس بن الملوح" في ديوانه- (٢٤٣)، وشرح التصريح- (٣٢٨/١)، والمقاصد النحوية- (٤٢/٣)، وبلا نسبة في أوضح المسالك- (٢١٣/٢)، والخصائص- (٤٤٨/٢)، وشرح الأشموني- (٢١٠/١)، ولسان العرب- (شتت)، وينسب إلى ابن الدمينة في ديوانه- (٢٠٦)، [موسوعة الشعر العربي –مجموعة من باحثي معهد البحوث العلمية – جامعة أم القرى – الطبعة الأولى- (١٤١٩هـ)- (٢٧٣/٤)].

رأسه" ثم هو مع ذلك متجوز، لأنه إنما يضرب ناحية من رأسه، لا رأسه كله. ولهذا يحتاط بعضهم في نحو هذا، فيقول "ضربت زيدًا جانب وجهه الأيمن" فإذا عرف التوكيد ثم وقع (في)(*) الكلام نحو "نفسه وعينه وكله وأجمع" وما جرى هذا المجرى تحقق منه حال سعة المجاز في هذا الباب. ألا تراك تقول: قطع الأمير اللص، ارتفع المجاز من جهة الفعل وصرت فيه إلى الحقيقة، لكن يبقى عليك التجوز من جهة أخرى وهو قولك "اللص" وإنما لعلة قطع يده أو رجله، فإذا احتطت في ذلك قلت "قطع الأمير نفسه يد اللص أو رجله".

وكذلك جاء جميع الجنس. فوقوع التوكيد في هذه اللغة أقوى دليل على شيوع المجاز فيها واشتماله عليها، حتى إن علماء العربية جعلوا له بابًا مفردا لعنايتهم به، وكونه مما تمس الحاجة إليه، وأنه لا ينبغي أن يضاع مثله ولا يهمل، كما أنهم جعلوا لكل معنى أهمهم بابا مفردا، كالصفة، والعطف، والإضافة، وغير ذلك، فاعرفه.

(*) زيادة اقتضاها السياق.

الفن الثاني

في القطب الأول

في الألفاظ والمعاني وتفضيل الكلام المنثور على المنظوم[1] وهو ثلاثة أبواب:

الأول: في الألفاظ المفردة وهو قسمان:

"الأول": في الكلام على الألفاظ المفردة، والفرق بين الجيد منها والرديء

واعلم أن صاحب كتاب "سر الفصاحة" وغيره من أرباب هذه الصناعة قد أوردوا في كتبهم من ذلك أشياء حسنة، ونبهوا على نكت مستملحة، غير أنا لما أمعنا النظر فيما قالوه، وتصفحنا مطاوي ما ذكروه، وقع لنا فيه زيادة مبتكرة، وقول مستغرب، ولنورد هاهنا ما وصل إلينا عن علماء هذه الصناعة، وما ابتكرناه نحن فنقول:

الأوصاف التي توجد في اللفظة الواحدة، وتستحق بها مزية الحسن والجودة[*]، سبعة أنواع، فأما الذي وصل إلينا منها فستة أنواع:

"الأول" تباعد مخارج الحروف.

"الثاني" أن لا تكون الكلمة وحشية ولا متوعرة.

"الثالث" أن لا تكون الكلمة مبتذلة بين العامة.

"الرابع" أن لا تكون عبر بها عن معنى يكره، فإذا أوردت، وهي غير مقصود بها ذلك المعنى قبحت.

---

(١) يقول صاحب "سر الفصاحة" في تفضيل النثر على الشعر: "النثر يعلم فيه أمور لا تعلم في النظم والحاجة إلى صناعة الكتابة ماسة، والشعر فضل يستغنى عنه" [سر الفصاحة (٤٩١) باختصار].

(*) لنا بحث مطول على الشروط التي ذكرها البلاغيون في فصاحة الكلمة المفردة، راجعة في دراستنا عن الطيبي وجهوده البلاغية – مكتبة نزار الباز – مكة المكرمة، وكذا كتابنا: "غاية الإيضاح في شرح تلخيص المفتاح" مكتبة البيان بالأزهر الشريف، وكتابنا: "البلاغة الميسرة" مكتبة الهاني – جامعة القاهرة.

"الخامس" أن تكون مصغرة في موضع يعبر بها عن شيء لطيف، أو خفي، أو نحو ذلك.

"السادس" أن تكون مؤلفة من أقل الأوزان تركيبا. وقد ذكر أبو محمد بن سنان الخفاجي قسما آخر فقال: "ينبغي أن تكون الكلمة جارية على العرف العربي الصحيح، غير شاذة[1]"[2]. وليس هذا معتبرًا في جودة اللفظة ولا في رداءتها، لأن شذوذ اللفظة لا يوجب لها حسنًا ولا قبحًا، وإنما المعني بقولهم: إن هذه الكلمة شاذة: أي أنها لم تنقل إلا عن واحد فقط فلا يوثق بها ولا يركن إليها، سواء كانت حسنة أو قبيحة، فاعرف ذلك.

وأما الذي ابتكرناه نحن فنوع واحد وهو أن تكون الكلمة مبنية من حركات خفيفة. ولنرجع إلى ذكر الستة الأنواع التي وصلت إلينا من علماء هذه الصناعة، وتحقيق القول فيها، فنقول:

اعلم أنه ليس لهم فيها إلا السبق بذكرها فقط، وأما علة كل نوع منها، والسبب الذي ذكر لأجله فإنا لم نأخذه وإنما استنبطناه نحن دونهم. وذلك أنا لم نقف لهم في ذلك على قول شاف، ولا كلام محرر. بل جل أمرهم أن ذكروا هذه الأنواع الستة ثم مثلوا كل نوع منها بمثال، كما فعل أبو محمد بن سنان الخفاجي[3]، وهو من الأئمة المشاهير في هذا العلم، وكذلك فعل غيره ممن تقدمه كقدامة بن جعفر

---

(١) يقال: أشذذت يا رجل، إذا جاء بقولٍ نادٍ، وسمَّى أهل النحو ما فارق ما عليه بقية بابه، وانفرد عن ذلك إلى غيره: شاذًا [تاج العروس (شذذ)، لسان العرب (شذذ)].

(٢) ويقول صاحب سر الفصاحة في هذا الباب أنه: "يدخل في هذا القسم كل ما ينكره أهل اللغة ويرده علماء النحو من التصرف الفاسد في الكلمة، وقد يكون ذلك لأجل أن اللفظة بعينها غير عربية" [سر الفصاحة ص(١٢٣)].

(٣) سبق ترجمته.

الكاتب[1]، والآمدي[2]، والجاحظ[3]، وغيرهم. وكتبهم التي صنفوها في هذا الفن شاهدة بما ذكرناه عنهم من إجمال القول، والاقتناع بالأمثلة.

أما النوع الأول من الأنواع الستة فهو: تباعد مخارج الحروف، ولسنا نعني بذلك أن المتقارب المخارج لا يكون حسنًا ولا جيدًا، بل نعني بذلك أن الغالب على المتباعد المخارج من الألفاظ الجودة والحسن، والغالب على المتقارب المخارج الرداءة والقبح. ألا ترى أن "الجيم والشين والياء" لها مخارج متقاربة[4]، وهي من وسط اللسان، بينه وبين الحنك، وتسمى ثلاثتها الشجرية[5]، فإذا ركبنا منها شيئا من الألفاظ يجيء حسنًا رائقا فإن قلنا: "جيش" كانت لفظة محمودة وإن قدمنا الشين على الجيم فقلنا: "شجي" كانت أيضا لفظة محمودة. فهذه مخارج متقاربة، وقد ركبنا منها هاتين اللفظتين، وجاءتا في غاية الحسن والرونق. وهذا يكون نادرًا في المتقارب المخارج وإنما الأكثر والغالب يجيء في المتباعد المخارج؛ فاعرف ذلك.

وحيث انتهى بنا القول إلى هاهنا فلنبدأ بوصفه في هذا الموضع، بذكر الأصوات والحروف وذكر المخارج وانقساماتها، قبل ذكر السبب في حسن المتباعدة، وقبح المتقاربة فنقول:

اعلم أن الصوت عرض يخرج مستطيلاً متصلاً، حتى يعرض له في الحلق والفم والشفتين مقاطع، تثنيه عن امتداده واستطالته، فيسمى المقطع إن عرض له، حرفًا، وتختلف أجراس الحروف بحسب اختلاف مقاطعها. ألا ترى أنك تبتدئ من أقصى الحلق ثم تبلغ به أي المقاطع شئت وتجد له جرسا ما، فإن انتقلت منه راجعا عنه، أو مجاوزا له ثم قطعت،

---

(١) سبق ترجمته.

(٢) سبق ترجمته.

(٣) سبق ترجمته.

(٤) انظر: المثل السائر ص(٢٨٣).

(٥)عند صاحب "تاج العروس" الحروف الشجرية يجمعها قولك: "شضج"، ويقال: شجر الفم: فتحه، وقيل مفرج الفم وقيل مؤخره، والأصوب مفرجه [تاج العروس (شجر)، ولسان العرب (شجر)].

أحسست عند ذلك جرسًا غير الجرس الأول، نحو "الكاف" فإنك إذا نطقت بها سمعت هناك صدى، فإذا رجعت إلى "القاف" سمعت غير ذلك الصدى، فإن جزت الجيم سمعت غير ذينك الأولين، وشبه بعضهم الحلق والفم بالمزمار[(١)] وما أقربه شبها به[(٢)]. والسبيل إلى معرفة ذلك أنك إذا أردت اعتبار هذا: تأتي بالحرف ساكنا لا متحركًا، لأن الحركة تقلقله عن موضعه ومستقره، ثم تدخل عليه همزة الوصل مكسورة[(٣)] من قبله؛ لأن الساكن لا يمكن الابتداء به فتقول: إِك" "إِق" وكذلك سائرها.

واعلم أن "الحروف" تطلق باعتبارات، فالأول: اسم لهذه الحروف المعدودة؛ وذلك مأخوذ من تسمية الحد والناحية حرفا، لأن الحروف هي جهات للكلمة ونواحيها.

الثاني: تطلق على أدوات الكلام نحو: "من وعن، وغيرهما".

الثالث: كقول النبي ﷺ "أنزل القرآن على سبعة أحرف"[(٤)] أي: سبع لغات لا تختلف ولا تَضَّاد، كما يقال: "هذا في حرف أُبي"[(٥)]، و"هذا في حرف ابن مسعود".

الرابع: يقال: ناقة حرف: أي ضامرة. وقال أبو العباس المبرد: إن الهمزة ليست من جملة الحروف، وجعل عددها ثمانية وعشرين حرفًا، واستدل على ذلك بأن

---

(١) في نسخة: بالزمر.

(٢) انظر: سر الفصاحة ص(٢٦).

(٣) كذا قال ابن جني وأضاف: "إن بعض الحروف أشد حصرًا للصوت من بعضها، ألا تراك تقول: اِدْ. اِطْ. الْ فلا تجد للصوت منفذًا ثم تقول: اِسْ، اِصْ، اِزْ فتجد الصوت يتبع الحرف [سر صناعة الإعراب – المكتبة التوفيقية – (٢٠/١)].

(٤) أخرجه البخاري (٥٠٤١)، ومسلم (٨١٨).

(٥) أبي بن كعب بن قيس بن عبيد، صحابي أنصاري من بني النجار من الخزرج، قرأ القرآن على النبي ﷺ وقرأ عليه النبي ﷺ بعض القرآن للإرشاد والتعليم، وكان سيد القراء، مطلعًا على الكتب القديمة يكتب ويقرأ وكان نحيفًا قصيرًا أبيض الرأس واللحية، مات بالمدينة [الأعلام (٨٢/١)].

قال: إن الهمزة لا صورة لها في الخط، وهذا فاسد؛ إذ الاعتبار باللفظة لا بالخط، فإن الخط لو لم يكن لما كان ذلك مانعا من كون الهمزة من جملة الحروف.

فأما ترتيب الحروف على نسق المخارج فهي "همزة، ألف، ع، ه، ح، غ، خ، ق، ك، ج، ش، ي، ض، ل، ن، ر، ط، د، ت، [ص][1]، ز، س، ظ، ذ، ث، ف، م، و، ب"[2].

وستة أحرف فروع مستحسنة، وهي همزة بين بين، والنون الخفيفة، والألف الممالة، وألف التفخيم، والشين كالجيم، والصاد كالزاي، وثمانية أحرف غير مستحسنة وهي: الكاف بين الجيم والكاف، والجيم كالكاف، والجيم كالشين، والفاء كالباء والضاد الضعيفة، والصاد كالسين، والطاء كالتاء، والظاء كالثاء. وذكر قوم أربعة أحرف هي: السين كالزاي، والجيم كالزاي، واللام المفخمة، والقاف كالكاف؛ فصار الجميع سبعة وأربعين حرفًا.

فأما انقسام المخارج فإنها ستة عشر مخرجا: ثلاثة حلقية، وهي الهمزة والألف والهاء. هذا على ترتيب سيبويه[3]، وأما علي ترتيب أبي الحسن الأخفش فإن الهاء مع الألف لا قبلها ولا بعدها، ومخرجان يليان هذه الثلاثة المذكورة وهما العين والحاء ومخرجان آخران فوق ذينك من أول الفم وهما الغين والخاء، وحرف من أقصى اللسان، وهو القاف. وأسفل من موضع القاف قليلاً مخرج الكاف، وهذان الحرفان- أعني القاف والكاف- يدعيان لهويين: من اللهاة، وثلاثة أحرف من وسط اللسان وهي الجيم والشين والياء، وتسمى "الشجرية" ومن أول حافة اللسان وما بينهما من الأضراس مخرج الضاد، ويسمى المتفرد المستطيل. ومن حافة اللسان من أدناها إلى

---

(١) سقطت من النسخة (ط)، ولعل ذلك سهو الناسخ، انظر ترتيب الحروف عند ابن جني في كتابه سر صناعة الإعراب (٥٣/١).

(٢) الترتيب عند ابن جني (ه) قبل (ع)، (ر) مع (ن)، (ب) بعد (ف) [سر صناعة الإعراب (٣٥/١)].

(٣) انظر: كتاب سيبويه - تحقيق عبدالسلام هارون - دار الجيل (٤٣٢/٤).

منتهى طرفه مما بينها وبين ما يليها من الحنك، فويق الضاحك والناب والثنية والرباعية مخرج اللام، ويسمى المنحرف. ومن طرف اللسان، بينه وبين ما فويق الثنايا السفلى مخرج النون، ومن مخرج النون، غير أنه أدخل في ظهر اللسان قليلاً، لانحرافه إلى اللام مخرج الراء، وهذه الأحرف الثلاثة: اللام والراء والنون تسمى الذليقة.

وقال سيبويه[١]: إن الأصول الخماسية لا تخلو من أحدها ألبتة ومما بين طرف اللسان وأصول الثنايا ثلاثة أحرف وهي الطاء والدال والتاء، وتسمى النطعية[٢]. وثلاثة أحرف مما بين طرفي اللسان وفويق الثنايا وهي: الصاد والسين والزاي وتسمى الأسلية[٣]. وثلاثة أحرف مما بين طرف اللسان وأطراف الثنايا وهي الظاء والذال والثاء، وتسمى اللثوية. وحرف واحد مما بين باطن الشفة السفلى وأطراف الثنايا العلا وهو الفاء. وثلاثة أحرف مما بين الشفتين وهي الباء والميم والواو، وتسمى الشفهية. وحرف واحد من الخيشوم وهو النون، ويسمى الخيشومي؛ فهذه جميع مخارج الحروف[٤].

وحيث انتهى القول بنا إلى هذا المقام وأتينا على ذكر الأصول والحروف وانقسام المخارج فينبغي حينئذ أن نذكر السبب في حسن ما تباعد من المخارج، وقبح ما تقارب منها، فنقول:

قال أبو محمد بن سنان الخفاجي في كتابه:

"إن الحروف التي هي أصوات[٥] تجري من السمع مجرى الألوان من البصر، ولا شك في أن الألوان المتباينة إذا اجتمعت كانت في المنظر أحسن من الألوان

---

(١) انظر: السابق (٤/٤٣٤).

(٢) النطع: هو الغار الأعلى في الفم، والحروف النطعية هي التي تنطق من غار الفم [اللسان: (نطع)].

(٣) الأسلة: طرف اللسان، والحروف الأسلية التي تنطق من طرف اللسان [انظر: اللسان (أسل)].

(٤) انظر: سر صناعة الإعراب (١/٥٥-٥٧).

(٥) في نسخة: أصول، وما أثبتناه من سر الفصاحة ص(١٠١).

المتقاربة؛ ولهذا كان البياض مع السواد أحسن منه مع الصفرة، لقرب ما بينه وبين الأصفر، وبعد ما بينه وبين الأسود"[١] هذا حكاية كلامه بعينه، ولنا عليه اعتراض، وهو أنا نقول: إذا ثبت لك أن الألوان المتباينة في المنظر أحسن من الألوان المتقاربة فكيف يلزم على هذا أن نقيس عليه السمع ونجريه مجراه؟ فإن قال في الجواب عن ذلك: "إني إنما قست السمع في أصوات الحروف المتباعدة على البصر في الألوان المتباعدة لأن السمع حاسة والبصر أيضا حاسة، وقياس حاسة على حاسة مناسب" قلنا له: إنما يستقيم لك ما ذكرته من هذا القياس أن لو توقف في عرفان جودة اللفظة على سماع أصوات خارجها، كما يتوقف في عرفان حسن الألوان على إبصارها ورؤيتها، وإنما قد يعلم جودة اللفظة، ويعرف حسن تركيبها، من غير أن يسمع لها صوت؛ وذلك أن المتأمل للكلام مكتوبًا من غير تصويت به، ولا نطق، إذا عرضه على طبعه السليم، وفكره المستقيم، عرف جودة ألفاظه، وعلم حسن تركيبها من قبحه، ولا خلطة للسمع في ذلك ولا مشاركة، فقد ثبت بهذا الدليل فساد ما ذكرته من قياس السمع على البصر، واختلال ما أشرت إليه من ذلك[٢].

وإنما القول السديد في حسن اللفظ المتباعد المخارج، وقبح اللفظ المتقارب المخارج، ما سنورد هاهنا، وهو أن الفائدة في الأشياء المركبة، إنما هي اختلاف أجزائها وتباين مفرداتها، ليؤثر التركيب عند ذلك شيئًا لم يكن؛ إما حسنًا وإما قبحًا.

فأما إذا كانت أجزاؤها مشابها بعضها البعض، فإنه لا يكون لتركيبها حينئذ كبير فائدة وهذا مما لا نزاع فيه لوضوحه وبيانه.

وحيث كانت الحال في الأشياء المركبة كذلك، قسنا عليه تركيب مخارج الحروف، وذلك أن من المخارج ما هو مختلف، ونعني بالمختلف هاهنا: المتقارب؛ كالراء، واللام، والطاء، والسين، وغير ذلك، مما يجري هذا المجرى، فمتى كانت الكلمة

---

(١) سر الفصاحة ص(١٠١).

(٢) انظر: المثل السائر ص(٣٢١).

مركبة من حروف متباعدة المخارج، أثر التركيب فيها أثرا؛ وهو الحسن والجودة في الغالب، ومتى كانت الكلمة مركبة من حروف متقاربة المخارج، جاءت بخلاف ذلك في الغالب أيضا.

فإن قيل: أما قولك: إن الكلمة إذا ركبت من حروف متباعدة المخارج، أثر التركيب فيها أثرا؛ مسلم إليك ذلك، وأما تخصيصك ذلك التأثير بالحسن والجودة، فهذا تحكم محض أنت مطالب بإثباته.

وكذلك قولك في الكلمة: "إذا تركبت من عدة حروف متقاربة المخارج" ألا ترى أن مخارج الحروف جميعها، إذا اعتبر كل واحد منها على الانفراد، لا يوجد له حسن ولا قبح؟

وهذا لا نزاع فيه، فمن توهم شكًّا في ذلك أو لحقه أدنى ارتياب، فليعرضه ويعتبره، منصفًا من نفسه، فإنه يعلم صحة ما ذكرناه، ويعرض حقيقة ما أشرنا إليه.

وإذا كانت الحال كذلك، فمن أي وجه تكسب اللفظة الجودة والحسن إذا تركبت من حروف متباعدة المخارج؟ ومن أي وجه تكسب الرداءة والقبح، إذا تركبت من حروف متقاربة المخارج؟

الجواب على ذلك، أنا نقول: إنها اكتسبت حسنًا عند تركيبها من حروف متباعدة المخارج، واكتسبت قبحا عند تركيبها من حروف متقاربة المخارج؛ لأن النطق إذا أتى على مخارج حروف اللفظة، وهي متباعدة، ليجمعها ويؤلفها، كان له في ذلك مهلة وأناة؛ لأن بين المخرج إلى المخرج فسحة وبعدًا، فتجيء الحروف عند ذلك متمكنة في مواضعها؛ غير قلقة ولا مكدودة. وإذا أتى النطق على مخارج حروف اللفظة وهي متقاربة، ليجمعها ويركبها، لم يخلص من مخرج إلا وقد وقع في المخرج الذي يليه؛ لقرب ما بينها فيكاد عند ذلك يعتبر أحدهما بالآخر، فتجيء مخارج حروف اللفظة قلقة مكدودة، غير مستقرة في أماكنها؛ ولهذا لم ترد العين مع الحاء، ولا الغين

مع الخاء، ولا الطاء مع التاء، ولا القاف مع الكاف، ولا الذال مع الثاء، ولا مع الظاء؛ وذلك لقرب مخارج هذه الحروف بعضها من بعض.

ومن أدل الدليل على أن المخارج المتباعدة أحسن تأليفا من المخارج المتقاربة، أن العرب من شأنهم وعادتهم أن يعدلوا في كلامهم عن الأثقل إلى الأخف؛ طلبًا للاستحسان، وهذا شائع عنهم، وكثير في لغتهم لا يحتاج إلى إقامة دليل عليه. وتراهم قد خالفوا عادتهم وعدلوا عن الأخف إلى الأثقل طلبا لبعد المخارج؛ حيث هو أسهل على اللسان وهربًا من تقاربها؛ حيث هو أشق وأصعب على اللسان. وذلك نحو "الحيوان" ألا ترى أن أصل هذه الكلمة، بإجماع من علماء العربية "حييان" لأنها من مضاعف الياء، إلا أنه لما ثقل عليهم عدلوا به عن الياء إلى الواو، مع علمهم بأن الواو أثقل من الياء، لكنه لما تباعد الحرفان ساغ ذلك، لأجل الاستخفاف. فلما رأينا أن العرب هم الأصل في هذه اللغة قد نقضوا عادتهم، ورفضوا سنتهم، في العدول عن الأثقل إلى الأخف؛ طلبا لتباعد مخارج الحروف، علمنا أن ذلك أهم عندهم؛ وأكثر تقدمًا في نفوسهم، وكفى بهذا دليلاً على أن تباعد المخارج أحسن تأليفا من تقاربها، فاعرف ذلك.

واعلم أن تباعد المخارج ليس بكاف في حسن اللفظة، ولا مقنع في جودتها؛ فإنه قد تأتي لفظة مؤلفة من حروف متباعدة المخارج، ولكنها تكون مبنية من حركات ثقيلة، أو تكون وحشية، أو غير ذلك من الصفات الذميمة، فيعارض ذلك الوصف المحمود هذا الوصف المذموم فيذيله[١] ويذهب به[٢].

---

(١) ذال الشيء يذيل: هان، وأذلته أنا: أهنته و لم أحسن القيام عليه، وأذال فلان فرسه وغلامه إذا أهانه، والإذالة: الإهانة [اللسان: (ذيل)].

(٢) لم يلتفت المصنف إلى أثر السياق والمقام في الحكم على الكلمة بالفصاحة أو عكسها، فالمرجع ليس لخلو الكلمة من تنافر الحروف وتقاربها ونحو ذلك، بل المرجع قبل ذلك وبعده إلى ملاءمتها للسياق من عدمه، فعلى سبيل المثال قد انتقد البلاغيون على امرأ القيس في كلمة (مستشزرات) في بيتيه في وصف شعر محبوبته:

وَفَرْعٍ يَزِينُ المَتْنَ أَسْوَدَ فَاحِمٍ ... أثيث كَقِنْوِ النَّخْلة المتعثْكِلِ
غَدَائِرُهُ مُسْتَشْزِرَاتٌ إِلَى الْعُلاَ ... تَضِلُّ العِقَاصَ في مُثَنًّى ومُرْسَلِ

وما أخذ على امرئ القيس في هذا البيت من التنافر، أرى أنه ليس مخلاً بالفصاحة، بل أقرب ما يوصف به أنه تنافر فنى مقصود، أو لعله جاء تعبيرًا عن تصور الشاعر وتصويره لشَعْر محبوبته الذى وصفه بأنه (أثيث كقنو النخلة المتعثكل) في البيت قبله، ومن ثم جاءت تلك الكلمة (مستشزرات) بهذا التنافر معبرة تمام التعبير عن كثرة هذا الشعر وارتفاعه وتعثكله وغير ذلك، فاللفظة بتنافرها تعبر عن تلك الصورة أدق تعبير، ومن ثم فإن الشروط التي اشترطها البلاغيون هنا لفصاحة الكلمة ليست مطردة لفصاحتها، وإلا فتأمل تلك الكلمات نحو (ضيزى- اثّاقلتم – أنلزمكموها- فسيكفيكهم..الخ) وهي كلها كلمات قرآنية خلت من بعض تلك الشروط التي اشترطها البلاغيون لفصاحة الكلمة، فهل يصح بعد ذلك إطلاق الوصف بعدم فصاحتها؟ وما قلناه هنا يصدق على باقى الشروط التي اشترطها البلاغيون لفصاحة الكلمة، وقد تناولت ذلك في مبحث مطوّل في رسالتى للماجستير: الإمام الطيبـي: تجديداته وجهوده البلاغية ط. المكتبة التجارية ــ مكة المكرمة، وانظر في بيان فصاحة الأمثلة القرآنية السابقة مع التوسع في التحليل انظر: كتابى "الإعجاز الصوتى في القرآن الكريم"- ط. الدار الثقافية- القاهرة.

النوع الثاني من القسم الأول من الباب الأول

وهو أن لا تكون الكلمة وحشية ولا متوعرة

ونعني بالوحشي : قلة الاستعمال؛ وذلك عيب في الكلام فاحش؛ فيجب على المؤلف اجتنابه والبعد عنه؛ لأن أحسن الألفاظ ما كان مألوفا بين أرباب هذه الصناعة، دائرًا في تأليفاتهم، قد صقلته الألسن، وأنسته الأسماع والقلوب، ولذلك كان جميع ألفاظ القرآن الكريم منخرطة في هذا السلك، وجارية في هذا المنهاج.

واعلم أن العرب، وإن استعملوا الوحشي من الكلام، فإنهم غير ملومين على ذلك، ولا يكون عيبا في كلامهم؛ لأنه لغة القوم، وبه كانت مفاوضاتهم في أحاديثهم وأشعارهم، وكان كالذي كان لهم طبعا وخليقة. والدليل على أن العرب لا يلامون في استعمال الوحشي من الكلام، أن النبي ﷺ قد نطق به كثيرًا في كلامه، وأتت به الأخبار المنقولة عنه، كحديث طهفة بن أبي زهير النهدي[١] وغيره.

فأما حديث طهفة فهو أنه لما قدمت وفود العرب على النبي ﷺ قام طهفة بن أبي زهير، فقال: "أتيناك يا رسول الله من غوري تهامة، على أكوار[٢] الميس[٣]، ترتمي بنا العيس[٤] نستحلب[٥] الصبير[٦] ونستخلب[٧] الخبير ونستعضد البرير[٨] ونستخيل[٩]

---

(١) في نسخة: الهندي، وهذا خطأ، وهو أبو عمر طهفة بن أبي زهير النهدي، قاله بالفاء وضبطه غيره بالياء المثناة التحتانية بدل الفاء بوزنه [انظر: الإصابة في تمييز الصحابة، حرف (الطاء)].

(٢) الأكوار: جمع كور، وهو رحل الناقة [اللسان (كور)].

(٣) الميس: شجر صلب تعمل منه أكوار الإبل [اللسان: (ملس)].

(٤) العيس: الإبل البيض مع شقرة يسيرة [اللسان: (عيس)].

(٥) نستحلب: في الأصل نستجلب.

(٦) الصبير: السحاب الأبيض الذي يصبر بعضه فوق بعض درجًا [اللسان: (صبر)].

(٧) نستخلب: من البرق الخلب، وهو علامة البرق الذي لا مطر فيه [اللسان: (حلب)]. في نسخة "نستجلب" وما أثبتناه من الفائق (٢/٤).

(٨) البرير: ثمر الأراك إذا اسود وبلغ [اللسان: (برر)].

(٩) نستخيله: إذا نظرت إلى الرهام فخلتها ماطرة [اللسان: (خيل)].

obeikandl.com

الرِّهام[1]، ونستحيل[2] الجهام[3] من أرض غائلة النِّطاء[4]، غليظة المطا[5] قد نشف المدهن[6]، ويبس الجعثن[7]، وسقط الأملوج[8]، ومات العسلوج[9]، وهلك الهدي، ومات الودي[10]، برئنا إليك يا رسول الله من الوثن والعثن[11] وما يحدث الزمن، لنا دعوة السلام، وشريعة الإسلام، ما طما[12] البحر وقام تعار[13]، ولنا نعم همل[14] أغفال[15] ما تبض[16] ببلال[17]، ووقير[18] كثير الرَّسل[19] قليل الرِّسل[20]، أصابتها

(١) الرهام: المطر الضعيف [اللسان: (رهم)].

(٢) نستحيل: استحال الجهام: أي نظر إليه هل يحول؟ أي يتحرك [اللسان: (حيل)].

(٣) الجهام: السحاب الذي فرغ ماؤه [اللسان: (جهم)].

(٤) غائلة النطاء: طويلة البعد [اللسان: (نطا)، (غول)].

(٥) المطا: الظهر [اللسان: (مطا)].

(٦) المدهن: مستنقع الماء [اللسان: (دهن)].

(٧) الجعثن: أصل كل شجرة [اللسان: (جعثن)].

(٨) الأملوج: نوى المقل [اللسان: (ملج)].

(٩) العسلوج: الغصن [اللسان – (عسلج)].

(١٠) الودي: فسيل النخل [اللسان: (ودي)].

(١١) العثن: الصنم الصغير [اللسان: (عثن)]، وفي نسخة: "العنن" وهو الاعتراض والاختلاف [الفائق (٢/٤)].

(١٢) طما البحر: ارتفع موجه [اللسان: (طما)].

(١٣) قام تِعار: جبل معروف [اللسان: (تعر)].

(١٤) همل: ضَوالّ أو مهملة [اللسان: (همل)].

(١٥) أغفال: جمع أغفل: المقيد الذي أغفل فلا يرجى خيره [اللسان: (غفل)].

(١٦) تبض: بض الماء: سال قليلاً [اللسان: (بضض)].

(١٧) بلال: اللبن [اللسان: (بلل)].

(١٨) الوقير: صغار الشاء [اللسان: (وقر)].

(١٩) الرَّسل: القطيع من الإبل [اللسان: (رسل)].

(٢٠) الرِّسل: اللبن [اللسان: (رسل)].

سنة حمراء[1] مؤزلة[2]، فليس لها نهل[3] ولا علل[4]؛ فقال رسول الله ﷺ: "اللهم بارك لهم في محضها[5] ومخضها[6] ومذقها[7] وفرقها[8]، وابعث راعيها في الدثر[9] بيانع الثمر، وأفجر له الثمد[10]، وبارك له في المال والولد، من أقام الصلاة كان مسلما، ومن آتى الزكاة كان محسنا، ومن شهد أن لا إله إلا الله كان مخلصًا، لكم يا بني نهد ودائع الشرك، ووضائع المال، لا تُلطط[11] في الزكاة ولا تُلحد في الحياة، ولا تتثاقل عن الصلاة"، وكتب معه كتابا إلى بني نهد: "من محمد رسول الله ﷺ إلى بني نهد بن زيد، السلام على من آمن بالله ورسوله، لكم يا بني نهد في الوظيفة الفريضة[12]، ولكم العارض[13] والفريش[14] وذو العنان الركوب[15] والفلو الضبيس[16] لا يمنع سرحكم،

(١) سنة حمراء: شديدة الجدب [اللسان: (حمر)].

(٢) مؤزلة: آتية بالأزل؛ أي بالضيق [اللسان: (أزل)].

(٣) نهل: أول الشرب [اللسان: (نهل)].

(٤) علل: الشربة الثانية [اللسان: (علل)].

(٥) المحض: اللبن الخالص بلا رغوة [اللسان: (محض)].

(٦) مخضها: اللبن المخوض الذي قد مخض وأُخذ زبده [اللسان: (محض)].

(٧) مذقها: الشربة من اللبن [اللسان: (مذق)].

(٨) فرقها: بكسر الفاء وفتحها: مكيال يكال به اللبن [اللسان: (فرق)].

(٩) الدثر: الإبل الكثيرة [اللسان: (دثر)].

(١٠) الثمد: الماء القليل [اللسان: ثمد].

(١١) تلطط: تمنع [اللسان: (لطط)].

(١٢) في الوظيفة الفريضة: أي في كل نصاب ما فرض فيه [اللسان: (فرض)].

(١٣) العارض: المريضة التي أصابها كسر [اللسان: (عرض)].

(١٤) الفريش: الصغار من الإبل [اللسان: (فرش)].

(١٥) ذو العنان الرَّكُوب: الفرس الذلول.

(١٦) الفلو الضبيس: المهر القليل الفطنة [اللسان: (ضبس)].

ولا يعضد طلحكم[١]، ولا يحبس درّكم ما لم تضمروا الإماق[٢] وتأكلوا الرِّباق[٣]، من أقرَّ بما في هذا الكتاب فله من رسول الله ﷺ الوفاء بالعهد والذمة، ومن أبى فعليه الرِّبوة[٤]"، فقال له علي بن أبي طالب ﷺ: "يا رسول الله نحن بنو أب واحد، وربينا في بلد واحد، ونراك تكلم وفود العرب بما لم نفهم أكثره"، فقال رسول الله ﷺ: "أدبني ربي فأحسن تأديبي، وربيت في بني سعد"[٥].

ألا ترى إلى هذا الكلام الذي لا يكاد يعرف ولا يفهم، وهو الذي نعده نحن في زماننا وحشيا متوعرًا لعدم الاستعمال له؟ ومع ذلك، فقد نطق به رسول الله ﷺ فيثبت من هذا أن كان الوحشي من الكلام ليس معيبا من حيث ذاته، وإنما يعاب من حيث النسبة إلى الزمان وأهله، كما أنا نعيبه نحن في هذا الزمان، ونطرحه ونكرهه، ولا نستعمله، وقد كان من قبلنا مألوفا مستعملاً بين البلغاء والفصحاء، وهذا مما لا نزاع فيه بحال من الأحوال؛ فاعرفه.

وعلى ذلك فإنما يلام على استعمال الوحشي من الكلام الحضري لأنه يتكلفه ويتلقفه من الكتب، ويلتقطه من بطون الدفاتر مع العناء والمشقة في تحصيله، وقد رأينا جماعة، ممن يدعي هذه الصناعة يعتقدون أن الكلام الفصيح هو الذي يعسر فهمه،

---

(١) الطلح: شجر طيب الرائحة [اللسان: (طلح)].

(٢) تضمروا الإماق: أي الغيظ [اللسان: (ماق)]، وفي نسخة: الإباق.

(٣) الرباق: جمع الربق وهو الحبل والحلقة تشد بها الغنم الصغار، وفي الحديث شبه ما يلزم الأعناق من العهد بالرباق [اللسان: (ربق)]، وفي نسخة: الرتاق.

(٤) عليه الربوة: الزيادة في الفريضة الواجبة [اللسان: (ربا)].

(٥) ذكره ابن الجوزي في "العلل المتناهية" (١/١٨٥)، وابن حجر في "أسد الغابة" (١/٥٤٨-٥٤٩)، والمثل السائر (١/١٦٥)، وجمهرة خطب العرب (١/١٦٦)، وصبح الأعشى (٢/٢٦١)، ولسان العرب (٧/٢٢٧)، وتاج العروس (١/٤٧٢٥)، والنهاية في "غريب الحديث" (٤/٦٣٣)، والفائق (٢/٢٧٨)، وقال ابن الجوزي: "هذا لا يصح، وفيه مجهولون وضعفاء".

ويبعد متناوله، كالذي نحن بصدد ذكره هاهنا، وإذا رأوا كلامًا غامضا وحشيا يعجبون منه، ويصفونه بالفصاحة وهو بالعكس من ذلك، وقد استعمل هذا القسم من الكلام كثيرًا ابن هانئ المغربي[1]، فمن ذلك ما جاء في قصيدة من شعره على قافية الثاء، وهو قوله:

وما راعَهُم إلا سُرداقُ جَعْفَرٍ ... يَحُفُّ بها أُسْدُ اللقاء الدَّلاهثُ

وما تَسْتَوِي الشغواءُ غيرَ حثيثة ... قَوادُمُها والكاسراتُ الحثائثُ

تورَّعْت عن دنياك وهْي غَريرَةٌ ... لها مَبْسِمٌ بَرْد وفرعٌ جُثاجثُ[2]

ألا ترى إلى هذه الكلمات، كيف يكرهها السمع، وينبو عنها الطبع، وتستكرهها القلوب، وتعافها النفوس، وكأن الإنسان عند الوقوف عليها خابط عشواء[3]، لا يدرى أين يضع رجله؟

---

(١) هو محمد بن هانئ الأندلسي، أبو القاسم، ولد بإشبيلية، وحظي عند صاحبها واتهمه أهلها بمذهب الفلاسفة، وأخذ عياله وقصد مصر، فلما وصل إلى برقة قتل فيها غيلة، وله ديوان. توفي سنة ٣٦٢هـ.

(٢) الأبيات لابن هانئ المغربي في قصيدة له مطلعها:

لمن صولجان فوق خدك عابث ... ومن عاقد في لحظ طرفك نافث

الدلاهث: السريع الجريء المقدام من الناس والإبل.

الشغواء: العقاب، والشغاء: العوج، وسميت بذلك لاعوجاج منقارها.

حثيثة: سريعة، وفي نسخة: ما تستوي الشغواء غير حبيبة.

قوادمها: قوادم الطير مقاديم ريشه.

الكاسرات: كسر جناحيه إذا ضم منهما شيئًا.

غريرة: الشابة الحديثة التي لم تُجرب الأمور.

جثاجث: ملتف.

وانظر اللسان: (دلهث، شغا، حث، قدم، كسر، غرر، جثث).

(٣) العشواء هي الناقة التي لا تبصر أمامها فهي تخبط بيدها كل شيء، وركب فلان العشواء إذا خبط أمره على غير بصيرة، وفلانٌ خابطٌ خبط عشواء [انظر: الصحاح (عشا)].

ومن هذا النوع أيضا قول بعضهم وقد اعتلت أمه فكتب رقاعًا وألقاها في الجامع بمدينة السلام وهي: "صين[١] امروء[٢] ورعى، دعا لامرأة مقسئنة[٣]، قد منيت بأكل الطرموق[٤]، فأصابها من أجله الاستمصال[٥] أن يمن عليها بالاطرغشاش، والابرغشاش[٦]"[٧].

وكل من قرأ رقاعة لعنه، ولعن أمه.

ومما يجري هذا المجرى قول ابن الرومي:

اسقِنِي الأسْكركة[٨] الصِّنْـ ـبِر[٩] في جَعْضَلَفُونه
واتركِ الفَيْجَن[١٠] فيه يا خليليَّ بُغصونه[١١]

فإنه لا يوجد من الألفاظ الوحشية شيء أقبح من قوله: "الأسكركة، وجعضلفون، والصنبر"، وكذلك قوله في صفة المطر:

مُتَغطمطٌ[١٢] غصبَ الوحوشَ مكانَهَا تيَّارُه فالضَّبُ جارُ الضِّفْدعِ[١٣]

---

(١) صين: فعل مبني للمجهول من صان.

(٢) امروء: امرء.

(٣) في نسخة: مقسبنة، والقسأنينة من اقسأن العود وغيره إذا يبس [اللسان: (قسن)].

(٤) الطرموق: الخفاش [اللسان: (طرمق)].

(٥) الاستمصال: أمصلت بضاعة أهلك إذا أفسدتها [اللسان: (مصل)]، وقد تعني هنا فساد الجسد أو الإسهال.

(٦) الاطرغشاش والابرغشاش: بمعنى الإفاقة من المرض [اللسان: (اطرغش)].

(٧) ذكره أبو هلال العسكري في الصناعتين ص(٩٠)، وصبح الأعشى (٢/٢٥٨).

(٨) الأسكركة: وقد تكون السُّكركة: وهي شراب الذرة [اللسان: (سكرك)].

(٩) الصنَّبر: من الأضداد تأتي بمعنى الحار وبمعنى البارد [اللسان: (صنبر)].

(١٠) الفيجن: أحد أنواع الأطعمة وهو "السذاب" [اللسان: (فجن)].

(١١) البيتان من مجزوء الرمل، وهما لابن الرومي في ديوانه من قصيدة البيتُ الأولُ منها مطلعُها، ويروَى البيت الثاني: واجعلِ الفَيْجَنَ في الأفْـ ـوَاهِ مِنْهُ بِغُصونِه

(١٢) متغطمط: مضطرب الأمواج [اللسان: (غطمط)].

(١٣) البيت من الكامل وهو للحيص بيص في ديوانه من قصيدة مطلعها:

جعلت من الحدثان أحصن أدرع فلقد سنن على الكريم الأروع

وفي التذكرة الحمدونية ص(٣٣٦٣)، والتذكرة الفخرية ص(٥٩٣).

ويروى: "متغطمطًا" بالنصب بدلاً من الرفع.

فهل تجد أيها المتأمل لكتابنا هذا أشد كراهة عليك من النطق بلفظة متغطمط؟ وأشباه ذلك كثيرة، وفيما ذكرنا من هذه الأمثلة كفاية.

واعلم أن الإنكار على الناثر في استعمال الوحشي من الكلام أكثر من الإنكار على الناظم، وذلك لأن الناثر واسع المجال، مطلق العنان، متصرف كيف شاء، قادر على أن يقيم مكان اللفظة التي ذكرها لفظة أخرى مما هو في معناها. والناظم قد لا يمكنه ذلك، لأن مجال التأليف عليه حرج ونطاقه ضيق. وإذا أراد أن يقيم لفظة مكان لفظة لا يتأتى له ذلك في جميع الحالات، لانفساد الوزن عليه، ولنضرب لهذا مثالا فنقول، ألا ترى أن معنى "متغطمط" في قول هذا الشاعر أي: "متدفق"[(١)] ولو أراد أن يجعل هذه اللفظة الحسنة مكان تلك اللفظة القبيحة، لفسد عليه وزن البيت. ولست أرى للشاعر في هذا دواء، إلا أنه إذا أتاه شيء من هذه الألفاظ الحسنة، ويتزن له الشعر مع ذلك فهو المراد، وإن كان لا يقع له من الألفاظ ما هو في معناه، ولا يتيسر له ذلك، فيقيم عوضه من الألفاظ الحسنة ما يصح به المعنى الذي قصده مع الاتزان، ألا ترى أن هذا الشاعر لو قال في هذا البيت "متدفق" "أو متراكم" أو ما جرى هذا المجرى لصح له الوزن والمعنى المقصود، وكان قد سلم من استعمال الوحشي من الكلام؟ وإنما يتهيأ للشاعر هذا، إذا كانت الكلمة في أول البيت أو في أثنائه، فأما إذا كانت آخرا منه فإنه قلما يقدر على تغييرها، وإقامة غيرها مقامها، وذلك للزوم[(٢)] التي يبني قصيدته عليها، فاعرف ذلك وقس عليه[(*)].

---

(١) في نسخة: دائم.

(٢) أي لزوم القافية.

(*) بقي أن ننبه بعد ذلك إلى دور السياق والمقام في قبول الكلمة الغريبة أو رفضها، ولنا بحث في الغرابة خلاصته: والغرابة أن تكون الكلمة وحشية، لا يظهر معناها، فيحتاج في معرفتها إلى أن ينقر عنها في كتب اللغة المبسوطة، كما روي (عن) عيسى بن عمر النحوي أنه سقط عن حمار؛ فاجتمع عليه الناس؛ فقال: "مالكم تكأكأتم على تكأكؤكم على ذي جنة؟! افرنقعوا عني" أي: اجتمعتم تنحوا. أو يخرج لها وجه بعيد. كما في قول العجاج: **وفاحمًا ومرسنا مسرَّجا**

فإنه لم يعرف ما أراد بقوله "مسرجا" حتى اختلف في تخريجه؛ فقيل: هو من قولهم للسيوف "سريجية" منسوبة إلى قين يقال له سريج، يريد أنه في الاستواء والدقة كالسيف السَّريجي، وقيل: من السِّراج، يريد أنه في البريق كالسِّراج، وهذا يقرب من قولهم "سرج وجهه" بكسر الرَّاء –أي حسن، و"سَّرج (الله) وجهه" أي بهَّجه وحسَّنه.

هذا ما ذكره القزويني والبلاغيون المتأخرون في هذا المقام.

النوع الثالث من القسم الأول من الباب الأول

وهو ألا تكون الكلمة مبتذلة بين العامة

وذلك ينقسم قسمين:

الأول: ما كان من الألفاظ دالا على معنى وضع له في أصل اللغة، فغيرته العامة وجعلته دالاً على معنى آخر، وهو ضربان:

الأول: يكره ذكره، كقول أبي الطيب المتنبي:

أذاقَ الغَوانِيَ حُسنُه ما أذَقْنَني وعَفَّ فجَازاهُنَّ عنِّيَ بالصَّرْمِ[1]

فإن لفظة "صرم" في أصل وضع اللغة "القطع" يقال له: "صرمه" أي: قطعه، فغيرتها العامة وجعلتها دالة على المحل المخصوص دون غيره، ثم لم يكفهم، حتى جعلوا ما هو بالسين صادا، ولأجل هذا استكره استعمال هذه اللفظة. وكذلك ما جرى هذا المجرى كقول أبي الطيب:

سَلِ البِيدَ أين الجنُّ منَّا بِجَوزِهَا وعن ذي المهَارِي أينَ منها النَّقَانِقُ[2]

فإن النقانق في أصل اللغة: هي جماعة النعام، فغيرتها العامة، وجعلتها دالة على ضرب من طعام السوقة، فصارت من أكثر[3] الألفاظ ابتذالا. واعلم أن العامة اعتمدوا[4] هذا في كثير من كلامهم، حتى أن الشيخ أبا منصور الجواليقي[5]، صنف في

---

(١) البيت من الطويل، وهو للمتنبي في ديوانه من قصيدة مطلعها:

ملامي النوى في ظلمها غاية الظلم لعل بها مثل الذي بي من السقم

وفي اللآلئ في شرح أمالي القالي للبكري (٢/١١١٥).

(٢) البيت من الطويل، وهو للمتنبي في ديوانه من قصيدة مطلعها:

هو البين حتى ما تأني الحزائق ويا قلب حتى أنت ممن أفارق

وفي: شرح ديوان المتنبي- مصطفى سبتي- دار الكتب العلمية- الطبعة الأولى- (١٩٨٦م)- (١/١٢٠).

(٣) في نسخة: أكبر.

(٤) في نسخة: اعتقدوا.

(٥) هو موهوب بن أحمد، أبو منصور بن الجواليقي، عالم بالأدب واللغة، ولد ببغداد سنة ٤٦٦هـ، كان يصلي إمامًا بالمقتفي العباسي، وقرأ عليه المقتفي بعض الكتب، وهو من مفاخر بغداد، وكان شديد التحري فيما يقول، متقنًا محققًا، توفي ببغداد سنة ٥٤٠هـ [الأعلام (٧/٣٣٥)].

ذلك كتابًا ووسمه "بإصلاح ما يغلط فيه العامة" فمنه ما هذا سبيله، وهو الذي أنكرنا استعماله على أرباب هذه الصناعة، لكراهته ولأنه مما[1] لم يأت في كلام العرب، ولا جاء عنهم، فهذان عيبان من الضرب الذي ذكرناه[2].

وأما الضرب الثاني من القسم الأول؛ ففيه عيب واحد؛ وهو أنه وضع في كلام العرب لمعنى فجعلته العامة دالا على غيره، إلا أنه ليس بمستقبح ولا مستكره، وذلك كتسميتهم الإنسان ظريفًا إذا كان دمث الأخلاق، حسن الصورة واللباس، طيب الريح، وما هذا سبيله، والظريف في أصل اللغة بخلاف ذلك؛ لأن الإنسان إنما يسمى ظريفًا إذا كان حسن النطق فقط. إذ الظرف يتعلق باللسان لا غير، وقد قالت العرب في صفات خلق الإنسان: الصباحة في الوجه، الوضاءة في البشرة، الجمال في الأنف، الحلاوة في العينين، الملاحة في الفم، الظرف في اللسان، الرشاقة في القد، اللباقة في الشمائل، كمال الحسن في الشعر[3]، وهذا الضرب قد ذكره الشيخ أبو منصور الجواليقي في كتابه، فاعرفه.

القسم الثاني مما ابتذلته العامة، وهو الذي لم تغيره عن بابه، وإنما أنكرنا استعمال هذا القسم من الكلام؛ لأنه مبتذل بينهم فقط، لا لأنه مستقبح، ولا مخالف لما وضع له في أصل اللغة، وذلك كقول أبي الطيب المتنبي:

فقلقلت[4] بالهمِّ الذي قَلْقَلَ الحشَا   قلاقِلَ عيس كلهن قَلاقِلُ[5]

---

(١) في نسخة: ما.

(٢) انظر: المثل السائر ص(٣٢٥).

(٣) انظر: أخبار النساء لابن الجوزي ص(٤١٢).

(٤) فقلقلت: قلقل: تحرك واضطرب [اللسان: (قلقل)].

(٥) البيت من الطويل، وهو للمتنبي في ديوانه من قصيدة مطلعها:

قفا تريا ودقي فهاتا المخايل   ولا تخشيا خلفًا لما أنا قائل

وفي: شرح ديوان المتنبي- (١/٧٨)، وفي البديع في البديع في نقد الشعر لأسامة بن منقذ ص(٢٥٢).

ألا ترى إلى سخافة هذه اللفظة، وما عليها من الركاكة التي لا أمد وراءهـــا؟

ومما جاء على نحو ذلك قوله أيضا:

وملمومـــــةٌ[١] سَـــيْفِيَّةٌ[٢] رَبْعِيَّـــةٌ[٣]   يَصيح الحصَى فيها صِـــياحَ اللقـــالقِ[٤][٥]

ومن هذا القسم قول ابن هانئ المغربي[٦]:

مَـــنْ لَـــيْسَ يَرْفُـــلُ[٧] إلا في سَـــوَابغه   من تُبَّعِـــيٍّ[٨] مفـــاضٍ أو سَـــلُوقِيِّ[٩]

أَمْ من يُـــذَلُّ[١٠] عمَالِيقًـــا[١١] تُـــذِلُّهمُ   أيُّ الأجَادلِ[١٢] يَسْمُو للكَرَاكِيِّ[١٣][١٤]

فإن كُلاًّ من هاتين اللفظتين مبتذل بين العامة جدًّا. وأمثال هذا كثير فاعرفه، عليك أيها المؤلف اجتنابه، والبعد عنه[١٥].

---

(١) ملمومة: الكتيبة المجتمعة [اللسان: (لمم)].

(٢) سيفية: نسبة إلى سيف الدولة الحمداني.

(٣) ربعية: نسبة إلى "ربيعة" قبيلة سيف الدولة.

(٤) اللقالق: جمع لقلاق، وهو طائر أعجمي طويل العنق يأكل الحيات [اللسان: (لقلق)].

(٥) البيت من الطويل، وهو للمتنبي في ديوانه من قصيدة مطلعها:

• تذكرت ما بين العذيب وبارق   مجر عوالينا ومجرى السوابق

وفي: شرح ديوان المتنبي- (٢/١٤٩).

(٦) سبق ترجمته.

(٧) يرفل: رفل في ثيابه: جر الذيل [اللسان: (رفل)].

(٨) تبعي: نسبة إلى تبع، ملك من ملوك اليمن.

(٩) سلوقي: نسبة إلى قرية سلوقة باليمن [أساس البلاغة: (سلق)].

(١٠) في نسخة: "أم يدل عماليقا يدلهم"، وما أثبتناه من الديوان.

(١١) عماليق: جمع عملاق، قال ابن الأثير: العمالقة الجبابرة [اللسان: (عملق)].

(١٢) الأجادل: جمع أجدل وهو الصقر [اللسان: (جدل)].

(١٣) الكراكي: جمع كُركي وهو طائر معروف بالعراق يقرب من الأوز.

(١٤) البيتان من البسيط وهما في ديوانه من قصيدة له يمدح بها أبا الفرج الشيباني مطلعها:

قولا لمعتقل الروح الرديني   والمرتدي بالرداء الهندواني

(١٥) قال ابن الأثير: "في هذا القسم نظر عندي؛ لأنه إن كان عبارة عما يكثر تداوله بين العامة، فإن من الكثير المتداول بينهم ألفاظًا فصيحة، كالسماء والأرض والنار والماء والحجر والطين، وأشباه ذلك، وقد نطق القرآن الكريم في مواضع كثيرة منه، وجاءت في كلام الفصحاء نظمًا ونثرًا، والذي ترجح في نظري أن المراد بالمبتذل من هذا القسم إنما هـــو الألفـــاظ الســـخيفة الضعيفة، سواء تداولتها العامة أو الخاصة" [المثل السائر ص(٣٢٨)].

obeikandi.com

النوع الرابع من القسم الأول من الباب الأول
وهو أن لا تكون الكلمة قد عبر بها عن معنى يكره ذكره

فإذا وردت وهي غير مقصودة بها ذلك المعنى قبحت؛ وذلك إذا كانت مهملة بغير قرينة تميز معناها عن القبح، فأما إذا جاءت ومعها قرينة، مخصصة لما تحتها من المعنى المخصص، فإن ذلك لا يكون معيبًا في الكلام؛ فمثال ما ورد من هذا النوع ومعه قرينة، قوله تعالى في حق النبي ﷺ: ﴿**فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ**﴾[1] ألا ترى أن لفظة التعزير مشتركة، وهي تطلق على التعظيم والإكرام؛ وعلى الضرب الذي هو دون الحد، وذلك نوع من الإهانة. وهما معنيان ضدان، فحيث وردت هذه الآية جاء معها قرائن قبلها وبعدها، تخصص معناها بالحسن، وتميزه عن القبح.

ولو جاءت مهملة بغير قرينة، ويراد بها المعنى الحسن، لسبق إلى الوهم ما اشتملت عليه من المعنى القبيح. مثال ذلك لو [قال][2] قائل: "لقيت اليوم فلانا، فأكرمته وعزرته" لزال ذلك اللبس وارتفع الإشكال.

ومن هذا النوع أيضا قول بعضهم يصف رقعة، جاءته من صديق له: "فأنارت إنارة الزواهر، والأذهان منها كالعانة في فلكها الدائر" فإن لفظة "العانة" مشترك يدل على معان مختلفة، فهي اسم للقطيع من حمر الوحش، وتقع اسما على كواكب تحت القوس، ويراد بها الركب من الإنسان، فلما وردت في هذا الكلام ورد معها قرينة، وهي ذكر الفلك، فخصصها بأنها الكواكب تحت القوس، لأن الفلك لا يكون إلا للكواكب، ولو وردت مرسلة بغير قرينة لظن السامع أمرًا آخر يكره ذكره. وأمثال هذا كثير؛ فيجب على المؤلف أن يراعي فيه ما أشرنا إليه من ذكر القرينة.

---

(١) الأعراف: ١٥٧.

(٢) زيادة اقتضاها السياق.

واعلم أنه قد جاء من الكلام [ما معه قرينة][1] فأوجبت قبحه، ولو لم تجئ القرينة معه لكان الأمر في استقباحه سهلاً، وذلك قول الشريف الرضي:

أعزز علي بأن أراك وقد خلا عن جانبيك مقاعدُ العُوَّادِ[2]

فإن أبا محمد بن سنان الخفاجي قد ذكر هذا البيت في كتابه فقال: إن إيراد هذه اللفظة -أعني "مقاعد"- في هذا الموضع صحيح إلا أنه موافق لما يكره ذكره في مثل هذا الشعر، لا سيما وقد أضافه إلى من يحتمل إضافته إليه، وهو "العواد" ولو انفرد لكان الأمر فيه سهلاً، فأما الإضافة إلى من ذكره ففيها قبح لا خفاء به"[3]، هذه حكاية كلام أبي محمد بن سنان الخفاجي، وهو كلام مرضي واقع موقعه في هذا الباب، ولنذكر نحن ما عندنا من ذلك فنقول: قد جاءت لفظة "مقاعد" في القرآن الكريم، وهو قوله تعالى: ﴿وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ﴾[4] إلا أنها في الآية غير مضافة إلى من يقبح إضافتها إليه، كما جاءت في شعر الشريف الرضي، وهو قوله: "مقاعد العواد" فلو لم يذكر القرينة التي هي لفظة "العواد"؛ لكان الأمر يسهل في ذلك، ولو قال عوضًا عن "مقاعد العواد" مقاعد الزيارة، وما جرى هذا المجرى لذهب ذلك القبح وزالت تلك الهجنة والكراهة. ولهذا جاءت هذه اللفظة -أعني "مقاعد"- في الآية على ما ترى من الحسن والجودة، وجاءت في شعر الشريف الرضي على ما ترى من القبح والرداءة، فاعرف ذلك وقس عليه.

---

(١) زيادة اقتضاها السياق من المثل السائر ص(٣٣٤).

(٢) البيت من الكامل، وهو في ديوانه من قصيدة يرثي بها الرضي أبا إسحاق الصابي، مطلعها:

أعلمت من حملوا على الأعواد أرأيت كيف خبا ضياء النادي

وفي "الكشكول" للعاملي (٥/٢٣٩٣)، و"سر الفصاحة" ص(١٣٥).

ويروى: "خلت" بدلاً من "خلا" و"مقاود" بدلاً من "مقاعد".

(٣) انظر: سر الفصاحة ص(١٣٥، ١٣٦).

(٤) آل عمران: ١٢١.

وأما الذي ورد من هذا النوع مهملا بغير قرينة، فكقول تأبط شرًّا:

أقول للحيان وقد صفرت لهم وطابي ويومي ضيق الجحر معور[1]

ولو ورد مع ذلك قرينة لم يفده شيئًا ألبتة، ألا ترى أن لفظة "الجحر" تطلق على كل ثقب، كثقب الحية وثقب اليربوع وغير ذلك، وتطلق أيضًا على المحل المخصوص من الحيوان، وإنما استقبحت هاهنا؛ لأن الوهم يسبق إلى ما تدل عليه من المحل المخصوص، دون غيره، ومع هذا فأي قرينة وردت مع هذه اللفظة لا تذهب ما عليها من الكراهة، ولا تزيل ما فيها من القبح، وأمثال ذلك كثيرة، فاعرفها.

---

(١) البيت من الطويل، وهو في ديوانه- (٨٩)، ولسان العرب- (وطب)، والتنبيه والإيضاح- (١/١٤٧)، وتاج العروس- (وطب)، وجاءت كلمة "لجنان" بدلاً من "لحيان"، ولحيان: بطن من هذيل، صفرت لهم وطابي: يقَال للرجل صفرت وطابه: إذا مات أو قتل، وقيل أنهم يعنون بذلك خروج دمه من جسده [تاج العروس: (وطب)]، معور: مخوف.

النوع الخامس من القسم الأول من الباب الأول

وهو أن تكون الكلمة مصغرة في موضع يعبر بها عن شيء خفي أو لطيف أو ضعيف أو ما جنس[1] ذلك

ومعاني التصغير خمس:

"الأول" يرد لتحقير المعاني لا الصور نحو "رجيل" أي: إنه حقير من حيث معناه، لا من حيث صورته.

"الثاني" يرد لتحقير الصور لا المعاني، وهو ضد الأول نحو "جبيل".

"الثالث" للتقريب وذلك في الظروف الزمانية والمكانية نحو: "وقيت" و"فويق".

"الرابع" يرد للتقليل وذلك في العدد نحو "مويل"[2] و"أحيمال".

"الخامس" يرد للتعظيم كقول النبي ﷺ في حق عبد الله بن مسعود "كنيف[3] ملئ علمًا"[4].

فإن قيل: التصغير إذا جعل أمارة للتحقير والتعظيم معًا زالت الفائدة المقصودة به؛ لأنه لا يصير دليلاً على أحدهما.

الجواب على ذلك أنا نقول: ليس الأمر كما وقع لك أن التصغير أمارة للتحقير والتعظيم على الإطلاق، من غير تقييد، بل هاهنا فرق بينهما، متى عرف لم ينكر جعلهم التصغير دليلاً على التحقير والتعظيم معًا، وهو أن التصغير الدال على التعظيم لا يكون إلا

---

(١) في نسخة: جانس.

(٢) مويل: تصغير "مال" ويراد به في الغالب "الإبل".

(٣) كنيف: وعاء طويل يكون فيه متاع التجار وأسقاطهم.

(٤) ليس هذا من قول النبي ﷺ إنما هو من قول عمر -رضي الله عنه- أخرجه الطبراني في "الكبير" (٣٤٩/٩)، وذكره الهيثمي في "المجمع" (٣٠٣/٦)، وقال: "رواه الطبراني ورجاله رجال الصحيح إلا أن قتادة لم يدرك عمر ولا ابن مسعود".

obeikandl.com

ومعه صفة مدح مقترنة. ألا ترى قول النبي ﷺ: "كنيف ملئ علمًا"(*) فقوله "كنيف" تصغير محض وقوله: "ملئ علمًا" صفة المدح، أوجبت له التعظيم، وذلك أن المشار إليه لما كان قصير الشكل، صغير الجثة، وأطلق عليه لفظة التصغير بأن قال: "كنيف" ولما كان غزير العلم، راجح اللب، أطلق عليه صفة المدح بأن قال: "ملئ علمًا" فصغره أولاً ثم عظمه ثانيا، فقيل: "تصغير تعظيم" لما هذا سبيله، فاعرفه.

وأما التصغير الدال علي التحقير فليس كذلك؛ لأنه لا يجيء معه صفة مدح ألبتة.

وأما أبنية التصغير فثلاثة: ثلاثي لا زيادة فيه، ويجيء على "فعيل" نحو "ثويب"، ورباعي لا زيادة فيه ويجيء على "فُعَيْعل" نحو "دُرَيْهم" فإن كان فيه زيادة من حروف المد واللين ثالثه ورابعه جاء على "فُعَيعيل" نحو "قُنَيْديل"، وأما الخماسي فيحذف منه الحرف الأخير، وهو أولى بالحذف نحو "سُفيرج"(١)، وربما حذفوا ما قبل الآخر فقالوا في فرزدق: "فريزق"(٢).

(*) الحديث في النهاية لابن الأثير (١٧٣/٤) بتحقيقنا – ط المكتبة العصرية – بيروت، وقد رواه الطبراني ورجاله رجال الصحيح كما في المجمع (٢٩١/٩)، و(كُنَيْف) تصغير تعظيم للكنف، وهو وعاء الراعي الذي يجعل فيه آلته، راجع النهاية: السابق.

(١) قال الاستراباذي في شرحه للشافية: "الأولى حذف الخامس؛ لأن الكلمة ثقيلة بالخمسة الأصول، فإذا زدت عليها ياء التصغير زادت ثقلاً، وسبب زيادة الثقل وإن كانت زيادة الياء لكنه لا يمكن حذفها إذ هي علامة التصغير، فحذف ما صارت به مؤدية إلى الثقل بزيادة حرف آخر عليها، وذلك هو الخامس، ألا ترى أن الرباعي لا يستثقل بزيادة الياء عليه، فحذف الخامس مع أصالته..." [شرح شافية ابن الحاجب (٢٠٤/١)].

ومن النحاة من يثبت الحروف الخمسة كراهةً لحذف حرف أصل، وبإبقاء فتحة الجيم كما كانت، "وحكى سيبويه عن بعض النحاة في التصغير والتكسير سُفَيْرجَلُ، وسَفَارجَلُ -بفتح الجيم فيهما- فقال الخليل: لو كنت محقرًا للخماسي بلا حذف شيء منه لسكنت الحرف الذي قبل الأخير فقلت: سُفَيْرجْلٌ قياسًا على ما ثبت في كلامهم؛ لأن الياء ساكنة" [السابق (٢٠٤/١، ٢٠٥)].

(٢) قال الزمخشري: إن بعض العرب يحذف شبه الزائد أين كان، وهو وهم على ما نص عليه السيرافي والأندلسي؛ فإن لم يكن مجاور الطرف شيئًا من حروف "اليوم تنساه" لكن يشابه=

وقد جاءت أوزان غير هذه وهي "أفَيعال" نحو "أطيفال" و"فُعيلان" نحو "سُكيران" و"فُعيلى" نحو "حُبيلى" و"فعيلاء" نحو "حُميراء" والأصل ما أوردناه أولا، وذلك شيء مستقصى في كتب النحو، وليس هذا موضعه.

واعلم أنه قد وردت ألفاظ لم يستعمل لها مكبر نحو: الثريا، واللجين والكميت، وسهيل وغير ذلك، وليس هذا من غرضنا في هذا الكتاب الذي نحن بصدد ذكره، لخلوه من معنى التصغير، فمما جاء من التصغير قول الرضي:

وهل لُخشيفٍ(1) بالعَقيقِ(2) عَلاقةٌ ... بِقلبي أم دانيت غير مُدانِ(3)

فإنه لما كان هذا الغزال صغيرًا، قريب العهد بالولادة، كان وروده مصغرًا أليق وأحسن وأدخل في الصفة وكذلك قوله أيضًا:

هل ناشدٌ لي بعَقيقِ اللّوى(4) ... غُزيِّلاً مرَّ علَى الركْبِ؟(5)

وأمثال هذا كثير، فاعرفه، فلا ينبغي لك أيها المؤلف أن تكثر من استعمال هذا النوع من الكلام في تأليفك، وإن كان حسنًا رائقا. بل الأليق بك أن تقتصر منه على الشيء اليسير، يكون كلامك به ملمعًا، فإن مثل التصغير وما جرى مجراه في التأليف، كمثل الوشي في الثوب الديباج، فإنه إذا كان ملونا أحسن منه إذا كان من لون واحد. وكذلك الكلام؛

=واحدًا منها في المخرج حذف أيضًا، فيقال في فرزدق: فُرَيْزِق؛ لأن الدال من مخرج التاء" [شرح شافية ابن الحاجب (١/٢٠٥)].

(١) خشيف: تصغير خِشْف، وهو ولد الظبي والأنثى خشفة [اللسان: (خشف)].

(٢) العقيق: واد بالحجاز [اللسان: (عقق)].

(٣) البيت من الطويل، وينسب إلى ابن سنان الخفاجي في ديوانه من قصيدة مطلعها:

سل العيس ما بين اللوى فأبان ... خماصًا تبيد البيد بالوخدان

(٤) اللوى: منقطع الرمل، يقال: ألويتم فانزلوا. وذلك إذا بلغوا لوى الرمل [اللسان: (لوى)].

(٥) البيت من السريع، وهو للشريف الرضى في ديوانه، ومطلع إحدى قصائده، ويروى "الحمى" بدلاً من "اللوى".

فإنه إذا كان مشتملا على هذه الأنواع المذكورة من التصغير وغيره، مما سبق ذكره، ويـــأتي شرحه في هذا الكتاب، كان أولى من اشتماله على نوع واحد، فاعرف ذلك.

obeikandl.com

النوع السادس من القسم الأول من الباب الأول
وهو أن تكون الكلمة مؤلفة من أقل الأوزان تركيبًا

وسبب ذلك أنها إذا ركبت من حروف قليلة خفت على النطق لقصرها، وسهل التعبير بها على اللسان لسرعة فراغه منها، وإذا تركبت من حروف كثيرة كان في النطق بها كلفة على الناطق، وذلك لتطاولها وامتداد الصوت بها. ولنضرب لهذا مثالا كيف اتفق، ليكون أسرع فهما للمتأمل، فنقول: إذا تلفظ الناطق بالثلاثي، فقال للماء الطيب "عذب" أو تلفظ بالرباعي، فقال للذهب "عسجد" كان ذلك أسهل عليه من التلفظ بالخماسي إذا قال للمرأة الشديدة الصوت "صهصلق"، وللعجوز "جحمرش" وذلك مما لا يمكن التراع فيه؛ لأن شاهده من نفسه ودليله من ذاته. ولهذا كانت أكثر ألفاظ القرآن الكريم ثلاثية، وكان القليل رباعيا، وأما الخماسي فليس في القرآن منه شيئ ألبتة، إلا ما كان اسم نبي فقط نحو إبراهيم، وإسماعيل وغيرهما[(١)].

واعلم أن الأسماء الثلاثية في الأصل، إذا كان فيها زيادة فأكثر ما تبلغ سبعة أحرف، وكذلك الرباعية أيضا. وأما الخماسية، فإن زيادتها لا تكون إلا حرفا واحدًا وذلك لأن الخماسي عندهم غاية الأصول، فلا يحتمل غاية الزيادات، وأما الأفعال فلا تكون خماسية في الأصل بل غايتها أن تكون رباعية فقط، وذلك أن الأسماء أقوى من الأفعال وحيث كانت أقوى منها جعلوا لها ميزة عليها، وفضيلة فوقها، وسبب قوة الأسماء على الأفعال استغناء الأسماء عنها، وحاجة الأفعال إليها، ألا ترى الاسم مع الاسم نحو: "زيد منطلق" كلام مفيد. والفعل مع الفعل نحو: "ضرب قام" ليس بكلام مفيد. ولكن إذا اقترن الاسم بالفعل نحو: "قام زيد" صار ذلك كلامًا مفيدًا. فالأسماء إذن مستغنية عن الأفعال والأفعال ليست مستغنية عن الأسماء، بل هي مفتقرة إليها. وحيث تكلمنا على الأصول الثلاثة؛ ثلاثيها ورباعيها، وخماسيها، وبلغ منا القول إلى هذا المقام فلنردف ذلك بذكر الأصول مع زوائدها، والغرض بها اجتناب الألفاظ التي

---

(١) انظر: المثل السائر ص(٣٣٩).

كثرت حروفها واستعمال ما كان قليل الحروف، فإنه إذا كان التلفظ بالخماسي فيه كلفة على الناطق وكراهة، كما أريناك[1]، فالأولى أن تزداد كلفته إذا تلفظ بكلمة فيها أكثر من خمسة أحرف، فمثال ذلك قول بعضهم، في جملة رقعة كتبها إلى صديق له، قاصدًا بها التشدق في الكلام، فقال: "وإذا اسلعلعت تلك تجنبلت هذه وتكهمشت" أي: إذا طالت تلك قصرت هذه، فإن قوله: "اسلعلعت" من أقبح الألفاظ طولاً، مع أنها من وحشي الكلام فقد جمعت إذن العيبين معًا.

ومن هذا النوع أيضًا ما ذكره أبو محمد بن سنان الخفاجي[2]، وهو قول أبي الطيب المتنبي:

إِنَّ الكِرامَ بِلا كِرامٍ منهمُ   مِثْلُ القلوبِ بِلا سُوَيْداواتِها[3][4]

ألا ترى إلى تطاول هذه اللفظة وخروجها عن الاعتدال؟ وبحسب ذلك يتضاعف استقباحها واستكراهها. وأمثال هذا كثيرة، فاعرفها.

فإن قيل: إن هذا الذي أنكرته من طول الألفاظ وذكرته هاهنا قد ورد في القرآن الكريم ما يماثله ويشابهه، فمن ذلك قوله تعالى: ﴿**وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ**...﴾[5] الآية. وقوله تعالى: ﴿**فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ**﴾[6].

---

(١) في نسخة: رأيناك.

(٢) انظر: سر الفصاحة ص(١٤١).

(٣) سويدواتها: سواد القلب وسواديه وأسوده وسوداؤه: حبته [اللسان: (سود)].

(٤) البيت من الكامل، وهو للمتنبي من قصيدة مطلعها:

سرب محاسنه حرمت ذواتها   داني الصفات بعيد موصوفاتها

[انظر: شرح ديوان المتنبي (١/٢٣٠)].

(٥) النور: ٥٤.

(٦) البقرة: ١٣٨.

فلفظة "لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ" عشرة أحرف، ولفظة "فَسَيَكْفِيكَهُمُ" تسعة أحرف. وأمثال ذلك في القرآن كثير. فلو كان هذا منكرًا في التأليف، مكروها في الكلام لما ورد في القرآن المجيد.

الجواب عن ذلك، أنا نقول: ليس هذا الذي قد جاء في القرآن الكريم مثل هذا الذي أوردناه نحن في كتابنا وأنكرناه على قائله[1]؛ لأن قوله تعالى: ﴿لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ﴾ ثلاث كلمات جمعت فصارت كلمة واحدة صورة لا معنى، ألا ترى أن الأصل فيها "ليستخلفن الله المؤمنين" إلا أنه لما جاء بذكر المؤمنين مظهرًا في الأول لم يحتج في ذكرهم ثانيا إلى الإظهار، بل اقتصر على ضميرهم كما تقول: "قاتلت بني فلان وحاربتهم" ينوب مناب قولك: "وحاربت بني فلان أيضًا"، وهذا مما لا نزاع فيه لوضوحه. وكذلك القول في اللفظة الأخرى وهي قوله تعالى: ﴿فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ﴾ ولا تجد في القرآن الكريم لفظة واحدة مثل لفظة "سويداواتها" في الطول؛ لأنها ليست ثلاث كلمات وقد جمعت كلمة واحدة كما أريناك، وإنما هي كلمة تدل على معنى الجمعية لا غير، وفي آخرها الهاء والألف لإضافتها إلى المؤنث، فاعرف ذلك.

---

(١) قال ابن الأثير: "إن قبح هذه اللفظة لم يكن بسبب طولها وإنما هو لأنها في نفسها قبيحة، وقد كانت وهي مفردة حسنة، فلما جمعت قبحت، لا بسبب الطول، والدليل على ذلك أنه قد ورد في القرآن الكريم ألفاظ طوال، وهي مع ذلك حسنة" [المثل السائر ص(٣٣٧، ٣٣٨)].

وأما النوع السابع الذي ابتكرناه نحن

فهو أن تكون الكلمة مبنية من حركات خفيفة

وسبب ذلك سرعة النطق بها، ومضاؤه فيها من غير عناء يلحقه ولا كلفة؛ ولهذا إذا توالى حركتان خفيفتان في كلمة واحدة، لم يستكره ذلك ولا[1] يستثقل، بخلاف هذا في الحركات الثقيلة؛ فإنه إذا توالى منها اثنتان في كلمة واحدة استكرهت واستثقلت؛ وذلك لما يجده الناطق فيها من تكلف العناء وتجشم المشقة. ومن أجل هذا استثقلت الضمة على الواو، والكسرة على الياء؛ لأن الضمة من جنس الواو والكسرة من جنس الياء. فتكون عند ذلك كأنها حركتان ثقيلتان. ولنضرب لهذا مثالا كيف اتفق، فنقول: إنا إذا أتينا بلفظة مؤلفة من ثلاثة أحرف وهي "ج ز ع" فلا خلاف أننا إذا جعلنا "الجيم" مفتوحة كانت أحسن من جعلها مضمومة، فإن من له أدنى ذوق وأقل معرفة يعلم أن "الجَزع" أحسن موقعًا من الجِزَع، والجِزَع أحسن موقعا من "الجُزَع" ومن المعلوم أن هذه اللفظة لم يكن اختلاف حركاتها مغيرًا لمخارج حروفها، حتى ينسب حسنها وقبحها إلى المخارج، بل قد تحققنا أنه يكسوها تارة حسنًا وتارة يسلب ذلك الحسن عنها، ورأينا الحسن إنما يحدث لها إذا فتحنا "الجيم" منها، فعلمنا أن حسنها حادث من ذلك السبب؛ فإن الشيء إذا رأيناه يتغير وتختلف أحواله، ورأينا أن اختلاف كل حالة من أحواله لها سبب نسبنا ذلك إليه، ولما رأينا أن هذه اللفظة، إذا ضممنا[2] الجيم منها يذهب ذلك الحسن، علمنا أن سبب ذهابه كون الجيم مضمومة؛ وحيث كانت الحال بهذه المثابة، ثبت أن أخف الحركات الفتح ثم الكسر ثم الضم؛ والدليل على ذلك ما أذكره لك؛ وهو أن الحركات مضارعة للحروف. ألا ترى أن جماعة من علماء العربية كانوا يسمون "الضمة" الواو الصغيرة، و"الكسرة" الياء الصغيرة، و"الفتحة" الألف الصغيرة؟ ومما يؤكد ذلك أنك متى أشبعت الحركة أنشأت

---

(١) في نسخة: "لم".

(٢) في نسخة: "فتحنا".

بعدها حرفا من جنسها، نحو قولك في إشباع ضرب "ضوري با" ولهذا إذا احتاج الشاعر إلى إقامة الوزن أشبع الحركة فأنشأ عنها حرفا من جنسها كقول بعضهم:

فأَنْتَ مِنَ الغَوَائِلِ حِينَ تُرْمَى ... ومِنْ ذَمِّ الرِّجَالِ بِمُنْتَزَاحِ[1][2]

يريد "بمنتزح" وهو مفتعل من النَزح. فإذا ثبت هذا، فاعلم أنه إنما كانت الفتحة أخف من الكسرة، والكسرة أخف من الضمة؛ لأن الألف أخف من الياء، والياء أخف من الواو.

والدليل على ذلك ما أذكره لك، فأما قولنا : إن الألف أخف من الياء؛ فلأنا رأينا العرب قد أبدلوا الألف من الياء في العين من الفعل الماضي، وذلك مطرد عندهم مستمر؛ وإنما فعلوا هذا استثقالاً، للياء وطلبا للاستخفاف، وبيانه أنهم قالوا: "باع، وسار، واختار" وأصله "بيع، وسير، واختير"، فلما ثقل هذا عليهم أبدلوا الياء ألفا للخفة فقالوا: "باع، وسار، واختار"، وكذلك ما جرى هذا المجرى، فعلم بهذا أن الألف أخف من الياء، فإن قيل: إن هذا الدليل الذي أوردته على أن الألف أخف من الياء قد جاء عن العرب نقيضه، ألا ترى أنك إنما استدللت على أن الألف أخف من الياء، لكون العرب قد أبدلت الألف من الياء؟ وقد رأيناهم أبدلوا الياء من الألف، نحو "حماليق[3]، وقيتال"، فإن الياء هاهنا بدل من ألف حملاق وألف "قاتلت".

الجواب عن ذلك أنا نقول: ليست هذه الصورة الدليل الذي أوردناه نحن؛ لأن لفظ "باع، وسار، واختار" على وزنه لم يغير عنه، وذلك أنه فعل ماض، فلما رأينا العرب قد أبدلت الياء في هذا الموضع ألفا، مع أنه لم يتغير عن وزنه بجمع ولا غيره،

---

(١) منتزاح: يقال: أنت بمنتزح من كذا أي: ببعد منه [اللسان: (نزح)].

(٢) البيت من الوافر، وهو لابن هرمة في ديوانه- (٩٢)، والأشباه والنظائر- (٣٠/٢)، والخصائص- (١٠٦/٢)، ولسان العرب- (نزح)، والمحتسب- (٣٤٠/١)، وبلا نسبة في أسرار العربية- (٤٥)، والإنصاف- (٢٥/١)، وخزانة الأدب- (٥٥٧/٧)، ولسان العرب- (نجد)، والمحتسب- (١٦٦/١).

(٣) حماليق: جمع حملاق، وقيل: هو ما ولي المقلة من جلد الجفن، وحملق الرجل أي فتح عينيه [اللسان: (حملق)].

علمنا أنهم إنما فعلوا ذلك استثقالاً للياء لا اضطرارًا. وأما لفظ "حماليق" أو "قيتال" فليس كذلك؛ لأنه قد خرج عن وزنه الأول، ألا ترى أن "حماليق" جمع "حملاق" "وقيتالا" مصدر "قاتلت" فلم تبدل الألف هاهنا ياء طلبًا للخفة وإنما أبدلت اضطرارًا، لئلا يلتبس الأمر عليهم، فإنهم لو قالوا: جمع "حملاق" "حمالاق" لما عرف أن ذلك جمع؛ لأنه ليس في الجمع "فعالال"، ألا ترى أن أصل "حملاق" من "حملق" على وزن فعلل وهو رباعي، وقد جمع الرباعي على "فعاليل" نحو "براثين" و"دماميل" فحملت لفظة "حماليق" على ذلك، فالياء إذا ليست مبدلة من الألف هاهنا استثقالا للألف بل اضطرارًا، لئلا يلتبس الأمر في ذلك، وكذلك "قيتال"؛ فإن أصله من "قاتلت"، ومصدر فاعلت جاء على "مفاعلة وفيعال" نحو "مقاتلة وقيتال" فلو قيل عوضا عن قيتال "قاتال" على وزن "فاعال" لالتبس الأمر في ذلك أيضًا، وذاك أنه ليس في أوزان المصادر "فاعال" فالياء إنما أبدلت في هذا الموضع من الألف اضطرارًا لا استثقالاً، ألا ترى أنها قد حذفت منه وأسقطت بالكلية، فقيل: "قاتلت قتالاً"، ولم يفعل ذلك إلا طلبًا للخفة؛ لأنهم لما أبدلوا الياء وهي ثقيلة، من الألف، وهي خفيفة، كان ذلك بخلاف عادتهم ونشأتهم؛ لأن من عادتهم أن يعدلوا عن الأثقل إلى الأخف لا إلى الأثقل، لكنهم لما اضطروا إلي إبدال الياء من الألف لم يتركوا الياء على حالها، بل حذفوها وأسقطوها كما أريناك وكذلك فعلوا في لفظة "حماليق" أيضا، فإنها لما أبدلت الياء فيها من الألف، حذفوا الياء أصلاً وأسقطوها، فقالوا: "حمالق" على وزن "فعالل" كما قالوا: "دراهم وبراثن" وكما طردوا كذلك جميع أوزان الرباعي، فاعرف ذلك وقس عليه.

وأما قولنا "إن الياء أخف من الواو" فدليله من وجهين: الأول: أنه إذا بني من الفعل المعتل فاؤه بالياء مستقبل لم تحذف الياء نحو "يسر[1] وَيْيسِر، و"يَعَر"[2] الجدي يَيْعِرُ" ولا كذلك الفعل المعتل فاؤه بالواو؛ فإنه إذا بني منه مستقبل حذفت الواو، نحو "وعد يعد ووزن يزن"، ولم يقولوا: "وعد يَوْعد، ولا وزن يوزن"، كما قالوا: "يَسَر يَيْسر"، ويَعَرَ الجدي يَيْعر" فحيث أبقوا الياء في المستقبل، ولم يبقوا الواو في المستقبل، علمنا أن حذفهم للواو إنما هو استثقال لها دون الياء.

---

(١) يسر: اليسر هو اللين، والانقياد، وقد يسر ييسر وياسره لابنه [اللسان: (يسر)].

(٢) يَعر: اليعار صوت الغنم، وقيل هو الشديد من صوت الشتاء [اللسان: (يعر)].

وأما الوجه الثاني: فهو أنك إذا بنيت "مفعولا" من المعتل العين بالواو حذفت منه حرفًا للاستثقال؛ فقلت في قال: "مقول"، وفي صاغ: "مصوغ"، وإذا بنيت مفعولا من المعتل العين بالياء، إن شئت حذفت فقلت في باع: "مبيع"، وفي عاب: "معيب"، وإن شئت تممت ولم تحذف، فقلت: "مبيوع ومعيوب"، وإنما لم يتموا في الواو، فلم يقولوا: في مقول: "مقوول" ولا في مصوغ: "مصووغ"(١)، وأتموا في الياء فقالوا: "مبيوع ومعيوب"؛ لأن الياء فيها الضمة أخف من الواو فيها الضمة؛ ألا ترى أن الواو إذا انضمت فروا منها إلى الهمزة فقالوا "أدؤر(٢) وأثؤب(٣)" قال الراجز:

لِكلِّ دَهْرٍ قد لَبِسْتُ أثؤُبَا(٤)

فالهمزة في الواو إذا انضمت مطردة، فأما إذا كان بعدها واو؛ كان ذلك أثقل لها. فلهذا ألزموها الحذف في "مفعول"، والياء إذا انضمت لم تهمز ولم تغير عن حالها، فهذا يدلك، ويبصرك أن الياء أخف من الواو، فاعرف ذلك.

هذا ما انتهت إليه المقدرة، وأحاطت به المعرفة، من الأوصاف التي توجد في اللفظة الواحدة، فليتأمله الواقف على كتابنا هذا وليتدبره؛ فإنه يفرق بين الجيد والرديء من الألفاظ، ويعرف ما يستعمله من ذلك، وما يطرحه. وحيث فرغنا من الكلام فيما يتعلق باللفظة المفردة، فلنتبعه بالكلام على الألفاظ المركبة، والله أعلم بالصواب.

---

(١) قال الصاغاني: "ليس يأتي من ذوات الثلاثة من بنات الواو بالتمام إلا حرفان "مسك مدووف، وثوب مصوون"؛ فإن هذين جاء نادرين، والكلام مدوف ومصون، وذلك لثقل الضمة على الواو، والياء أقوى على احتمالها منها؛ فلهذا جاء من بنات الياء بالتمام والنقصان؛ نحو ثوب مخيط ومخيوط [العباب الزاخر واللباب الفاخر (دوف)].

(٢) الأدؤر: جمع دار.

(٣) أثؤب: جمع ثوب.

(٤) الرجز لمعروف بن عبدالرحمن في التنبيه والإيضاح- (٦٢/١)، وشرح سيبويه- (٣٩٠/٢)، ولسان العرب- (ثوب)، ولحميد بن ثور في ديوانه- (١٦)، وله أو لمعروف بن عبدالرحمن في شرح التصريح- (٣٠١/٢)، والمقاصد النحوية- (٥٢٢/٤)، وبلا نسبة في أساس البلاغة- (فشب).

القسم الثاني من الباب الأول

في صناعة تركيب الألفاظ

اعلم أن اللفظة قبل دخولها في سبل التأليف، وقبل أن تصير إلى الصورة التي تسمى كلامًا دالا على معنى من المعاني، لا يكون لها مزية على أختها، التي في معناها، إلا بأن تكون هذه أشرف من هذه بعلامات توجد فيها. إما أن تكون إحداهما مستعملة مألوفة، والأخرى وحشية متوعرة، وإما أن تكون حروف هذه أخف حركة أو أحسن امتزاجًا مع صواحبها، أو غير ذلك مما قدمنا ذكره. ولا يتصور بين اللفظتين تفاضل في الدلالة على المعنى الذي اشتركا فيه، حتى تكون إحداهما أحسن في الدلالة على ذلك المعنى من الأخرى؛ ولنضرب لهذا مثالاً فنقول: لا يخفى على من له ذوق صحيح، وفطرة سلمية، أن لفظة الليث أو الأسد أحسن دلالة مسماها[(١)] من لفظة "الفدوكس" أو العميثل" فثبت بهذا الدليل أن الكلمة لا يكون لها مزية على أختها إلا بعلامات توجد فيها دون تلك[(٢)]. وهذا لا يثبته على اعتماده وقصده في الكلام إلا الفطن اللبيب، الذي له عناية بصناعته وكثيرا ما رأينا من يحكم على الألفاظ بالجودة والرداءة، وإذا طولب بدليل يثبت له ما ادعاه لا يحير جوابًا، إلا تحكما محضًا، لا حاصل وراءه. ولا يعلم أنه لا يجوز لقائل أن يقول: هذا الكلام جيد أو رديء، إلا بعد أن يعتبر كل لفظة منه على انفرادها، ويعرض عليها تلك الصفات التي ذكرناها أولا في كتابنا هذا، فإذا رآها موجودة فيها أو بعضها، علم أنها حقيقة[(*)] بأن تدخل في سبك التأليف، ثم يعود بعد ذلك ويعتبر مكانها من النظم، وكيف ممازجتها لجارتها والتئامها

---

(١) كذا في نسخة، ولعلها (في مسماها أو على مسماها)، وتصح بحذف الجار باعتبارها بدل اشتمال.

(٢) قال الشيخ عبدالقاهر الجرجاني في الدلائل: "ينبغي أن ينظر إلى الكلمة قبل دخولها في التأليف وقبل أن تصير إلى الصورة التي بها يكون الكلم إخبارًا أو أمرًا ونهيًا، وتؤدي في الجملة معنى من المعاني التي لا سبيل إلى إفادتها إلا بضم كلمة إلى كلمة" [دلائل الإعجاز ص(٣٨) باختصار].

(*) حقيقة هنا؛ أي: جديرة.

مع أخواتها، فإذا وجدها شديدة المناسبة لها، حسنة الامتزاج معها، حكم على ذلك اللفظ بالجودة، وشهد له بالرونق والطلاوة، وإن كان الأمر بخلاف ذلك[حكم][(١)] عليه بالرداءة والقبح علي حسب ما استحق[(*)]. والأصل في هذا كله حسن التأليف، وجودة التركيب، فإن حسن التأليف يزيد المعنى نباهة ويميل النفوس إلى استماعه، والإصغاء إليه، فإنه إذا كان المعنى سيئًا، وكان اللفظ جيدًا مختارًا، ويكون التركيب مع ذلك رديًّا لم يوجد له قبول، ولا يظهر عليه رونق، وإذا كان المعنى واللفظ وسطين، وكان تركيبهما جيدًا حسنًا كان ذلك معليا من قدرهما، ورافعًا من شأنهما. فمثال ذلك كالعقد المتوسط. ألا ترى أنه إذا أحسن تنضيده[(٢)] فجعلت كل قطعة مع ما يشاكلها، ويليق بها، كان رائقًا في المنظر وإن لم يكن مرتفعًا ثمينًا. ومثال المعنى واللفظ الرائقين مع التركيب الرديء مثال عقد ثمين، أفسد نظمه، فجعلت كل قطعة منه مع ما ينافيها ولا يناسبها، فإنه يصير بذلك مختلا في المنظر، وإن كان فائقا ثمينًا.

وحسن التأليف: هو أن توضع الألفاظ في مواضعها وتجعل في أماكنها. وسوء التأليف بخلاف ذلك. ألا ترى أنه إذا قدم في التأليف ما يجب تأخيره وأخر ما يجب تقديمه تصير المعاني نافرة عن مواضعها، محولة عن وجوهها؟ ومثال ذلك كالصورة التي تحول بعض أعضائها إلى موضع بعض، فتحول الرأس إلى موضع اليد أو الرجل أو غير

---

(١) زيادة اقتضاها السياق.

(*) يحمد للمصنف التفاته هنا إلى أثر السياق في النظر إلى الكلمة والحكم عليها بالجودة أو الرداءة، ولكن يبغي التنبيه إلى أنه يجعل للكلمة ميزة أو عيبًا قبل اعتبارها في النظم، وذلك بالنظر إليها مفردة، وتأملها من حيث استيفاؤها للشروط التي سبق ذكرها في الفصل السابق في فصاحة اللفظ المفرد، وقد علقنا هناك بأن الكلمة لا توصف خارج السياق بفصاحة ولا بلاغة، ولا حسن ولا قبح، وهذا هو حاصل كلام الشيخ عبدالقاهر في دلائل الإعجاز، وهو ما عليه العمل عند حذاق البلاغة من المعاصرين والمحدثين والقدماء.

(٢) نضدت المتاع ونضدته، وهو ضم بعضه إلى بعض متسقًا أو مركومًا [أساس البلاغة (نضد)، والصحاح (نضد)].

ذلك، فإنه إذا فعل هذا قبحت الصورة، وفسدت هيئتها الجميلة الحسنة، فاعرف ذلك، فإنه لم يقل: "لفظة متمكنة مَرضِيَّة" وفي خلافها "قلقة مستكرهة" إلا والغرض بالتمكن حسن الاتفاق بين الألفاظ بعضها مع بعض، وبالقلق سوء الملاءمة وأنها لم توافق صواحبها. وهل تشك أيها المتأمل لكتابنا هذا، إذا فكرت في قوله تعالي: ﴿وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءُ وَقُضِيَ الأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾[1] أنك لم تجد ما وجدت لهذه الألفاظ من المزيَّة الظاهرة والفضيلة الزائدة، إلا لأمر يرجع إلى ارتباط بعضها ببعض، وأنه لم يعرض لها هذا الحسن الوافر، والشرف الكامل إلا من حيث لاقت الأولى بالثانية، والثالثة بالرابعة وكذلك إلى آخرها. وأن الفضل حصل من امتزاجهما وتلاؤمهما. فإن لحقك في ذلك أدنى شك فتأمل هل ترى لفظة منها، لو أخذت من مكانها، وأفردت من بين أخواتها، كانت مؤدية من الحسن ما تؤديه وهي في موضعها من الآية؟ فصح لنا من هذا القول أن الألفاظ لا تتفاضل من حيث هي مفردة فقط[2] ومن أدل الدليل على ذلك، أن ألفاظ القرآن الكريم قد نطق بها العرب قبل نزوله على النبي ﷺ، وليس فيه لفظة من الألفاظ [إلا][3] وقد تكلموا بها وجاءت عنهم. ولولا ذلك لما كان عربيا؛ لأنه لما نزل على لغة القوم وكلامهم، ونحن قد رأينا القرآن الكريم يفوق جميع كلامهم، ويعلو عليه مع كونه واردًا على لغتهم قد تكلموا بألفاظه ونطقوا بها، ثبت لنا من ذلك أن ألفاظ القرآن الكريم إنما تفضل سائر الكلام من حيث تركيبها ونظمها. وهي من حيث الانفراد مساوية لكلام العرب، حيث هي عين ألفاظهم ونفس كلامهم. وهذا مما لاشك فيه ولا ارتياب، فاعرفه.

---

(١) هود: ٤٤.

(٢) قال صاحب الدلائل: إن الألفاظ تثبت لها الفضيلة وخلافها في ملائمة معنى اللفظة لمعنى التي تليها، ومما يشهد لذلك أنك ترى الكلمة تروقك وتؤنسك في موضع، ثم تراها تثقل عليك، وتوحشك في موضع آخر [دلائل الإعجاز ص(٤٠) باختصار].

(٣) زيادة اقتضاها السياق.

ومما يشهد بذلك ويؤيده أنك ترى اللفظة تروقك في كلام، وتزداد بها إعجابًا واستحسانًا، ثم تراها في كلام آخر، فتثقل عليك وتستكرهها. مثال ذلك أن لفظة الأخدع، قد جاءت في بيتين من الشعر، وهي في أحدهما لائقة حسنة، وفي الآخر ثقيلة مستكرهة كقول الصمة بن عبد الله[1] بن طفيل في الحماسة:

تَلَفَّتُّ نحو الحيِّ حَتَّى وجَدْتُني وَجِعْتُ مِنَ الإِصْغَاءِ لِيتًا وأَخْدَعَا[2]

وكقول أبي تمام:

يا دَهْرُ قَوِّمْ مِنْ أَخْدَعَيْكَ فَقَدْ أَضْجَجْتَ هَذَا الأَنَامَ مِنْ خُرُقِكْ[3]

ألا ترى أنه قد وجد لهذه اللفظة ببيت أبي تمام من الثقل على النفس والكراهة أضعاف ما وجد لها في بيت الحماسة من الروح والخفة والإيناس والبهجة؟ وهذا مما لا يمكن التراع فيه لظهوره، وسيأتي له باب مفرد في الكلام على الصناعة اللفظية.

فعليك أيها المترشح لهذه الصناعة أن تراعي في كلامك هذه الدقائق الشريفة، والنكت اللطيفة، فإن لصناعة التأليف غورا لا يدرك منتهاه، ومذهبا لا يوصل إلى مداه.

---

(١) هو الصمة بن عبدالله بن الطفيل بن قرة القشيري، من بني عامر بن صعصعة من مضر، شاعر غزل بدوي، من شعراء العصر الأموي، ومن العشاق المتيمين، كان يسكن بادية العراق وانتقل إلى الشام ثم خرج غازيًا يريد بلاد الديلم، فمات في طبرستان سنة ٩٥هـ.

(٢) البيت من الطويل، وهو لصمة بن عبدالله بن طفيل القشيري في لسان العرب- (وجع)، وبلا نسبة في أساس البلاغة- (لفت)، وفي شرح حماسة أبي تمام للتبريزي- (٣/١٤)، ودلائل الإعجاز ص(٤٧).

والليت: صفحة العنق.

والأخدع: عرق في العنق.

(٣) البيت من المنسرح ، وهو لأبي تمام في ديوانه، من قصيدة يمدح بها محمد بن الهيثم، ويهنئه ببرئه مطلعه:

قد مات محل الزمان من فرقك واكتن أهل الإعدام في ورقك

وفي دلائل الإعجاز (٤٧).

والخرق: هو الجهل وعدم حسن العمل.

الباب الثاني

من الفن الثاني من القطب الأول

في الكلام على المعاني[1]

اعلم أن المعاني على ضربين: أحدهما يبتدعه صاحب الصناعة، من غير أن يكون له فيه إمام يقتدي به، أو رسوم قائمة في أمثلة يعمل عليها. وهذا الضرب مما يعثر عليه عند الحوادث المتجددة، ويتنبه له عند الأمور الطارئة؛ والآخر ما يحتذيه على مثال تقدم، ورسم سبق. وينبغي للمؤلف أن يطلب الإصابة في كلا الأمرين، ويتوخى فيها الصورة المقبولة، والعبارة المستحسنة. ولا يتكل فيما يبتكره من المعاني على فضيلة السبق، ولا يغتر بمزية الإبداع، فيتسامح في تهجين صورته. فإنه إذا فعل ذلك ذهب حسنه، وانطمس نوره، ويكون فيه إلى الذم أقرب منه إلى الحمد[2]. وينبغي أن يستيقن المؤلف، ويتحقق أن المعاني أشرف من الألفاظ؛ والدليل على ذلك ما أذكره: وهو أنا لو خلعنا من هذه الألفاظ دلالتها على المعاني، لما كان شيء منها أحق بالتقديم من شيء، بل كانت بمنزلة أصداء الأجسام والأصوات الناشئة عنها؛ ويزيد ما ذكرناه وضوحًا، أن هذه الصناعة من النظم والنثر التي يتواصفها البلغاء بينهم، وتتفاضل بها مراتب البلاغة، إنما هي شيء يستعان عليه بتدقيق الفكرة، وكثرة الروية والتدبر، ومن المعلوم أن الذي يستخرج بالفكرة وينعم فيه النظر، إنما هو المعنى دون اللفظ؛ لأن اللفظ يكون معروفًا عند أرباب صناعة التأليف دائرًا فيما بينهم، والمعنى قد يبتدع؛ فيذكر المؤلف معنى لم يسبق إليه.

---

(١) قال أبو هلال العسكري: "إن الكلام ألفاظ تشتمل على معانٍ تدل عليها ويعبر عنها، فيحتاج صاحب البلاغة إلى إصابة المعنى كحاجته إلى تحسين اللفظ؛ لأن المدار بعد على إصابة المعنى، ولأن المعاني تحل من الكلام محل الأبدان، والألفاظ تجري معها مجرى الكسوة، ومرتبة إحداهما على الأخرى معروفة" [الصناعتين ص(١٣٥)].

(٢) انظر: الصناعتين ص(١٣٧).

وذلك إنما يكون تحادثًا عن الفكرة الصحيحة، والطبع السليم، فإن الذي تخرج فيه صنعتك، وتقع فيه صياغتك هو المعنى. ولهذا كان جماعة المؤلفين يشتركون في معرفة الجيد من الألفاظ وإنما التفاوت يقع بينهم في المعاني؛ لأن الألفاظ الجيدة يستعملها جميعهم، ولا يكاد أحدهم يفوت الآخر فيها، وأما المعاني فإنه قد يبتكر المؤلف المعنى من نفسه، وينتحله من ذاته وذلك كثير لا يحصى. فصح من هذا الوجه، أن المعاني أشرف من الألفاظ وأنبل.

واعلم أن شرف المعنى وعلوه وسقوطه واستفاله، من نتائج علو الهمة وسقوطها. وقد حُكي أن أشرف كلام قالته العرب: "القتل أنفى للقتل"[(1)] ومن المعلوم أن هذا الكلام ليس فيه من الألفاظ البديعة الرائعة ما يرفعه إلى مترلة يكون بها أشرف كلام قالته العرب؛ حتى إنهم جعلوه في مقابلة قوله تعالى: ﴿**وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ**﴾[(2)] لا بل في لفظه من الثقل بسبب تكراره ما لا خفاء به[(3)] ومع هذا فإنا نجد من كلامهم ما ألفاظه تطرب الأسماع، وتأخذ بمجامع القلوب، وذلك أكثر من أن يحصى، وهو لا يكون بمترلة قولهم: "القتل أنفى للقتل" فصح حينئذ أن فخامة هذا الكلام وعلو مترلته إنما هي لأمر يرجع إلى جلالة المعنى المندرج تحته، وشرف قدره.

وقد رأيت جماعة من متخلفي هذه الصناعة، يجعلون هممهم مقصورة على الألفاظ التي لا حاصل وراءها، ولا كبير معنى تحتها، وإذا قال أحدهم سجعتين أو ثلاثًا، يعتقد أنه قد أتى بأمر عظيم، فإذا أنكرت هذه الحال عليهم، يقولون: لنا أسوة بالعرب الذين هم أرباب الفصاحة وفرسان البلاغة، فإنهم اعتنوا بالألفاظ، ولم يعتنوا

---

(١) مجمع الأمثال للميداني (٣١٣).

(٢) البقرة: ١٧٩.

(٣) يقول القزويني في الإيضاح وهو يتحدث عن الكلام الخالي من التعقيد: "قيل فصاحة الكلام هي خلوصه مما ذكر ومن كثرة التكرار وتتابع الإضافات كما في قول المتنبي:

سبوح لها منها عليها شواهد" [الإيضاح (١٠)].

بالمعاني اعتناءهم بها. ألا ترى إلى جهل هؤلاء القوم، فإنهم لم يكفهم جهلهم فيما ارتكبوه من ذلك، حتى إنهم ادعوا أن العرب مثلهم فصارت جهالتهم جهالتين.

ولنذكر هاهنا ما إذا تأمله الناظر في كتابنا هذا عرف ما يوثقه، ويذهب به الاستحسان كل مذهب فنقول: إن العرب لما كانت تعتني بألفاظها، فتصلحها، وتهذبها، وتراعيها، وتلاحظ أحكامها بالنظم تارة وبالنثر أخرى، فإن المعاني أقوى عندها، وأكرم عليها وأفخم قدرًا في نفوسها. فأول ذلك عنايتها بألفاظها لأنها كانت عنوان حاجتها، وطريقا إلى إظهار أغراضها أصلحوها ورتبوها، وبالغوا في تحبيرها وتحسينها، ليكون ذلك أوقع لها في النفس، وأذهب بها في الدلالة على القصد. ألا ترى أن الكلام إذا كان مسجوعًا [لذ لسامعه فحفظه، وإذا لم يكن مسجوعًا][1] لم يأنس به أنسه حالة السجع. فإذا رأيت العرب قد أصلحوا ألفاظهم وحسنوها، ورققوا حواشيها، ونمقوا أطرافها، وصقلوا غروبها، فلا تظن أن العناية إذ ذاك إنما هي بالألفاظ فقط، بل هي خدمة منهم للمعاني، وتنويه بها. ونظير ذلك إصلاح الوعاء وإحكامه، وإنما المبغي بذلك الاحتياط للموعى، لئلا يتغير جوهره، فإنا قد نجد من المعاني الفاخرة السامية ما نجد من طلاوته، وبلادة لفظه تضع من رونقه سوء[2] العبارة عنه، فإن قيل: إنا نرى من ألفاظهم ما قد نمقوه وزخرفوه ودبجوه ولسنا نرى مع ذلك تحته معنى شريفا فمما جاء منه قول بعضهم:

وَلَمَّا قَضَيْنَا مِنْ مِنًى كُلَّ حاجةٍ ... ومسَّحَ بالأركانِ مَنْ هُوَ مَاسِحُ
أَخَذْنَا بِأَطْرَافِ الأحاديثِ بَيْنَنَا ... وسَالَتْ بِأَعْنَاقِ المَطِيِّ الأَبَاطِحُ[3]

---

(١) زيادة من المثل السائر ص(٦٤٦).

(٢) كذا في نسخة، و"سوء" فاعل لتضع.

(٣) البيت من الطويل، وهو لكثير عزة في ملحق ديوانه- (٥٢٥)، وزهر الآداب- (٣٤٩)، وللمضرب عقبة بن كعب بن زهير في الحماسة البصرية- (١٠٣/٢)، وبلا نسبة في لسان العرب- (طرف)، وأمالي المرتضي- (٣٥٩/٢)، والشعر والشعراء- (٧٢)، والخصائص- (٢٨/١، ٢١٨، ٢٢٠)، ومعجم البلدان- (منى)، والإيضاح- (١٦٥).

ألا ترى إلى حسن هذا اللفظ، ومائه وصقاله، وتدبيج أجزائه؟! ومعناه مع ذلك ليس مدانيًا له ولا مقاربًا، فإنه إنما هو "لما فرغنا من الحج ركبنا الطريق راجعين، وتحدثنا على ظهور الإبل..."[١] ولهذه نظائر كثيرة شريفة الألفاظ مشروفة المعاني. وفيما أشرنا إليه كفاية للمتأمل.

الجواب عن ذلك أنا نقول: هذا الموضع قد سبق إلى التشبث به من لم ينعم النظر، ولا رأى ما رآه القوم، وإنما ذلك لجفاء طبع الناظر، وعدم معرفته، وهو أن في قول الشاعر "كل حاجة" مما يستفيد منه أهل النسيب والأهواء والرقة والمقة[٢] [ما لا][٣] يستفيده غيرهم، ولا يشاركهم فيه من ليس منهم. ألا ترى أن حوائج منى أشياء كثيرة فمنها التلاقي، ومنها التشاكي، ومنها التخلي للاجتماع، إلى غير ذلك مما هو تال له، ومعقود الكون به، فكأن الشاعر صانع[٤] عن هذا الموضع الذي أومأ إليه وعقد غرضه عليه، بقوله في آخر البيت "ومسح بالأركان من هو ماسح" أي: إنما كانت حوائجنا التي قضيناها وآرابنا التي بلغناها من هذا النحو الذي هو مسح الأركان، وما هو لاحق به، وجار في القربة من الله تعالى مجراه؛ أي: لم نتعد هذا القدر المذكور إلى ما يحتمله أول البيت من التعريض الجاري مجرى التصريح. وأما البيت الثاني فإن فيه "أخذنا بأطراف الأحاديث بيننا" وفي هذا ما نذكره لتراه فتعجب وممن عجب منه[٥]، ووضع من معناه، وذلك أنه لو قال: "أخذنا في أحاديثنا" أو نحو ذلك؛ لكان فيه معنى يكبره

---

(١) قال الشيخ عبدالقاهر الجرجاني معلقًا على هذه الأبيات: "انظر إلى الأشعار التي أثنوا عليها من جهة الألفاظ، ووصفوها بالسلامة ونسبوها إلى الدماثة، وقالوا كأنها الماء جريانًا، والهواء لطفًا، والرياض حسنًا، وكأنها النسيم... ثم راجع فكرتك، واشحذ بصيرتك، وأحسن التأمل، ودع عنك التجوز في الرأي ثم انظر هل تجد لاستحسانهم وحمدهم وثنائهم ومدحهم منصرفًا إلا إلى استعارة وقعت موقعها، وأصابت غرضها أو حسن ترتيب تكامل معه البيان حتى وصل المعنى إلى القلب مع وصول اللفظ إلى السمع..." [انظر: أسرار البلاغة ص(٢٧-٣٢)].

(٢) المِقَةُ: المحبة، وقد ومقه يمقه –بالكسر فيهما– أي: أحبه، فهو وامق [الصحاح (ومق)].

(٣) في نسخة: مما، والتصحيح من المثل السائر ص(٦٤٨).

(٤) في نسخة (ضائع)، وما أثبتناه من المثل السائر ص(٦٤٨).

(٥) هكذا في الأصل، وفي المثل السائر: "نذكره لتعجب به وبمن عجب منه" [المثل السائر ص(٦٤٨)].

أهل النسيب، وذلك أنهم قد شاع عنهم واتسع في محاوراتهم علو قدر الحديث بين الإلفين، والجذل بجمع شمل المتواصلين. ألا ترى قول بعضهم:

وحَدَّثْتَني يا سَعْدُ عنها فَزِدْتَني جُنونًا فَزِدْني مِنْ حَدِيثِكَ يا سعدُ[١]

وقول الآخر:

وحَدِيثُها السِّحْرُ الحلالُ لو أنَّهُ لم يَجْنِ قَتْلَ المسلمِ المتحرِّزِ[٢]

فإذا كان قدر الحديث عندهم على ما ترى فكيف به إذا قيده بقوله: "أخذنا بأطراف الأحاديث بيننا" وذلك أن في قوله: "بأطراف الأحاديث بيننا" وحيا خفيا ورمزًا حلوًا؟

ألا ترى أنه قد يريد بأطرافها مما يتعاطاه المحبون ويتفاوضه ذوو الصبابة المتيمون، من التعريض والتلويح والإيماء دون التصريح. وذلك أحلى وأدمث[٣] وأغزل، وأنسب من أن يكون كشفًا ومصارحة وجهرًا. وإذا كان الأمر كذلك فمعنى هذين البيتين أعلى عندهم وأشد تقدمًا في نفوسهم من لفظهما، وإن عذب موقعه ولذَّ سمعه نعم، في قول هذا الشاعر "وسالت بأعناق المطي الأباطح" من الرشاقة واللطافة ما لا خفاء به[٤]، فالعرب إنما تحلي ألفاظها وتدبجها، وتوشيها وتزخرفها، عناية منها بالمعاني التي تحتها، أو توصلا بها إلي إدراك مطالبها. فالألفاظ إذا خدم المعاني، والمخدوم لا شك أشرف من الخادم، فاعرف ذلك.

---

(١) البيت من الطويل وهو للعباس بن الأحنف في ديوانه، ومطلع إحدى قصائده.

(٢) البيت من الكامل وهو لابن الرومي في ديوانه ومطلع لإحدى قصائده. ويروى "أنها" بدلاً من "أنه"، و"تجن" بدلاً من "يجن".

(٣) دَمِثَ المكان وغيره دمثًا، فهو دَمِثٌ: سَهُلَ، ولانَ، والدماثة: سهولة الخُلُق، وهو مجاز [الصحاح (دمث)، تاج العروس (دمث)].

(٤) يقول صاحب المثل السائر ص(٦٥٠): "إن هؤلاء القوم لما تحدثوا وهم سائرون على المطايا شغلتهم لذة الحديث عن إمساك الأزمة، فاسترخت عن أيديهم، وكذلك شأن من يشره وتغلبه الشهوة في أمر من الأمور، ولما كان الأمر كذلك وارتخت الأزمة عن الأيدي أسرعت المطايا في المسير، فتشبهت أعناقها بمرور السيل على وجه الأرض من سرعته وهذا موضع حسن لا مزيد على حسنه.

الباب الثالث

من الفن الثاني من القطب الأول في تفضيل الكلام المنثور على المنظوم

واعلم أن الأقوال متعارضة في تفضيل كل واحد من هذين القسمين على الآخر(١)، إلا أن المذهب الفحل والقول القوي أن الكلام المنثور أفضل من الكلام المنظوم(٢)، والدليل على ذلك من أربعة أوجه:

"الأول" أن القرآن الكريم ورد نثرًا ولولا فضله وعلو درجته، لما نزل كتاب الله ﷻ على أسلوبه ونهجه، وأيضا، فإن القرآن معجزة الرسول ﷺ ومن المعلوم أن المعجزات لا تجيء إلا من طريق الأصعب، بحيث إنه لا يمكن أحدًا من خلق الله الوصول إليها والإتيان بمثلها. ولما كان النثر من الأقوال الشاقة، والأشياء المتصعبة أنزل الله تعالى القرآن الذي هو معجزة على قانونه.

ومما يدلك على أن النثر أشق من النظم، وأصعب مأخذًا، هو أن العرب كانوا أفصح الناس، وأبلغهم وأكثرهم قدرة على التفنن في الكلام، ومع هذا فلم نسمع لأحد منهم النثر إلا لقس بن ساعدة(٣) الذي يضرب بكلامه المثل في الفصاحة والبلاغة، ولأقوام آخرين وهم قليل.

---

(١) انظر: "خريدة القصر وجريدة العصر" للعماد الأصفهاني ص(٢٦١)، و"زهر الآداب وثمر الألباب" ص(١٣٢١)، وز"هر الأكم في الأمثال والحكم" لليوسي ص(٧٦).

(٢) قال ابن سنان الخفاجي في تفضيل النثر على الشعر: "النثر يعلم فيه أمور لا تعلم في النظم، والحاجة إلى صناعة الكتابة ماسة، والشعر فضل يستغنى عنه ولا تقود ضرورة إليه" [انظر: سر الفصاحة ص(٤٩١) باختصار].

(٣) قس بن ساعدة بن عمرو بن عدي بن مالك، من بني إياد، أحد حكماء العرب، ومن كبار خطبائهم في الجاهلية، ويقال: إنه أول عربي خطب متوكئًا على سيف أو عصا، طالت حياته وأدركه النبي ﷺ قبل النبوة، ورآه في عكاظ، وسُئل عنه بعد ذلك، فقال: يحشر أمة وحده [الأعلام (١٩٦/٥)].

وأما النظم، فإن جميع العرب كانوا يقولونه وكان عليهم من أسهل الأشياء حتى على نسائهم، وأيضا، فإن أرباب النظم لو أريد حصرهم، بل حصر أهل عصر واحد لتعذر حصول ذلك، فكيف حصر جميعهم؟ وليس سبب هذا إلا وعورة مسلك النثر وشرف مترلته، وأنه لا يناله إلا الأفراد من الفضلاء، فإن قيل: إذا كانت العرب لا تكثر من النثر، وأكثرت من النظم، فليس ذلك دليلاً على أن النثر أصعب من النظم بل الأمر بالعكس من ذلك، وهو: أن النثر لما كان سهلا عند العرب هينا، والنظم شاقًا عليهم مستصعبا، عمدوا إلى الأصعب وتركوا الأسهل؛ لأنهم إنما كان غرضهم إظهار قوتهم في البلاغة والفصاحة، وإذا كان ذلك فيما هو أشق مسلكا وأوعر مذهبا، كان أدل على تمكنهم من الكلام، وأما النثر، فما كان عندهم بمترلة من يرغبون فيه، ويتنافسون عليه؛ لسهولته عندهم! ولهذا لم يعتنوا به ويكثروا منه، كما فعلوا في النظم! وأما قولك: إن القرآن الكريم ورد نثرًا، وتفضيلك النثر على النظم، لأن الله تعالى إنما أنزل القرآن ليكون آية لرسوله ﷺ، ومعجزة على يده، ليفحم به أولئك الفصحاء والبلغاء من العرب؛ لأنهم كانوا أرباب الفصاحة والبلاغة، وحيث كان النثر سهلا عندهم يسيرًا عليهم أنزل الله تعالى القرآن على أسلوبه ليعجزهم، بما هو أسهل عليهم من غيره، ليكون ذلك أعظم في الإعجاز.

وأبلغ الجواب عن ذلك أنا نقول: إن هذا الذي ذكرته من أن النثر كان أسهل على العرب من النظم، واستدلالك عليه بقلة رغبتهم فيه واعتنائهم به، فليس ذلك دليلاً لك، بل هو دليل لنا دونك وذاك أنه قد ثبت بإجماع منا أن العرب لم تكثر من النثر، وأكثرت من النظم، ومن المعلوم أن الإنسان إذا كان مكثرًا من شيء استدل بذلك على قدرته عليه، و[عدم] [1] قصوره عن الوصول إليه ولا يقال بأن إكثاره من هذا الشيء دليل على تعذره عليه، لأنه لو كان متعذرًا عليه لما قدر على الإكثار منه،

---

(١) زيادة اقتضاها السياق.

ولذلك لا يقال أيضًا: إن تقليله من هذا الشئ دليل على سهولته عنده لما أقل منه، وهذا مما لا يمكن التراع فيه بحال من الأحوال.

وأما قولك: إن النثر لما كان عند العرب أسهل من النظم، أنزل الله تعالى القرآن الكريم على أسلوبه، ليعجزهم بما هو أسهل عليهم من غيره، فيكون ذلك أدل على الإعجاز من كونه يجيء على أسلوب الأشق الأصعب. فالجواب عن ذلك أنا نقول: قد ثبت أن المعجزات التي على أيدي الأنبياء- صلوات الله عليهم – لم تأت مما كان سهلاً على أممهم، لأنهم إنما جاؤا بإحياء الأموات، وانشقاق البحر وانفجار الماء من الحجر، وما جرى هذا المجرى، وهذا الحكم أيضا موجود في النثر، فإنه لما كان شاقًا على العرب، وليس فيهم من يقدر على الإتيان به إلا القليل، أنزل الله تعالى القرآن الكريم على نهجه وطريقه، لتكون المعجزة مناسبة لما جاءت فيه، وذلك أن النثر من حيث ذاته أمر شاق مستصعب، وانضاف إلى ذلك كونه من عند الله تعالى فصار معجزًا بالضرورة، فاعرف ذلك.

وأما الوجه الثاني فهو: أن النثر ينوب مناب النظم ولا ينوب النظم مناب النثر وذلك أنه إذا أخذ معنى من المعاني، وعبر عنه بلفظ مطابق له، وكان ذلك الكلام منثورًا، فإنه لا يمكن التعبير بمقدار ذلك اللفظ، ويكون الكلام شعرًا، وذلك أنه يحتاج في الشعر إلى إقامة الوزن وهذا لا يتم إلا بزيادة لفظ، أو نقصان لفظ، وإذا زيد على ذلك شيء صار في الكلام ما لا حاجة فيه، إذ المعنى كان يصح بدونه، وإن نقص منه شيء صار المعنى ناقصًا عما كان عليه في الأول.

وأما الوجه الثالث: فهو أن النثر لا ينال إلا بعد تحصيل آلاته المذكورة في صدر كتابنا هذا أو بعضها. وذلك بخلاف النظم فإنه قد يقول من لم يحصل من آلاته شيئًا ألبتة. وكثيرًا ما رأينا ممن يقول الشعر الحسن ويصيب في معانيه، ويجيد ألفاظه، وهو لا يعرف من آلات التأليف شيئًا كالسوقة[1] والعامة من أرباب الحرف والصنائع.

---

(١) السوقة من الناس، والجميع السُّوق: أوساطهم [تهذيب اللغة (ساق)].

وأما الوجه الرابع: فهو أن الناثر تعلو درجته حتى ينال الوزارة للخلفاء والملوك؛ وأما الشاعر فلا تعلو درجته عن رتبة المستعطين، ومترلة الطالبين لما في أيدي الناس. ولولا فضل الناثر وما عرف من شرف صنعته والحاجة إليها، لما رقي إلى درجة الوزارة. وكذلك الشاعر؛ فلولا كساد صنعته والاستغناء عنها، لعلت درجته وارتفعت مترلته، ولما كان في طول عمره كلاً على الناس، وهذا شيء مطرد لم يزل. وقد شوهد رأى العين، فلا يمكن التراع فيه بحال من الأحوال.

obeikandl.com

القطب الثاني

في الأشياء الخاصة وهو فنان

الفن الأول في الفصاحة والبلاغة

اعلم أن هذا باب غامض، متعذر على الوالج، ومسلك وعر، مستصعب على الناهج. و لم يزل الناس من قديم الوقت، وهلم جرا، يتهافتون على الخوض فيه، والغوص عليه، وهم مع كثرة طلبهم لمعرفته، وتوفر حرصهم على الإحاطة به، لا يظفرون منه إلا كنغبة[1] طائر أو قطرة من بحر زاخر. وقد قال بعض المصنفين من العلماء[2]: لم أزل منذ خدمت [أهل][3] العلم، أنظر فيما قالوه في معنى الفصاحة والبلاغة وأستكشف عن المعنى في ذلك، فلا أجد إلا كالرمز والإشارة، ولا أقف فيه على قول شاف، ولا كلام كاف. فلما رأيت الأمر كذلك، علمت أنه لا يكفي في معرفة هذا العلم العظيم الذي كان به إعجاز القرآن الكريم قول مهمل، ولا كلام مجمل. بل لا تتم معرفته حتى يفصل فيه القول، ويدل على الخصائص التي تأتي في تأليف الكلام، ويوضح إيضاحا جليا من غير مغادرة لشيء من ذلك، حتى تكون المعرفة بهذا العلم كمعرفة الصانع الحاذق، الذي يعلم كل هدبة[4] منسوجة من الإبريسم[5] في الثوب الديباج، وكل حجر من الأحجار الداخلة في البناء، فإنك إذا نظرت إلى هذا العلم الشريف احتجت عند ذلك إلى طول مكث وتدبر، وكثرة تأمل وتفكر، وإلى همة تأبى أن تقنع إلا بأعلى المنازل، وأسمى المراتب. ومتى جشمت نفسك حصول هذا المرام

---

(١) النغبة: بالضم هي الجرعة وجمعها نُغَب، وبالفتح هي المرة الواحدة [لسان العرب: (نغب)].

(٢) الكلام لعبد القاهر الجرجاني في دلائل الإعجاز ص(٣٣-٣٤).

(٣) غير موجودة في الدلائل [انظر: دلائل الإعجاز ص(٣٣)].

(٤) هُدب الثوب: خيوطه في أطرافه، الواحد هُدبة [جمهرة اللغة (بده)].

(٥) الإبريسم: معرب وفيه ثلاث لغات، والعرب تخلط فيما ليس من كلامها، قال ابن السكيت: هو الإبرسيم بكسر الهمزة والراء وفتح السين، وقال: ليس في كلام العرب [اللسان (برسم)].

البعيد، وكلفتها صعود هذا المرمى النازح، فقد أممت أمرا عظيمًا، وتعرضت لخطب جسيم"[1] وفقنا الله وإياكم لمواقع الصواب.

ولنرجع إلى ما هو غرضنا، ومهمنا من ذكر الفصاحة والبلاغة، والكشف عن حقيقتهما واختصاصهما، فنقول: اعلم أن أصل الفصاحة في وضع اللغة[2]: الظهور والبيان؛ يقال: أفصح الصبح إذا بدا ضوؤه وأسفر، وأفصح فلان عما في نفسه: إذا أظهره، وإنما سمي اللفظ فصيحًا لأنه يبين المقصود، ويوضح المعنى المندرج تحته[3].

والفصاحة: اسم عام يشمل المفرد من اللفظ والمركب، وإنما كان الأمر كذلك لأن واضع اللغة إنما وضع الألفاظ مفردة لا مركبة، فالفصاحة شملت أولا المفردة، وإذا شملت المفردة فمن الضرورة شمولها للمركبة؛ لأن المركبة مجتمعة من المفردة، وكل مركب كانت أجزاؤه ذات صفة هي فيها متساوية فتلك الصفة تعمه لا محالة.

واعلم أيضا أن الفصاحة أمر إضافي كالحسن والقبح، والكلام الفصيح ليس كلامًا مخصوصًا بعينه، بل كل من فهم كلامًا وعرفه فهو فصيح بالنسبة إليه، لأنه ظاهر عنده، وواضح لديه، ومما يقوي هذا القول، أن اللفظ الذي لا نعده نحن في زماننا هذا فصيحًا، وننكره لعدم استعماله وغرابته كان عند من تقدمنا من أرباب التأليف مستعملا في زمانهم متعارفًا مشتهرًا ولولا ذلك لما أوردوه في كلامهم، فإن معظم أشعار العرب ومن يليهم من المحدثين مشحونة ومملوءة منه، ولو استعمل في زماننا هذا لاستُنكر واستُبشع وحكم على قائله بالجهل والتعسف. ورأينا أبا محمد بن سنان الخفاجي قد قال في كتابه[4]: "إن الفصاحة نعت للألفاظ إذا وجدت على شروط عدة، ومتى تكاملت تلك الشروط فلا مزيد على فصاحة تلك الألفاظ"، ثم إنه قسم

---

(١) انظر: دلائل الإعجاز ص(٣٣-٣٥).

(٢) الفصاحة: البيان، فصح الرجل فصاحة فهو فصيح من قوم فصحاء وفصاح وفُصُح.. تقول رجل فصيح، وكلام فصيح: أي بليغ [اللسان: (فصح)].

(٣) انظر: المثل السائر ص(١١٩-١٢١).

(٤) انظر: سر الفصاحة ص(١٠١).

الشروط إلى قسمين، أحدهما يوجد في اللفظة المفردة، والآخر يوجد في الألفاظ المركبة، وجعل ما يختص باللفظة المفردة منقسمًا إلى ثمانية أقسام، كتباعد مخارج الحروف، وأن لا تكون الكلمة وحشية ولا متوعرة، وغير ذلك مما أورده وذكره في كتابه، وفي هذا نظر وقفنا عليه الفكر والروية[1]، وذلك أنه قد جعل صفات اللفظة التي تكون بها ذات مزية وحسن هي الفصاحة، وخالف بذلك نص العرب، لأنهم قالوا: إن اللفظ الفصيح هو الظاهر الواضح، و لم يقولوا: إنه المتباعد مخارج الحروف، ولا الذي ليس وحشيًا ولا متوعرًا، ولا غير ذلك مما ذكره أبو محمد بن سنان. ولهذا تطرق إلى كلامه الخلل، وذاك أنه نقل الفصاحة عن حقيقتها التي وضعت لها في أصل اللغة، بأن علقها على هذه الشروط التي ذكرها، وجعل وجودها موقوفا على وجود تلك الشروط، وبعضها لا تكون فصيحة وحقيقتها أن تكون فصيحة، وهذا من أعجب الأشياء فليتأمل.

وأيضا فإن أبا محمد بن سنان قد ذكر في كتابه، من جملة الأقسام الثمانية قسمًا وهو أن لا تكون الكلمة قد عبر بها عن معنى يكره ذكره[2]، فإذا وردت وهي غير مقصود بها ذلك المعنى قبحت، كقول عروة بن الورد:

قُلْتُ لقومٍ في الكَنِيفِ[3] تروَّحُوا   عَشِيَّةَ بِتْنَا عِنْدَ مَاوانَ رُزَّحِ[4] [5]

(١) روأت في الأمر تروئة وتوريئا: إذا نظرت فيه، و لم تعجل بجواب، جرت في كلامهم غير مهموزة [الصحاح (روا)].

(٢) في نسخة: "ذلك" وما أثبتناه من سر الفصاحة ص(١٣٤).

(٣) الكنيف: الساتر، وهو أيضًا حظيرة من خشب أو شجر تتخذ للإبل [اللسان (كنف)].

(٤) رزح: بعير رازح: ألقى نفسه من الإعياء، وقيل هو الشديد الهزال [اللسان: (رزح)].

مَاوان: ماء لبني خزارة، وماؤها مِلحٌ [انظر: أمالي القالي (١٢٩٢/٢)، وتاج العروس (غيث)].

(٥) البيت من الطويل، وهو لعروة بن الورد في ديوانه- (٣٩)، والدرر- (٦/٦)، وشرح ديوان الحماسة للمرزوقي- (٤٦٤)، وديوان عروة بن الورد "أمير الصعاليك"، شرح وتحقيق- أسماء أبو بكر محمد- دار الكتب العلمية- بيروت- الطبعة الأولى- (١٩٩٢م)- (٥١)، وبلا نسبة في همع الهوامع.

قال: "الكنيف" أصله الساتر، ومنه قيل للترس "كنيف" غير أنه قد استعمل في الآبار التي تستر الحدث وشهر بها فأنا أكرهه لذلك. هذا حكاية كلام أبي محمد بن سنان الخفاجي.

ولنا عليه اعتراض، وهو أنا نقول: إذا كان قد جعل الفصاحة مقصورة على الألفاظ فكيف عاد نقض ما ادعاه بهذا القول، فإنه إنما أنكر من هذه اللفظة التي هي الكنيف ما تضمنته من المعنى فقط. وإلا فإذا اعتبر لفظها ومخارج حروفها، من غير نظر إلى المعنى المندرج تحتها، لم يوجد لها قبح ولا كراهة، لأن مخارج الحروف التي تألفت منها متباعدة فمخرج الكاف دون مخرج القاف الذي هو من أقصى اللسان، ومخرج النون من طرف اللسان بينه وبين ما فوق الثنايا السفلى، ومخرج الياء من وسط اللسان بينه وبين وسط الحنك، ومخرج الفاء من باطن الشفة السفلى، وأطراف الثنايا العلى. ومع هذا فإذا نقلت هذه اللفظة التي قد استقبحت هاهنا، إلى موضع آخر صار ذلك القبح حسنا كقولك: "أنا في كنف فلان" أي في ذراه، وتحت ظله فصح حينئذ من فحوى كلام أبي محمد بن سنان أنه نقض ما ادعاه أولاً، من أن الفصاحة نعت للألفاظ، بما ذكرناه من شروطها الثمانية، التي من جملتها هذا القسم المأخوذ عليه، وهو مما يختص بالمعنى دون اللفظ، وتناقض كلام مثل ذلك الإمام المشهور في هذه الصناعة عجيب. عصمنا الله وإياكم من الزلل وهدانا إلى طريق الصواب.

وأما البلاغة، فإن أصلها[في][1] وضع اللغة: الوصول والانتهاء، يقال: بلغت المكان إذا انتهيت إليه، ومبلغ الشيء: منتهاه. وسمي الكلام بليغًا من ذلك، أي: إنه قد بلغ الأوصاف اللفظية والمعنوية. وذلك أن له أوصافا ثلاثة يعرف بها، فمتى عري من واحد منها نقص عن درجة البلاغة، فلا يسمى بليغًا، وهي أن يكون معناه مقيدًا، ويكون لفظه فصيحًا، ويكون غير زائد على المعنى المندرج تحته، فيلزم على هذا أن يكون كل كلام بليغ فصيحًا، وليس كل كلام فصيح بليغًا[2].

---

(١) زيادة اقتضاها السياق من المثل السائر ص(١٢٨).

(٢) قال ابن الأثير: "البلاغة شاملة للألفاظ والمعاني، وهي أخص من الفصاحة، كالإنسان من الحيوان، فكل إنسان حيوان، وليس كل حيوان إنسانًا" [انظر: المثل السائر ص(١٢٩، ١٢٩)].

واعلم أن البلاغة تعم الكلام مركبًا لا مفردًا، وإنما كانت كذلك لأن المفرد لا يكون مفيدًا، وما ليس بمفيد فلا يسمى بليغًا.

وأيضا فإن اللفظة المفردة برأسها، إذا وردت في الكلام لا يراد بها إلا معنى واحد من غير زيادة في الكلام ما يزيد معناه على لفظه، وذلك أنما يكون مركبًا لا مفردًا.

وأما اختصاص الفصاحة في البلاغة، فإن أبا محمد بن سنان الخفاجي ذكر ذلك في كتابه[1] فقال: إن الفصاحة مقصورة على وصف الألفاظ، والبلاغة لا تكون إلا وصفا للألفاظ مع المعاني ثم أنه لم يورد على ذلك دليلاً بل أجمل القول فيه كما قد ذكرناه. فإن هذا حكاية لكلامه بعينه. فلما وقفنا نحن على ما أومئ إليه، سنح لنا في أثنائه دليل، وهو أنا نقول: قد ثبت لنا أن أصل الفصاحة في وضع اللغة: الظهور، والبيان، والفصيح: هو الظاهر، وهو اسم فاعل من فصح مطرد في بابه، يقال: كرم فهو كريم" و"ظرف فهو ظريف" و"شرف فهو شريف" و"فصح الكلام فهو فصيح" وكذلك ما جرى هذا المجرى. فوزن فعيل: هو اسم فاعل من "فَعُل" وهذه قاعدة مستمرة في ذلك.

وقد ثبت لنا أيضا، أن المعنى لا يكون مظهرًا لنفسه، ولا موضحًا عن ذاته، إذ المعاني جميعها قائمة بالنفس، وإنما اللفظ يظهرها ويبينها فهو إذا فاعل البيان والإيضاح، وهذه أيضًا قاعدة مسلمة، لا خلاف فيها بحال من الأحوال. فلما كان اللفظ هو الفاعل للبيان والإيضاح، وكان الفصيح اسم فاعل من فصح أي بان واتضح، وجب حينئذ أن يكون اسمًا للفظ، ومختصًا به[2]، فاعرف ذلك.

فإن قيل: القياس يقتضي أن الدليل الذي أوردته في الفصاحة يلزمك في البلاغة مثله، وهو أن وزن "بليغ" مثل وزن "فصيح" فكما أن فصيحًا اسم فاعل، كذلك

---

(١) انظر: سر الفصاحة ص(٩٣).

(٢) انظر: المثل السائر ص(١٢٢-١٢٤).

يكون "بليغًا" أيضًا اسم فاعل، وإذا كان اللفظ فاعلاً للفصاحة فاختصت به، كذلك يكون اللفظ فاعلاً للبلاغة فيجب اختصاصها به.

الجواب عن ذلك أنا نقول: أما قولك: القياس يقتضي أن تكون البلاغة مختصة باللفظ، كما أن الفصاحة مختصة به، لتساوي البلاغة والفصاحة في الدليل الذي أوردناه من حيث إن بليغًا وفصيحًا على وزن واحد فإن هذا الذي ذكرته قياس وارد، ولكن من وجه، وذلك أنا نحن لم نستدل على أن الفصاحة تخص اللفظ بوزن "فعيل" الذي هو اسم الفاعل فقط، وإنما استدللنا على أن الفصاحة تخص اللفظ من حيث كان أصلها في وضع اللغة الظهور والبيان. وانضاف إلى ذلك أنها على وزن "فعيل" الذي هو اسم فاعل من "فعل" نحو "فصح" فهو "فصيح"، فلما صح لنا هذان الأمران، ثبت لنا من مجموعها ما ادعيناه: من أن الفصاحة تخص اللفظ كما أريناك.

وأما البلاغة فلو كان أصلها في وضع اللغة "الظهور والبيان" كما هو أصل الفصاحة لصح لك ما ذكرته من الاعتراض. وإنما أصلها في وضع اللغة "من الوصول والانتهاء" لا غير، وعلى أصلك أيها المعترض فينبغي أن يكون كل ما هو على وزن "فعيل" مختصا باللفظ نحو "شرف فهو شريف" و"ظرف فهو ظريف" و"كرم فهو كريم" وأمثال ذلك مما جرى هذا المجرى؛ فالشرف إذًا مختص باللفظ، وكذا الظرف والكرم، وهذا من أعجب الأشياء، فليتأمل.

وأيضًا، فقد بينا أن للبلاغة أوصافا ثلاثة، لا يسمى الكلام بليغًا إلا بمجموعها، ومتى عري من واحد منها فليس ببليغ؛ فالأول منها يتعلق بالمعنى، وهو الإفادة، والثاني يتعلق باللفظ والمعنى كليهما، وهو أن يكون اللفظ غير زائد على المعنى، والثالث يتعلق باللفظ وهو الفصاحة؛ لأن الكلام لا يطلق عليه اسم البلاغة حتى يكون فصيحًا. فالفصاحة إذًا شرط في البلاغة لا تتم إلا به. فلما كانت الحال كذلك وجب أن تعم البلاغة باللفظ والمعنى معًا.

وأما الفصاحة فليست كذلك؛ لأنها محض إبانة ووضوح فقط، وذلك يتعلق باللفظ بموجب الدليل الذي قدمنا ذكره، فتدبر ما أشرنا إليه، وتصفح مطاويه، في ذلك كفاية.

الفن الثاني من القطب الثاني

في ذكر أصناف علم البيان وانقساماتهما وهو بابان:

الباب الأول في الصناعة المعنوية

وينقسم إلى تسعة وعشرين نوعًا، وإنما قدمنا ذكر المعاني على الألفاظ؛ لأن المعاني هي التي تقرر أولاً في النفس وترتب في القلوب، ثم يطلب لها بعد ذلك ألفاظ تعرب عنها، وتدل عليها ولأن المعاني أشرف من الألفاظ وأعلى محلاً، فاعرف ذلك.

النوع الأول في الاستعارة

وهو أن تريد تشبيه الشيء بالشيء، فتدع الإفصاح بالتشبيه وإظهاره، وتجيء على اسم المشبه به وتجريه عليه كقولك: "رأيت رجلاً هو كالأسد في شجاعته وقوة بطشه سواء"، فتدع ذلك وتقول "رأيت أسدًا" وهذا يكون على ضربين: أحدهما: أن تجعل المشبه هو المشبه به، بأن تنزله وتسقط ذكر المشبه من البين كقولك: "رأيت أسدًا"، والثاني: بأن تجعل المشبه به خبرًا عن المشبه في باب الاستعارة، وأورده جماعة العلماء مثل: قدامة، والجاحظ، وأبي هلال العسكري، والغانمي، وأبي محمد بن سنان الخفاجي في تصانيفهم في باب الاستعارة و لم يذكروا أن الأصل فيه تشبيه بليغ؛ فما أعلم هل ذلك لخفائه عليهم، أو أهم عرفوه و لم يذكروه، وهو الأصل المقيس عليه في التشبيه، الذي أجمع عليه المحققون من علماء البيان. وقد أوردناه نحن في كتابنا هذا في باب الاستعارة تشبهًا بالقوم، واستنانًا بسنتهم؛ لأهم السابقون في هذا الفن بالتصنيف، إلا أن موضعه باب التشبيه، فاعرف ذلك.

واعلم[1] أنه قد أجمع الجمهور من العلماء على أن للاستعارة مزية وفضلا على حقيقتها؛ والسبب في ذلك أنك إذا قلت: "رأيت أسدًا" كان لكلامك مزية، لا تكون إذا قلت: "رأيت رجلاً هو كالأسد سواء، في الشجاعة، وقوة القلب وشدة البطش" وليست المزية التي تثبتها لهذا الجنس على الكلام المتروك على ظاهره، ولكنها في طريق

---

(١) انظر: دلائل الإعجاز ص(٥٣).

openkandil.com

إثباتك لها وتقريرك إياها، معلومة من قرائن الأحوال، فليست المزية في قولك: "رأيت أسدًا" أنه دل على شجاعة زائدة، وشدة وافرة، بل إنك أثبت للمستعار له الشجاعة الزائدة والشدة الوافرة، من وجه هي أبلغ وآكد، وأوجبتها له إيجابا هو أشد وأقوى، لأنك أثبتها بالدلائل والشواهد. فإذا سمعتهم يقولون: إن من شأن هذه الأجناس أن تكسب المعاني نبلا، فإنهم لا يريدون الشجاعة والشدة وغير ذلك، وإنما يريدون إثبات معاني هذه الكلم لمن تثبت له، ويخبر بها عنه من طريق هو أشد وآكد. وسيأتي بيان التشبيه مستوفي إن شاء الله.

واعلم أن الاستعارة جمع بين شيئين بمعنى مشترك بينهما، يكسب أحدهما بالآخر، ولا بد للاستعارة من ثلاثة أشياء: مستعار، ومستعار منه، ومستعار له، فاللفظ المستعار، قد نقل من أصل إلى فرع للإبانة. والمستعار منه والمستعار له، لفظان حمل أحدهما على الآخر في معنى من المعاني؛ هو حقيقي للمحمول عليه؛ مجازي للمحمول. مثال ذلك قوله تعالى:﴿وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا﴾[1] فهذا مستعار، ومستعار منه، ومستعار له؛ فالمستعار هو الاشتعال، وقد نقل من الأصل الذي هو النار إلى الفرع الذي هو الشيب، قصدًا للإبانة، وأما المستعار منه، فهو النار والاشتعال لها حقيقة، وأما المستعار له فهو الشيب، والاشتعال له مجاز.

واعلم أن أبلغ الاستعارات ما ناب التشبيه منابها، وكلما زدت التشبيه فيها إخفاء ازدادت الاستعارة حسنًا ورونقًا؛ حتى إنك تراها أعجب ما يكون؛ إذا كان الكلام ألف تأليفًا إن أردت أن تفصح فيه بالتشبيه خرجت إلى شيء يحط من درجته، ويضع من قدره؛ ويدلنا على ذلك قول بعضهم:

أَثْمَرَتْ أغصانُ راحَتِهِ ... لِجُنَاةِ الحُسْنِ عُنَّابَا[2]

---

(١) مريم: ٤.

(٢) البيت من المديد وهو لابن المعتز في ديوانه من قصيدة مطلعها:

جَارَ هَذا الدهرُ أَوْ آبا ... وقَرَاكَ الهَمُّ أَوْصَابَا

ألا ترى أنك لو كلفت نفسك أن تظهر للتشبيه، وتفصح به احتجت إلى أن تقول: أثمرت أصابع يده التي هي كالأغصان، لطالب الحسن شبه العناب من أطرافها المخضولة؟!

ومن له أدنى تشبث[1] بهذه الصناعة، يعلم الفضيلة بين ما تضمنه هذا البيت من الاستعارة، وبين إظهاره إلى التشبيه، فاعرف ذلك وقس عليه.

وحيث انتهى بنا القول إلى هذا المقام، ونبهنا على هذه الأصول، فلنتبعها بما ينخرط في سلكها من الكلام على الجيد من الاستعارة؛ الذي[2] يجب على المؤلف استعماله، والرديء الذي ينبغي له اجتنابه والبعد عنه؛ فنقول: الاستعارة تنقسم قسمين:

الأول: يجب استعماله: وهو ما كان بينه وبين ما استعير له تشابه وتناسب، ولنضرب له أمثلة يستدل بها عليه؛ فمن ذلك قوله تعالى: ﴿**وَآيَةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ**﴾[3] وهذا الوصف إنما هو على ما يظهر للعين لا على حقيقة المعنى؛ لأن الليل والنهار اسمان يقعان على هذا الجو عند إظلامه وإضاءته بغروب الشمس وطلوعها، وليسا على الحقيقة شيئين يسلخ أحدهما من الآخر، إلا أنهما في رأي العين كأنهما كذلك. والسلخ يكون في الشيء الملتحم بعضه ببعض، فلما كانت هوادي الصبح عند طلوعه، كالملتحمة بأعجاز الليل أُجري عليهما اسم السلخ، وكان ذلك لائقًا في بابه، وهو أولى من قوله "يخرج" لأن السلخ أدل على الالتحام المتوهم من الإخراج، وذلك أن انسلاخ الشيء عن الشيء، هو أن يميز أحدهما من الآخر، ويزول عنه بالتدريج، حالاً فحالاً، كما ينسلخ جلد الشاة عنها. وكذلك انفصال الليل عن النهار. فانظر أيها

---

(١) في نسخة: "تشبيه" والتصحيح أورده محقق (ط) وهو الأصوب.

(٢) في نسخة: "التي" والتصحيح أورده محقق (ط) وهو الأصوب.

(٣) يس: ٣٧.

المتأمل لهذه الاستعارة، شدة التناسب الذي بينها وبين ما استعيرت له، ومشابهتها إياه؛ فإنها من الاستعارات التي لا أمد فوقها في الحسن.

ومن ذلك أيضا قوله تعالى ﷻ: ﴿وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا﴾[1] وقد ذكر علماء البيان في هذا ما نورده هاهنا وهو: أن الشيب لما كان يأخذ في الرأس ويسعى فيه شيئًا فشيئًا، حتى يحيله إلى غير لونه الأول، كان بمترلة النار التي تشعل في الجسم وتسري فيه، حتى تحيله إلى غير حاله المتقدمة. وهذا كلام مرضي في بابه، إلا أن هاهنا نكتة أخرى، وذلك أنه شبه انتشار الشيب باشتعال النار في سرعة التهابه، وتعذر تلافيه، وفي عظم الألم في القلب به، ولأنه لم يبق إلا الخمود بعده؛ فهذه الاستعارة البديعة هي التي تعجز القدرة عن الإتيان بمثلها، ومما دون ذلك في الطبقة، وقول أبي تمام:

ومعرَّسٍ[2] للغيثِ يخفق بَيْنَه ... راياتُ كلِّ دُجُنَّةٍ[3] وَطْفاءِ[4][5]

فإن استعارة هذا البيت صالحة مرضية، لملاءمتها ما استعيرت له، فحيث جعل للسحابة رايات كان ذلك مناسبًا، لأن الهيدب[6] الذي يستبين للناظر في الجو عند انسكاب السحابة، يكون مشابهًا لذوائب الرايات. وأما قوله "يخفق" فهو أيضًا حسن مرضي؛ لأن الريح إذا هبت على الرايات خفت بنودها، وجاء لها صوت كصوت السحابة في انسكابها، هموها وانصبابها، ولا سيما الوطفاء.

---

(١) مريم: ٤.

(٢) معرس: المعرس موضع التعريس، والتعريس: نزول القوم في السفر من آخر الليل [اللسان: (عرس)].

(٣) دجنة: يوم ذو دجنة إذا كان ذا مطر، والدجن: المطر الكثير [اللسان: (دجن)].

(٤) وطفاء: الوطف: كثرة شعر الحاجبين وسحابة وطفاء: بينة الوطف وفي جوانبها استرخاء لكثرة الماء [اللسان: (وطف)].

(٥) البيت من الكامل وهو في شرح ديوان أبي تمام- (١٤)، ووردت "فوقه" بدلا من "بينه".

(٦) الهيدب: من السحاب ما تدلى من أسافله إلى الأرض [اللسان: (هدب)].

ومن هذا النوع أيضًا قوله في الخمر:

صعُبتْ فَراضَ الماءُ سيِّئَ خُلْقِهَا فتعلّمتْ مِنْ حُسْنِ خُلْقِ الماءِ[1]

ألا ترى إلى حسن هذه الاستعارة، فإنه ليس بشيء أحسن من قوله في الخمر بأنها سيئة الخلق، وذلك حيث تكون صرفًا لا يستطاع شربها، ولا يمكن إساغتها، كالخلق السيئ الذي تعافه الأنفس، وتستكرهه الأرواح. وقوله "حسن خلق الماء" أيضًا غاية في الجودة؛ لأن الماء الصافي في سلاسته، ولطافة جوهره، شبيه بالخلق السهل الطيب. وأبدًا توصف الأخلاق الحسنة بالماء، فيقال: "فلان ألطف أخلاقًا من الماء"؛ لأنه ليس في الأجسام المدركة بالبصر ألطف ولا أرق من الماء؛ لأن النفس تجد لمشاهدته من اللذة، والسرور، والانبساط، ما لا خفاء به.

ولهذا قال بعض الحكماء: "الماء من طبع الروح"، ومما يؤيد قوله هذا، ما ورد في القرآن الكريم؛ فإنه قد ذكر الماء في مواضع كثيرة منه، ثم يذكر إحياء الأرض الميتة به، كقوله تعالى: **﴿وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَاهُ إِلَى بَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَلِكَ النُّشُورُ﴾**[2]. فجعل الماء للأرض بمترلة الروح للجسد.

ومن بديع الاستعارة قول بعضهم:

يا طودَ حِلْمٍ ظَلْتُ معتصمًا به يا بحرَ عِلْمٍ عُمْتُ في تَيَّارِهِ

فإن المناسبة بينهما وبين ما استعيرت له شديدة جدًّا، وذاك أن الحلم أصله في وضع اللغة: التأني والثبات، وترك الإعجال بالعقوبة، فلما كان الطود ثابت الأصل راسخ القواعد لا يتحرك عن مكانه، ولا يزول من مستقره حسنت استعارته للحلم،

---

(١) البيت من الكامل وهو في شرح ديوان أبي تمام، تحقيق: شاهين عطية، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الثانية (١٥)، ووردت كلمة "المزج" بدلا من "الماء" في الشطر الأول، وفي الزهرة لابن داود الأصفهاني ص(١٢٨٠).

(٢) فاطر: ٩.

للمشابهة التي بينهما. وهاهنا نكتة أخرى، وهو أن قوله: "طود حلم" أبلغ في الاستعارة من أن لو قال: "جبل حلم"؛ لأن الطود هو الجبل العظيم، وذلك أرسخ وأرسى أصلا من غيره. وأما استعارته للعلم(١) بحرًا فحسن لا خفاء به على من له معرفة بهذا الفن.

ومن هذا النحو قول امرئ القيس:

فَقُلْتُ لَهُ لَمَّا تَمَطَّى بِصُلْبِهِ ... وَأَرْدفَ أَعْجَازًا ونَاءَ بِكَلْكَلِ(٢)(٣)

وقد قال أبو القاسم بن بشر الآمدي أن امرأ القيس وصف أحوال الليل الطويل، فذكر امتداد وسطه، وتثاقل صدره، وترادف أعجازه وآخره، فلما جعل له وسطًا ممتدا، وصدرًا ثقيلاً، وأعجازًا رادفة لوسطه، استعار له اسم الصلب، وجعله متمطيًا من أجل امتداده، واسم الكلكل، وجعله نائيًا لتثاقله، واسم العجز، من أجل نهوضه، فقال أبو محمد بن سنان: "إن هذا الذي ذكره أبو القاسم الآمدي ليس بمرضي غاية الرضى، وإن بيت امرئ القيس ليس من الاستعارة المبيرة ولا الردية، بل هو وسط. فإن أبا القاسم قد أفصح أن امرأ القيس لما جعل لليل وسطًا ممتدًا، استعار له اسم الصلب، وجعله متمطيًا من أجل امتداده، وحيث جعل له أخيرا وأولاً، استعار له عجزًا وكلكلاً. وهذا كله إنما يحسن بعضه مع بعض، فذكر الصلب إنما يحسن لأجل العجز والوسط والتمطي لأجل الصلب، والكلكل لمجموع ذلك. وهذه استعارة مبنية على استعارة أخرى"(٤). هذا حكاية كلام أبي محمد بن سنان، وهو مما أخطأ فيه من وجهين: الأول: أنه قال: "هذا البيت من الاستعارة الوسط، التي ليست بردية ولا جيدة" ثم جعلها استعارة مبنية على استعارة أخرى، وعنده أن الاستعارة المبنية على

---

(١) في نسخة: "للجود".

(٢) الكلكل: الصدر في كل شيء، والكلكل من الفرس: ما بين محزمه إلى ما مس الأرض منه إذا ربض [اللسان: (كلل)].

(٣) البيت من الطويل، وهو في ديوانه ص(١١٧)، ولسان العرب- (كلل)، والمقاصد النحوية- (١٢٧/٤)، وفي الإيضاح- (٢٥٢)، ودلائل الإعجاز- (٧٩، ٣٥٩، ٤٧٢).

(٤) انظر: سر الفصاحة ص(١١٩-٢٠٠).

الاستعارة من أقبح الاستعارات وأبعدها، فإنه قسم الاستعارة إلى قسمين: قريب مختار، وبعيد مطرح، فالقريب المختار: ما كان بينه وبين ما استعير له تناسب قوي وشبه ظاهر واضح، والبعيد الطرح إما أن يكون لبعده مما استعير له في الأصل، أو لأجل أنه استعارة مبنية على استعارة أخرى، فيضعفه لذلك.

هذا ما ذكره ابن سنان في تقسيم الاستعارة، وإذا كانت الاستعارة المبنية على استعارة أخرى عنده بعيدة ضعيفة، فكيف جعلها وسطًا؟ هذا تناقض في القول، فاعرفه.

الوجه الثاني: أنه لم يأخذ على أبي القاسم الآمدي في موضع الأخذ؛ لأنه لم يختر إلا ما حسن اختياره، وكان بديعًا في بابه، فإن الاستعارة قد يثبت أنها جمع بين شيئين بمعنى مشترك بينهما، يكسب بيان أحدهما بالآخر. وهذا الحكم موجود في بيت امرئ القيس، فإنه لو لم يكن لليل صدر -أعني أولاً- ولم يكن له وسط وآخر لما حسنت هذه الاستعارة. ولما كان كذلك استعار لوسطه صلبًا، وجعله متمطيًا، وجعل لصدره المتثاقل -أعني أوله- كلكلاً: وجعله نائيًا، واستعار لآخره عجزًا وجعله رادفًا لوسطه. وذلك من الاستعارات المناسبة، التي لا أمد فوقها، فاعرفها.

وحيث ذكرنا للاستعارة المناسبة أمثلة يحتذيها المترشح لهذه الصناعة، ويستعملها في كلامه، فيجب حينئذ أن نذكر القسم الآخر، وهو غير المناسب، ونضرب له أمثلة يعرف بها أيضا، فمن ذلك قول أبي تمام:

يومُ فتحٍ سقى أُسُودَ الضَّواحِي ... كُثَبَ الموت رائبًا وحَلِيبَا(١)

فإنه لا شيء أقبح من هذه الاستعارة، ولا أشد تباعدًا بينها وبين ما استعيرت له؛ فما كفاه أن جعل للموت كثبًا، أي ألبانًا، واحدها "كُثبة" حتى جعل بعضها رائبًا، وبعضها حليبًا. ثم إن الموت من شأنه أن يستعار له ما يكره لا ما يستطاب.

---

(١) البيت من الخفيف، وهو في شرح ديوان أبي تمام من قصيدة مطلعها:

من سَجَايَا الطُّلُولِ ألاَّ تُجيبَا ... فَصوابٌ من مُقْلَةٍ أَنْ تَصُوبَا

ومن قبح الاستعارة أيضًا قوله:

وتقاسَمَ النَّاسُ السَّخاءَ مُجَزَّأً وذَهَبْتَ أنتَ برأسِه وسَنامِه
وتَركتَ للناسِ الإهَابَ[1] وما بَقِي مِنْ فَرْثِه[2] وعروقِه وعِظَامِه[3]

فاستعار للسخاء رأسا وسنامًا وإهابًا وعظامًا وعروقًا. وما قنع بذلك، حتى استعار له فرثًا، فصار السخاء جملاً على الحقيقة، وأمثال ذلك كثيرة.

ولا يخلو الناظم أو الناثر من سقطات تؤخذ عليه، إلا أنه ينبغي أن تكون مغفورة في جنب ما له من الجيد الحسن، لأن ذلك لا يحط من قدره في صناعته إذ العالم من تعد سقطاته، لا من يعد جيده.

ومن الاستعارة البعيدة قول بعضهم:

إلى مِلْكٍ في أيكةِ المجدِ لم يَزَلْ على كَبِدِ المعروفِ مِنْ نَيْلِه بَرْدُ[4]

فإن استعارته للمجد أيكة، أقرب مأخذًا من استعارته للمعروف كبدًا، وإن كانت الاستعارتان من البعد على ما أذكره لك، وهو أني أقول: قد ثبت أن الاستعارة هي الجمع بين شيئين بمعنى مشترك بينهما يكسب بيان أحدهما بالآخر، وهذه قاعدة مسلمة، لا نزاع فيها بحال من الأحوال. وإذا كان الأمر كذلك، فالجامع بين المجد والأيكة وجه بعيد. وذلك أن المجد في وضع اللغة: هو المحتد الكريم، أي الأصل الكريم. والأيكة في وضع اللغة: واحدة الأيك، وهو شجر ملتف، فلما كان المجد هو المحتد الكريم، أي الأصل كان للأيكة أصل أجيز استعارته للمجد أيكة من هذا الوجه، وفيه

---

(١) الإهاب: الجلد.

(٢) الفرث: أفرثت الكرش إذا شققتها، ونثرت ما فيها [اللسان: (فرث)].

(٣) البيتان من الكامل وهما لأبي تمام من قصيدة مطلعها:

قل للأمير أبي سعيد ذي الندى والمجد زاد الله في إكرامه

وفي سر الفصاحة ص(١٣٧).

(٤) البيت من الطويل، وهو في شرح ديوان أبي تمام (٣٥)، وفي "الصناعتين" لأبي هلال العسكري ص(٥٨٧).

obeikandl.com

بعد، وسبب بعده أنه يسوغ لقائل أن يقول: إن كل ما كان له أصل على هذا القياس يجوز أن يستعار للمجد؛ كقولنا: "جبل المجد" و"حائط المجد" وغير ذلك مما له أصـــل، وهذا بعيد جدا.

وأما الاستعارة الثانية وهو قول الشاعر: "كبد المعروف" فـــإن بعـــدها بمـــا استعيرت له وقبحها مما لا يحتاج فيه إلى الشرح لوضوحه وبيانه. وأمثال ذلك كثيرة لا تحصى، فعلى المؤلف اجتنابها، والعدول عنها.

obeikandl.com

النوع الثاني من الفن الثاني

التشبيه

وحدُّه أن يثبت للمشبه حكم من أحكام المشبَّه به. ويقال: هو الدلالة على اشتراك شيئين في معنى من المعاني، وأن أحدهما يسد مسد الآخر وينوب منابه، سواء كان ذلك حقيقة أو مجازًا، فأما الحقيقة، فهو أن يقال في شيئين أحدهما شُبِّه بالآخر في جميع أوصافه، كالسوادين والبياضين أو ما جرى مجراهما، وليس هذا من غرضنا. وأما المجاز، فهو أن يقال في شيئين أحدهما شبيه بالآخر في بعض أوصافه كقولنا: "زيد أسد" فهذا القول صواب من حيث العرب، وداخل في باب المبالغة، إلا أنه لم يكن زيد أسدًا على الحقيقة.

واعلم أن فائدة التشبيه(1) هي الكشف عن المعنى المقصود، مع ما يكتسبه من فضيلة الإيجاز والاختصار. والدليل على ذلك ما ذكرناه من قولنا: "زيد أسد" فإن الغرض من هذا القول أن نبين حال زيد، وأنه متصف بشهامة النفس، وقوة البطش، والشجاعة، وغير ذلك مما جرى هذا المجرى إلا أننا لم نجد شيئًا ندل به عليه، سوى أن جعلناه مشبهًا بالأسد، حيث كانت هذه الصفات مختصة به، ومقصورة عليه، فصار ما قصدناه من هذا القول، أكشف وأبين من أن لو قلنا: "زيد شهم، شجاع قوي البطش، جريء الجنان" وأشباه ذلك، لما قد عرف وعهد من اجتماع هذه الصفات في المشبه به أعني الأسد، فإنه معروف بها، مشهور بكونها فيه، واشتمالها عليه. وأما المشبه، أعني "زيدا" فليس معروفًا بها، ولا منسوبًا إليها، وإن كانت موجودة فيه، وأما الإيجاز فهو أن قولنا: "زيد أسد" يسد مسد قولنا "زيد من حاله كيت وكيت، وهو من الشدة والشجاعة على كذا وكذا" مما يطول ذكره، ويتسع القول فيه، فاعرف ذلك.

---

(١) قال ابن الأثير: "وأما فائدة التشبيه من الكلام؛ فهي أنك إذا مثلت الشيء بالشيء، فإنما تقصد به إثبات الخيال في النفس بصورة المشبه به أو معناه، وذلك أوكد في طرفي الترغيب فيه، أو التغير عنه..." [المثل السائر ص(٧٢١)].

واعلم أن تشبيه الشيء لا يخلو من أحد قسمين: إما أن يكون الشيئان -المشبه أحدهما بالآخر- متفقين من جميع الجهات، وإما أن يكونا متفقين من وجه دون وجه؛ فإن كانا متفقين من جميع الجهات كالسوادين والبياضين فليس هذا من غرضنا إذ لا كبير فائدة فيه. وإن كان اتفاقهما من وجه دون وجه، فهما إذا مختلفان. فبقي كلامنا الآن على تشبيه شيئين مختلفين أحدهما بالآخر، كقولنا: "زيد أسد" فإن غرضنا من هذا أن نشبه شهامة زيد وشجاعته وجرأته، لا أن زيدًا أسد، من جميع الجهات؛ فإنا لو أردنا ذلك لكان هو هو، وهذا محال؛ لأن زيدًا ليس أسدًا، وإنما هو إنسان، فاعرف ذلك.

واعلم أن التشبيه يكون بأداته، كالكاف وكأن وما جرى هذا المجرى. ويكون بغير أداته، وهو أن يجعل الكلام خلوًا منها صالحا لتقديرها فيه، وإذا جاء التشبيه بغير أداته كان أبلغ وأوجز. والدليل على ذلك، قولنا: "زيد أسد" يعطي ظاهره من المعنى أنا أخبرنا عن زيد أنه أسد، وذكرنا أنه هو. إلا أن حرف التشبيه في ذلك مقدر. وإذا قلنا "زيد كأنه الأسد" فنكون قد أظهرنا فيه حرف التشبيه، الذي كان مخفيا في الأول، فيصير حينئذ تشبيهًا لزيد بالأسد. وفي الأول أنه كان قد جعل هو الأسد، وحرف التشبيه مقدر فيه تقديرًا. فمن هذا الوجه كان الأول أبلغ، وأشد موقعًا في النفس. وأما كونه أوجز، فلأن قولنا: "زيد أسد" أخص من قولنا: "زيد كأنه الأسد" وإن كان المعنيان سواء، فاعرف ذلك.

واعلم أنه لا يخلو الشيئان في تشبيه أحدهما بالآخر[١] من ثلاثة أقسام[٢]: إما تشبيه معنى بمعنى، كالذي ذكرناه من قولنا: "زيد أسد"، وإما تشبيه معنى

---

(١) في نسخة: "الآخرين" ولعله تصحيف.

(٢) ذكر ابن الأثير في المثل السائر أنها أربعة أقسام قائلاً: "اعلم أنه لا يخلو تشبيه الشيئين: أحدهما بالآخر من أربعة أقسام: إما تشبيه معنى بمعنى كالذي تقدم ذكره من قولنا: زيد كالأسد، وإما تشبيه صورة بصورة.، وإما تشبيه معنى بصورة.، وإما تشبيه صورة بمعنى" [المثل السائر ص(٧٢٧، ٧٢٨)].

بصورة[1]، كقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ...﴾[2] فشبه ما لا يدرك بالحاسة.

وإما تشبيه صورة بصورة، كقوله تعالى: ﴿وَلَهُ الْجَوَارِ الْمُنْشَآتُ فِي الْبَحْرِ كَالأَعْلامِ﴾[3] فشبه صورة أجسام الفلك في كبرها وعظمها بالجبال، وذلك تشبيه صورة مرئية بصورة مرئية.

وكل واحد من هذه الأقسام الثلاثة، لا يخلو من ثلاثة أقسام[4] أيضا وهي: تشبيه مفرد بمفرد، وتشبيه مركب بمركب، وتشبيه مفرد بمركب.

فالقسم الأول: تشبيه المفرد بالمفرد، وذلك كقول البحتري:

تَبَسُّمٌ وقُطُوبٌ في نَدًى ووغًى[5] كالغيثِ والبرقِ تحت العارضِ البَرِدِ[6]

---

(١) قال ابن الأثير: "هذا القسم أبلغ الأقسام الأربعة لتمثيله المعاني الموهومة بالصورة المشاهدة" [المثل السائر: ص(٧٢٧)].

(٢) النور: ٣٩.

(٣) الرحمن: ٢٤.

(٤) ذكر ابن الأثير في المثل السائر أنها أربعة أقسام قائلاً: "كل واحد من هذه الأقسام الأربعة المشار إليها لا يخلو فيه من أربعة أقسام أيضًا: إما تشبيه مفرد بمفرد، وإما تشبيه مركب بمركب، وإما تشبيه مفرد بمركب، وإما تشبيه مركب بمفرد، والمراد بقولنا مفرد ومركب: أن المفرد يكون تشبيه شيء واحد بشيء واحد، والمركب تشبيه شيئين بشيئين، وكذلك المفرد بالمركب، والمركب بالمفرد؛ فإن أحدهما يكون تشبيه شيء واحد بشيئين، والآخر يكون تشبيه شيئين بشيء واحد" [انظر: المثل السائر ص(٧٢٨-٧٢٩)].

(٥) وغى: الأصوات في الحرب [اللسان: (وغى)].

(٦) البيت من البسيط وهو للبحتري في ديوانه من قصيدة مطلعها:

إنِّي تركتُ الصِّبا عمدًا ولم أَكدِ من غير شيبٍ ولا عَذلٍ ولا فَنَدِ

وفي الصناعتين ص(٤٧٧)، وينسب لجرير في نهاية الأرب في فنون الأدب ص(٤٤٧١)، ويروى: "كالبرق والرعد" بدلاً من "كالغيث والبرق".

فهذا من أحسن التشبية وأقربه، وهو تشبيه صورة بصورة، إلا أن في هـذا البيت إخلالاً في الصيغة من حيث الترتيب والتفسير، فإن الأولى أن يقدم تفسير التبسم على تفسير القطوب، وسيأتي بيان ذلك في بابه.

ومن هذا القسم أيضًا، قول بعضهم في صفة السيوف والدروع:

وكأنَّمَا فوقَ الأكُفِّ بَوَارِقٌ وكأنَّمَا فوقَ المتونِ إضَاءُ[1] [2]

وهذا من بديع التشبيه ونادره، فاعرفه.

وكذلك قول بكر بن النطاح[3]:

بَيْضاءُ تسحب مِن قيامٍ فَرعَهَا وتَغيْبُ فِيهِ وهو جَثْلٌ[4] أَسْحَمُ

فكأنَّهَا فِيهِ نَهارٌ سَاطعٌ وكأنَّه لَيْلٌ عليها مُظْلِمُ[5]

وأمثال هذا كثيرة.

---

(١) إضاء: جمع أضاة والأضاة: الغدير، وقال ابن سيده: الأضاة:الماء المستنقع [اللسان: (أضا)].

(٢) البيت من الكامل، وهو لابن هانئ الأندلسي من قصيدة مطلعها:

الحب حيث المعشر الأعداء والصبر حيث الكِلّة السِّيراء.

ويروى: "فكأنما" بدلاً من "وكأنما"

(٣) هو بكر بن النطاح الحنفي، أبو وائل شاعر غزل، من فرسان بني حنيفة، من أهل اليمامة، انتقل إلى بغداد في زمن الرشيد، واتصل بأبي دلف العجلي فجعل له رزقًا سلطانيًا عاش بـه إلى أن توفي سنة ١٩٢هـ، ورثاه أبو العتاهية بقوله:

مات ابن نطاح أبو وائل بكر فأضحى الشعر قد ماتا

وقيل أنه كان صعلوكًا يقطع الطريق ثم أقصر عن ذلك [انظر: الأعلام (٢/٧١)، وفوات الوفيات ص(٣٩٧)].

(٤) جثل: الجثل من الشجر والثياب والشعر: الكثير الملتف [اللسان: (جثل)].

(٥) البيتان من الكامل، وهما في ديوان أبي الشيص الخزاعي- (٥٥)، وموسوعة الشعر العـربي- (٤/٥١٧)، والبديع في البديع في نقد الشعر لأسامة بن منقذ ص(٢١٧)، وينسبا إلى أبي بكر بن النطاح في زهر الآداب ص(١٢٢٥)، ومن غاب عنـه المطـرب لأبي منصـور الثعـالبي ص(١١٨).

القسم الثاني في تشبيه المركب بالمركب.

وذلك كقوله تعالى: ﴿**إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَنْ لَمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ**﴾[1] فشبهت حال الدنيا بسرعة زوالها، وانقراض نعيمها، بعد الإقبال، بحال نبات الأرض في جفافه، وذهابه حطامًا، بعدما التف وتكاثف، وزين الأرض. وذلك تشبيه معنى بصورة، وهو من أبدع ما يجيء في هذا القسم، فاعرفه.

ومما جاء على نحو منه، قوله ﷻ في حق المنافقين: ﴿**مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ**﴾[2].

تقديره: أن مثل هؤلاء المنافقين كمثل رجل أوقد نارًا في ليلة مظلمة بمفازة، فاستضاء بها ما حوله، فاتقى ما يخاف وأمن، فبينا هو كذلك، إذ طفئت ناره فبقي مظلمًا خائفًا متحيرًا. وكذلك المنافق إذا أظهر كلمة الإيمان استنار بها، واعتز بعزها، وأمن على نفسه وماله وولده، فإذا مات عاد إلى الخوف، وبقي في العذاب والنقمة.

واعلم أنهم لما وصفوا بأنهم اشتروا الضلالة بالهدى عقب ذلك بهذا التمثيل، ليمثل هداهم الذي باعوه، بالنار المضيئة ما حول المستوقد، والضلالة التي اشتروها وطبع بها على قلوبهم، بذهاب الله بنورهم، وتركهم في الظلمات، ثم قال الله تعالى: ﴿**صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ**﴾[3] كانت حواسهم سليمة ولكن لما سدوا مسامعهم عن الإصاخة، وأبوا أن ينطقوا به ألسنتهم، وأن ينظروا ويتبصروا بعيونهم، جعلوا كأنما أصابت هذه الحواس منهم الآفات، وهذا من عجائب التشبيه، وطريقته عند علماء البيان، طريقة

---

(١) يونس: ٢٤.

(٢) البقرة: ١٧.

(٣) البقرة: ١٧.

قولهم "ليوث" للشجعان، و"بحور" للكرام، وبعض علماء هذه الصناعة يجعلون ما كان على مثال قوله تعالى: ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ﴾ استعارة، وليس كذلك كأن المستعار له مذكور، وهم المنافقون. والاستعارة إنما تطلق بحيث يطوى ذكر المستعار له، ويجعل الكلام خلوا منه، صالحًا لأن يراد به المنقول عنه والمنقول إليه لولا دلالة الحال من فحوى الكلام عليه، وقد أشرنا إلى ذلك فيما سبق من باب الاستعارة، فاعرفه. وهذا هو الفرق بين الاستعارة والتشبيه عند المحققين من علماء البيان. ومن هذا القسم قوله:

بَكَيتُ عليه حِينَ لم يَبْلُغِ الْمُنَى ... ولم يَروِ من ماءِ الحياةِ المكدَّرِ
كأنَّ دَمَّ النَّجْلاءِ(١) تحتَ بُروده ... لَطِيمةُ مِسْكٍ(٢) في إهَابَ غَضَنْفرِ(٣) (٤)

وكذلك قول أبي الطيب المتنبي:

كأنَّ الجفُون على مُقْلَتِي ... ثِيَابٌ شُقِقْنَ على ثَاكِلِ(٥)

ولقد أحسن بعض البغداديين في قوله:

يَا طَالِبًا عجائبَ الأُمُورِ ... فعقرة في الدِّرْعِ ذي القَتِيرِ
وقل رأيت البحر في غدير

ومن هذا النحو قول ابن المعتز:

والصُّبْحُ يتلُو الْمُشْتَرِي فكأنَّهُ ... عُرْيَانُ يَمْشِي في الدُّجَى بِسِرَاجِ(٦)

---

(١) النجلاء: الطعنة الواسعة [اللسان: (نجل)].

(٢) لطيمة مسك: اللطيمة العير تحمل الطيب [اللسان: (لطم)].

(٣) غضنفر: الأسد، ورجل غضنفر غليظ الجثة [اللسان: (غضفر)].

(٤) البيتان من الطويل، وهما للحيص بيص وهما غير متواليين في قصيدة مطلعها:

أقولُ ودَمْعي مستهلٌّ ودِدْتني ... نُعِيتُ ولم أسْمَعْ نَعَّى الْمُظَفَّرِ

وفي خريدة القصر وجريدة العصر ص(٤٥٧).

(٥) البيت من المتقارب، وهو في شرح ديوان المتنبي- (٢/١٨).

(٦) البيت من الكامل، وهو لابن المعتز من قصيدة مطلعها:

حث الفراق بواكر الأحداج ... وسجال يوم نأوا بكتم ساجي.

وقال مؤلف الكتاب في صفة سقاة الخمر: "فأخذنا في معاطاة الرحيق، ما بين الأكواب والأباريق، يطوف بها علينا ولدان، يعجز عن وصفهم قس وسحبان[١]، فكأنهم في أيديهم الكؤوس، أقمار تسعى بشموس".

وكذلك قوله أيضًا في صفة بركة النيلوفر، من جملة رسالة عملها في الربيع: "فأتينا إلى روضة ذات تأرج وتبرج، وبركة نيلوفر كأنها مداهن من العسجد، على قضب من الزبرجد، أو كأنه وهو في الماء يعوم، سماء أشرقت بمطالع النجوم".

وله من مرثية قالها في بعض الأصدقاء:

لم يكتسِبْ غيرَ الثَّنَا ... والحمدِ في حياتِهِ

أبْقَى لنا مناقبًا ... تُنْشَرُ في مماتِهِ

كالرَّنْدِ[٢] يَبْقَى عَرْفُهُ ... بعد ذَهَابِ ذاتِهِ

وأعجب ما سمعت في هذا الباب قول الحسين بن مطير الأسدى[٣] يرثي معن بن زائدة[٤]:

فتًى عِيشَ في مَعْرُوفِهِ بعد موتِهِ ... كما كان بعد السَّيْلِ مَجْرَاهُ مَرْتَعَا[٥]

فاعرف ذلك وقس عليه.

---

(١) سحبان اسم رجل من وائل، كان لسنًا بليغًا، يضرب به المثل في البيان والفصاحة، فيقال: أفصح من سحبان وائل [لسان العرب: (سحب)].

(٢) الرند: العود الذي يُتبخر به.

(٣) في نسخة: الأزدى، وليس بصواب.

(٤) هو أبو الوليد معن بن زائدة بن عبدالله الشيباني، من أشهر قواد العرب وأجوادهم، أدرك العصرين الأموي والعباسي، وكان في العصر الأموي مكرمًا ينتقل في الولايات، فلما صار الأمر إلى بني العباس طلبه المنصور فاستتر في البادية، حتى كان يوم الهاشمية، وثار جماعة من أهل خراسان على المنصور فدافع عن المنصور فحسبها المنصور له، وولاه إمارة سجستان، فأقام فيها مدة ثم قتل غيلة.

(٥) البيت من الطويل، وهو للحسين بن مطير الأسدي في ديوانه من قصيدة مطلعها:

لندبك أحزان وسابق عبرة ... أثرن دمًا من داخل الجوف منقعًا

وفي البيان والتبيين ص(١٣٠٠).

obeikandl.com

القسم الثالث

في تشبيه المفرد بالمركب

فمن ذلك قول بعضهم:

كأنَّ السُّهَى[1] إنسانُ عَـينٍ غريقـةٍ ... من الدَّمع تبدو كلما ذَرَفَـتْ ذَرْفـا[2]

ومن هذا القسم قول الآخر في الورد الخد:

أَتَتْـكَ أبـا حَسَـنٍ وردةٌ ... تَلَـذُّ النُّفُـوس بأنفاسـها

كعَـذْرَاءَ أَبْصَـرَها مُبْصِـرٌ ... فَـرَدَّتْ يَـدَها علـى رَأْسِـها[3]

وقد ورد أمثال ذلك وفيما ذكرناه كفاية.

وحيث تكلمنا في التشبيه الجيد وبيناه، فينبغي أن نوضح التشبيه الرديء ليجتنبه مؤلف الكتاب فنقول:

اعلم أن التشبيه الرديء هو أن يكون، بين المشبه والمشبه به، بعد وتباين، وذلك كقول بعضهم في السهام:

كَسَاهَا رَطِيبُ الرِّيْشِ فَاعْتَـدَلَتْ لَهَـا ... قِـدَاحٌ كَأَعْنَـاقِ الظِّبَـاءِ الفَـوَارِقِ[4]

---

(١) السُّهى: نجم خفي في نجوم بنات نعش، ومنه المثل: أريها السهى وتريني القمر [جمهرة اللغة (سهو)].

(٢) البيت من الطويل، وهو لأبي محمد بن سنان الخفاجي، في الوافي بالوفيات (٧٦٦)، و"سلافة العصر في محاسن الشعراء بكل مصر" لابن معصوم (١٧٩٦)، وفوات الوفيات ص(١١٧٣).

(٣) البيتان من المتقارب، وهما لصاعد البغدادي، وهما في الوافي بالوفيات ص(١٢٧٦٧)، وبدائع البدائة (٥٨٢)، ويروى "عامر" بدلاً من "حسن"، و"يذكرك المسك" بدلاً من "تلذ النفوس"، "فغطت بأكمامها" بدلاً من "فردت يدها على".

(٤) البيت من الطويل، وهو لساعدة الهذلي في ديوانه من قصيدة مطلعها:

ألا يا فتى ما عبد شمس بمثله ... يبل على العادي وتؤبى المخاسف.

وفي الصناعتين ص(٤٩٢)، وعيار الشعر ص(١٤٧).

فإنه قد شبه السهام بأعناق الظبي وذلك من أبعد التشبيهات وأكثرها تباينًا.

ومما جرى هذا المجرى قول أحد الأعراب:

مَلا حَاجِبَيْكَ الشَّعْرُ حتى كَأَنَّه ... ظباءٌ جَرَتْ منها بسُنحٍ وبَارِحٍ[1]

فشبه شعرات بيضًا في حاجبيه بظباء سوانح وبوارح، وهو تشبيه بعيد جدًّا. وأمثال ذلك كثيرة، فاعرفها.

واعلم أن الأصل في حسن التشبيه هو أن يمثل الأستر بالأظهر وغير المعتاد بالمعتاد المعروف، وذلك لأجل إيضاح المقصود، وبيان المعنى المراد.

ويظهر أيضًا حسن التشبيه في تمثيل الشئ بما هو أعظم منه، وذلك لأجل المبالغة والغلو.

واعلم أن من التشبيه ضربًا يسمى: "غلبة الفروع على الأصول" وهو ضرب من الكلام ظريف، لا تكاد تجد شيئًا منه إلا والغرض به المبالغة[2]؛ فمما جاء من ذلك قول ذي الرمة:

ورمْلٍ كأَوْرَاكِ العَذَارَى قطعتُهُ ... إذا أَلْبَسَتْهُ المظلِمَاتُ الحَنَادِسُ[3][4]

---

(١) البيت لابن المعتز في التشبيهات ص(٣٥٣)، وبلا نسبة في الصناعتين ص(٤٩٤).

سنيح: السانح ما أتاك عن يمينك من ظبي أو طائر، وهو يتبرك به، وفي نسخة بسنح [اللسان: (سنح)].

بارح: البارح: ما أتاك عن يسارك من ظبي أو طائر، وهو يتشاءم به [اللسان: (برح)].

(٢) قال ابن الأثير: "اعلم أن من التشبيه ضربًا يسمى الطرد والعكس، وهو أن يجعل المشبه به مشبهًا والمشبه مشبهًا به، وبعضهم يسميه غلبة الفروع على الأصول" [المثل السائر ص(٧٦٣)].

(٣) الحنادس: جمع حندس، والحندس: الظلمة [اللسان: (حندس)].

(٤) البيت من الطويل، وهو في ديوانه من قصيدة له مطلعها:

ألم تسأل اليوم الرسوم الدوارس ... بحزوى وهل تدري القفار البسابس

وهو في "الكامل" للمبرد (١٣٢٦).

ألا ترى إلى ذي الرمة، كيف جعل الأصل فرعًا والفرع أصلاً ؟ وذلك أن العادة والعرف أن تشبه أعجاز النساء بكثبان الأنقاء، وهو مطرد في بابه، كقول البحتري:

أَيْنَ الغَزَالُ المُسْتَعِيرُ مِنَ النَّقَا   كَفَلاً ومن نُورِ الأَقَاحِي مَبْسِمَا[1]

فقلب ذو الرمة العادة والعرف في هذا، فشبه كثبان الأنقاء بأعجاز النساء، وذلك كأنه يخرج مخرج المبالغة، أي: قد ثبت هذا الموضع وهذا المعنى لأعجاز النساء، وصار كأنه الأصل فيه، حتى شبهت به كثبان الأنقاء، ومثل ذلك قول بعضهم:

في طَلْعَةِ البَدْرِ شَيْءٌ مِنْ مَلاَحَتِهَا   وللقَضِيبِ نَصِيْبٌ مِنْ تَثَنِّيْهَا[2]

ونظائر هذا أكثر من أن تحصى، فاعرفه. ولما شاع ذلك في كلام العرب واتسع صار كأنه أصل من بابه.

---

(١) البيت من الكامل، وهو في ديوانه من قصيدة له مطلعها:

أَمَحَلَّتَيْ سلمى بكاظمةَ اسْلَمَا   وتعَلَّمَا أَنَّ الجَوَى ما هجتُما

وهو في التذكرة الحمدونية (٣٦٣٣)، والأنوار ومحاسن الأشعار للشمشاطي ص(٣٧٨).

(٢) البيت من البسيط، وهو بلا نسبة في "الإيضاح في علوم البلاغة" (٢٢٦).

النوع الثالث

من الباب الأول في شجاعة العربية[1]

وهو نوع من علم البيان تتكاثر لطائفه، وتتوفر محاسنه؛ لأن معظم البلاغة مندرجة في أثنائه، ومنطوية تحت ضروبه، إلا أني لم أجد شيئًا منه عند أرباب هذه الصناعة، ولا وجدته في كتاب مصنف في هذا الفن، سوى أني رأيت أبا الفتح عثمان بن جنى قد ذكر في كتابه الموسوم بالخصائص شيئًا من التقديم والتأخير، والحمل على المعنى لا غير، وقد ذكرنا نحن في هذا النوع أشياء عجيبة، ونكتًا ظريفة، عثرنا عليها في أثناء القرآن الكريم، واعلم أن هذا النوع ينقسم ستة أقسام:

---

(١) قال ابن الأثير: "إنما سمي بذلك لأن الشجاعة هي الإقدام، وذاك أن الرجل الشجاع يركب ما لا يستطيعه غيره، ويتورد ما لا يتورده سواه" [انظر: المثل السائر ص(٧٧٩، ٧٨٠)].

القسم الأول في الالتفات[1]

(الالتفات) الرجوع من الغيبة إلى الخطاب، ومن الخطاب إلى الغيبة، يفعل ذلك على عادة العرب في افتنانهم في الكلام، وفيه فوائد كثيرة؛ لأن الكلام إذا نقل من أسلوب إلى أسلوب كان أحسن تطرية لنشاط السامع، وإيقاظًا للإصغاء إليه، من إجرائه على أسلوب واحد[2]، وليس يفعل ذلك اتساعا فقط بل لأمر أعلى ومهم من الغرض أعني، فأما الرجوع من الغيبة إلى الخطاب فكقوله تعالى في سورة الفاتحة: **﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٢) الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (٣) مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ (٤) إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ (٥) اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ (٦) صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾**[3]، هذا رجوع الغيبة إلى الخطاب ومما يختص به هذا الكلام من الفوائد، أنه ذكر الحقيق بالحمد وأجرى عليه تلك الصفات العظام من الربوبية العامة، والملك الخاص، فعلم العالم بمعلوم عظيم الشأن، حقيق بالخضوع له، والاستعانة في المهمات به فخوطب ذلك المعلوم الموصوف بتلك الصفات فقيل: إياك نعبد يا من هذه صفاته، أي نخص بالعبادة والاستعانة، ليكون أدل على العبادة، لذلك التميز الذي لا تحق العبادة إلا به، فإن قوله: **﴿إياك نعبد وإياك نستعين﴾** بعد قوله: **﴿الحمد لله رب العالمين﴾** ليس العدول فيه من الغيبة إلى الخطاب اتساعًا إنما عدل إليه لفائدة حسنة، وذلك أن الحمد لله دون العبادة، ألا تراك تحمد نظيرك ولا تعبده. فلما كان الحال كذلك اشتمل لفظ "الحمد" لتوسطه مع الغيبة في الخبر، فقال: "الحمد لله"

---

(١) يقول صاحب المثل السائر: هذا النوع وما يليه خلاصة علم البيان التي حولها يدندن وإليها تستند البلاغة، وعنها يعنعن [المثل السائر (٧٧٩)].

(٢) قال جلال الدين القزويني: "اعلم أن الالتفات من محاسن الكلام، ووجه حسنه على ما ذكر الزمخشري هو أن الكلام إذا نقل من أسلوب إلى أسلوب كان ذلك أحسن تطرية لنشاط السامع وأكثر إيقاظًا للإصغاء إليه من إجرائه على أسلوب واحد" [انظر: الإيضاح في علوم البلاغة ص(١١٥)، والمثل السائر ص(٧٨١)].

(٣) الفاتحة: ١-٧.

و لم يقل: "لك" ولما صار إلى العبادة التي هي أقصى الطاعات قال: ﴿إياك نعبد﴾ فخاطب العباد إصراحا بها، وتقربا منه- عز اسمه- بالانتهاء إلى محدود منها وعلى نحو من ذاك جاء آخر السورة فقال: ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ فأصرح بالخطاب لما ذكر النعمة، ثم قال: ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾ و لم يقل "غير الذين غضب عليهم" لأن الأول موضع التقرب من الله بذكر نعمه، فلما صار إلى ذكر الغضب قال: ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾ فجاء باللفظ منحرفًا به عن ذكر الغضب، فأسند النعمة، إليه لفظًا وروى عنه ذكر الغضب تحسنًا ولطفًا، فانظر إلى هذه اللغة الشريفة وتناسب هذه المعاني اللطيفة التي الأقدام [لا][1] تكاد تطؤها، والأفهام مع قربها صافحة عنها.

ومن هذا الجنس قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا (٨٨) لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا﴾[2]، فقوله: ﴿لَقَدْ جِئْتُمْ﴾ وما فيه من المخاطبة بعد الغيبة زيادة تنكيل عليهم، بالجرأة على الله ﷻ والتعرض لسخطه، وتنبيه لهم على عظم ما قالوه. وأمثال هذا كثيرة، فاعرفه.

وأما الرجوع من الخطاب إلى الغيبة فقوله- عز اسمه- ﴿هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنْجَيْتَنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾[2] ألا ترى كيف صرف الكلام هاهنا من الخطاب إلى الغيبة؟ وإنما فعل ذلك لفائدة، وهو أنه ذكر لغيرهم حالهم ليعجبهم منها، كالمخبر لهم، ويستدعي منهم الإنكار عليهم والتقبيح، ولو قال: ﴿حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِكُمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحْتُمْ بِهَا﴾ وساق

---

(١) زيادة من المثل السائر ص(٧٨٥).

(٢) مريم: ٨٨-٨٩.

(٢) يونس: ٢٢.

الخطاب معهم إلى آخر الآية، لذهبت تلك الفائدة التي أنتجها خطاب الغيبة وليس ذلك يخاف عن عارف هذا الكلام، فاعرفه.

ومن هذا الجنس قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ (٩٢) وَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ كُلٌّ إِلَيْنَا رَاجِعُونَ﴾(١) الأصل في تقطعوا "تقطعتم" عطفًا على الأول إلا أنه صرف الكلام من الخطاب إلى الغيبة على طريقة الالتفات، كأنه ينعي عليهم ما أفسدوه إلى قوم آخرين، ويقبح عندهم ما فعلوه، ويقول: "ألا ترون إلى عظيم ما ارتكب هؤلاء في دين الله، فجعلوا أمر دينهم إلى ما بينهم قطعًا"، وذلك تمثيل لاختلافهم فيه وتباينهم، ثم توعدهم بعد ذلك بأن هؤلاء الفرق المختلفة إليه يرجعون، فهو مجازيهم على ما فعلوا.

ومما ينخرط في هذا السلك أيضًا قوله تعالى: ﴿قُلْ يأيها النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ لا إِلَهَ إِلا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ﴾(٢) فإنه إنما قال ﴿فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ ولم يقل: "فآمنوا بالله وبي"، حيث قال أولاً: إني رسول الله إليكم، لكي تجري عليه الصفات التي أجريت عليه وليعلم أن الذي وجب الإيمان به والاتباع له هو هذا الشخص المستقل بأنه النبي الأميّ، الذي يؤمن بالله وكلماته، كائنًا من كان أنا أو غيري، إظهارًا للنصف، وبعدًا عن التعصب لنفسه، فقرر أولاً في صدر الآية، بأنه رسول إلى الناس، وأثبت ذلك في أنفسهم، ثم أخرج كلامه من الخطاب إلى معرض الغيبة لغرضين كبيرين قد ذكرهما.

الضرب الثاني: الرجوع من الفعل المستقبل إلى فعل الأمر، يفعل ذلك تعظيمًا لحال من أجري عليه فعل الأمر. فمما جاء منه قوله تعالى: ﴿قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ (٥٣) إِنْ نَقُولُ إِلا

---

(١) الأنبياء: ٩٢، ٩٣.

(٢) الأعراف: ١٥٨.

﴿اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ﴾(١). ولم يقل: "وأشهدكم" ليكون موازنًا له وبمعناه، لأن إشهاد الله على البراءة من الشرك صحيح ثابت في معنى يثبت التوحيد، ويشد معاقده. وأما إشهادهم فما هو إلا تهاون بدينهم، ودلالة على قلة المبالاة بهم، ولذلك عدل به عن لفظ الأول لاختلاف ما بينها وجيء به على لفظ الأمر، كما يقول الرجل لمن يبس الثرى، بينه وبينه: اشهد عليّ إني أحبّك. تهكمًا به واستهانة بحاله. وأمثال هذا كثيرة، فاعرفها.

الضرب الثالث: الرجوع من خطاب التثنية إلى خطاب الجمع، ومن خطاب الجمع إلى خطاب الواحد.

فمن ذلك قوله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى وَأَخِيهِ أَنْ تَبَوَّآ لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾(٢). ألا ترى إلى هذا المعنى والتوسع في الكلام فإنه نوّع الخطاب، فثنى ثم جمع ثم وحد، فخاطب موسى وهارون -عليهما السلام- بالنبوة والاختيار، وذلك مما يفوّض إلى الأنبياء، ثم ساق الخطاب لهما ولقومهما باتخاذ المساجد، وإقامة الصلاة، كأن ذلك واجب على الجمهور، ثم خص موسى -صلوات الله عليه- بالبشارة التي هي الغرض، تعظيمًا له وتفخيمًا لأمره، ولأنه الرسول على الحقيقة.

ومن هذا النحو قوله تعالى: حكاية عن حبيب النجار ﴿وَمَا لِيَ لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾(٢). هذا عدول عن خطاب الواحد، إلى خطاب الجماعة. وإنما صرف الكلام عن خطاب نفسه إلي خطابهم، لأنه أبرز الكلام لهم في معرض المناصحة لنفسه، وهو يريد مناصحتهم، ليلطف بهم، ويداريهم، ولأن ذلك دخل في إمحاض النصح؛ حيث لا يريد لهم إلا بما يريد لنفسه، وقد وضع قوله: ﴿مَا لِيَ لَا أَعْبُدُ الَّذِي

---

(١) هود: ٥٣، ٥٤.

(٢) يونس: ٨٧.

(٢) يس: ٢٢.

﴿فَطَرَنِي﴾ مكان قوله: "ومالكم لا تعبدون الذي فطركم، ألا ترى إلى قوله: ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ ولولا أنه قصد ذلك لقال: "الذي فطرني وإليه أرجع، وقد ساقه ذلك المساق إلى أن قال: ﴿إِنِّي آمَنْتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ﴾(٣). يريد فاسمعوا قولي وأطيعوني، فقد نبهتكم على الصحيح الذي لا معدل عنه؛ لأن العبادة لا تصح إلا لمن منه مبتدؤكم، وإليه مرجعكم.

فانظر أيها المتأمل لكتابنا هذا، إلى هذه الدقائق التي أشرنا إليها في غضون هذا الكلام، فإن فيها ما شئت من اللطائف اللطيفة، والفوائد العجيبة.

---

(٣) يس: ٢٥.

obeikandl.com

القسم الثاني من النوع الثالث

في الإخبار عن الفعل الماضي بالمضارع وعن الفعل المضارع بالماضي

وهو قسم من التأليف، لطيف المأخذ، دقيق المغزى، فالأول: الإخبار بالفعل المضارع عن الماضي، اعلم أن الفعل المضارع إذا أُتي به في حال الإخبار عن وجود الفعل كان ذلك أبلغ من الإخبار بالفعل الماضي، وذلك لأن الفعل المضارع يوضح الحال التي يقع فيها، ويستحضر[1] تلك الصورة حتى كأن السامع يشاهدها، وليس كذلك الفعل الماضي[2]، فمما جاء قوله تعالى: ﴿**وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَاهُ إِلَى بَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَلِكَ النُّشُورُ**﴾[3]. فإنه إنما قيل فتثير سحابًا، مضارعًا، وما قبله وبعده ماض، لذلك المعنى الذي أشرنا إليه، وهو حكاية الحال التي[4] يقع فيها إِثارة الريح السحاب، واستحضار تلك الصورة البديعة، الدالة على القدرة الباهرة، وهكذا يفعلون بكل فعل فيه نوع تمييز وخصوصية، بحال تستغرب أو تُهِمّ المخاطب أو غير ذلك كما قال تأبّط شرًّا:

---

(١) في نسخة: "تستحضر"، وما أثبتناه من المثل السائر ص(٧٩٩).

(٢) قال ابن الأثير: "وربما أدخل في هذا الموضوع ما ليس منه جهلا بمكانه؛ فإنه ليس كل فعل مستقبل يعطف على ماض بجار هذا المجرى، وسأبين ذلك فأقول: عطف المستقبل على الماضي ينقسم إلى ضربين: أحدهما بلاغي، وهو إخبار عن ماض بمستقبل، وهو الذي أنا بصدد ذكره في كتابي هذا الذي هو موضوع لتفصيل ضروب الفصاحة والبلاغة، والآخر غير بلاغي، وليس إخبار بمستقبل عن ماض، وإنما هو مستقبل دل على معنى مستقبل غير ماض، ويراد به ذلك الفعل مستمر الوجود لم يمض" [المثل السائر ص(٧٩٩، ٨٠٠)].

(٣) فاطر: ٩.

(٤) في نسخة: "الذي"، وما أثبتناه من المثل السائر ص(٧٩٩).

فَإنِّي قَـدْ لَقِيـتُ الغُـولَ[1] تَهْـوِي بِسهبٍ[2] كالصحِيفَة[3] صَحْصَـحَانِ[4]
فَأضْـرِبُهَا بِـلاَ دَهَـشٍ فَخَـرَّت صَـرِيْعًا للْيَـدَيْنِ ولِلْجِـرَانِ[5]

لأنه قصد أن يصور لقومه، الحال التي تشجع فيها على ضرب الغـول، كأنـه يبصرهم إياها، ويطلعهم على كنهها مشاهدة، للتعجب من جرأته على ذلـك الهـول، وثباته عند تلك الشدة، ولو قال: فضربتها لزالت هذه الفائدة التي ذكرناها ونبّهنا عليها.

ومن هذا الباب قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الأَرْضُ مُخْضَرَّةً إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾[6]. ألا ترى كيف عدل عن لفظ الماضي هاهنا إلى المضارع فقال "فتصبح" وذلك لإفادة بقاء المطر زمانا بعد زمان كما يقال: "أنعـم عليَّ فلانٌ عام كذا فأروح وأغدو شاكرًا له"، ولو قال: "فرُحت وغدَوت شاكرًا لـه" لم يقع ذلك الموقع، فافهم ما أشرنا إليه وتدبر دقائقه.

وأما الإخبار بالفعل الماضي عن المضارع، فهو عكس ما تقدم ذكره، وفائدته: أن الفعل الماضي إذا أخبر به عن الفعل المضارع إذا لم يوجد بَعدُ، كان أبلغ وآكـد، وأعظم موقفًا، وأفخر شأنًا؛ لأن الفعل الماضي يعطي من المعنى أنه قد كان وجد وصار من الأمور المقطوع بها، المحكوم بكونها وحدوثها.

والفرق بينه وبين الإخبار بالفعل المضارع عن الماضي، هو أن الفعل الماضـي يخبر به عن المضارع، إذا كان المضارع من الأشياء الهائلة، الـتي لم توجـد والأمـور

---

(١) الغول: الداهية أو المنية [اللسان: (غول)].

(٢) في نسخة: "بشهب"، وما أثبتناه من المثل السائر ص(٨٠١)، والأغاني (٢١/١٤١٠٠).

(٣) الصحيفة: وجه الأرض [اللسان: (صحف)].

(٤) صحصحان: أرض ليس بها شيء [اللسان: (صحح)].

(٥) البيتان من الوافر، وهما في الإيضاح- (١٠١، ١٠٢)، في غير توالٍ، وأوردهما بدر الدين بـن مالك في المصباح- (٥٧)، وعزاهما إلى تأبط شرًّا، ومحمد بن علي الجرجاني في الإشـارات- (٧١)، وعزاهما إلى تأبط شرًّا؛ مفتاح العلوم- (٣٥٥).

(٦) الحج: ٦٣.

المتعاظمة التي لم تحدث، فتُجعل عند ذلك مما قد كان ووجد، ووقع الفراغ من كونه وحدوثه. وأما الفعل المضارع إذا أخبر به عن الماضي، فإن الغرض بذلك تبيين هيئة الفعل، واستحضار صورته، ليكون السامع كأنه يعانيها ويشاهدها. فهذا هو الفرق بين الإخبار بالفعل الماضي عن المضارع (والمضارع عن الماضي)[1] فاعرفه.

ولنرجع إلى ما نحن بصدد ذكره من الأمثلة للإخبار بالفعل الماضي عن المضارع، فمن ذلك قوله تعالى: ﴿ وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الأَرْضِ إلا مَنْ شَاءَ اللَّهُ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَاخِرِينَ﴾[2]. فإنه إنما قال: "ففزع" بلفظ الماضي بعد قوله "ينفخ" وهو للمستقبل، للإشعار بتحقيق الفزع وثبوته وأنه كائن لا محالة، واقع على أهل السموات والأرض، لأن الفعل الماضي يدل على وجود الفعل، وكونه مقطوعًا به.

ومن هذا الجنس قوله تعالى: ﴿وَبَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا﴾[2]، "فبرزوا" بمعنى يبرزون يوم القيامة، وإنما جيء بلفظ الماضي؛ لأن ما أخبر الله به لصدقه وصحته كأنه قد كان ووجد. ومثل ذلك قوله-عز اسمه- ﴿أَتَى أَمْرُ اللَّهِ فَلا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾[3]. فإن "أتى" هاهنا بمعنى "يأتي" وإنما حسن فيه لفظ الماضي لصدق إتيان الأمر ودخوله في جملة ما لا بد من حدوثه ووقوعه، فصار "يأتي" بمنزلة قد أتى ومضى، وكذلك قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ وَتَرَى الأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾[4]. فإنه إنما قال "وحشرناهم" ماضيًا بعد "نسير" وترى" وهما مستقبلان للدلالة على أن حشرهم قبل التسيير والبروز، ليعانوا تلك الأحوال، كافة، قال "وحشرناهم" قبل ذلك.

---

(١) زيادة اقتضاها السياق، انظر: المثل السائر ص(٨٠٤، ٨٠٥).

(٢) النحل: ٨٧.

(٢) إبراهيم: ٢١

(٣) النحل: ١.

(٤) الكهف: ٤٧.

ومما ينخرط في هذا السلك الإخبار باسم المفعول عن الفعل المضارع، وإنما فعل ذلك لتضمنه معنى الفعل الماضي، وقد سبق الكلام عليه، فمن ذلك قوله تعالى: **﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِمَنْ خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ ذَلِكَ يَوْمٌ مَجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَشْهُودٌ﴾**[1]. فإنه إنما آثر اسم المفعول هاهنا على الفعل المضارع لما فيه من الدلالة على ثبات معنى الجمع لليوم، فإنه لا بد من أن يكون ميعادًا مضروبًا يجمع الناس وإنما[1] موصوف بهذه الصفة، وإن شئت فوازن بينه وبين قوله تعالى: **﴿يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ ذَلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ﴾**[2]. فإنك تعثر على صحة ما قلت.

---

(١) هود: ١٠٣

(١) ورد في المثل السائر: "وأنه" ص(٨٠٧).

(٢) التغابن: ٩.

القسم الثالث من النوع الثالث

في عكس الظاهر[1]

اعلم أن هذا القسم من مشكلات علم البيان، وأسراره الغريبة، وخفاياه المستطرفة العجيبة، وهو مما لم يذكره أحد من مؤلفي هذا الفن في كتابه، ولا أشار إليه، وسبب التفرد بذكره في هذا الكتاب، أنا عثرنا على ذلك في كلام علي بن أبي طالب ﷺ في وصفه مجلس النبي ﷺ فعند ذلك طلبنا له مثلاً أو نظيرًا في كلام العرب وأشعارهم فظفرنا بذلك، وأوردنا الكلام الوارد عن علي ﷺ ثم أتبعناه بما جاء عن العرب في ذلك، وأنه مما يستغرب ويستطرف، لأن العرب قد توسعوا في كلامهم، وتجوزوا إلي غاية، يذكرون كلامًا يدل ظاهره على معنى، وهم يريدون به معنى آخر عكسه وخلافه.

والأصل في ذلك، أنك تذكر كلامًا يعطي معناه أنه نفي لصفة شئ قد كان، وهو نفي للموصوف أنه كان أصلاً. فأما قول علي بن أبي طالب ﷺ في هذا الباب، فإنه وصف مجلس النبي ﷺ فقال: "لا تنثى فلتاته"[2] أي: لا تذاع فلتاته، ألا ترى إلى ظاهر ذلك: أن ثم فلتات غير أنها لا تذاع، وليس المراد ذلك، بل المراد أنه لم يكن ثم فلتات أصلاً، فتذاع، وهذا من أعجب ما وقفت عليه في علم البيان وأطرفه.

---

(١) قال ابن الأثير: "هو نفي الشيء بإثباته، وهو من مستطرفات علم البيان، وذاك أن تذكر كلامًا يدل ظاهره أنه لصفة الموصوف، وهو نفي الموصوف أصلاً... وهذا النوع من الكلام قليل الاستعمال، وسبب ذلك أن الفهم يكاد يأباه ولا يقبله إلا بقرينة خارجة عن دلالة لفظه على معناه، وما كان عاريًا عن قرينة؛ فإنه لا يفهم منه ما أراد قائله... فمن استعمل هذا النوع من الكلام فليستعمله هكذا وإلا فليدع، على أن الإكثار من استعماله عسر؛ لأنه لا يظهر المعنى فيه" [المثل السائر ص(٩٠٠، ٩٠١)].

(٢) ذكره الزمخشري في "الفائق في غريب الحديث"، تحقيق: علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم – ط. دار المعرفة – لبنان – الثانية (١٣/١)، و النويري في "نهاية الأرب في فنون الأدب" ص(١٠٨٥٥-١٠٨٦١)، وابن الجواليقي في "شرح أدب الكاتب" ص(٥).

وأما ما ورد عن العرب في هذا الباب، فنحو قوله الشاعر:

"ولا تَرَى الضَّـــبَّ بِـــهَا يَنْجَحِـــر"[1]

فإن ظاهر المعنى من ذلك يعطي أنه قد كان هناك ضب إلا أنه غير منجحـــر، ولـــيس كذلك بل المعنى المقصود، هو أنه لم يكن هناك ضب أصلاً فينجحر، فـــاعرف هـــذا، وقس عليه. وله أشباه كثيرة في كلامهم وأشعارهم، وفيما أشرنا إليه كفاية، لمن له لبٌّ ومعرفة.

---

(١) عجز بيت من السريع، وهو لأوس بن حجر، في مفتاح العلوم - (٣٩٢)، والإيضاح (١٦٧)، ويروى صدره: لا يفزع الأرنب أهوالها

ينجحر: جحرت الضباب وانجحرت: دخلت في جحرها [أساس البلاغة: (جحر)].

obeikandl.com

القسم الرابع من النوع الثالث

في الحمل على المعنى[1]

وذلك كتأنيث المذكر وتذكير المؤنث وتصوب معنى الواحد للجماعة، والجماعة للواحد، وحمل الثاني على لفظ الأول، أصلاً كان ذلك اللفظ أو فرعًا، وغير ذلك.

اعلم أن هذا القسم من التأليف دقيق المسلك، بعيد المذهب، يحتاج إلى فضل معاودة وزيادة تأمل، وقد ورد في القرآن الكريم، وفصيح الكلام منثورًا ومنظومًا.

فأما تأنيث المذكر فكقول الشاعر:

أَتهجرُ بيتًا بالحجاز تلفَّعَتْ ... به الخوفُ والأعداءُ مِنْ كلِّ جانبِ[2]

ذهب بالخوف إلى المخافة، وقال الآخر:

يأيُّهَا الراكبُ الْمُزجِي مَطِيَّتَهُ ... سائِلْ بَنِي أَسَدٍ مَا هَذِهِ الصَّوْتُ[3]

فإنه ذهب بالصوت إلى الاستغاثة، واعلم أنه قد كثر عن العرب تأنيث فعل المضاف المذكر إذا كانت إضافته إلى مؤنث، وكان المضاف بعض المضاف إليه أو منه

---

(١) قال ابن فارس: "هذا باب يترك حكم ظاهر لفظه؛ لأنه محمول على معناه" [الصاحبي في فقه اللغة ص(٣٨٢)].

(٢) البيت من الطويل، وينسب إلى الحسين بن مطر الأسدي، وزيد بن الطثرية، ويروى عند الأسدي:

أتهجر بيتًا بالحجاز تكنفت ... جوانبه الأعداء أم أنت زائره

وعند زيد:

أتهجر بيتًا بالحجاز تلعبت ... به الحرب والأعداء أم أنت زائره

وفي التذكرة الحمدونية ص(٣٧٥٣)، وبلا نسبة في "نضرة الإغريض في نصرة القريض" للمظفر العلوي ص(٢٧٦)، تلفعت: تلفع الرجل بالثوب إذا اشتمل به وتغطى.

(٣) البيت من البسيط، وهو لرويشد بن كثير الطائي في الدرر- (٦/٢٣٩)، وسر صناعة الإعراب- (١١)، وشرح ديوان الحماسة للمرزوقي- (١٦٦)، وشرح المفصل- (٥/٩٥)، ولسان العرب (صوت).

أو به، ولذلك قرئ قوله تعالى: ﴿لا تَنْفعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا﴾[1] بالتأنيث فأنث فعل الإيمان إذا كان من النفس وبها وأمثال ذلك كثيرة، فاعرفه.

وأما تذكير المؤنث فشائع في كلام العرب كقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي﴾[2]. أي هذا الشخص أو هذا المرئي. وكذلك قوله-عز اسمه-: ﴿فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَانْتَهَى﴾[3]؛ لأن الوعظ والموعظة واحدة، وقالوا في قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَحْمَةَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾[4]: إنه أريد بالرحمة هاهنا المطر[5]، بدليل قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ﴾[6].

وأما حمل الواحد على الجماعة، فكقولهم: "هو أحسن الفتيان وأجمله" فأفردَ الضمير؛ لأن هذا الموضع يكثر فيه الواحد كقولهم "هو أحسن فتى في الناس" قال الله تعالى: ﴿وَمِنَ الشَّيَاطِينِ مَنْ يَغُوصُونَ لَهُ﴾[7]. فحمل على المعنى، وقال ذو الرمة:

وميَّةُ أجملُ الثَّقَلَيْنِ وَجْهًا   وسَالِفَةً وأحسنُه قَذَالاَ[8]

---

(١) الأنعام: ١٥٨. وهي قراءة ابن سيرين، قال أبو حاتم: "ذكروا أنها غلط منه"، وقال النحاس: "في هذا شيء دقيق ذكره سيبويه وذلك أن الإيمان والنفس كل منهما مشتمل على الآخر، فأنث الإيمان إذ هو من النفس وبها. وقال الزمخشري: "قرأ ابن سيرين (لا تنفع) بالتاء لكون الإيمان مضافًا إلى ضمير المؤنث الذي هو بعضه" [انظر: البحر المحيط (٢٥٩/٤، ٢٦٠)، والكشاف (٨٢/٢)، وتفسير القرطبي (١٤٨/٧)].

(٢) الأنعام: ٧٨.

(٣) البقرة: ٢٧٥.

(٤) الأعراف: ٥٦.

(٥) انظر: أبو البقاء محب الدين العكبري "التبيان في إعراب القرآن" تحقيق: علي محمد البجاوي – ط. إحياء الكتب العربية (١٦٧/١).

(٦) الأعراف: ٥٧.

(٧) الأنبياء: ٨٢.

(٨) البيت من الوافر، وهو في: الكامل (١٢٤٧/٣)، وشرح ديوان الحماسة ص(١١٦٤)، وخزانة الأدب ص(٨١١١)، وكذلك في ديوانه من قصيدة له مطلعها:

أراح فريق جيرتك الجمالا   كأنهم يريدون احتمالا

ويروى: "خدًّا" بدلاً من "وجهًا"، والقذال: جماع مؤخر الرأس من الإنسان والفرس [اللسان: (قذل)].

فأفرد الضمير مع قدرته على جمعه، وهذا يدلك على قوة اعتقادهم في أحوال المواضع، وكيفما يقع فيها. ألا ترى أن هذا الموضع موضع جمع، وقد سبق في الأول لفظ الجمع فترك اللفظ، وموجب الموضع وعدل إلى الإفراد من غير ضرورة، فإنه قد كان يمكنه أن يقول:

وميَّةُ أجملُ الثَّقلَيْنِ وَجْهًا ... وسَالِفَةٍ وأَحْسَنُهُمْ قَذَالاَ

ومن هذا النحو قول بعضهم:

فَقُلْنَا أَسْلِمُوا إِنَّا أَخُوكُمْ ... فَقَدْ بَرِئَتْ من الإِحَنِ الصُّدُورُ[1]

فيجوز أن يكون ذلك جمع "أخ" قد حذفت نونه للإضافة، ويجوز أن يكون واحدًا ووقع موقع الجماعة، كقول الشاعر:

"تَرَى جَوَانِبَهَا بالشَّحْمِ مَفْتُونَا"[2]

والحمل على المعنى واسع في هذه اللغة. واعلم أن العرب إذا حملت على المعنى، لم تكد تراجع[3] اللفظ، كقولك: "شكرت من أحسنوا إلي على فعله" ويقال: "شابت مفارقه" وإنما هو مفرق واحد. ومما يؤكد عندك أن العرب إذا حملت على المعنى لم تراجع اللفظ، قوله تعالى: ﴿**أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ**

---

(١) البيت من الوافر، وهو للعباس بن مرداس في ديوانه- (٥٢)، ولسان العرب- (أخا)، والمقتضب- (١٧٤/٢)، وبلا نسبة في الأشباه والنظائر- (٢٨٥/٤).

والإحن: جمع إحنة، وهي الحقد في الصدر، ويقال: في صدره علي إحنة؛ أي: حقد [اللسان: (أحن)].

(٢) عجز بيت من البسيط، وهو للأسود بن يعفر النهشلي في "الأغاني" (٨٣١٣/١٣)، وحماسة القرشي للقرشي النجفي ص(٨٢)، ويروى "باللحم" بدلاً من "بالشحم"، ويروى صدره: "وجفنة كنضيح البئر متأقسة".

(٣) في نسخة (راجع)، وما أثبتناه من "خزانة الأدب" و"لب لباب لسان العرب" لعبد القادر البغدادي ص(٣١٦٥).

obeikandi.com

إذْ قَالَ إبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إبْرَاهِيمُ فَإنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾[١]. ثم قال: **﴿أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾**[٢] الآية. فإن ذلك محمول على المعنى، كأنه قال: أرأيت الذي حاج إبراهيم في رَبِّه، أو كالذي مرَّ على قرية؛ فجاءَ بالثاني على أن الأول قد سبق كذلك، وأمثال هذا كثيرة.

وأما حمل الجماعة على الواحد، فكقوله تعالى: **﴿بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾**[٣]. فحمل أول الكلام على لفظ الواحد، وآخره على لفظ الجمع.

واعلم أن العرب تعتبر تارةً اللفظ، وتارة المعنى، يقولون: "ثلاثة أشخص" فيثبتون التاء وإن عنوا مؤنثًا[٤]. ويقولون: "ثلاث أنفس" وإن عنوا رجالاً، لأجل اللفظ، ويقولون: "ثلاث شخوص"[٥] إذا عنوا مؤنثًا، "وثلاثة أنفس"[٦] إذا عنوا مذكرًا للمعنى فاعرف ذلك وقس عليه.

---

(١) البقرة: ٢٥٨.

(٢) البقرة: ٢٥٩.

(٣)البقرة: ١١٢.

(٤) ومن ذلك قول عمر بن أبي ربيعة:

فكان مجني دون من كنت أتقي   ثلاث شخوص كاعبان ومعصر

(٥) قال ابن فارس: "يقولون: ثلاث شخوص؛ لأنهم يحملون ذلك على أنهن نساء" [الصاحبي في فقه اللغة ص(٣٨٢)].

(٦) قال الجوهري: "أما قولهم: ثلاثة أنفس"، فيذكرونه؛ لأنهم يريدون به الإنسان" [الصحاح: (نفس)].

القسم الخامس من النوع الثالث في التقديم والتأخير

وذلك مما يتعلق بعلم النحو، فإن لنا تقديمًا وتأخيرًا في الكلام، ولا يتعلق بالنحو، وليس هذا بابه، وسيأتي ذكره. اعلم إن التقديم والتأخير مما نحن بصدد ذكره هاهنا على ضربين: أحدهما يكون التقديم هو الأولى والأبلغ لموضع الاختصاص، والآخر يكون التأخير هو الأولى والأبلغ؛ إما الفائدة تقتضي ذلك، وإما خوفًا من فساد المعنى واختلاله. وسيرد كل ضرب من هذه الضروب، مشروحًا مبيّنًا. وأما الضرب الأول وهو ما كان التقديم فيه هو الأولى والأبلغ فذلك كتقديم المفعول على الفعل، وتقديم الخبر على المبتدأ[1]، وتقديم الظرف أو الحال أو الاستثناء على العامل.

فمن ذلك تقديم المفعول على الفعل، وإنما تعمد إلى ذلك قصدًا للاختصاص، ألا ترى قولك: "زيدًا ضربت" تخصيصًا له بالضرب، إذ يحتمل أن يكون الضرب لغيره؛ لأنك إذا قدمت الفعل كنت بالخيار في إيقاعه على أي مفعول شئت كأن تقول "ضربت خالدا أو بكرا أو غيرهما" وإذا أخرته، لزم الاختصاص للمفعول. وقد ورد في القرآن الكريم، كقوله تعالى: ﴿**الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ**﴾[2]. فإنه إنما قدم المفعول، الذي هو الرزق، على الفعل الذي هو ينفقون؛ لأن الإنسان قد ينفق ما ليس له. فلو قدم الفعل هاهنا على المفعول، لسبق إلى الوهم قبل ذكر المنفق جواز كونه مما ليس له، ومع تأخيره يزول هذا الوهم، ويرتفع ذلك اللبس.

ومن هذا النحو، قوله تعالى: ﴿**إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ**﴾[3] فإن قوله: ﴿**إِيَّاكَ نَعْبُدُ**﴾ تخصيص له بالعبادة، دون غيره، وكذا قوله: ﴿**وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ**﴾ وهذا بخلاف ما لو قال "نعبدك ونستعينك" فإنه يحتمل أن تكون العبادة والاستعانة لغيره كما أشرنا إليه، في "زيدًا ضربت" و"ضربت زيدًا" فاعرف ذلك.

---

(١) في نسخة: "المبتدأ على الخبر"، وهو خطأ، والتصويب من المثل السائر ص(٨٤٣).

(٢)البقرة: ٣.

(٣) الفاتحة: ٥.

وأما تقديم خبر المبتدأ عليه، فإنه لا يعمد إليه أيضًا إلا لضرب من الاختصاص، كقولك: "زيدٌ قائم" و"قائم زيد" فقولك: "قائم زيد" قد أثبت له القيام لا محالة، وقولك: "زيد قائم" أنت بالخيار في إثبات القيام له أو نفيه عنه، بأن تقول: ضارب أو قاعد أو جالس أو غير ذلك.

ومن هذا النحو قوله تعالى: ﴿**وَظَنُّوا أَنَّهُمْ مَانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنَ اللَّهِ**﴾(١) الآية. فإنه إنما قال ذلك، ولم يقل: "وظنوا أن حصونهم تمنعهم أو مانعتهم" لأن في تقديم الخبر الذي هو مانعتهم، على المبتدأ، الذي هو حصونهم، دليلاً على فرط اعتقادهم في حصانتها، وزيادة وثوقهم بمنعها إياهم، وفي تصيير ضميرهم اسما لـ"أنّ"، وإسناد الجملة إليه ، دليل على تقريرهم في أنفسهم أنهم في عزة وامتناع، لا يبالي معها أحد بتعرض طامع أو قصد قاصد. وليس شيء من ذلك في قولك: "وظنوا أن حصونهم مانعتهم أو تمنعهم". ومن تقديم خبر المبتدأ عليه قوله تعالى: ﴿**أَرَاغِبٌ أَنْتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ**﴾(٢). فإنه إنما قدَّم خبر المبتدأ عليه في قوله: ﴿**أَرَاغِبٌ أَنْتَ عَنْ آلِهَتِي**﴾ لأنه كان أهم عنده، وهو به شديد العناية، وفي ذلك ضرب من التعجب والإنكار لرغبة إبراهيم عليه السلام عن آلهته، وأن آلهته لا ينبغي أن يرغب عنها. وهذا بخلاف ما لو قال: "أأنت راغب عن آلهتي" وقد سبق الكلام على ذلك فاعرفه.

فأما الظرف فاعلم إن كان الكلام مقصودًا به الإثبات، فإن تقديم الظرف فيه أبلغ من تأخيره، وفائدته إسناد الكلام الواقع بعده إلى صاحب الظرف دون غيره وإذا أريد بالكلام النفي فيحسن فيه تقديم الظرف وتأخيره؛ وكلا الأمرين له موضع يختص به؛ فأما تقديمه في النفي، فإنه يقصد به تفضيل المنفي عنه على غيره. وأما تأخيره.؛ فإنه يقصد به النفي أصلا من غير تفضيل. وسيأتي بيان ذلك عند ذكر الأمثلة الدالة عليه.

---

(١) الحشر: ٢.

(٢) مريم: ٤٧.

فأما الأول؛ وهو تقديم الظرف في الإثبات فنحو قوله تعالى: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ (٢١) لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيْطِرٍ (٢٢) إِلا مَنْ تَوَلَّى وَكَفَرَ (٢٣) فَيُعَذِّبُهُ اللَّهُ الْعَذَابَ الأَكْبَرَ (٢٤) إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ (٢٥) ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ﴾(١). فتقديم الظرف على المصدر، وهاهنا تشديد في الوعيد، لا يكون عند تأخيره؛ لأنه يعطي من المعنى أن إيابهم ليس إلا إلى الله، المقتدر على الانتقام. وأن حسابهم ليس إلا عليه، وذلك بخلاف ما لو قال: إن إيابهم إلينا ثم إن حسابهم علينا" لأن قوله: "إن إلينا إيابهم" لا يحتمل أن يكون الإيابُ فيه إلى غير الله؛ لأنه صدر الكلام بالظرف، وإذا قال "إن إيابهم إلينا" يحتمل أن يظن المخاطب عند سماعه "إن إيابهم" قبل قوله "إلينا" أن يكون الإياب إلى غيره.

ومن هذا الجنس قوله تعالى: ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾(٢). فإن الله قدم الظرفين في قوله "له الملك وله الحمد" ليدل بتقديمهما على اختصاص الملك والحمد بالله لا بغيره، وكذا جاء قوله تعالى: ﴿مَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ﴾(٣). فإن تقديم الظرف هاهنا، أشد موقعًا من تأخيره، وأفخم شأنًا؛ وذلك للدلالة على أن ضرر الكفر، لا يعود إلا على الكافر، وأنه لا يتعداه. وهذا لا يخفى على من له معرفة بعلم البيان.

وأما الثاني؛ وهو تأخير الظرف وتقديمه في النحو، فنحو قوله تعالى: ﴿الم (١) ذَلِكَ الْكِتَابُ لا رَيْبَ فِيهِ﴾(٤). إنه إنما أخر الظرف هاهنا لأن القصد في إيلاء حرف النفي الريب [الدلالة] على نفي الريب عنه، وإثبات أنه حق وصدق لا باطل وكذب، كما كان المشركون يدعونه. ولو أولاه الظرف، لقصد أن كتابًا آخر فيه الريب لا فيه، كما قصد في قوله تعالى: ﴿لا فِيهَا غَوْلٌ﴾. وذلك تفضيل لخمر الجنة

---

(١) الغاشية: ٢١- ٢٦.

(٢) التغابن: ١.

(٣) الروم: ٤٤.

(٤) البقرة:١-٢.

على خمور الدنيا؛ بأنها لا تغتال العقول، كما تغتالها الدنيوية؛ كأنه قال: "ليس فيها ما في غيرها من هذا العيب والنقيصة".

فتأخير الظرف في قوله تعالى: ﴿الم (١) ذَلِكَ الْكِتَابُ لا رَيْبَ فِيهِ هُدًى﴾[١]. يقتضي النفي أصلا من غير تفضيل، وتقديم الظرف في قوله تعالى: ﴿لا فِيهَا غَوْلٌ﴾[٢]. يقتضي تفضيل المنفي عنه، وهو خمر الجنة، على غيرها من خمور الدنيا. وهذا مثل قولنا "لا عيب في الدار" وقولنا "لا فيها عيب" والأول؛ قصدنا به أن ننفي عن الدار أن فيها عيبًا أصلاً، وثبت أنها خالية من العيوب. والثاني، قصدنا به أن ليس فيها ما في غيرها من العيب" فاعرف ذلك، وقس عليه، فإنه من دقائق علم البيان.

وأما تقديم الحال فنحو "جاء راكبًا زيد" وإنما يفعل ذلك لضرب من الاختصاص أيضًا. وهذا بخلاف قولك: "جاء زيد راكبًا" إذ يحتمل أن يقول: ضاحكا أو ماشيا وغير ذلك.

وأما الاستثناء فجار هذا المجرى، نحو قولك: ما قام إلا زيدًا أحدٌ" وما قام أحدٌ إلا زيدًا، والكلام على ذلك كالكلام على ما سبق. فاعرفه.

وأما الضرب الثاني فهو أن يقدم ما الأولى به التأخير، لأن المعنى يختل بذلك ويضطرب[٣]، كتقديم الصفة أو ما يتعلق بها على الموصوف، وتقديم الصلة على الموصول، وتقديم العطف على المعطوف عليه، سواءًا كان بيانًا أو نسقًا، إلا عطف النسق في الواو وحده، فإنه جائز، نحو قولك "قام عمرو وزيد" وغير ذلك مما يرد مشروحًا.

---

(١) البقرة: ١-٢.

(٢) الصافات: ٤٧.

(٣) يقول ابن الأثير: "هذا هو المعاظلة المعنوية، وقدمنا القول في المقالة الأولى المختصة بالصناعة اللفظية بأن المعاظلة تنقسم قسمين: أحدهما لفظي، والآخر معنوي، أما اللفظي فذكرناه في بابه، وأما المعنوي فهذا بابه وموضعه" [المثل السائر ص(٨٥٦)].

فمن هذا الضرب قول بعضهم:

فقــد والشــكُّ بَــيَّنَ لي عنــاءً　　　بَوشكِ فِــرَاقِهِمْ صُــرَدٌ يَصِــيحُ[1]

فإنه قدم "بوشك فراقهم" وهو معمول "يصيح" ويصيح صفه لصــرد جاريــة على صرد، وذلك قبيح، ألا ترى أنه لا يجوز أن يقال "هذا اليوم رجل ورد من موضع كذا" وإنما يجوز وقوع المعمول، بحيث يجوز وقوع العامل، فكما لا يجوز تقديم الصــفة على موصوفها، كذلك لا يجوز تقديم ما اتصل بها على موصوفها.

ومن هذا النوع، قول الآخر:

فَأَصْــبَحتْ بَعْــدَ خَــطَّ بَهْجَتِهَــا　　　كَــأَنَّ قَفْــرًا رُسُــومَهَا قَلَمَــا[2]

فإنه قدم خبر كأنّ عليها وهو قوله "خط" وهذا وأمثاله مما لا يجوز قياس عليه، والأصل في هذا البيت "فأصبحت بعد بهجتها قفرًا كأن قلما خطّ رســومها" إلا أنــه على تلك الحالة الأولى مختلّ مضطرب.

ويشبه بذلك قول الفرزدق[3]:

إِلى مَلِكٍ مــا أُمُّــهُ مــن مُحَــارِبٍ　　　أَبُوهُ ولا كانــتْ كُلَيْــبٌ تُصَــاهِرُهْ[1]

---

(١) البيت من الوافر، وهو بلا نسبة في الخصائص- (١/٣٣٠)، (٢/٣٩٠)، ورصــف المبــاني- (٣٩٣)، وشرح شواهد المغني- (٤٨٩)، ومغني اللبيب- (١٧١)، وجاءت "والله" بدلا مــن "والشك"، والصرد: طائر ضخم الرأس يصيد العصافير، أكبر منها شــيئًا [العــين (٢/٣٨٩) بتحقيقنا].

(٢) البيت من المنسرح، وهو بلا نسبة في المثل السائر ص(٨٥٧)، وخزانــة الأدب ص(٣٣٩٦)، ورسالة الصاهل والشامخ ص(٦٨٨)، ونضرة الإغريض في نصرة القريض للمظفــر العلــوي ص(٢٣٢).

(٣) الفرزدق معروف بوضع الكلام في غير موضعه، ومن ذلك قوله:

ضلت أمية من سفاهة رأيها　　　فاستجهلت سفهاؤها حلماؤها

حربٌ تسعر بينهم بتشاجر　　　قد كفرت آباؤها أبناؤها

انظر: رسالة الصاهل والشاحج لأبي العلاء المعري ص(٦٨٨)، وسر الفصاحة ص(١٨٣).

obeikandl.com

وهو يريد "إلى ملك أبوه ما أمه من محارب" أي ما أم أبيه من محارب، وهذا أقبح من الأول وأكثر اختلالاً.

وأما قوله:

وليستْ خراسانُ التي كان خالدٌ   بِهَا أسدٌ إذْ كان سيفًا أَمِيْرَهَا[٢]

فحديثه ظريف، وذلك أنه فيما ذكر يمدح خالد بن عبد الله القسري. ويهجو أسدًا؛ وكان وأسد وليها بعد خالد، وكأنه قال:

"وليست خراسان البلدة التي كان خالد بها سيفًا إذ كان أسد أميرها" وعلى هذا التقدير ففي "كان" الثانية ضمير الشأن، والحديث والجملة بعدها خبر عنها، وقد قدم بعض ما إذْ مضافة إليه، وهو أسد، عليها، وفي تقديم المضاف إليه أو شيء منه على المضاف من القبح ما لا خفاء به، وأيضا فإن في أصله أسدًا أحد جزئي الجملة المفسرة للضمير، والضمير لا يكون تفسيره إلا من بعده، ولو تقدم تفسيره قبله لما احتاج إلى تفسير، ولما سماه الكوفيون المظهر المجهول[٣].

ومن هذا الجنس قوله:

---

(١) البيت من الطويل، وهو للفرزدق في ديوانه- (١/٢٥٠)، والخصائص- (٢/٣٩٤)، والدرر- (٢/٧٠)، وشرح شواهد المغني- (١/٣٥٧)، ومعاهد التنصيص- (١/٤٤)، والمقاصد النحوية- (١/٥٥٥)، وبلا نسبة في رصف المباني- (١٨)، وشرح ابن عقيل- (١١٨)، ومغني اللبيب- (١/١١٦)، وهمع الهوامع- (١/١١٨).

(٢) البيت من الطويل، وهو للفرزدق في الوافي بالوفيات للصفدي ص(١٦٤٧٥)، وسر الفصاحة ص(١٨٢)، ومعجم الأدباء ص(٢٩٤٢)، ونكت الهيمان في نكت العميان للصفدي ص(٤٦٤).

(٣) في المثل السائر: الضمير المجهول (٨٥٩)، وفي نسخة: الظهر المجهول.

مُلُــــوكٌ يَبْتَنُــــونَ تَوَارَثُوهَــــــا   سُــــرَادِقهَا المَقَــــاوِلَ والقِبَابَــــا[1]

أراد "ملوك يبتنون المقاول والقباب توارثوها سرادقها" فقوله "يبتنون المقاول والقباب" صفة للملوك أيضًا وموضعها التأخير، فقدمها، وهو يريد بها موضعها، كقولك "مررت برجل، يكلمها، مار بهند" أي "مار بهند يكلمها" فقدم الصفة الثانية، وهو معتقد تأخيرها.

وقد استعمل الفرزدق هذا الضرب كثيرًا[2]، كأنه كان يقصد ذلك في شعره ويتعمده، لأن مثل هذا لا يجيء إلا متكلفًا مقصودًا، وإلا فإذا ترك المؤلف نفسه تجري على سجيتها وطبعها في الاسترسال، من غير أن يكلفها التعقيد في الكلام، فإنها لا تأتي بمثل هذه الأسباب القبيحة، التي هي عيب في التأليف فاحش، ألا ترى أن المقصود من الكلام معدوم في هذا الضرب المذكور،لأن المقصود من الكلام إنما هو الإيضاح والإبانة وإفهام المعنى، فإذا ذهب هذا الوصف من الكلام ذهب المراد به والمقصود منه، وصار غير مفهوم ولا فرق بينه -عند ذلك- وبين غيره من اللغات كالفارسية والرومية وغيرهما. فاعرف ذلك[3].

واعلم أن من التقديم والتأخير بابًا عجيبَ المأخذ كثير الفائدة، وافر اللطائف، وهو باب الاستفهام[4]، فإن حاجة المؤلف للكلام إليه ماسة. ولنورد في كتابنا هذا منه

---

(١) البيت من الوافر، وهو للفرزدق في ديوانه- (٩٩/١)، وفي نسخة: "المقاود" بدلاً من "المقاول". والمقاول جمع "مقول" وهو الملك بلغة أهل اليمن [تاج العروس: (قول)].

(٢) انظر: سر الفصاحة ص(١٨٣)، ورسالة الصاهل والشاحج ص(٦٨٨).

(٣) قال ابن الأثير: "هذا الضرب من الكلام هو ضد الفصاحة؛ لأن الفصاحة هي الظهور والبيان، وهذا عار من هذا الوصف" [المثل السائر ص(٨٦٠)].

(٤) قال عبدالقاهر الجرجاني: "هذه مسائل لا يستطيع أحد أن يمتنع من التفرقة بين تقديم ما قدم فيها، وترك تقديمه، ومن أبين شيء في ذلك الاستفهام بالهمزة" [انظر: دلائل الإعجاز في علم المعاني ص(١٦٥)].

ما يروقك، أيها المتأمل، ويذهب بك في الاستحسان كل مذهب، فنقول اعلم: أنك إذا بدأت في الاستفهام بالفعل فقلت "أفعلت كذا وكذا" كان الشك في الفعل، وكان غرضك من استفهامك أن تعلم وجوده لا غير. وإذا قلت: "أأنت فعلت" فبدأت بالاسم كان الشك الفاعل وحده. وهذا المعنى قائم في الهمزة، إذ هي كانت للتقرير، فإذا قلت "أأنت فعلت ذاك" كان غرضك أن تقرره بأنه الفاعل، قال الله تعالى: ﴿**أَأَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ**﴾(١). حكاية عن قوم نمرود، لأنهم لم يقولوا ذلك لإبراهيم عليه السلام وغرضهم أن يقر لهم أن كسر الأصنام كان ووجد، لأن ذلك معلوم عندهم، وقد شاهدوه رأى العين، والاستفهام إنما يكون عن شيء لا يعلم وإنما غرضهم الإقرار بأن ذلك حدث منه، لأنه قال-صلوات الله عليه- في الجواب لهم ﴿**بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا**﴾ ولو كان التقرير بالفعل لكان الجواب "فعلت أو لم أفعل" فالهمزة مما ذكرناه تقرير لفعل قد كان وإنكار له، لم كان، وتوبيخ لفاعله عليه، ولهذا مذهب آخر وهو أن تكون الهمزة لإنكار أن يكون الفعل من أصله، ومثال قوله تعالى: ﴿**أَفَأَصْفَاكُمْ رَبُّكُمْ بِالْبَنِينَ وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِنَاثًا إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا**﴾(٢). وقوله تعالى: ﴿**أَصْطَفَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ (١٥٣) مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ**﴾(٣). فهذا رد على المشركين، وتكذيب لهم في قولهم ما يؤدي إلى هذا الجهل العظيم، وإذا قدم الاسم في هذا صار من الإنكار في الفاعل، كما تقول للرجل، إذا انتحل شعرًا "أأنت قلت هذا الشعر، كذبت، ليست ممن يقول مثله" فأنكرت أن يكون هو القائل و لم تنكر الشعر. وقد يكون المراد إنكار الفعل من أصله ثم يخرج اللفظ مخرجه إذا كان الإنكار في الفاعل مثال ذلك قوله تعالى: ﴿**قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَرَامًا وَحَلَالًا**﴾(٤).

---

(١)الأنبياء: ٦٢.

(٢)الإسراء: ٤٠.

(٣)الصافات: ١٥٣، ١٥٤.

(٤) يونس: ٥٩.

ومعلوم أن المعنى على إنكار أنه قد كان من الله إذن فيما قالوا من غير أن يكون هذا الإذن قد كان من غير الله، فأضافوه إلى الله، إلا أن اللفظ أخرج مخرجه ليكون أشد لنفي ذلك ولفظا له. ونظيره قوله تعالى: ﴿آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الأُنثَيَيْنِ﴾[1]. فأخرج اللفظ مخرجه إذ كان قد ثبت تحريم في أحد أشياء ثم أريد معرفة عين المحرم، مع أن المراد إنكار التحريم من أصله، ونفي أن يكون قد حرَّم شيئًا مما ذكروا أنه محرَّم[2]. هذا هو الفرق بين تقديم الاسم، وتقديم الفعل الماضي، فإذا كان الفعل مضارعًا فالقول في ذلك إنَّك إذا قلت "أنفعل كذا" لم يخل من أن تريد الحال أو الاستقبال، فإن أردت الحال كان المعنى شبيهًا بالماضي، كما ذكرنا، وإنْ أردت الاستقبال كان المعنى إذا بدأت بالفعل أنك تعمد إلى إنكار الفعل نفسه، وتزعم أنه لا يكون، أو أنه لا ينبغي أن يكون، فمثال الأول قول امرئ القيس:

أَيَقْتُلُنِي والمَشْرَفِيُّ مُضَاجِعِي ومَسْنُونَةٌ زُرْقٌ كأَنْيَابِ أَغْوَالِ؟![3]

فهذا تكذيب منه لإنسان يهدده بالقتل. وعلى هذا جاء قوله تعالى:

﴿أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَارِهُونَ﴾[4]. ومثال الثاني قولك للرجل يركب الخطر "أتخرج في هذا الوقت؟ أتغررّ بنفسك" ؟ ومنه قول الشاعر:

أَأَتْرُكُ أَنْ قَلَّتْ دراهمُ خالدٍ زيارتَهُ إِنِّي إذنْ لَلَئِيمُ[5]

---

(١)الأنعام: ١٤٣.

(٢) انظر: دلائل الإعجاز (١٦٥-١٧٢)، والإيضاح في علوم البلاغة للقزويني ص(٢١٣).

(٣) البيت من الطويل، وهو لامرئ القيس في ديوانه- (٣٣)، ولسان العرب- (غول)، (شطن)، وتهذيب اللغة- (١٩٣/٨)، وجمهرة اللغة- (٩٦١)، وتاج العروس- (زرق)، وبلا نسبة في المخصص- (١١١/٨)، وفي الإيضاح- (١٣٥، ١٥٨)، ومفتاح العلوم- (٤٦١).

(٤) هود: ٨٢.

(٥) البيت من الطويل، وهو مطلع قصيدة قصيرة لعمارة بن عقيل يمدح بها خالد بن يزيد بن مزيد الشيباني، وفي العمدة ص(١١٣)، والكامل (٥٠٨/١)، ودلائل الإعجاز ص(١٧٤).

فإن بدأت بالاسم فقلت "أأنت تفعل" أو قلت "أهو يفعل" كنت موجها للإنكار إلى نفس المذكور وأبيت أن يكون بمثابة من يجيء منه الفعل، إما لقصور همته وعجزه، مع أن يكون ذلك في وسعه، وإما لارتفاع قدره، وعلو همته. فمثال الأول قولك: أهو يرتاح للجميل، هو أصغر همة من ذلك، وقولك: "أأنت تمنعني، أأنت تأخذ على يدي" يعني أنك أعجز من ذلك، ومثال الثاني قولك: "أهو يسأل فلانًا هو أرفع قدرًا من ذلك"(١).

واعلم أن محض المعنى من الاستفهام، الذي تفسره بالإنكار هو تنبيه للسامع، حتى يرجع إلى نفسه فيخجل ويرتدع، قال الله تعالى: ﴿**أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ أَوْ تَهْدِي الْعُمْيَ**﴾(٢) على سبيل التمثيل والتشبيه، كقولهم: "أأنت تصعد إلى السماء" لأن إسماع الصم مما لا يدعيه أحد، وكذلك الصعود إلى السماء.

ومثله قول بعضهم:

فدع الوعيد فما وعيدك ضائري ... أطنين أجنحة الذباب يضير؟(٣)

واعلم أن حال المفعول فيما ذكرناه حال الفاعل في أن تقديم اسم المفعول يقتضي أن يكون الإنكار في طريق الإحالة والمنع من أن يكون بمثابة من يوقع به ذلك الفعل، فإذا قلت "أزيدًا تضرب" أنكرت أن يكون بمنزلة من يجترأ عليه، وذلك قدمت "غير" في قوله تعالى ﴿**أغير الله أتخذ وليًا**﴾ وقوله تعالى: ﴿**قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ**

---

(١) قال عبدالقاهر الجرجاني: "جملة الأمر أن تقديم الاسم يقتضي أنك عمدت بالإنكار إلى ذات من قيل إنه يفعل أو قال هو: إني أفعل، وأردت ما تريده إذا قلت: ليس هو بالذي يفعل، وليس مثله يفعل، لا يكون هذا المعنى إذا بدأت بالفعل" [دلائل الإعجاز ص(١٧٥)].

(٢) الزخرف: ٤٠.

(٣) البيت من الكامل، وهو لعبدالله بن أبي عيينة، وأورده محمد بن علي الجرجاني في الإشارات- (٢٩٧)، وفي الإيضاح- (٣٣١)، وفي دلائل الإعجاز- (١٢١)، والكامل (٢/٧٠٩).

عَذَابُ اللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ أَغَيْرَ اللَّهِ تَدْعُونَ﴾[١]. وكان لذلك من المزية والحسن والفخامة ما يعلم أنه لو أخرت "غير" فقيل "أأتخذ غير الله وليًا، أو تدعون غير الله" لما كان مؤديًا من المعنى ما كان يؤديه مع تقدمها، وذلك أنه حصل بالتقدير معنى قولك "أيكون غير الله بمنزلة من يتخذ وليًا أو يرضى عاقل لنفسه أن يفعل ذلك" و" أيكون جهل أجهل وعمىً أعمى من ذلك" ولا يكون شيء من هذا الذي ذكرناه إذا قيل "أأتتخذ غير الله وليا" وذلك لأنه يتناول الفعل أن يكون فقط، ولا يزيد على ذلك شيئًا، فهذا هو القول في الضرب الأول[٢].

وأما الضرب الثاني: وهو أن يكون يفعل لفعل موجود، فإن تقديم الاسم يقتضي تشبيهًا بما اقتضاه في الفعل الماضي، من الإقرار بأنه الفاعل، أو الإنكار أن يكون هو الفاعل. فمثال الأول قوله تعالى: ﴿أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾[٣]. وقوله تعالى: ﴿أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾[٤].فحكم المضارع في الآية الأولى حكم الماضي في الآية الثانية، ومثال الثاني قوله تعالى: ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَةَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ﴾[٥] فافهم ذلك[٦].

واعلم أني قد أطلقت عنان الكلام في مسائل الاستفهام ليتبين أن للعربية أسرارًا لا يطلع على خباياها، ولا يقدر قدر مزاياها إلا من تغذى بلبان البلاغة طفلا ونشأ عليها كبيرًا وصغيرًا، وسلك مناهج هذا العلم، وفاز منه بأوفر الحظ والقسم. ولا يتسع لهذا الضرب من التأليف نطاق هذه الأوراق ولا يمكن أن يودع ما فيه من اللطائف،

---

(١) الأنعام: ٤٠.

(٢) انظر: دلائل الإعجاز ص(١٨٠).

(٣) يونس: ٩٩.

(٤) المائدة: ١١٦.

(٥) الزخرف: ٣٢.

(٦) انظر: دلائل الإعجاز ص(١٨١).

صفحات ما حررناه من هذه الصحائف، والذي عليه مدار المعول، فيما نـــورده مـــن المجمل والمفصل، هو البحث عن أسرار البلاغة، والإبانة عن الشيء الذي بــه يشـــرف الكلام، وتحصل له المزية على سواه، فتدبر ذلك وقس عليه.

obeikandl.com

القسم السادس من النوع الثالث

في الاعتراض[1] وهو شعبة من "علم البيان" تتكاثر محاسنها

اعلم أن الجائز من هذا القسم، وغير الجائز إنما يؤخذ من كتب النحو، فإنه يكون مستقصى فيها، كالاعتراض بين القسم وجوابه، وبين الصفة والموصوف، وبين المعطوف والمعطوف عليه، وأشباه ذلك مما يجوز استعماله، وكالاعتراض بين المضاف إليه، وبين إنّ واسمها، وبين حرف الجر ومجروره، وأمثال ذلك مما يقبح استعماله، وليس هذا مكانه لأن كتابنا هذا موضوع لمن استكمل معرفة ذلك وغيره، مما أشرنا إليه في صدر الكتاب، وإنّ ما أشرنا إليه هاهنا من الاعتراض ما يفرق المؤلف به بين الجيد منه والرديء لا ما يعلم به الجائز، وغير الجائز، فاعرف ذلك.

واعلم أن الاعتراض ينقسم إلى قسمين: أحدهما لا يأتي في الكلام إلا لفائدة، وهو جار مجرى التوكيد في كلام العرب، والآخر يأتي في الكلام لغير فائدة[2]. فمما جاء منه قوله تعالى: **﴿فَلا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ (٧٥) وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ (٧٦) إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ (٧٧) فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ﴾**[3] هذا كلام فيه اعتراضان أحدهما **﴿وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ﴾** لأنه اعترض بين القسم الذي هو **﴿فَلا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ﴾** وبين جوابه الذي هو **﴿إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ﴾** وفي نفس هذا الاعتراض اعتراض آخر، بين الموصوف الذي هو "قسم" وبين صفته التي هي "**عَظِيمٌ**" وهو قوله تعالى "**لَوْ تَعْلَمُونَ**" فذانك اعتراضان كما ترى، فلو جاء الكلام غير معترض فيه، لوجب أن

---

(١) الاعتراض: كل كلام أدخل فيه لفظ مفرد أو مركب لو أسقط لبقي الأول على حاله وبعضهم يسميه الحشو، ومثال ذلك أن تقول: زيد قائم؛ فهذا كلام مفيد، وهو مبتدأ وخبر، فإذا أدخلنا فيه لفظًا مفردًا قلنا: زيد والله قائم، ولو أزلنا القسم منه لبقي على حاله [المثل السائر ص(١١٤١)].

(٢) في نسخة (لفائدة)، والتصويب من المثل السائر ص(١١٤٢).

(٣) الواقعة: ٧٥-٧٨.

يكون "فلا أقسم بمواقع النجوم إنه لقرآن كريم" وفائدة هذا الاعتراض بين القسم وجوابه إنما هو تعظيم لشأن المقسم به في نفس السامع، ألا ترى قوله تعالى ﴿لَوْ تَعْلَمُونَ﴾ اعتراضًا بين الموصوف والصفة، وذلك أوقع في الأنفس، لتعظيم المقسم به، أي إنه من عظيم الشأن وفخامة الأمر بحيث لو علم ذلك لوفي حقه من التعظيم. وهذا مثل قولنا "إن هذا الأمر لعظيم، بحيث لو تعلم يا فلان عظمه، لقدرته حق قدره" فإن ذلك يكبر في نفس المخاطب، ويعظم موقعه عنده، ويبقى متطلعًا إلى معرفة عظمه، ويترامى به وهمه إلى أعلى المنازل وأسبق الرتب. ومن هذا النحو قوله تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا الإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ﴾[1]. ألا ترى إلى هذا الاعتراض الذي طبق مفصل البلاغة، فإنه لم يؤت به إلا لفائدة كبيرة، وذلك أنه لما وصى بالوالدين ذكر ما تكابده الأم من المشاق والمتاعب، في حمل الولد وفصاله، إيجابًا للتوصية بالوالدة وتذكيرًا بحقها، وإنما خصها بالذكر دون الوالد، لأنها تتكلف من أمر الولد ما لا يتكلفه الوالد، ومن ثم قال رسول الله ﷺ لمن قال له "منْ أبَرّ": أمَّك ثم أمَّك. ثم قال بعد ذلك "أباك"[2] ومما جاء على هذا الأسلوب قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ (٧٢) فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَى وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾[3]. فقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ اعتراض بين المعطوف والمعطوف عليه، وفائدته أنه يقرر في أنفس المخاطبين وقلوب السامعين أن تدارؤ بني إسرائيل في قتل تلك النفس لم يكن نافعًا لهم في إخفائه وكتمانه؛ لأن الله مظهر لذلك ومخرج له، ولو جاء الكلام خاليًا من هذا الاعتراض لكان "وإذ قتلتم نفسًا فادّارأتم فيها

---

(١) لقمان: ١٤.

(٢) أخرجه مسلم في "البر والصلة والآداب" باب: بر الوالدين وأنهما أحق به (٢٥٤٨).

(٣) البقرة: ٧٢، ٧٣.

فقلنا اضربوه ببعضها" ولا يخفى على العارف بهذه الصناعة الفرق بين ذلك كونه معترضًا فيه.

ومن هذا الجنس قول النابغة:

لَعَمْرِي ومَا عُمْرِي عَلَيَّ بِهَيِّنٍ   لقد نَطَقَتْ بُطْلاً عَلَيَّ الأَقَارِعُ[1] [2]

فقوله "وما عمري علي بهيّن" من محمود الاعتراض ونادره، لما فيه من تفخيم المقسم به. وعلى نحو هذا جاء قول كثيّر:

لَوَ انَّ البَاخِلِينَ وأنتَ مِنْهُم   رَأَوْك تعلَّمُوا مِنْكَ المِطَالا[3]

فقوله "وأنت منهم" من الاعتراض الذي يؤكد به المعنى المقصود فيزداد به مزية ونبلاً وفائدته هاهنا التصريح بما هو المراد تبينه في الأنفس وتقرره في الأذهان، وقال بعضهم لعبد الله بن طاهر أحسن ما قيل في هذا الباب:

إنَّ الثَّمَانِينَ وبُلِّغْتَهَا   قَدْ أَحْوَجَتْ سَمْعِي إلى تُرْجُمَانِ[4]

وأمثال هذا كثيرة، فاعرفه.

وأما الثاني وهو الذي يأتي في الكلام لغير فائدة فهو ضربان: الأول: أن يكون دخوله في التأليف كخروجه منه، لا يؤثر حسنًا ولا قبحًا، فمن ذلك قول النابغة:

يقولُ رجالٌ يجهلونَ خَلِيْقَتِي   لَعَلَّ زِيَادًا لا أبا لكَ غافلُ[1]

---

(١) الأقارع: هم بنو قريع بن عوف بن كعب، وسماهم أقارع الآن قريعًا أباهم سُمي بهذا الاسم. خزانة الأدب – عبدالقادر البغدادي (١٧٠٥).

(٢) البيت من الطويل، وهو في ديوانه – (٨٨)، وتخليص الشواهد- (٢٣١)، والدرر- (٩/٤)، ومفتاح العلوم- (٥٣٨).

(٣) البيت من الوافر، وهو لكثير في البديع لابن المعتز ص(٩١)، و"الصناعتين" لأبي هلال العسكري ص(٩٦) "نضرة الإغريض" ص(١٠٢)، وفي "العمدة" ص(٨٠٢).

(٤) البيت لعوف بن محلم الشيباني أورده محمد بن علي الجرجاني في الإشارات- (١٦٣)، والإيضاح- (١٨٣).

فقوله "لا أبالك" اعتراض لا فائدة فيه، وليس [يؤثر][٢] في هذا البيت حسنًا ولا قبحًا، ومثله قول زهير:

سَئِمْتُ تَكَالِيفَ الحياةِ ومَنْ يَعِشْ ... ثَمَانِينَ حَوْلاً لا أَبَا لَكَ يَسْأَمِ[٣]

وكذلك قول بعض المحدثين:

صُدُودُكُمْ والدِّيَارُ دَانِيَةٌ ... أَهْدَى لِرَأْسِي ومَفْرِقِي شَيبًا

فذكر المفرق بعد الرأس لا فائدة فيه ألبتة.

ومن هذا القول أو الضرب قول ابن هانئ:

فلا مُهْجَةٌ فِي الأرضِ مِنْكَ مَنِيْعَةٌ ... ولو قَطَرَتْ فِي رِيقِ أَرْقَطَ أَرْقَمِ[٤]

فإن قوله "أرقط" لا حاجة إليه ولا فائدة في ذكره، إذ لا فضل للأرقط من الحيات على غيره من الألوان ولا مزية، وأمثال هذا كثيرة.

وأما الضرب الثاني الذي يكون مؤثرًا في الكلام نقصًا، وفي المعنى فسادًا، فما جاء منه قول بعضهم:

فقَدْ والشكَّ بَيَّنَ لي عناءً ... بوشْكِ فِراقِهِمْ صَرْدٌ يَصِيْحُ[٥]

فإن هذا البيت من ردئ الاعتراض ما أذكره، وهو الفصل بين قد والفعل، الذي هو "بين" وذلك قبيح لوجوب اتصال "قد" بما تدخل عليه من الأفعال، ألا تراها تعتد مع الفعل كالجزء منه، ولذلك دخلت اللام المراد بها توكيد الفعل على "قد" في

---

(١) البيت من الوافر، وهو في ديوانه- (١١٩)، وفيه "ينكرون" بدلا من "يجهلون".

(٢) زيادة اقتضاها السياق.

(٣) البيت من الطويل، وهو في "الإيضاح" ص(٢٩٦).

(٤) البيت من الطويل وهو من قصيدة له مطلعها:

أصاحت فقالت وقع أجرد شيظم ... وشامت فقالت لمع أبيض مجذم.

ويروى "من" بدلاً من "في".

(٥) سبق تخريجه.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ﴾(١). وفي قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ﴾(٢). وقول الشاعر:

وَلَقَدْ أَجْمَعُ رجليَّ بها حَذَرَ المَوْتِ وإنِّي لَفَرُورُ(٣)

إلا أنه إذا فصل بين قد والفعل بالقسم فإن ذلك لا بأس به، نحو قولك "قد والله كان ذلك" وقد فصل بين المبتدأ الذي هو الشك وبين الخبر الذي هو عناء بقوله "بيّن" وفصل بين الفعل الذي هو "بيّن" وبين فاعله الذي هو "صرد" بخبر المبتدأ الذي هو "عناء" فجاء هذا البيت كما ترى، فإن قبحه لا خفاء به ومن هذا الجنس قول الآخر:

نظرت وشخصي مطلع الشمس ظلّه إلى الغرب حتى ظلّه الشمس قد غفل

أراد "نظرت مطلع الشمس" أي حاذاها، وعلى هذا التقدير فقد فصل بمطلع الشمس بين المبتدأ الذي هو "شخصي" وبين خبره الجملة وهو قوله "ظلّه إلى الغرب" وأغلط من ذلك الفصل بين الفعل وفاعله بالأجنبي. وقد تقدم ذكره، وهذا وأمثاله مما يفسد المعاني ويؤثر بها الاختلال.

واعلم أن الناثر في ذلك أكثر ملامة من الناظم، وأعظم عيبا، وذلك أن الناظم يحتاج إلي إقامة ميزان الشعر، ويكون مجال الكلام عليه ضيقًا في بعض الأوقات، فيلجئه طلب الوزن إلي إلقاء نفسه في مثل هذه المقابح، وأما الناثر فإنه لا يحتاج إلي إقامة الميزان الشعري لكلامه، فلأجل ذلك يتسع عليه مجال التأليف، وينطلق عنانه فيه كيف يشاء؛ ولهذا إذا اعترض في كلامه اعتراضًا يفسده توجه عليه الإنكار، وحق عليه العتب والملام أكثر مما يتوجه على الناظم.

---

(١) الزمر: ٦٥.

(٢) البقرة: ١٠٢.

(٣) البيت من الرمل، وهو لعمرو الزبيدي في مطلع إحدى قصائده، وفي الشعر و الشعراء ص(٤٠٤)، وينسب لعمرو بن معدي كرب في زهر الأكم في الأمثال والحكم ص(٢١٤٥).

النوع الرابع في الإيجاز

وهو حذف زيادات الكلام

هذا نوع من التأليف شريف لا يكاد يلجه إلا فرسان البلاغة ومن ضرب فيها بالقدح المعلّى، وذلك لعلو مترلته، وبعد مناله، والدليل على ذلك أنه أقل أنواع التأليف استعمالاً بين أرباب هذه الصناعة.

واعلم أن العرب اعتنوا بهذا الضرب من الكلام اعتناءً زائدًا، ومما يدلنا على إيثار القوم قوة إيجازهم وحذف فواصل كلامهم ما جاءوا به من الأسماء المستفهم بها والأسماء المشروط بها، فإنهم استغنوا بالحرف الواحد عن الكلام الكثير، المتناهي في الطول، فمن ذلك قولهم "كم مالك" ألا ترى أنه قد أغناك هذا عن قولك "أعشرة مالك أم عشرون أم ثلاثون أم مائة أم ألف؟" فلو ذهبت تستوعب الأعداد لم تبلغ إلى ذلك أبدًا، لأنه غير متناه، فلما قلت "كم" أغنتك هذه اللفظة الواحدة عن تلك الألفاظ التي لا يحاط بها، وكذلك قولك "أين مترلك" فإن لفظة "أين" تغنيك عن ذكر الأماكن كلها وكذلك "من عندك" فقد أغنتك هذه اللفظة عن ذكر الناس كلهم. وأما الشرط ففي قولهم: "من يقم أقم معه" كفاية عن ذكر جميع الناس أيضًا، ولولا ذلك لاحتجت أن تقول "إن يقم زيد أو عمرو أو جعفر أو نحو ذلك" ثم تقف حسيرا مبهورًا، ولم تجد إلى غرضك سبيلا، وكذلك بقية أسماء العموم في غير الإيجاب نحو "أحد وديّار وغيرهما" فإذا قلت "هل عندك أحد" أغناك ذلك عن أن تقول "هل عندك زيد أو عمرو أو جعفر" فتطيل ثم تقصر إقصار الكليل المنقطع. وهذا وغيره أظهر أمرًا وأبدى صفحة وعنوانا، فجميع ما ذكرناه هاهنا شاهد بانصباب همم القوم إلى اختصار كلامهم وإيجاز لغتهم.

واعلم أن جماعة من أرباب هذه الصناعة أجمعوا على أن الكلام ينقسم قسمين: فمنه ما يحسن فيه التطويل كالخطب والتقليدات السلطانية، وكتب الفتوح التي تقرأ في ملأ من عوام الناس؛ فإن الكلام إذا طال في مثل ذلك أثر عندهم وأفهمهم، ولو اقتصر فيه على الإيجاز والإشارة لم يقع لأكثرهم حتى يقال في ذكر الحرب "تطاعن

الفريقان وتقاتلا، واشتد المصاع وحمي القراع" وما جرى هذا المجرى، والمذهب الفصل في هذا الباب ما أذكره لك وهو أن فهم العامة من الناس ليس شرطًا معتبرًا في اختياره، لأن ذلك لو كان شرطًا لوجب قياسه أن يستعمل في الكلام الألفاظ العامية المبتذلة عندهم، التي قد تداولوها بينهم حتى يكون ذلك أقرب إلى فهمهم وأسهل مأخذًا ومتناولها، لأن العلة في اختيار تطويل الكلام؛ إذا كان فهم العامة له ومعرفتهم به، فكذلك نجعل نحن تلك العلة بعينها في اختيار المبتذل في الكلام، لأنه لا خلاف في أن العامة إلى فهمه أقرب من فهم ما يقل ابتذالهم له، وتداولهم إياه، وهذا شيء مدفوع لا يجوز استعماله ألبتة. وإنما الذي يجب على مؤلف الكلام اعتماده هو أن يسلك المذهب القويم، ويجهد أن لا تزيد ألفاظه على معانيه مع الإيضاح[1] لها والإبانة عنها، فإنه إذا فعل ذلك خرج من عهدة الملامة، وليسَ عليه أن يفهم العامة كلامه فإن نور الشمس إذا لم يره الأعمى لا يكون ذلك نقصًا في استنارته، وإنما النقص في بصر الأعمى حيث لا يستطيع النظر إليه قال الشاعر:

عليّ نحتُ المعاني من معادنها ... وما عليَّ بألاَّ تفهمَ البقرُ[2]

وحيث انتهى بنا القول إلى هذا الموضع، فلنرجع إلى ما هو غرضنا ومهمنا، من الكلام على الإيجاز وحدّه وأقسامه. ولنوضح ذلك إيضاحًا جليًّا، فنقول: اعلم أن حد الإيجاز هو دلالة اللفظ على المعنى من أقرب طرقه، وهو ينقسم قسمين: أحدهما الإيجاز بالحذف وهو ما يحذف منه المفرد والجملة لدلالة فحوى الكلام على المحذوف، ولا يكون إلا مما زاد معناه على لفظه. وأما القسم الآخر فهو ما لا يحذف منه شيء، بل

---

(١) في نسخة: الاتضاح، والتصحيح من المثل السائر ص(٨٦٠).

(٢) البيت من البسيط، وهو للبحتري في ديوانه من قصيدة يمدح بها عليًّا الأرمني مطلعها:

في الشيب زجر له لو كان يترجر ... وواعظ منه لولا أنه حجر

وفي الزهرة ص(١٠٧٧)، والموازنة بين أبي تمام والبحتري ص(٤٢٦)، ويروى "القوافي" بدلاً من "المعاني"، و"إذا لم" بدلاً من "بأن لا"، ويروى "مقاطعها" بدلاً من "معادنها".

يترك على حالة، وهو ضربان: أحدهما ما ساوى لفظه معناه ويسمى التقدير، والآخر ما زاد معناه على لفظه، ويسمى القصر، فأما القسم الأول، وهو الإيجاز بالحذف[1]، وذلك باب دقيق المسلك، لطيف المأخذ، عجيب الأمر، شبيه بالسحر، فإنك ترى فيه ترك الذكر أفصح من الذكر والصمت عن الإفادة أزيد للإفادة، وتجدك أنطق ما تكون إذا لم تنطق، وأتم ما تكون مبينًا إذا لم تُبن، وهذه جملة تنكرها حتى تخبر، وتدفعها حتى تنظر[2]، وهذا القسم يشتمل على أربعة عشر بابًا: الأول الاكتفاء بالسبب عن المسبب، وبالمسبب عن السبّب وهو ضرب من الكلام، تتكاثر محاسنه وتتزايد لطائفه فأما الاكتفاء بالسبب عن المسبب فكقوله تعالى: ﴿**وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَى مُوسَى الْأَمْرَ وَمَا كُنْتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ** (٤٤) **وَلَكِنَّا أَنْشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ**﴾[3]. كأنه قال "وما كنت شاهدًا لموسى وما جرى له وعليه، ولكننا أوحيناه إليك" فذكر سبب الوحي على عادة اختصارات القرآن الكريم، لأن تقدير الكلام "ولكننا أنشأنا بعد الوحي فاندرست العلوم، فوجب إرسالك إليهم، فأرسلناك وعرفناك العلم بقصص الأنبياء، وقصة موسي عليه السلام".

وأما الاكتفاء بالمسبب عن السبب فكقوله تعالى: ﴿**فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ**﴾[4]. تأويله، والله أعلم، إذا أردت قراءة القرآن فاكتف بالمسبب الذي هو "القراءة" عن السبب الذي هو "الإرادة" وهذا أولى من تأوَّل من

---

(١) الأصل في المحذوفات جميعها على اختلاف ضروبها أن يكون في الكلام ما يدل على المحذوف، فإن لم يكن هناك دليل على المحذوف؛ فإنه لغو من الحديث لا يجوز بوجه، ولا سبب، ومن شرط المحذوف في حكم البلاغة أنه متى أظهر صار الكلام إلى شيء غث لا يناسب ما كان عليه أولاً من الطلاوة والحسن [المثل السائر ص(٩٢٨)].

(٢) انظر: دلائل الإعجاز ص(٢١٠).

(٣) القصص: ٤٤، ٤٥.

(٤) النحل: ٩٨.

ذهب إلى أنه أراد "فإذا تعوذت فاقرأ" لأن في ذلك قلبًا لا ضرورة بك إليه. وأيضًا فإنه ليس كل مستعيذ بالله واجبة عليه القراءة؛ ومن ذلك قوله تعالى: ﴿**فَقُلْنَا اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْفَجَرَتْ مِنْهُ**﴾[1]. فاكتفي بالمسبب الذي هو "الانفجار" عن السبب الذي هو "الضرب"، وكذلك قوله تعالى: ﴿**إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ**﴾[2] أي إذا أردتم القيام إليها. واعلم أنه قد ورد في القرآن الكريم ما هو سببٌ وهو بعينه مسبب، كقوله تعالى: ﴿**فَلا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَنْ لا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَى**﴾[3] ألا ترى أن العبارة لنهي من لا يؤمن عن صدّ موسى، والمقصود نهي موسى عن متابعة الصّاد له عن التصديق بالبعث، فقد صلحت العبارة إذا لأداء هذين المعنيين، وذلك أن صد الكفار عن التصديق بالبعث، سبب التكذيب، فذكر السبب ليدل به على المسبب وكأنه قال "لا تكذب بالبعث" وأيضًا فإن صد الكفار مسبب عن رخاوة الرجل في الدين، ولين شكيمته، فذكر المسبب ليدل به عن السبب كأنه قال "كن شديد الشكيمة ولا تكن رخوًا حتى لا يلوح منك لمن يكفر بالبعث أن يطمع في صدك عما أنت عليه".

وهذا كقولهم "لا أرَيَنَّك هَهنا" المراد نهيه عن مشاهدته والكون بحضرته، وذلك سبب رؤيته إياه، فكان ذكر المسبب دليلاً على السبب، وهذا من أظرف ما يرد في بابه، فاعرفه.

---

(١) البقرة: ٦٠.

(٢) المائدة: ٦.

(٣) طه: ١٦.

الضرب الثاني من القسم الأول

من النوع الرابع

وهو الإضمار على شريطة التفسير(١)

وذلك حذف الجملة من الكلام إذا كان ما بعدها يدل عليها وفيها من دقيق الصفة، وجليل الفائدة، ما لا خفاء به، فمما جاء منه قوله تعالى: ﴿أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلإِسْلامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ أُولَئِكَ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ﴾(٢). تقدير الآية "أفمن شرح الله صدره للإسلام كمن أقسى قلبه" ويدل على المحذوف قوله ﴿فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ﴾ ومن ذلك قوله تعالى: ﴿لا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُولَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدُ وَقَاتَلُوا﴾(٣). تقديره "لا يستوي من أنفق من قبل الفتح ومن أنفق من بعده" ويدل على المحذوف ﴿أُولَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدُ وَقَاتَلُوا﴾. ومن هذا الضرب حذف العلل كقوله تعالى حكاية عن مريم عليها السلام: ﴿قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا (٢٠) قَالَ كَذَلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَقْضِيًّا﴾(٤). "ولنجعله" تعليل معلّله محذوف أي: وإنما فعلنا ذلك لنجعله آية للناس، ونبين به أثر قدرتنا الباهرة. ومن الإضمار على شريطة التفسير حذف المفعول الوارد بعد المشيئة والإرادة كقوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ﴾(٥). فمفعول شاء هاهنا محذوف

---

(١) هو أن يحذف من صدر الكلام ما يؤتى به في آخره فيكون الآخر دليلاً على الأول [المثل السائر ص(٩٣٩)].

(٢) الزمر: ٢٢.

(٣) الحديد: ١٠.

(٤) مريم: ٢٠، ٢١.

(٥) البقرة: ٢٠.

وتقديره: ولو شاء الله أن يذهب بسمعهم وأبصارهم لذهب بها، وعلى نحو من ذلك جاء قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى﴾[1] الآية. ومن هذا الضرب قول البحتري:

لو شِئْتَ لم تُفْسِدْ سَمَاحةَ حَاتِمٍ كَرَمًا ولم تَهْدِمْ مَآثِرَ خَالِدِ[2]

فالأصل في ذلك "لو شئت أن لا تفسد سماحة حاتم لم تفسدها" فحذف ذلك من الأول استغناء بدلالته عليه في الثاني، فإن الواجب في حكم البلاغة أن لا تنطق بالمحذوف، ولا تظهره إلي اللفظ، ولو أظهرته لصرت إلى كلام غث ومجيء المشيئة بعد لو وبعد حروف الجزاء هكذا. موقوفة غير معداة إلى شيء،كثير شائع بين البلغاء، ولقد تكاثر هذا الحذف في "شاء وأراد" حتى إنهم لا يكادون يبرزون المفعول إلا في الشيء المستغرب نحو قوله تعالى: ﴿لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا لَاصْطَفَى مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾[3] الآية. وعلى هذا الأسلوب جاء قول الشاعر:

ولو شئتُ أَنْ أَبْكِي دَمًا لبكيتُهُ عَلَيهِ ولكنْ ساحةَ الصَّبْرِ أَوْسَعُ[4]

فلو كان على حد قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى﴾[5].

لوجب أن يقول: لو شئت لبكيت دمًا، ولكن ساحة الصبر أوسع، ولكنه ترك تلك الطريقة، وعدل عنها إلى هذه، لأنه أليق في هذا الكلام خصوصًا وسبب حسنه أنه كان بدعًا عجيبا، أن يشاء الإنسان أن يبكي دمًا، فلما كان مفعول المشيئة أمرًا عظيمًا، وبدعًا غريبًا كان الأحسن أن يذكر ولا يضمر فاعرف ذلك.

---

(١) الأنعام: ٣٥.

(٢) البيت من الكامل وهو في ديوانه، وفي دلائل الإعجاز- (١٦٣)، وفي الإيضاح- (١٠٩).

(٣) الزمر: ٤.

(٤) البيت من الطويل، وهو للخريمي أبو يعقوب إسحاق بن حسان، وهو في الإيضاح- (١٠٩)، وأورده محمد بن علي الجرجاني في الإشارات- (٨٢).

(٥) الأنعام: ٣٥.

الضرب الثالث من القسم الأول

من النوع الرابع وهو حذف الفعل وجوابه

فأما حذف الفعل[1]؛ فكقوله تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا الإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ﴾ حتى ﴿وَإِنْ جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلا تُطِعْهُمَا﴾[2]. ومن هذا الباب قوله تعالى: ﴿وَقَضَى رَبُّكَ أَلا تَعْبُدُوا إِلا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾[3]. وكذلك قوله عزّ اسمه: ﴿وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِنْ قَبْلُ يَا قَوْمِ إِنَّمَا فُتِنْتُمْ بِهِ﴾ إلى قوله ﴿وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي﴾[4]. ألا ترى كيف حذف الفعل في هذا الموضع مكررًا فإن تقديره: فلما رجع موسى إليهم، ورآهم على تلك الحالة من عبادة العجل، قال لأخيه: ﴿يَا هَارُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا﴾[5]. وأخذ بلحيته ورأسه، إنكارًا عليه وغضبًا. قال له هارون: ﴿يَا ابْنَ أُمَّ لا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلا بِرَأْسِي﴾ الآية.

ومن هذا الضرب إيقاع الفعل على شيئين، وهو لأحدهما، كقوله تعالى: ﴿فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ﴾[6]. فأوقع الفعل من "أجمعوا" على "أمركم" و"شركاءكم"، وهو "لأمركم وحده. وإنما المراد: أجمعوا أمركم، وادعوا شركاءكم؛ لأن معنى "أجمعوا": من أجمعَ الأمرَ، إذا نواه وعزم عليه. وقد قرأ أُبيّ ﴿فاجمعوا أمركم

---

(١) قال ابن الأثير: "اعلم أن حذف الفعل ينقسم إلى قسمين: أحدهما يظهر بدلالة المفعول عليه، كقولهم في المثل: "أهلك والليل"، فنصب "أهلك والليل" يدل على محذوف ناصب، تقديره: "الحق أهلك وبادر الليل".. أما القسم الآخر؛ فإنه لا يظهر فيه قسم الفعل؛ لأنه لا يكون هناك منصوب يدل عليه، وإنما يظهر بالنظر إلى ملاءمة الكلام" [المثل السائر ص(٩٥٧)].

(٢) العنكبوت: ٨.

(٣) الإسراء: ٢٣.

(٤) طه: ٩٤.

(٥) طه: ٩٢.

(٦) يونس: ٧١.

وادعوا شركاءكم﴾[1] وهذا دليل على ما أشرنا إليه، وكذلك هو مثبت في مصحف عبد الله بن مسعود، فاعرف ذلك.

ومن حذف الفعل بابُ يسمى: "إقامة المصدر مقام الفعل".

وهو باب لطيف المأخذ، وإنما يفعل ذلك لضرب من المبالغة والتوكيد؛ كقوله تعالى: ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ﴾[2]. قوله : فضرب الرقاب" وأصله: فاضربوا الأعناق ضربًا؛ فحذف الفعل، وأقيم المصدر مقامه، وفي ذلك اختصار مع إعطاء معنى التوكيد المصدري، فاعرفه.

وأما حذف جواب الفعل، فإنه يكون في الأمر كقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَا مَعَهُ أَخَاهُ هَارُونَ وَزِيرًا﴾[3] إلى قوله: ﴿... تَدْمِيرًا﴾. ألا ترى كيف حذف جواب الأمر في هذه الآية؛ فإن تقديره: فقلنا: اذهبا إلى القوم الذين كذّبوا بآياتنا، فذهبا إليهم فكذبوهما فدمرناهم تدميرًا. فذكر حاشيتي القصة؛ أولها وآخرها، لأنهما المقصود من القصة بطولها، يعني إلزام الحجة ببعثة الرسل، واستحقاق التدمير بتكذيبهم. ومن ذلك أيضًا قوله تعالى: ﴿قَالُوا يَا أَبَانَا مَا لَكَ لا تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ﴾[4] إلى قوله: ﴿... وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ﴾ اعلم أنّ في جواب الأمر من هذا الكلام محذوفًا تقديره "فأرسله معهم" ويدلنا على ذلك ما جاء به بعده من قوله تعالى:

---

(١) ذكرها عبدالرحمن بن محمد الثعالبي في الجواهر الحسان في تفسير القرآن، ط الأعلمي للمطبوعات، بيروت، (١٨٦/٢).

(٢) محمد: ٤٧.

(٣) الفرقان: ٣٥.

(٤) يوسف: ١١.

[﴿فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ﴾. كما حذف أيضًا في قوله ﷻ][1]: ﴿وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ﴾[2] إلى قوله: ﴿... بَقَرَاتٍ سِمَانٍ﴾ الآية.

فجواب الأمر في هذا الموضع محذوف وتقديره: "فأرسلوه إلى يوسف فأتاه فقال له: ﴿يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ﴾[3]. وكذلك قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ﴾[4] إلى قوله: ﴿كَيْدَ الْخَائِنِينَ﴾ ففي هذا الكلام حذف واختصار استغني عنه بدلالة الحال عليه، وتقديره: "فرجع الرسول إلى الملك برسالة يوسف، فدعا الملك بالنسوة وقال لهن ما خطبكن..".

فانظر أيها المتأمل إلى هذه المحذوفات، التي كأنها لم تحذف من هذا الكلام لظهور معناها وبيانه، ودلالة الحال عليه. وعلى نحو من ذلك ينبغي أن تكون الحذوف فاعرفها.

(١) زيادة من المثل السائر ص(٩٦١).

(٢) يوسف: ٤٥.

(٣) يوسف: ٤٦.

(٤) يوسف: ٥٠.

الضرب الخامس من القسم الأول

من النوع الرابع

وهو حذف المضاف والمضاف إليه وإقامة كلّ منهما مقام الآخر

وذلك باب طويل عريض سائغ في كلام العرب، وإن كان أبو الحسن الأخفش لا يرى القياس عليه، فأمّا حذف المضاف فكقوله تعالى: ﴿حَتَّى إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ...﴾[(1)]. وهو سدهما، كما حذف المضاف إلى القرية في قوله تعالى: ﴿وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ﴾[(2)] أي: أهل القرية. ومن هذا الضرب قوله تعالى: ﴿وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَى﴾[(3)] أي بر من أتقي وإن شئت كان تقديره "ولكن ذا البر من اتقي" والأول أجود؛ لأن حذف المضاف ضرب من الاتساع، والخبر أولى بذلك من المبتدأ، لأن الاتساع بحذف الأعجاز أولى منه بحذف الصدور. وقد حذف المضاف مكررًا نحو قوله تعالى: ﴿فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِنْ أَثَرِ الرَّسُولِ﴾[(4)]. أي من أثر حافر فرس الرسول. وهذا الضرب أكثر اتساعًا من غيره.

وأما حذف المضاف إليه، [فإنه قليل الاستعمال؛ فمما جاء منه قوله تعالى][(5)]: ﴿لِلَّهِ الأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ﴾[(6)]. أي من قبل ذلك ومن بعده[(7)].

---

(1) الأنبياء: ٩٦.

(2) يوسف: ٨٢.

(3) البقرة: ١٨٩.

(٤) طه: ٩٦.

(٥) الزيادة من المثل السائر ص(٩٦٩).

(٦) الروم: ٤.

(٧) قال ابن الأثير: "وربما أدخل في هذا الموضع ما ليس منه، كقوله تعالى: "ولو يؤاخذ الله الناس بما كسبوا ما ترك على ظهرها من دابة" قيل: أراد ظهر الأرض، فحذف المضاف إليه وليس كذلك، فإن الهاء والألف قائمة مقام الأرض، ألا ترى أن قوله: "ظهرها" يريد الأرض؛ لأنه ضمير راجع إليها" [المثل السائر ص(٩٧٠)].

الضرب السادس من القسم الأول

من النوع الرابع

وهو حذف الموصوف والصفة وإقامة كلٍ منهما مقام الآخر

وأكثر ذلك يجيء في الشعر، وإنما كانت كثرته في الشعر دون الكلام المنثور؛ لأنَّ القياس يكاد يحظره؛ وذلك لأن الصفة تأتي في الكلام على ضربين: إما للتأكيد والتخصيص وإما للمدح والذم، وكلاهما من مقاماتِ الإسهاب والتطويل، لا من مقامات الإيجاز والاختصار. وإذ كان الأمر كذلك لم يَلِقِ الحذف به. هذا مع ما ينضافُ إلى ذلك من الالتباس وضدِّ البيان، ألا ترى أنك إذا قلتَ: "مررت بطويل" لم يَبِن من مظاهر هذا اللفظ المرور به، إنسان هو أم رمحٌ أَم ثوبٌ أَم غير ذلك. وإذا كان الأمر كذلك فحذف الموصوف إنما هو شيء قام الدليلُ عليه أو شهدتْ به الحال. وكلما استبهم الموصوف كان حذفه غير لائق.

ومما يؤكد عندك ضعف حذف الموصوف أنك تجد[1] من الصفات ما لا يمكن حذف موصوفه؛ وذلك أن تكون الصفة جملةً نحو: "مررت برجل قام أبوه، ولقيت [غلاما][2] وجهُهُ حسنٌ" ألا تراك لو قلت: مررت بقام أبوه ولقيت وجهه حسن لم يجزْ.

واعلم أنه قد أقيمت الصفة الشبيهة بالجملة مقام الموصوف المبتدأ في قوله تعالى: ﴿**وَأَنَّا مِنَّا الصَّالِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَلِكَ**﴾[3]. [أي قوم دون ذلك][4] فأما حذف الصفة وإقامة الموصوف مقامها فإنه لا يكون إلا فيما دلت الحال عليه، فمن ذلك ما حكاه صاحب "الكتاب"[5] من قولهم: "سير عليه ليلٌ" وهم يريدون: ليلٌ طويلٌ وإنما

---

(١) في نسخة: تحذف، والتصحيح من المثل السائر ص(٩٧٣).

(٢) زيادة من المثل السائر ص(٩٧٣).

(٣) الجن: ١١.

(٤) زيادة من المثل السائر ص(٩٧٥).

(٥) يقصد سيبويه.

حذفت الصفة في هذا الموضوع لما دلّ من الحال على موضعها، وذلك أنه يحسن في كلام القائل لذلك من التصريح والتلويح والتفخيم والتعظيم بما يقوم مقام قوله: "طويلٌ" أو نحو ذلك. وأنت تحس هذا من نفسك إذا تأملته ؛ وهو أن يكون في مدح إنسان والثناء عليه [فنقول: كان][1] واللهِ رجلاً" فتزيد في قوة اللفظ بـ"الله" في هذه الجملة وتمكن في مَطِّ اللام وإطالة الصوت بها؛ أي: رجلاً فاضلاً، أو شجاعًا، أو كريمًا، أو ما جرى هذا المجرى من الصفات، وكذلك تقول: "سألناهُ فوجدناهُ [إنسانًا أي][2] إنسانًا سمحًا أو جوادًا أو ما أشبهه" وتمكن الصَّوت "بإنسانٍ" وتفخمه وتستغني عن وصفه بقولك: "إنسانًا سمحًا أو جوادًا أو ما أشبه" فعلى هذا أو نحوه تحذف الصفة، فأما إن عَريت من الدلالة عليها من اللفظ والحال فإن حذفها لا يجوز. ألا تراك لو قلتَ: "ورَدَنا البصرة فاجتزنا بالأُبلة[3] على رجل، أو "رأينا إنسانًا" ثم سكت لم يفد ذلك شيئًا؛ لأن هذا ونحوه مما لا يخلو ذلك المكان منه، وإنما المقصود أن تصف من ذكرت وما ذكرت، فإن لم تفعل فقد كلّفت عِلمَ ما لم تَدلُلْ عليه، وهذا لغوٌ من الحديث وجورٌ في التكليف.

---

(١) زيادة من المثل السائر ص(٩٧٥).

(٢) زيادة من المثل السائر ص(٩٧٥).

(٣) الأبلة: بضم أوله وثانيه وتشديد اللام وفتحها، هي بلدة كانت على شاطئ دجلة قريبة من البصرة، وهي أقدم منها. قال الأصمعي: جنات الدنيا ثلاث: غُوطة دمشق، ونهر بَلْخ، ونهر الأُبلة، وحشوش الدنيا خمسة: الأبلة، وسيراف، وعُمان، وأردبيل، وهيت، وقد نسب إليها جماعة من رواة العلم منهم شيبان بن فرّوخ الأُبلي وغيره [أبو عبدالله ياقوت الحموي، معجم البلدان، تحقيق: فريد عبدالعزيز الجندي، ط. دار الكتب العلمية – بيروت – لبنان (١/٩٩، ١٠٠)].

ومن حذف الصفة ما رُوي في الحديث عن النبي ﷺ: "لا صلاة لجار المسجد إلاَّ في المسجد"[1] أي: لا صلاةً كاملةٌ أو فاضلة أو نحو ذلك، فاعرف ما أشرنا إليه وتدبره فإنه ضرب من الكلام رقيق وغورٌ من العربية سحيق.

(١) أخرجه الدارقطني ص(١٦١)، والحاكم (١/٢٤٦)، والبيهقي (٣/٥٧)، وضعفه الشيخ الألباني في "الضعيفة" (١٨٣).

obeikandl.com

الضرب السابع من القسم الأول من النوع الرابع

وهو حذف الشرط وجوابه

فأمّا حذف الشرط فنحو قوله تعالى: ﴿يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ﴾[1]. ألا ترى أن الفاء في قوله: ﴿فَاعْبُدُونِ﴾ جواب شرط محذوف؛ لأن المعنى: إن أرضي واسعة، فإن لم تخلصوا لي العبادة في أرضي فأخلصوها في غيرها، ثم حذف الشرط، وعوّض من حذفه تقديم المفعول مع إفادة تقديمه معنى الاختصاص والإخلاص.

ومن هذا الضرب قوله تعالى: ﴿فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِنْ رَأْسِهِ فَفِدْيَةٌ﴾[2]. أي فحَلَقَ فعليه فدية، وكذلك قولهم: "الناس مجزيون بأعمالهم إن خيرًا فخيرًا، وإن شرًّا فشرًّا" أي: إن[3] فعل المرء خيرًا جزي خيرًا، وإن فعل شرا جزي شرا.

ومن حذف الشرط قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ كَذَلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ ﴿٥٥﴾ وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ فَهَذَا يَوْمُ الْبَعْثِ وَلَكِنَّكُمْ كُنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ﴾[4]. اعلم أن هذه الفاء في قوله تعالى ﴿فَهَذَا يَوْمُ الْبَعْثِ﴾ هي الفاء التي في قول الشاعر:

.... فقد جِئْنَا خُرَاسَانَا[5].

---

(١) العنكبوت: ٥٦.

(٢) البقرة: ١٩٦.

(٣) زيادة من المثل السائر: ص(٩٧٨).

(٤) الروم: ٥٥- ٥٦.

(٥) جزء بيت من البسيط، وهو للعباس بن الأحنف في ديوانه- (٩٠)، وفي دلائل الإعجاز (٩٠)، والأغاني (٥٥٣٧/٨) ويروى البيت بتمامه:

قالوا خراسان أقصى ما يراد بنا   ثم القفول فقد جئنا خراسانا

وحقيقتها أن جواب شرط محذوف يدل عليه الكلام، كأنه قال: "إن صح ما قلتم أن خراسان أقصى ما يراد بنا، فقد جئنا خراسانَ وآن لنا أن نخلص" وكذلك هذه الآية يقول تعالى: "إن كنتم منكرين البعث فهذا يوم البعث" أي قد تبيّن بطلان قولكم. وأمثال ذلك كثيرة، فاعرفه.

وأما حذف جواب الشرط، كقوله تعالى: ﴿**قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَكَفَرْتُمْ بِهِ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى مِثْلِهِ**﴾[1]. إلي قوله: ﴿... **الظَّالِمِينَ**﴾. فإن جواب الشرط هَهنا محذوف تقديره: إن كان القرآن من عند الله وكفرتم به، ألستم ظالمين، ويدل على هذا المحذوف قوله تعالى: ﴿**إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ**﴾ وأمثال هذا كثيرة، وهو ضرب من علم البيان، تتوفر لطائفه، فاعرفه.

(١) الأحقاف: ١٠.

الضرب الثامن من القسم الأول من النوع الرابع

في حذف القسم وجوابه

وأما حذف القسم، فنحو قولك: "لأفعلَنَّ" أو غير ذلك من الأقسام المحلوف بها. وأما حذف جوابه فكقوله تعالى: ﴿وَالْفَجْرِ (١) وَلَيَالٍ عَشْرٍ﴾(١). إلى قوله: ﴿... مِثْلُهَا فِي الْبِلادِ﴾. فإن جواب القسم هَهنا محذوف، تقديره: لنعذّبن، أو نحوه. ويدل على ذلك ما بعده من قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ﴾(٢). إلى قوله: ﴿سَوْطَ عَذَابٍ﴾. ومن هذا النحو قوله تعالى: ﴿ق وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ﴾(٣). إلى قوله: ﴿عَجِيبٌ﴾. فإن معناه: والقرآن المجيد لَتُبْعَثُنَّ، والشاهد على ذلك ما جاء، من ذكر البعث في قوله: ﴿أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ﴾(٤). وقد ورد هذا الجنس في القرآن كثيرًا(٥).

---

(١) الفجر: ١-٢.

(٢) الفجر: ٦.

(٣) ق: ١.

(٤) ق: ٣.

(٥) انظر: المثل السائر ص(٩٨١).

الضرب التاسع من القسم الأول من النوع الرابع

في حذف "لو" وجوابها

وهو من ألطف ضروب الإيجاز وأحسنها، فأما حذف "لو" فكقوله تعالى: ﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذًا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾[١]. وأما حذف جوابها فكقوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ فَزِعُوا فَلَا فَوْتَ وَأُخِذُوا مِنْ مَكَانٍ قَرِيبٍ﴾[٢]. فإن جواب "لو" ههنا محذوف وتقديره "لرأيت[٣] أمرًا عظيمًا، وحالاً هائلة" أو غير ذلك مما جرى هذا المجرى.

ومن هذا الجنس قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ(٣٨) لَوْ يَعْلَمُ﴾ إلى قوله: ﴿وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ﴾[٤]. تقديره: لو يعلمون الوقت الذي يستعجلونه؛ وهو وقت صعب، شديد، محيط بهم، فيه النار من وراءٍ وقدامُ، فلا يقدرون على دفعها عن أنفسهم، ولا يجدون ناصرًا ينصرهم، لما كانوا بتلك الصفة، من الكفر والاستهزاءِ والاستعجال، ولكن جهلهم هو الذي هوّنه عليهم.

ومن ذلك أيضًا قوله تعالى: ﴿لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾[٥]. فجواب "لو" في هذا الموضع محذوف، كما حذف في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ﴾[٦]. أي لو أن لي بكم قوة لدفعتكم أو منعتكم، أو ما أشبهه. وكذلك قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ﴾ أي: لكان هذا القرآن.

---

(١) المؤمنون: ٩١.

(٢) سبأ: ٥١.

(٣) في نسخة: لو رأيت، والتصحيح من المثل السائر ص(٩٨٣).

(٤) الأنبياء: ٣٨-٣٩.

(٥) هود: ٨٠.

(٦) الرعد: ٣١.

obeikandi.com

الضرب العاشر من القسم الأول من النوع الرابع

في حذف جواب "لمّا"، وجواب "أمّا"، وجواب "إذا"

فأما جواب "لما" فكقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ (١٠٣) وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ (١٠٤) قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾(١). فإن جواب "لما" هَهنا محذوف وتقديره "فلما أسلما وتلّه للجبين وناديناه أن يا إبراهيم قد صدَّقت الرؤيا كان ما كان مما تنطق به الحال، ولا يحيط به الوصف، من استبشارهما واغتباطهما، وشكرهما على ما أنعم به عليهما، من دفع البلاء العظيم، بعد حلوله، وما أشبه ذلك مما اكتسباه بهذه المحنة، من عظائم الوصف، دنيا وآخرة. وقوله: ﴿إنّا كذلك نجزي المحسنين﴾. تعليل ما خوّلهما من الفرح والسرور بعد تلك الشدة العظيمة.

وأما حذف جواب "أمّا" فنحو قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾(٢).

وأما حذف جواب "إذا" فمثاله قوله تعالى : ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (٤٥) وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾(٣). ألا ترى كيف حذف الجواب عن "إذا" من الكلام، وهو مدلول عليه بقوله تعالى: ﴿إِلا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾. كأنه قال: "إذا قيل لهم اتقوا ما بين أيديكم وما خلفكم لعلكم تُرحمون". ثم قال: ودأبهم الإعراض عن كل آية وموعظة.

---

(١) الصافات: ١٠٣-١٠٥.

(٢) آل عمران: ١٠٦.

(٣) يس: ٤٥، ٤٦.

الضرب الحادي عشر من القسم الأول من النوع الرابع

في حذف "لا" من الكلام وهي مرادة

وذلك كقوله تعالى : ﴿قَالُوا تَاللَّهِ تفْتَأُ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّى تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ﴾[1] فقوله: ﴿تَفْتَأُ﴾ يريد: لا تفتأ، فحذف: "لا" من الكلام، وهي مرادة. والمعنى: تالله لا تزال تذكر يوسف.

ومن هذا الضرب قول امرئ القيس:

فقلتُ يَمينُ اللهِ أَبْرَحُ قَاعِدًا ولو قَطَعُوا رَأْسِي لَدَيْكِ وأَوْصَالِي[2]

تقديره: لا أبرح قاعدا، فحذفت : "لا" من هذا الموضع، وهي مرادة، وقس عليه.

---

(١) يوسف: ٨٥.

(٢) البيت من الطويل في ديوانه- (١٢٥)، وخزانة الأدب- (٩/٢٣٨، ٢٣٩)، (١٠/٤٣-٤٥)، والخصائص- (٢/٢٨٤)، والدرر- (٤/٢١٢)، وشرح أبيات سيبويه- (٢/٢٢٠)، وبلا نسبة في أوضح المسالك- (١/٢٣٢)، وخزانة الأدب- (١٠/٩٣-٩٤)، وشرح الأشموني- (١/١١٠)، ومغني اللبيب- (٢/٦٣٧).

obeikandl.com

الضرب الثاني عشر من القسم الأول من النوع الرابع
في الاستئناف

وهو حذف السؤال المقدور؛ وذلك ضرب من التأليف لطيف الأمر، عجيب المغزى، ولا تجد بابًا من أبواب الحذوف أحسن مأخذا منه، ولا أظرف خبرًا[1]، وهو ينقسم قسمين:

الأول: إعادة الأسماء و الصفات.

اعلم أن هذا القسم يجيء تارة بإعادة اسم من تقدم الحديث عنه، كقولك: "أحسنت إلى زيد، زيد حقيق بالإحسان" وتارة يجيء بإعادة صفة، كقولك: أحسنت إلى زيد صديقك القديم أهل لذلك منك" وهو أحسن من الأول وأبلغ، لانطوائه على بيان الموجب للإحسان وتخصيصه، فمما جاء من هذا الباب قوله تعالى: ﴿الم (١) ذَلِكَ الْكِتَابُ لا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ﴾-إلى قوله- ﴿الْمُفْلِحُونَ﴾[2].

اعلم أنه لما قيل "هدى للمتقين" بأن الكتاب لهم هدى فاتجه للسائل أن يقول: "ما بالهم خصوا بذلك"؟ فوقع قوله: "الذين يؤمنون بالغيب" إلى سياقه كالجواب، وجيء بصفة "المتقين" المنطوية تحتها خصائصهم التي استوجبوا بها من الله -عز وجل- اللطف والاختصاص على غيرهم، أي: الذين هذه عقائدهم وأعمالهم أحقاء بأن يهديهم الله وأن يعطيهم الفلاح.

وإن جعلت قوله تعالى: "الذين يؤمنون بالغيب" إلى آخر قوله: "وبالآخرة هم يوقنون" تابعًا "للمتقين"، وقع الاستئناف على "أولئك" كأنه قيل: "وما للمتقين".

بهذه الصفات قد اختصوا بالهدى؟ فأجبت: أن أولئك الموصوفين غير مستبعد أن يفوزوا دون الناس، بالهدى عاجلاً، وبالفلاح آجلاً، فافهم ذلك وتدبر رموزه ودقائقه.

---

(١) انظر: الإيضاح ص(٢٤١).

(٢) البقرة: ١-٥.

الثاني: الاستئناف بغير إعادة الأسماء والصفات.

وذلك كقوله تعالى: ﴿وَمَا لِيَ لا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُـــونَ﴾ -إلى قوله:- ﴿الْمُكْرَمِينَ﴾[1].

اعلم أن مخرج هذا القول مخرج الاستئناف، لأن ذلك من مظان المسألة عـــن حاله عند لقاء ربه، كأن قائلاً قال له: "كيف حال هذا الرجل عند لقاء ربه بعد ذلك التصلب في دينه والتسخّي لوجهه بروحه"؟ فقيل: قيل ادخل الجنة، و لم يقل: "قيل له" لانصباب الغرض إلى القول وعظمه لا إلى القول له مع كونه معلومًا.

وكذلك قوله تعالى: ﴿يا ليتَ قومي﴾ مرتب على تقدير سؤال ســـائل عمـــا وجد.

ومن هذا القسم أيضًا قوله تعالى: ﴿وَيَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾- إلى قوله- ﴿مَعَكُمْ رَقِيبٌ﴾[2].

اعلم أن مخرج الفرق بين إثبات الفاء في "سوف" كقوله تعالى: ﴿قُلْ يَا قَـــوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ (٣٩) مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُقِيمٌ﴾[3] وبين حذف الفاء هاهنا في هذه الآية [أنّ][4] إثباتها وصل ظاهر بحرف موضوع للوصل، وحذفها وصل خفي تقديري بالاستئناف الذي هو جـــواب لسؤال مقدر، كأنهم قالوا: ماذا يكون إذا عملنا نحن على مكانتنا، وعملـــت أنـــت؟ فقال: "سوف تعلمون" فوصل تارةً بالفاء وتارة بالاستئناف، للتفنين في البلاغة علـــى عادة بلغاء العرب. وأقوى الوصلين وأبلغهما الاستئناف. وهو قسم من أقســـام علـــم البيان تتكاثر محاسنه.

---

(١) يس: ٢٢-٢٧.

(٢) هود: ٩٣.

(٣) الزمر: ٣٩-٤٠.

(٤) زيادة من المثل السائر ص(٩٣٣).

الضرب الثالث عشر من القسم الأول من النوع الرابع

في حذف الواو وإثباتها

اعلم أنَّه حذفت الواو وأثبتت في مواضع، فأما إثباتها فكقوله تعالى: [﴿وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ إِلا وَلَهَا كِتَابٌ مَعْلُومٌ﴾(١)، وأما حذفها فنحو قوله تعالى:](٢) ﴿وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ إِلا لَهَا مُنْذِرُونَ﴾(٣).

وعلى هذا فلا يجوز حذف الواو وإثباتها في كل المواضع، وإنما يجوز ذلك فيما هذا سبيله من هاتين الآيتين لا غير(٤).

ولنبين في ذلك رسمًا تتبعه فنقول: اعلم إن كل اسم نكرة جاء خبره بعد "إلا" يجوز إثبات الواو في خبره وحذفها كقولك: "ما رأيت رجلاً إلا وعليه ثياب" وإن شئت قلت: "إلا عليه ثياب"، فإن كان الذي يقع على النكرة [ناقصًا](٥) فلا يكون إلا بحذف الواو، نحو قولك "ما أظن درهمًا إلا هو "كافيك" ولا يجوز "إلا وهو كافيك" لأن الظن يحتاج إلى شيئين فلا تعرّض فيه بالواو لأنه يصير كالمكتفي من الأفعال باسم واحد، وكذلك أخوات "ظننت" وكان وإنَّ وما أشبههما" فخطأ أن تقول: "إن رجلاً

---

(١) الحجر: ٤.

(٢) زيادة من المثل السائر ص(٩٩٤)، اقتضاها السياق.

(٣) الشعراء: ٢٠٨.

(٤) قال ابن الأثير: "وأحسن حذوفها في المعطوف والمعطوف عليه، وإذا لم يذكر الحرف المعطوف به؛ كان ذلك بلاغة وإيجازًا، كقول أنس بن مالك –رضي الله عنه-: "كان أصحاب رسول الله ﷺ ينامون ويصلون ولا يتوضئون"، أو قال: "ثم يصلون لا يتوضئون"، فقوله: "لا يتوضئون" بحذف الواو أبلغ في تحقيق عدم الوضوء من قوله: "ولا يتوضئون" بإثباتها؛ كأنه جعل ذلك حالة لهم لازمة، أي: أنها داخلة في الجملة، وليست جملة خارجة عن الأولى؛ لأن واو العطف تؤذن بانفراد المعطوف عن المعطوف عليه، وإذا حذفت في مثل هذا الموضع صار المعطوف والمعطوف عليه جملة واحدة" [المثل السائر ص(٩٩٣)].

(٥) زيادة من المثل السائر ص(٩٩٥).

obeikandl.com

وهو قائم" و "أظن رجلاً وهو قائم" أو"ما كان رجلاً إلا وهو قائم"، ونحو ذاك، ويجوز هذا في "ليس" خاصة، تقول: "ليس أحد إلا وهو قائم"؛ لأن الكلام يتوهم تمامه بليس وبحرف ونكرة، ألا ترى أنك تقول "ليس أحد وما من أحد"، فجاز فيها و لم يجـز في "أظن" لأنك لا تقول: "ما أظن أحدًا". فأما "أصبح وأمسى ورأيت" فإن الواو فـيهن أسهل لأنها توام في حال، و"كان وأظن" ونحوهما بنين على النقص إلا إذا كانت تامة، وكذلك "لا" التبرئة وغيرها نحو "لا رجل، وما من رجل" فيجوز إثبات الـواو فيهـا وحذفها، فاعرف ذلك وقس عليه.

obeikandl.com

الضرب الرابع عشر من القسم الأول من النوع الرابع
في الحذف الذي يوجب الإخلال في الكلام

وذلك ما يحذف من أصل اللفظ وهو إسقاط بعض حروفه. ولا يحسن استعماله في التأليف لكنه يجوز؛ لأن العرب قد أوردته في أشعارها واستعملته في كلامها، فحذفت بعض الألفاظ استخفافًا حذفًا يخل بالباقي ويعرض له بالشبهة. ألا ترى إلى قول علقمة:

كَأَنَّ إِبْرِيقَهُمْ ظبيٌ عَلَى شَرَفٍ   مُفَدَّمٌ بِسَبَا الكَتَّانِ مَلْثُومُ[1]

فقوله: "...بسبا الكتان"[2] يريد "بسبائب الكتان" وكذلك قول لبيد:

دَرَسَ المَنَا بِمُتَالِعٍ[3] فَأَبَانَ[4]

أراد "المنازل" وعلى نحو من هذا جاء قول أبي دؤاد:

يُذْرِينَ جَنْدَلَ حَائِرٍ لِجُنُوبِها   فكأنَّما تُذْكِي سَنَابِكُها الحُبَا[5]

أراد: "الحباحب"[6].

---

(١) البيت من البسيط، وهو في ديوانه- (٧٠)، ولسان العرب- (سبب)، (برق)، وتاج العروس- (سبب)، (برق)، والشرف: العلو والمكان العالي، والفدام: خرقة تجعل على فم الإبريق.

(٢) في نسخة: (الكنانة)، والتصحيح من المثل السائر ص(٩٩٦).

(٣) متالع: اسم جبل معروف، والتلاع ما انهبط من الأرض [(تعل)، وتهذيب اللغة: (تلع)].

(٤) البيت من الكامل، وهو في ديوانه- (١٣٨)، والدرر- (٢٠٨/٦)، وسمط الآلئ- (١٣)، ولسان العرب- (تلع)، (أبن)، والمقاصد النحوية- (٢٤٦/٤)، وتاج العروس- (تلع)، وبلا نسبة في أوضح المسالك- (٤٤/٤)، وكتاب العين- (١٧٣/١)، ويروى عجزه:

فتقادمت بالحبس فالسوبان

(٥) البيت من الكامل، وهو بلا نسبة في لسان العرب- (حبحب)، وتاج العروس- (حبب).

يذرين: أذريت الشيء إذا ألقيته، جَندل: صخرة.

(٦) الحباحب: اسم رجل بخيل من بني محارب بن خصفة، كان لا يوقد إلا نارًا ضعيفة مخافة الضيفان، فضربوا بها المثل حتى قالوا: نار الحباحب، لما تقدحه الخيل بحوافرها، وقالوا: نار أبي حباحب، وهو ذباب يطير بالليل كأنه نار، وربما جعلوا الحباحب اسمًا لتلك النار [الصحاح: (حبحب)].

وهذا وأمثاله قليل جدًا فاعرفه. وإياك أيها المؤلف أن تستعمله في كلامك، وإن كان جائزًا. وقد ورد في أشعار العرب مثله.

وأما القسم الثاني من النوع الرابع فهو الإيجاز من غير حذف؛ وذلك ضربان: الأول ما يساوي لفظه معناه ويسمى التقدير؛ فمما جاء منه قوله تعالى: ﴿قُتِلَ الإِنْسَانُ مَا أَكْفَرَهُ (١٧) مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ﴾ -إلى- ﴿يَقْضِ مَا أَمَرَهُ﴾[(١)].

فقوله: "قتل الإنسان" دعاء عليه. وقوله: "ما أكفره" تعجب من إفراطه في كفران نعمة الله -عز وجل- ولا ترى أسلوبًا أغلظ من هذا الدعاء والتعجب، ولا أحسن متناولا، ولا أدل على سخط مع تقارب طرفيه، ولا أجمع للأئمة على قصر مَتْنه. ثم إنه أخذ في صفة حاله من ابتداء حدوثه إلى منتهى زمانه، فقال تعالى: ﴿مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ (١٨) مِنْ نُطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ﴾؛ أي هيأه لما يصلح له "ثم السبيل يسره" أي سهل سبيله وهو مخرجه من بطن أمه، والسبيل الذي يختار سلوكه من طريقي الخير والشر. والأول أولى؛ لأنه تال لخلقته وتقديره ثم بعد ذلك تيسيره سبيله لما يختار من طريقي الخير والشر. ﴿ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ﴾؛ أي: جعله ذا قبر يوارى فيه. ﴿ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنْشَرَهُ﴾ أي: أحياه. ﴿كَلا﴾: ردع للإنسان عما هو عليه ﴿لَمَّا يَقْضِ مَا أَمَرَهُ﴾ أي: لم يقض، مع تطاول زمانه، ما أمره الله ﷻ يعني أن إنسانا لم يخلُ من تقصير قط.

ألا ترى إلى هذا الكلام الذي لو أردت أن تحذف جزءًا من أجزائه لما قدرت على ذلك؟ لأنك كنت تذهب بجزء من معناه، ويختل عليك نظمه؛ فإن أسقطت الجملة الأولى التي هي صدر الكلام زال معنى الدعاء عليه، وإن أسقطت الجملة الثانية، زال معنى التعجب من كفران نعمة ربه.

وإن أسقطت الجملة الاستفهامية، أو غيرها زال ما تضمنته من المعنى التي لولاها لما كان، فاعرف ذلك.

---

(١) عبس: ١٧-٢٣.

obeikandl.com

ومن هذا الضرب قول علي بن جبلة:

وما لامْرئٍ حاولتَهُ عنكَ مهربٌ ... ولو حَمَلَتْهُ في السماءِ المَطَالعُ

بلى هاربٌ لا يَهتَدي لِمكانه ... ظلامٌ ولا ضوءٌ من الصُّبْحِ سَاطِعُ[1]

فهذا هو الكلام، الذي ألفاظه وفاق معانيه. فإنه قد اشتمل على مدح رجل، شمول ملكه، وعموم سلطانه، وأن لا مهرب عنه لمن يحاوله وإن صَعِد السماء، ثم ذكر جميع المهارب، في المشارق والمغارب، فأشار إلى أنه يبلغ حيث يبلغ الضياء والظلام، وذلك مما لم تزد عبارته على المعنى المندرج تحته ولا قصرت عنه.

ومن هذا النحو ما جاء في كتاب النوادر. قول بعضهم:

مَا أَقْربَ الأشياءَ حينَ يسوقُها ... قَدَرٌ وأبعَدَها إذا لم تُقْدَرِ!

فسَلِ اللبيبَ تكُنْ لبيبًا مِثْلَهُ ... مَنْ يَسْعَ في عِلْمٍ بِلُبٍّ يَمْهَرِ

وتَدبَّرِ الأمرَ الذي تُعنَى بِهِ ... لا خَيرَ في عملٍ بغيرِ تَدَبُّرِ

فلقد يَجدُّ المرءُ وهو مُقَصِّرُ ... ويخيبُ سَعْيُ المرءِ غيرَ مقصِّرِ

ذهبَ الرِّجَالُ المُقْتَدَى بفعَالهم ... والمنكِرُونَ لكلِّ أمرٍ مُنْكَرِ

وبَقِيتُ في خَلفٍ يُزيِّنُ بعضُهمْ ... بعضًا ليدْفَعَ مُعْوِرٌ عن مُعْوِرِ[2]

فهذا النمط الرضي، والكلام العلي، والمنهج القويم، والصراط المستقيم تروقك بهجته، إذا قرع سمعك، ويؤنسك إذا سكن قلْبَك، قد رقى درجات الإيجاز، إلى أن يكاد يترل بساحة الإعجاز، وأمثال ذلك كثير في كلام البلغاء، وفيما ذكرته كفاية ومقنع.

---

(١) البيتان من الطويل، وهما في ديوانه من قصيدة له مطلعها:

إذا ما تَرَدَّى لأْمَةَ الحربِ أرعَدَتْ ... حشا الأرضِ واستدمَى الرماحُ الشوارعُ

و في الحماسة البصرية ص(٨٢)، والعمدة ص(١١٠٨)، وديوان المعاني ص(١٥).

(٢) الأبيات من الكامل، وهي للحكم بن عبدل الأسدي في ديوانه من قصيدة له والبيت الأول هو مطلع القصيدة، ويروى في البيت الثاني: "الفقيه" و"فقيهًا" و"بفقه" بدلاً من "اللبيب"، و"لبيبًا" و"بلب" على الترتيب.

الضرب الثاني من القسم الثاني من النوع الرابع

فيما زاد معناه على لفظه[1]

ويسمى هذا الضرب "الإيجاز بالقصر"[2]، والقرآن الكريم ملآن من ذلك، كقوله تعالى: ﴿مَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ﴾[3] كلمة جامعة لما لا غاية وراءه ولا أمد فوقه من المضار؛ لأن من ضاره كفره فقد أحاطت به كل مضرة، وكذلك قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي﴾ -إلى قوله:- ﴿وَمَا هَدَى﴾[4] فقوله تعالى: ﴿فَغَشِيَهُمْ مِنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ﴾ من جوامع الكلم التي تستقل مع قلتها بالمعاني الكثيرة. أي غشيهم من الأمور الهائلة، والخطوب الفادحة ما لا يعلم كنهه إلا الله تعالى، ولا يحيط به غيره، وعلى نحو من ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ﴾[5] الآية، فإن هذه الآية من أجمع آية في القرآن الكريم، وقيل: إن النبي ﷺ قرأها على الوليد بن المغيرة[6] فقال له: "يا ابن أخي أعد" فأعاد النبي ﷺ قراءتها عليه، فقال له: "إن له لحلاوة، وإنَّ عليه لطلاوة وإن أعلاه لمثمر، وإن أسفله لمغدق، وما هو

---

(١) في نسخة: "فيما زاد معناه على معناه في لفظه"، والتصحيح من المثل السائر ص(٩٩٧).

(٢) قال ابن الأثير: أما الإيجاز بالقصر، فإنه ينقسم قسمين: أحدهما: ما دل لفظه على محتملات متعددة، وهذا يمكن التعبير عنه بمثل ألفاظه وفي عدتها، والآخر: ما يدل لفظه على محتملات متعددة، ولا يمكن التعبير عنه بمثل ألفاظه، وفي عدتها، لا، بل يستحيل ذلك" [المثل السائر ص(٩٩٧)].

(٣) الروم: ٤٤.

(٤) طه: ٧٧-٧٩.

(٥) النحل: ٩٠.

(٦) هو الوليد بن المغيرة المخزومي، أبو عبد شمس، من قضاة العرب في الجاهلية، ومن زعماء قريش ومن زنادقتها، يقال له العدل؛ لأنه عدل قريش كلها، وكان له عشرة من البنين، ناصب الإسلام العداء [الأعلام (١٢٢/٨)].

بقول بشر"(١). ومن هذا الضرب أيضًا قوله تعالى: ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾(٢) فإنها ثلاث كلمات تشتمل على أمر الرسالة وشرائعها وأحكامها على الاستقصاء. وأما قوله تعالى: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾(٣) فإنه قد جمع في هذه جميع مكارم الأخلاق؛ لأن في الأمر بالمعروف صلة الرحم، ومنع اللسان عن الريبة، وعن الكذب، وغضّ الطرف عن المحرمات، وغير ذلك من أشياء لا تحصى.

وفي الإعراض عن الجاهلين الصبر والحلم وغيرهما، وقد قال بعض الأعراب في الدعاء: "اللهم هب لي حقك وأرض عني خلقك"(٤). ألا ترى إلى هذه الكلمات وما حوت من المعاني الكثيرة من العفو عن الزلل، والتجاوز عن الذنب، وغير ذلك مما جرى هذا المجرى. وأما إرضاء الخلق فينطوي على أشياء طائلة لا يستغرقها الذكر.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ﴾(٥) فإنه أدخل تحت الأمن جميع المخوفات، لأنه نفى به أن يخافوا شيئًا من الفقر والموت وزوال النعمة ونزول النقمة، وأضاف ذلك من أضاف المكاره.

وسمع رسول الله ﷺ رجلاً يقول لآخر: كفاكَ الله ما أهمك، فقال: "هذه البلاغة"(٦). فاعرف ذلك.

---

(١) أخرجه الحاكم في "المستدرك" (٢/٥٥٠)، وا لبيهقي في "شعب الإيمان" (١/١٥٧)، وقال الحاكم: "صحيح الإسناد على شرط البخاري ولم يخرجاه".

(٢) الحجر: ٩٤.

(٣) الأعراف: ١٩٩.

(٤) انظر: البيان والتبيين ص(١٣٣٩)، والصناعتين ص(٣٤٢)، ومحاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء والبلغاء ص(٣٩١٠)، وبهجة المجالس ص(١٤٥٦).

(٥) الأنعام: ٨٢.

(٦) ذكره أبو هلال العسكري في "الصناعتين" ص(٣٣٢).

واعلم أنَّ الأصل المعتبر في الإيجاز بالقصر أنك تذكر شيئًا يقع على محتملات متعددة، ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿فغشيهم من اليم ما غشيهم﴾[1]، وقوله تعالى: ﴿إن الله يأمر بالعدل والإحسان...﴾[2] الآية، وقوله تعالى: ﴿فاصدع بما تؤمر﴾[3]، وقوله تعالى: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾[4]، وقوله تعالى: ﴿أولئك لهم الأمن وهم مهتدون﴾[5]. فإن هذه الآيات جميعها جارية في المنهاج الذي أشرنا إليه، من أنك تذكر شيئًا يقع على محتملات متعددة، وأمثال ذلك في القرآن الكريم كثيرة.

ومن الإيجاز بالقصر بابٌ يسمى "باب أفعل"، وهو التفضيل بين شيئين لا يشتركان في الصفة التي يفضل بها أحدهما على الآخر. فمن ذلك قوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ كَانَ فِي الضَّلَالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَنُ مَدًّا﴾ -إلى قوله:- ﴿وَخَيْرٌ مَرَدًّا﴾[6] فقوله: ﴿خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا﴾ من مفاخرات الكفار، وإنما قال: "خيرٌ ثوابا" وقد علم أن مفاخرات الكفار ليس لها ثواب حتى يجعل ثواب الصالحات خيرًا منه، لأن ذلك على طريقة قولهم:

تحيةُ بينهم ضربٌ وجيعٌ[7]

---

(١) طه: ٧٨.

(٢) الحجر: ٩٠.

(٣) الحجر: ٩٤.

(٤) آل عمران: ١٩٩.

(٥) آل عمران: ٨٢.

(٦) مريم: ٧٥-٧٦.

(٧) عجز بيت من الوافر، لعمرو بن معديكرب في ديوانه- (١٤٩)، وفي خزانة الأدب- (٢٥٢/٩، ٢٥٧، ٢٥٨، ٢٦١-٢٦٣)، وشرح أبيات سيبويه- (٢٠٠/٢).

ويروى صدره: "وخيل قد دلفت لها بخيل".

فكأنَّهُ قال: ثوابهم النار ثم بنى عليه "خيرٌ ثوابًا". وفي ذلك ضرب من التهكم الذي هو أغيظ للمتهدد من أن يقال له "عقابك النار". فإن قيل: فما وجه التفضيل في الخير بين مفاخرات الكفار وثواب الصالحين؟ قلت: هذا من أوجز كلام العرب. ومثله قولهم "الصيف أحر من الشتاء" أي أبلغ في حره من الشتاء في برده. وهذا جائز، لأن الحر لا شك تتفاوت درجاته، فيكون بعضها أشد من بعض، وكذلك البرد أيضًا، فتقول العرب: "الصيف أحرّ من الشتاء" أي إن حر الصيف في بابه أبلغ من برد الشتاء في بابه، مثال ذلك: أن حر الصيف قد بلغ أنهى درجاته، بل يكون قد بقي بينه وبين نهاية البرد دَرَجة أو درجتان، فيكون حر الصيف بالنسبة إلى أصل الحر أبلغ من برد الشتاء بالنسبة إلى أصل البرد. وهذا مثل قولهم "العسل أحلى من الخل" وليس في الخل حلاوة حتى تفضَّلَ حلاوة العسل عليها، وإنما المعنى في ذلك كالمعنى في الآية الأوّلة...وأمثال هذا كثيرة، وقد ورد في القرآن الكريم في مواضع منه، كقوله تعالى في سورة الفرقان: ﴿**وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُقَرَّنِينَ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا**﴾ -إلى قوله- ﴿**جَزَاءً وَمَصِيرًا**﴾[1] وقد علم أن جهنم ليس فيها خير حتى يجعل الجنة خيرًا منها، بل هي شر محض، وعذاب لا خير فيه.

والأصل في هذه الآية ما أشرنا إليه أولاً، فاعرفه إن شاء الله تعالى.

---

(١) الفرقان: ١٣-١٥.

النوع الخامس من الباب الأول من الفن الثاني

في الإطناب

اعلم أن هذا النوع من أنواع علم البيان، شديد الالتباس، كثير الاعتياص وذلك أنَّ جماعة من الأئمة المشهورين في هذه الصناعة قد جعلوه بمنزلة التطويل الذي هو ضد الإيجاز، وهذا غلط فاحش.

فمن جملة الأئمة الذين ذكروا ذلك، أبو هلالٍ العسكري صاحب كتاب الصناعتين، فإنه قال في كتابه: "الإطناب في الكلام إنما هو بيان، والبيان لا يكون إلا للإشباع، وأفضل الكلام أبينه، والإيجاز للخواص، والإطناب يشترك فيه الخواص والعوام، ولأمر ما أطنب في الكتب السلطانية في إفهام الرعايا. وكما أن الإيجاز له موضع، فكذلك الإطناب له موضع، والحاجة إلى الإيجاز في موضعه، كالحاجة إلى الإطناب في موضعه".

"وقال النبي ﷺ: "خاطبوا الناس على قدر عقولهم"[1]. ومن استعمل الإيجاز في موضع الإطناب أو الإطناب في موضع الإيجاز فقد أخطأ[2].

ولا شك أن الكتب الصادرة عن السلطان في الأمور العظيمة في الفتوح والتفخيم في مواقع النعم المتجددة، أو في الترغيب في الطاعة، والتحذير من العصيان، وغير ذلك، ينبغي أن تكون مشبعة مستقصاة"، ألا ترى أن كتاب المهلب[3] إلى

---

(١) أخرجه الحسن بن سفيان عن ابن عباس رفعه وهو ضعيف بل موضوع كما قال الحافظ نقله عنه المناوي في "الفيض" (٣٧٨/٣).

(٢) انظر: الصناعتين ص(٣٦٢).

(٣) هو المهلب بن أبي صفرة ظالم بن سراق الأزدي العتكي، ولد في دبا سنة ٧هـ، ونشأ بالبصرة وقدم المدينة مع أبيه في أيام عمر، وانتدب لقتال الأزارقة وكانوا قد غلبوا على البلاد، وشرط له أن كل بلد يجليهم عنه يكون له التصرف في خراجه تلك السنة، فأقام يحاربهم تسعة عشر عامًا لقي فيها منهم الأهوال، وأخيرًا تم له الظفر بهم، ومات سنة ٨٣هـ [الأعلام: (٣١٥/٧)].

الحجاج في فتح الأزارقة: "الحمد لله الذي كفى الإسلام فقد ما سواه، وجعل الحمد متصلاً بنعمته، وقضى أن لا ينقطع المزيد من فضله، حتى ينقطع الشكر من خلقه. ثم إنا وعدونا على حالين مختلفين، نرى فيهم ما يسرنا أكثر مما يسوؤنا ويرون فينا ما يسوؤهم أكثر مما يسرهم. فلم يزل ذلك دأبنا ودأبهم: ينصرنا الله ويخذلهم، ويمحِّصنا ويمحقُهم حتى بلغ الكتاب بنا وبهم أجله فقطع دابر القوم الذين ظلموا، والحمد لله رب العالمين"(١).

وإنما يحسن هذا الكتاب لكونه في موضعه، فأما لو كتب إلى العامة، وقد تطلعت نفوسهم إلى معرفة ذلك الفتح العظيم، وتصرفت بهم ظنونهم في أمره، لجاء في أقبح صورة عندهم وأهجنها".

"واعلم، أن الإطناب بلاغة، والتطويل عيّ، فإن الإطناب بمنزلة سلوك طريق بعيدة نَزَهة، تحتوي على زيادة فائدة، بما تأخذ النفس فيه من اللذة، والتطويل بمنزلة سلوك ما يبعد جهلاً بما يقرب".

فهذا حكاية كلام أبي هلال العسكري. ولنذكر نحن ما عندنا في ذلك، فنقول:

أما قول أبي هلال: "الإطناب في الكلام، إنما هو بيان" فإن البيان في أصل اللغة: هو الظهور والوضوح؛ فيكون الإطناب، على قوله، ظهورًا في الكلام ووضوحًا لا غير، ويلزم على ذلك؛ أن يكون كل كلام ظاهرٍ واضح إطنابًا، سواء كان ذلك الكلام، إيجازًا أو غيره من أصناف علم البيان. وهذا مما لم يذهب إليه أحد، لأن أبا هلال قد جعل الإطناب وصفًا من الأوصاف التي يشترك فيها جميع ضروب الكلام. وذلك أن البيان وصف يعمُّ كلَّ كلام ظاهر واضح، عن إيجاز أو تطويل أو تكرير أو غير ذلك. وليس الأمر كما وقع له، بل الإطناب نوع واحد من أنواع الكلام، فإن أصله في وضع اللغة من "أطنب في الكلام" إذا بالغ فيه.

---

(١) ذكره أحمد بن علي القلقشندي في صبح الأعشى في صناعة الإنشا – تحقيق: د. يوسف علي طويل – ط. دار الفكر – دمشق – سنة ١٩٨٧م – الأولى (٣٠٦/٦).

والمبالغة لها وجوه وطرق، كالإخبار بالفعل الماضي عن المضارع، وبالمضارع عن الماضي، وتوكيد الضمير المتصل بالمنفصل، وغير ذلك مما أشرنا إليه في كتابنا.

ومن جملة الوجوه والطرق التي للمبالغة الإطناب، وسيأتي ذكره وتحقيق القول فيه، عند الفراغ من الاعتراض على كلام أبي هلال. وأما قوله: "إن البيان لا يكون إلا بالإشباع" لأنه جعل الإطناب بيانًا في القول الأول، وهذا لا يخلو من حالين: إما أنه يعني بالإشباع أن يوصل المعنى إلى حقه، مأخوذًا ذلك من "الشبع" يقال "شبع فلان" إذا وصل في أكله إلى حقه، وقدر كفايته، فإن كان يعني بالإشباع ما ذكرناه فإن ذلك أمر عام لجميع ضروب الكلام من الإيجاز، والتكرير، والمقابلة، والتفسير، وغيرها، مما أشرنا إليه، فإن كل ضرب من هذه الضروب المذكورة، إذا وصل الكلام فيه إلى حقه، يكون إطنابًا، فذلك من أعجب الأشياء وأطرفها، وإن كان يعني بالإشباع الزيادة على قدر ما يستحقه الكلام ويحتاج إليه، وذلك هو التطويل بعينه، فإنه يلزم من هذا القول، أن التطويل في الكلام، إذا كان واضحًا بينًا، يكون من أفضل الكلام، وذلك ما لا يوافق عليه بحال من الأحوال، بل كان يحتاج في قوله: "إن أفضل الكلام أبينه" إلى قرينة أخرى، وهو أن كان قال "أفضل الكلام أوجزه وأبينه"، فإنه لو قال ذلك، لكان قوله صوابًا لا يخالف فيه، وأما قوله "وكما أن الإيجاز له موضع، فكذلك الإطناب له موضع، والحاجة إلى الإيجاز في موضعه كالحاجة إلى الإطناب في موضعه، ومن استعمل الإيجاز في موضع الإطناب والإطناب في موضع الإيجاز فقد أخطأ" فكأنه توهم من هذا القول، أن الإطناب ضد الإيجاز، وإذا كان الأمر كذلك فهو التطويل بعينه.

ومما يقوي هذا الوهم قوله أيضًا: "إن الإيجاز للخواص والإطناب يشترك فيه الخواص والعوام". وأما قوله: إن النبي ﷺ قال: "خاطبوا الناس على قدر عقولهم" فإن كان غرضه من قول النبي ﷺ مخاطبة كل فريق من الناس بما يفهمونه فهذا لا يتعلق بصنف واحدٍ من صنوف الكلام، إطنابًا كان ذلك أو إيجازًا أو غيرهما، إذ الإفهام يشتمل على أنواع الكلام جميعها، ومتى لم يكن الكلام مفهومًا واضح المعاني فليس عندنا محسوبًا في جملة علم البيان، ولا نعده من صناعة التأليف بشيء.

وقد يخاطب مؤلف الكلام العامة بأوحش الخطاب وأحقره، ويفهمون من ذلك قوله، ويعرفون خطابه. فإن الأصل في الكلام: إنما هو كشف معانيه للمخاطب وإيضاحها له، وسواء عند ذلك خوطب به الخاصة أو العامة، فاعرف هذا وقس عليه.

ومعنى قول النبي ﷺ: "خاطبوا الناس على قدر عقولهم" أي كلموهم بما يعرفونه من الألفاظ ويعتادونه بينهم من الكلام، كما كتب ﷺ إلى كسرى أبرويز فقال: "من محمد رسول الله ﷺ إلى كسرى أبرويز عظيم فارس، سلام الله على من اتبع الهدى وآمن بالله ورسوله [وشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمدًا عبده ورسوله]، وبعد فإني رسول الله إلى الناس كافة لينذر من كان حيا ويحق القول على الكافرين، فأسلم تسلم وإن أبيت فإثم المجوس عليك"(١).

وكتب ﷺ أيضًا إلى قوم من العرب، فقال لوائل بن حجر: "من محمد رسول الله إلى الأقيال(٢) العباهلة(٣) أهل حضرموت بإقام الصلاة وإيتاء الزكاة على التيعة(٤) شاة والتيمة(٥) لصاحبها وفي السيوب(٦) الخمس لا خلاط(٧) ولا وراط(٨) ولا شناق(٩) ولا

---

(١) ذكره ابن جرير الطبري في "تاريخه" (١٣٣/٢)، وما بين المعكوفين زيادة منه.

(٢) الأقيال: جمع قَيْل، وهم الملوك، والقيل الملك من ملوك حمير [اللسان: (قَيَل)].

(٣) العباهلة: هم الذين أقروا على ملكهم لا يُزالون عنه، وعبهل الشيء أهمله، وعبهلت الإبل إذا تركتها ترد متى تشاء [اللسان: (عبهل)].

(٤) التيعة: الأربعون من غنم الصدقة [اللسان: (تيع)].

(٥) التيمة: الشاة الزائدة على الأربعين حتى تبلغ الفريضة الأخرى [اللسان: (تيم)].

(٦) السيوب: الركاز؛ لأنها من سيب الله وعطائه [اللسان: (سيب)].

(٧) لا خلاط: الخلاط: مصدر خالطه يخالطه مخالطة وخلاطًا. المراد أن يخلط رجل إبله بإبل غيره أو بقره ليمنع حق الله ويبخس المصدق فيما يجب له [اللسان: (خلط)].

(٨) الوراط: الخديعة في الغنم وهو أن تخبئها وتفرقها [اللسان: (ورط)].

(٩) الشناق: ما بين الفريضتين من الإبل والغنم فما زاد على العشر لا يؤخذ منه شيء حتى تتم الفريضة الثانية واحدها شنق [اللسان: (شنق)].

شغار[١] ومن أجبى فقد أربى، وكل مسكر حرام"[٢]. فسهل الألفاظ إلى كسرى أبرويز غاية التسهيل بحيث إنها لا تخفى على من له تشبث باللغة العربية، ولما كتب إلى أولئك القوم من العرب خاطبهم بما تقوى عليه قدرتهم، وهم معتادون لسماع مثله، فهذا هو المقصود بقوله ﷺ "خاطبوا الناس على قدر عقولهم"، وليس المقصود من ذلك ما ذهب إليه أبو هلال العسكري "من مخاطبة قوم بالإيجاز، وقوم بالإطناب" الذي هو على قياسه محض التطويل.

وإذا كان الأصل في الكلام إنما هو بيانه ووضوحه فما الفائدة من تطويله، مع القدرة على اختصاره وإيجازه؟!

وأما قوله: "إنَّ الإطناب البلاغة، والتطويل عيّ" فهو لعمري كذلك، إلا أنه على أصله يكون قد جعل البيان بلاغة؛ لأن الإطناب عنده إنما هو بيان، ويلزم على ذلك أن التطويل في الكلام إذا كان ذا بيان، يكون بليغًا. وهذا ما لم يذهب إليه أحد ألبتة؛ لأنه بضد الصواب، وأما قوله: "إن الإطناب بمنزلة سلوك طريق بعيدة، نزهة، تحتوي على زيادة الفائدة، بما تأخذ النفس فيه من اللذة. والتطويل بمنزلة سلوك ما يبعد، جهلاً بما يقرب" فإن هذا تمثيل صحيح مناسب لما مثل به إلا أنه كان يحتاج إلى زيادة إيضاح، وهو أن يجعل المعنى المراد في كلام ما بمنزلة المقصد الذي يتوجه إليه السائر، ويجعل إلى ذلك المقصد ثلاثة طرق: أحدها قريب إليه، والآخران بعيدان عنه، متساويان في البعد، ويجعل الدلالة على ذلك المعنى المراد بالإيجاز بمنزلة الطريق القريب، ويجعل الدلالة عليه بالإطناب بمنزلة أحد الطريقين البعيدين، ويجعل الدلالة عليه بالإطناب بمنزلة الطريق الآخر المساوي له في البعد، إلا أنه نزه يحتوي على زيادة فائدة، بما تأخذ النفس منه من اللذة؛ فهذه ثلاث تمثيلات مناسبة لما مثلت به، فاعرفها.

---

(١) الشغار: هو أن يزوج أخته على أن يزوجه الآخر أخته فيكون المهر بينهما ذلك [المحيط في اللغة: (شغر)].

(٢) ذكره الزمخشري في الفائق (١/١٤-١٧)، وراجع حاشية ص(٢٠) من هذا الكتاب.

وحيث انتهى بنا القول إلى هذا الموضع وفرغنا من الكلام على ما ذكره أبو هلال في باب الإطناب، فلنورد نحن ما عندنا من ذلك فنقول:

اعلم أن الإطناب في أصل اللغة مأخوذ من "أطنب في الكلام: إذا بالغ فيه".

وقد ذكرنا ذلك أولاً في الاعتراض على كلام أبي هلال(١).

واعلم أن المبالغة تنقسم إلى أقسام كثيرة، وقد سبق ذكر شيء منها، كالإخبار بالفعل الماضي عن المضارع، وبالمضارع عن الماضي. وسيأتي ذكر الباقي في كتابنا هذا.

ومن جملة أقسام المبالغة الإطناب(٢)، وفائدته زيادة التصور للمعنى المقصود إما حقيقة وإما مجازًا. وهو على الحقيقة ضرب من ضروب التأكيد، فأما ما جاء من ذلك على سبيل الحقيقة فقوله تعالى: **﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ﴾**(٣) فإن الفائدة في قوله تعالى: "في جوفه" كالفائدة في قوله: **﴿الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾** وذلك لما يحصل للسامع من زيادة التصور للمدلول عليه، لأنه إذا سمع به صور نفسه جوفًا يحتوي على قلبين. فكان ذلك أسرع للإنكار.

وأما الذي جاء منه على سبيل المجاز فقوله تعالى: **﴿فَإِنَّهَا لا تَعْمَى الأَبْصَارُ**

---

(١) انظر: المثل السائر ص(١٠٢٥).

(٢) قال ابن الأثير: "الإطناب يوجد تارة في الجملة الواحدة من الكلام، ويوجد تارة في الجمل المتعددة، والذي يوجد في الجمل المتعددة أبلغ؛ لاتساع المجال في إيراده، وعلى هذا فإنه بجملته ينقسم قسمين: القسم الأول: الذي يوجد في الجملة الواحدة من الكلام وهو يرد حقيقة ومجازًا..، والقسم الثاني: المختص بالجمل؛ فإنه يشتمل على ضروب أربعة، الضرب الأول: أن يذكر الشيء فيؤتى فيه بمعاني متداخلة إلا أن كل معنى يختص بخصيصة ليست للآخر، والثاني: يسمى النفي والإثبات، والثالث: هو أن يذكر المعنى الواحد تامًا لا يحتاج إلى زيادة، والرابع: أن يستوفي معاني الغرض المقصود من كتاب أو خطبة أو قصيدة [انظر: المثل السائر (١٠٢٧-١٠٤٤)].

(٣) الأحزاب: ٤.

﴿وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾[1] ففائدة ذكر الصدور هاهنا أنه قد تعورف وعلم أن العمى على الحقيقة مكانه البصر، وهو أن تصاب الحدقة بما يطمس نورها، واستعماله في القلب استعارة ومثل.

فلما أريد إثبات ما هو بخلاف المتعارف من نسبة العمى إلى القلوب حقيقة، ونفيه عن الأبصار. احتاج هذا الأمر إلى زيادة تصوير وتعريف، ليتقرر أن مكان العمى إنما هو القلوب لا الأبصار. وهذا نوع من أنواع علم البيان، وافر اللطائف، كثير المحاسن. فينبغي لمؤلف الكلام العناية به والمراعاة له، فاعرفه.

---

(١) الحج: ٤٦.

obeikandl.com

النوع السادس من الباب الأول من الفن الثاني

في توكيد الضمير المتصل بالمنفصل

وإنما يفعل ذلك لضرب من المبالغة، فمما جاء منه قوله تعالى: ﴿قَالُوا يَا مُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ﴾(١).

فقولهم: ﴿يَا مُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ﴾ تخيير منهم له، وحسن أدب راعوه معه، كما يفعل أرباب الصناعات إذا تلاقوا في تقديم بعضهم على بعض كالمتناظرين قبل أن يتخاوضوا في الجدال. وإنما قالوا: "وإما أن نكون نحن الملقين"، ولم يقولوا: "وإما أن نلقي" كما قالوا: "يا موسى إما أن تلقي" لرغبتهم في أن يلقوا قبله وتشوقهم إلى التقدم عليه وذلك لما فيه من تأكيد الضمير المتصل بالمنفصل.

ومما يجري على هذا المنهاج قوله ﷻ: ﴿فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى (٦٧) قُلْنَا لا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الأَعْلَى﴾(٢).

فتوكيد الضمير ها هنا في قوله: "إنك أنت الأعلى" أنفى للخوف من قلب موسى، وأثبت في نفسه للغلبة والقهر، ولو قال: "لا تخف إنك الأعلى" أو "لا تخف فأنت الأعلى" لم يكن له من التقرير والإثبات لنفي الخوف من قلب موسى، ما لقوله: "إنك أنت الأعلى".

والدليل على ذلك، أن في هذه الثلاث كلمات وهو قوله تعالى: "إنك أنت الأعلى" ست فوائد:

الأوّلة: "إنّ" المشددة التي من شأنها الإثبات لما يأتي بعدها، كقولك: "زيد قائمٌ"، ثم تقول "إن زيدًا قائمٌ". ففي قولك: "إن زيدًا قائم" من الإثبات لقيام زيد والتقرير له، ما ليس في قولك: "زيد قائم".

---

(١) الأعراف: ١١٥.

(٢) طه: ٦٧، ٦٨.

الثانية: تكرير الضمير في قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ أَنْتَ الأَعْلَى﴾. ولو اقتصر على أحد الضميرين، فقال: إنك الأعلى، أو على: "فأنت الأعلى"، لما كان بهذه المثابة من التقرير لغلبة موسى، والإثبات لقهره.

الثالثة: التعريف في قوله "الأعلى"، ولم يقل: إنك أنت أعلى أو عال؛ لأنه لو قال ذلك لكان قد نكره، وكان صالحًا لكل واحد من جنسه، كقولك: "رجل" فإنه يصلح أن يقع على كل واحد من الرجال. وإذا قلت: "الرجل" فقد خصصته من بين الرجال بالتعريف، وجعلته علمًا فيهم. وكذلك قولك: "إنك أنت الأعلى": أي أنت الأعلى دون غيرك.

الرابعة: لفظة "أفعل" الذي من شأنه التفضيل، ولم يقل العالي.

الخامسة: إثبات الغلبة له من العلو؛ لأن الغرض من قوله "الأعلى"، أي: الأغلب، إلا أن في الأعلى زيادة وهي الغلبة من "عال".

السادسة: الاستئناف، وهي قوله: "إنك أنت الأعلى"، ولم يقل: "لأنك أنت الأعلى" لأنه لم تجعل علة انتفاء الخوف عنه كونه غالبًا، وإنما نفى الخوف عنه أولاً بقوله: "لا تخف"، ثم استأنف الكلام، فقال: "إنك أنت الأعلى" فكان ذلك أبلغ في إيقان موسى عليه السلام بالغلبة والاستعلاء، وأثبت لذلك في نفسه.

فهذه ست فوائد في هذه الكلمات الثلاث[1]، فانظر أيها المتأمل إلى هذه البلاغة العجيبة، التي تحير العقول، وتذهب بالألباب، ولأمر ما أعجز هذا الكلام العزيز البلغاء، وأفحم الفصحاء، ورَجّلَ فرسانَ الكلام.

فإن قيل: لو كان توكيد الضمير المتصل بالمنفصل أبلغ من الاقتصار على أحدهما، لورد ذلك عند ذكر الله نفسه في كتابه، لأنه هو أحق بما هو أبلغ من الكلام. وقد رأينا في القرآن الكريم مواضع تختص بذكر الله تعالى، وقد ورد فيها أحد الضميرين

---

(١) أشار الزمخشري في كشافه إلى هذه الفوائد الست [انظر: الكشاف (٣/٤٤٠)، المثل السائر ص(٨١٢)].

دون الآخر، كقوله تعالى: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[1]. فما الموجب لذلك إن كان توكيد الضمير المتصل بالمنفصل أبلغ في بابه من الاقتصار على أحدهما دون الآخر؟ فقد كان يجب أن يرد ذلك عند ذكر الله تعالى نفسه، لأنه أحق بالأبلغ من الكلام. وإن كان الأمر بخلاف ذلك، فكيف قلت: إن توكيد الضمير المتصل بالمنفصل أبلغ.

الجواب عن ذلك أنا نقول: توكيد الضمير المتصل بالمنفصل إنما يرد في الكلام لتقرير المعنى المقصود، وإثباته في النفس، وما يختص بالله تعالى لا يفتقر إلى تقرير ولا إثبات، لأنه إذا قيل عنه: "إنك على كل شيء قدير"، لم يحتج في ذلك إلى توكيد حتى يتحقق ويتبين أنه على كل شيء قدير، بل قد عُلِمَ وعرف أنّ قدرته تتعلق بكل شيء، وأنها جارية على كل مخلوق، فصار هذا الأمر المعروف المشهور، الذي لا شك يعتريه، ولا مِرية تعترضه. وما هذا سبيله في الوضوح والبيان، فما الحاجة فيه إلى التوكيد؟ إذ التوكيد من شأنه تقرير المعنى المراد، وإثباته في النفس، وقوله تعالى: ﴿إنك على كل شيء قدير﴾ لا يحتاج فيه إلا تقرير ولا إثبات.

فإن قيل: فقد ورد في القرآن الكريم أيضًا، عند ذكر الله تعالى نفسه، كلا الضميرين: المنفصل والمتصل، كقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى بْنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ -إلى قوله: ﴿عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾[2] كما قال: "إنك على كل شيء قدير" فما السبب في هذا؟ وهلا كان الجميع نوعًا واحدًا؟!

الجواب عن ذلك أنا نقول: توكيد الضميرين أحدهما بالآخر في هذه الآية لا

---

(١) آل عمران: ٢٦.

(٢) المائدة: ١١٦.

ينقض علينا ما أشرنا إليه أولاً؛ لأنه إن وقع الاقتصار على أحدهما دون الآخر، كان القول في ذلك ما تقدم في الآية، وإنما جيء بهما معًا فلأن ذلك أبلغ في بابه وآكد، والله تعالى أحق بما هو أبلغ من الكلام وآكد.

ولنمثل لك في استعمال الضميرين معًا والاقتصار على أحدهما دون الآخر، مثالاً تتبعه، فنقول: إذا كان المعنى المقصود ظاهرًا معلومًا قد ثبت في النفوس، ورسخ في الألباب فأنت بالخيار: بين أن تؤكد أحد الضميرين بالآخر في الدلالة عليه وبين أن تقتصر على أحدهما دون الآخر. لأنك إن وكدت الكلام فيه فقد أعطيت المعنى حقه. وإن لم تؤكد الكلام فيه فلأنه لا يحتاج إلى توكيد لبيانه وظهوره، وإذا كان المعنى المقصود خافيًا ليس بظاهر ولا معلوم. فالأولى توكيد أحد الضميرين فيه بالآخر، ليقرره ويكسبه وضوحًا وبيانًا. ألا ترى إلى قوله تعالى في حق موسى عليه السلام: ﴿**قُلْنَا لا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الأَعْلَى**﴾[1]. فإنه لما كان ظهور موسى على السحرة وقهره لهم أمرًا مستترًا في ضمن الغيب، لا يعلم ولا يعرف وأراد الله عز وجل أن يخبره بذلك؛ ليذهب عنه الخوف والحذر، أتى بالأبلغ من الكلام، ليكون ذلك أثبت في نفس موسى، وأقوى دليلاً عليه في انتفاء الخوف عنه؛ فوكد الضمير المتصل بالمنفصل[2].

فجاء المعنى كما ترى، ولو قال: "إنك الأعلى" أو "فأنت الأعلى"، لكان ذلك أيضًا إخبارًا لموسى بنفي الخوف عنه، واستظهاره على السحرة، ولكن ليس له من التقرير في نفس موسى ما لقوله: "إنك أنت الأعلى"، فاعرف ذلك وقس عليه.

وعلى نحو من هذا قوله تعالى: ﴿**قَالُوا يَا مُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ**﴾. فإن إرادة السحرة الإلقاء قبل موسى عليه السلام لم تكن معلومة عنده؛ لأنهم لم يصرحوا بما في أنفسهم من ذلك، لكنهم لما عدلوا عن مقابلة خطابهم لموسى

---

(١) طه: ٦٨.

(٢) انظر: المثل السائر ص(٨١٤).

بمثله إلى ما هو توكيد مما هو لهم، بالضمير المتصل بالمنفصل، علم أنهم يريدون التقدم عليه والإلقاء قبله؛ لأن من شأن مقابلة خطابهم لموسى بمثله أن كان، قالوا: "إما أن تلقي وإما أن نلقي". لتكون الجملتان متقابلتين، فحيث قالوا عن أنفسهم: "وإما أن نكون نحن الملقين" استدل بذلك على رغبتهم في الإلقاء قبله.

وهذه معان لطيفة ورموز غامضة لا ينتبه لها إلا الفطن اللبيب، فاعرفها.

obeikandl.com

النوع السابع من الباب الأول من الفن الثاني

في الكناية والتعريض

اعلم أن لهذا النوع من الكلام موقعًا شريفًا، ومحلاً كريمًا. وهو مقصور على الميل مع المعنى، وترك اللفظ جانبًا. وذلك نوع من علم البيان لطيف. وقد تكلم جماعة المؤلفين في هذا الفن فوجدتهم قد خلطوا الكناية بالتعريض، ولم يفرقوا بينهما، بل أوردوا لهما من النظم والنثر، وأدخلوا أحد القسمين في الآخر، فذكروا للكناية أمثلة من التعريض، وللتعريض أمثلة من الكناية، فمنهم أبو محمد بن سنان الخفاجي، وأبو هلال العسكري، والغانمي. فأما ابن سنان، فإنه ذكر في كتابه قول امرئ القيس:

فصِرْنَا إلى الحُسْنَى ورَقَّ كلامُهَا ورُضْتُ[1] فذَلَّتْ صَعْبَةً أيَّ إِذْلَالِ[2]

وهذا مثال ضربه للكناية عن المباضعة، وهو مثال للتعريض. وسنورد لك أيها الناظر في كتابنا فرق ما بين الكناية والتعريض، وتمييز أحدهما عن الآخر، ونعرف كلا منهما على انفراده فنقول:

أما الكناية فهي: أن تذكر الشيء بغير لفظه الموضوع له كما كنى الله تعالى عن الجماع: "باللمس"؛ فإن حقيقة "اللمس" هي "الملامسة" يقال: لمست الشيء إذا لامسته[3]، ولما كان الجماع "ملامسة بالأبدان وزيادة أمر آخر" أطلق عليه اسم: "اللمس" مجازًا. وضد الكناية التصريح.

وأما التعريض: فهو أن تذكر شيئًا يدل على شيء لم تذكره وأصله: التلويح

---

(١) رضت: ذللت؛ لأنه أقام الإذلال مقام الرياضة [تهذيب اللغة: (راض)].

(٢) البيت من الطويل، وهو في ديوانه- (١٢٥)، وخزانة الأدب- (١٨٧/٩)، وشرح شواهد المغني- (٣٤١/١)، ولسان العرب- (روض)، والمقتضب- (٧٤/١)، وبلا نسبة في المحتسب- (٢٦٠/٢)، وفي المعجم المفصل وردت كلمة "كلامنا بدلا من "كلامها"، ويروى "وصرنا" بدلاً من "فصرنا".

(٣) في نسخة: "فإن المس من الملامسة يقال: مسست الشيء..".

من عرض الشيء؛ أي من جانبه، واعلم أن بيت امرئ القيس الذي ذكره ابن سنان الخفاجي مثالا للكناية، هو عين التعريض، فإن غرضه من ذلك أن يذكر الجماع، غير أنه لما استقبح ذكره لم يذكره بل ذكر كلامًا آخر، ودل به عليه؛ لأن المصير إلى الحسنى ورقة الكلام، لا يفهم منهما ما أراده امرؤ القيس من المعنى، وذلك مما لا خفاء به، فاعرفه.

وحيث فرقنا بين الكناية والتعريض، وميزنا كلاً منهما عن الآخر، فلنفصلهما ونذكر أقسامهما، ولنبدأ أولاً بالكناية فنقول:

اعلم أن الكناية على ضربين: أحدهما ما يحسن استعماله [والآخر ما يقبح استعماله](1)، وهو عيب في صناعة التأليف.

فأما الضرب الأول الذي يحسن استعماله:

فإنه ينقسم إلى أربعة أقسام:

الأول: التمثيل(2):

وهو التشبيه على سبيل الكناية، وذلك أن تراد الإشارة إلى معنى، فتوضع ألفاظ على معنى آخر، وتكون تلك الألفاظ وذلك المعنى مثالاً للمعنى الذي قصدت الإشارة إليه والعبارة عنه كقولنا: "فلان نقي الثوب". أي: متره عن العيوب.

وللكلام بها، فائدة لا تكون لو قصدت المعنى بلفظه الخاص، وذلك لما يحصل للسامع من زيادة التصور للمدلول عليه؛ لأنه إذا صور نفسه مثال ما خوطب به كان أسرع إلى الرغبة فيه أو الرغبة عنه. فمن بديع التمثيل قوله تعالى: ﴿**أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا**﴾(3).

---

(1) زيادة من المثل السائر ص(١١٧١).

(2) عرفه قدامة بن جعفر بقوله: "هو أن يريد الشاعر إشارة إلى معنى فيضع كلامًا يدل على معنى آخر، وذلك المعنى الآخر والكلام منبئان عما أراد أن يشير إليه" [نقد الشعر ص(١٦٤)].

(3) الحجرات: ١٢.

فأما تمثيله الاغتياب بأكل لحم إنسان آخر مثله، ثم لم يقتصر على ذلك حتى جعله لحم الأخ و لم يقتصر على لحم الأخ حتى جعله ميتًا ثم جعل ما هو في الغاية من الكراهة موصولاً بالمحبة، وهذه أربع دلالات واقعة على ما قصدت له مطابقة المعنى الذي وردت لأجله فشديد المناسبة جدًا، وذلك لأن الاغتياب، إنما هو ذكر مثالب الناس وتمزيقُ أعراضهم [وتمزيق العرض][1] مماثل لأكل [الإنسان][2] لحم من يغتابه؛ لأن أكل اللحم فيه تمزيق لا محالة، وأما قوله: "لحم أخيه" فلما في الاغتياب من الكراهة، لأن العقل والشرع معًا قد أجمعا على استكراهه وأمرا بتركه، والبعد عنه. ولما كان كذلك جعل بمترلة لحم الأخ في كراهته.

ومن المعلوم أن لحم الإنسان مستكره عند إنسان آخر مثله، إلا أنه لا يكون مثل كراهته [لحم][3] أخيه، فهذا القول مبالغة في استكراه الغيبة، لا أمد فوقها.

وأما قوله: "ميتًا" فلأجل أن المغتاب لا يشعر بغيبته، ولا يحسّ.

وأما جعله ما هو في الغاية من الكراهة موصولاً بالمحبة، فلما جبلت عليه النفوس من الميل إلى الغيبة والشهوة لها. مع العلم بأنها من أذم الخلال، ومكروه الأفعال، عند الله تعالى والناس.

فانظر أيها المتأمل لهذا التمثيل كيف مطابقته لما مُثلَ به تجده من أبلغ التمثيلات وأندرها[4] مثالاً، لأنك متى نظرت إلى كل واحدة من تلك الدلالات الأربع، التي أوردناها رأيتها مناسبة لما قصدت له؛ فتمزيق العرض مثل أكل الإنسان لحم من يغتابه؛ لأن ذلك تمزيق على الحقيقة، و [جُعِلَ بمترلة][5] لحم الأخ لأجل المبالغة في الكراهة، و"الميت" لامتناع الإحساس به، واتصال ما هو مستكره بالمحبة لما في طبع الأنفس من الشهوة للغيبة والميل إليها، فاعرف ذلك.

---

(١) زيادة من المثل السائر ص(١١٧٩).

(٢) زيادة من المثل السائر ص(١١٧٩).

(٣) زيادة من المثل السائر ص(١١٧٨).

(٤) في نسخة "وأبدعها".

(٥) زيادة اقتضاها السياق، وهي بمعناها في المثل السائر ص(١١٧٩).

ومن هذا القسم قوله تعالى: ﴿وَلا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ﴾(١) فمثل البخل بأحسن تمثيل؛ لأن البخيل لا يمد يده بالعطية، كالمغلول الذي لا يستطيع أن يمد يده. وإنما قال: "ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك" ولم يقل من غير العنق؛ لأنه قال: "ولا تبسطها كل البسط" فكأنه أراد، ولا تجعل يدك مغلولة كل الغل ولا تبسطها كل البسط، فناب ذكر العنق عن قوله: "كل الغل"؛ لأن غل اليد إلى العنق، هو أقصى الغايات التي جرت العادة بغل اليد إليها.

ومن أمثال العرب "إياك وعقيلة الملح"(٢) وذلك تمثيل للمرأة الحسناء، في منبت السوء؛ لأن عقيلة الملح هي الدرة(٣). ومن التمثيل قول ابن الدُمينة:

أَبِينِي أَفِي يُمْنَى يَدَيْكِ جَعَلْتِنِي ... فأفْرَحُ أَمْ صَيَّرتِنِي فِي شِمَالِكِ؟(٤)

فذكر اليمين، وجعلها مثالاً لإكرام المترلة، وذكر الشمال وجعلها مثالاً لهوان المترلة؛ لأن اليمين أشرف مترلة من الشمال أو أكرم محلاً.

وفي القرآن العزيز ما يدل على ذلك، وهو قوله تعالى: ﴿وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ (٢٧) فِي سِدْرٍ مَخْضُودٍ...﴾(٥). الآية فلما جاء إلى ذكر الشمال، قال تعالى: ﴿وَأَصْحَابُ الشِّمَالِ مَا أَصْحَابُ الشِّمَالِ﴾(٦) الآية، فاعرف ذلك وقس عليه.

---

(١) الإسراء: ٢٩.

(٢) في مجمع الأمثال ص(١٧٢)، العقيلة: الكريمة من كل شيء، والمثل يعني المرأة الحسناء في المنبت السوء.

(٣) قال ابن الأثير: "فإن عقيلة الملح هي اللؤلؤة وتكون في البحر فهي حسنة وموضعها ملح" [المثل السائر ص(١١٨٥)].

(٤) البيت من الطويل، وهو في ديوانه- (١٧)، وهو من قصيدة مطلعها:

قفي يا أميم القلب نقض لبانة ... ونشك الهوى ثم افعلي ما بدا لك

وفي الأمالي للزجاج ص(١٨٧)، وفي دلائل الإعجاز ص(١٣٦).

(٥) الواقعة:٢٧-٣٣.

(٦) الواقعة: ٤١-٤٤.

القسم الثاني

من الكناية في الإرداف

وهو اسم سماه به قدامة بن جعفر الكاتب(١).

اعلم أنَّ أكثر علماء هذه الصناعة قد أدخلوا "الإرداف" في التمثيل، وفي الفرق بينهما إشكال ودقة.

فأما التمثيل فقد سبق الإعلام به، وهو أن ترد الإشارة إلى معنى فتوضع الألفاظ على معنى آخر، وتكون تلك الألفاظ وذلك المعنى مثالاً للمعنى الذي قصدت الإشارة إليه والعبارة عنه كقولنا: "فلان نقي الثوب" أي: متره عن العيوب.

وأما الإرداف فهو أن تراد الإشارة إلى معنى فيترك اللفظ الدال عليه ويؤتي بما هو دليل عليه ومرادف له كقولنا: "فلان طويل النجاد"، والمراد به طويل القامة، إلا أنه لم يتلفظ بطول القامة الذي هو الغرض، ولكن ذكر ما هو دليل على طول القامة، وليس نقاء الثوب دليلاً على التراهة عن العيوب، وإنما هو تمثيل لها، فاعرف ذلك.

واعلم أن الإرداف يتفرع إلى خمسة فروع:

الأول: فعل المبادهة

كقوله تعالى: ﴿**وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِلْكَافِرِينَ**﴾(٢). فإن المراد بقوله تعالى: ﴿**لَمَّا جَاءَهُ**﴾ أي: أنه سفيه الرأي، يعني: أنه لم يتوقف في تكذيبه وقت ما سمعه، ولم يفعل كما يفعل المراجيح(٣) العقول، المتثبتون في الأشياء؛ فإن من شأنهم إذا ورد عليهم أمر أو سمعوا خبرًا

---

(١) قال قدامة بن جعفر: "من أنواع ائتلاف اللفظ والمعنى والإرداف.، وهو أن يريد الشاعر دلالة على معنى هو ردفه، وتابع به، فإذا دل على التابع أبان عن المتبوع" [نقد الشعر لقدامة بن جعفر ص(١٦٠)].

(٢) العنكبوت: ٦٨.

(٣) المراجيح: الحلماء [اللسان: (رجح)].

أن يستعملوا فيه الروية والفكر، ويتأنوا في تدبره إلى أن يصح لهم صدقه أو كذبه، ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿لَمَّا جَاءَهُ﴾ أي؛ أنه ضعيف العقل عازب الرأي، فعدل عن ذلك إلى ما هو دليل عليه وأردف له وقوله تعالى: ﴿لَمَّا جَاءَهُ﴾ وذلك آكد وأبلغ، ومن هذا الباب أيضًا: ﴿وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَذَا إِلا رَجُلٌ يُرِيدُ أَنْ يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُكُمْ وَقَالُوا مَا هَذَا إِلا إِفْكٌ مُفْتَرًى وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ إِنْ هَذَا إِلا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾[1] والكلام على ذلك كالكلام على الذي قبله فاعرفه.

الفرع الثاني من الإرداف وهو باب "مثل"

وذلك دقيق الصفة لطيف المغزى، اعلم أن العرب تأتي "بمثل" في هذا الموضع توكيدًا للكلام وتشييدًا من أمره. يقول الرجل إذا نفى عن نفسه القبيح: "مثلي لا يفعل هذا" أي: أنا لا أفعله، فنفى ذلك عن مثله، وهو يريد نفيه عن نفسه؛ قصدًا للمبالغة، فسلك به طريق الكناية؛ لأنه إذا نفاه عمن يماثله أو يشابهه فقد نفاه عنه لا محالة.

وكذلك أيضًا قولهم: "مثلك إذا سئل أعطى" أي: أنت كذلك، وهو كثير في الشعر القديم والمولد والكلام المنثور. وسبب توكيد هذه المواضع بـ"مثل" أنه يراد أن يجعل من جماعة هذه أوصافهم؛ تثبيتًا للأمر، وتمكينًا له ولو كان فيه وحده لقلق منه موضعه، ولم ترس فيه قدمه[2].

ومثل ذلك قولهم في مدح الإنسان: "أنت من القوم الكرام" أي: لك في هذا الفعل سابقة، وأنت حقيق به، ولست دخيلاً فيه.

وقد ورد هذا الباب في القرآن الكريم، كقوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾[3]. وهذا كقولهم: "مثلك لا يبخل"[4] فنفوا البخل عن مثله وهم

---

(١) سبأ: ٤٢-٤٣.

(٢) انظر: المثل السائر ص(١١٧٦، ١١٧٧).

(٣) الشورى: ١١.

(٤) أورده عبدالقادر البغدادي في "خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب" ص(٧٣٩٣).

يريدون نفيه عن ذاته، قصدًا للمبالغة؛ لأنهم إذا نفوه عمن يسد مسده، وهو على أخص أوصافه، فقد نفوه عنه(١). ونظير ذلك قولك للعربي: "العرب لا تخفر الذمم".

وهذا أبلغ من قولك: "أنت لا تخفر الذمم"(٢). وليس فرق بين قوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ وبين قوله: "ليس كالله شيء" إلا من الجهة التي نبهنا عليها فاعرفها.

الفرع الثالث من الإرداف

وهو ما يأتي في جواب الشرط

وذلك من ألطف الكنايات وأحسنها، فمن هذا قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ فَهَذَا يَوْمُ الْبَعْثِ﴾(٣). كأنه قال: "إن كنتم منكرين يوم البعث فهذا يوم البعث" فكني بقوله: ﴿فَهَذَا يَوْمُ الْبَعْثِ﴾ عن بطلان قولهم وكذبهم فيما ادعوه، وذلك رادف له ونظيره قولك: "تنكر حضور زيد فها هو" أي فأنت كاذب، وهذا من دقائق الكناية، فاعرفه.

الفرع الرابع من الإرداف

وهو الاستثناء من غير موجب

وذلك من غرائب الكناية كقوله تعالى: ﴿لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلا مِنْ ضَرِيعٍ﴾(٤) الآية، والضريع نبت ذو شوك تسميه قريش "الشبرق" في حالة خضرته وطراوته، فإذا يبس سمته العرب "الضريع"، والإبل ترعاه طريًا ولا تقربه يابسًا.

---

(١) قال الزمخشري: "نفوا البخل عن مثله، وهم يريدون نفيه عن ذاته، قصدوا المبالغة في ذلك، فسلكوا به طريق الكناية؛ لأنهم إذا نفوه عمن يسد مسده، وعمن هو على أخص أوصافه؛ فقد نفوه عنه" [الإيضاح في علوم البلاغة ص(٢٧٩) بتحقيقنا].

(٢) الخِفَارة: الذِّمَّة، وانتهاكها: إخفارها، وأخفر الذمة، أي: لم يَفِ لمن يُجير [العين (١/٤٢٥) بتحقيقنا].

(٣) الروم: ٥٦.

(٤) الغاشية: ٦.

والمعنى ليس لهم طعام أصلاً؛ لأن الضريع ليس بطعام البهائم فضلاً عن الإنس. وهذا مثل قولك: "ليس لفلان ظل إلا الشمس" تريد ذلك نفي الظل عنه كما هو، وذكر الضريع، رادف لانتفاء الطعام. وعلى نحو من هذا جاء قول بعضهم:

وتَفَرَّدُوا بِالْمُكْرُمَاتِ فَلَمْ يَكُنْ ... لِسِواهُمُ منها سِوى الحرمانِ

والمراد نفي المكرمات عن سواهم؛ لأنه إذا كان لهم الحرمان من المكرمات فما لهم منها شيء ألبتة، وأمثال ذلك كثيرة، فاعرفها.

الفرع الخامس من الإرداف

ليس مما تقدم بشيء

وذلك نحو قوله تعالى: ﴿**عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ**﴾[1] والمعنى المراد من هذا الكلام: أنك أخطأت وبئسما فعلت، وقوله: ﴿**لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ**﴾ بيان لما كنى عنه بالعفو، أي: مالك أذنت لهم، وهلا استأنيت؟ فذكر العفو دليلٌ على الذنب ورادف له وإن لم يذكره. وكذلك جاء قوله تعالى: ﴿**فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ**﴾[2] قيل لهم: إن استبنتم العجز عن المعارضة فاتركوا العناد؛ فوضع قوله: ﴿**فَاتَّقُوا النَّارَ**﴾ موضعه، لأن اتقاء النار لصيقه وصميمه من حيث إنه من نتائجه وروادفه؛ لأنَّ من اتقى النار ترك المعاندة. ونظيره أن يقول الملك لحشمه: "إن أردتم الكرامة عندي فاحذروا سخطي" يُريد: فأطيعوني واتبعوا أمري، وافعلوا ما ينتجه حذر السخط، ورادف له. ومن هذا الباب قوله تعالى: ﴿**قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا**﴾[3] ألا ترى إلى لطافة هذه الكناية؛ فإنها أفادت تكذيب دعواهم، ودفع ما انتحلوه، وفائدتها هاهنا: أنه روعي في تكذيبهم أدب حسن، حيث لم يصرِّح بلفظه، فلم يقل: "كذبتم" لأنه فيه نوع استقباح في الخطاب، ووضع قوله تعالى: ﴿**لَمْ تُؤْمِنُوا**﴾ الذي هو نفي ما ادَّعوا بيانه موضعه؛ لأنَّ

---

(١) التوبة: ٤٣.

(٢) البقرة: ٢٤.

(٣) الحجرات: ١٤.

ذلك رادف له. ومما يجري هذا المجرى قوله تعالى: ﴿قَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ..﴾ إلى قوله: ﴿..مُؤْمِنُونَ﴾[1] فإن الغرض بقولهم: ﴿إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ﴾ جوابًا عن سؤالهم: ﴿أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحًا مُرْسَلٌ مِنْ رَبِّهِ﴾ إثبات العلم بإرساله، وأنه من الأمور الظاهرة المسلمة، التي لا يدخلها ريب، ولا يعترضها شك، لكن عدل عن ذلك إلى ما هو دليل عليه، ورادف له، وهو الإيمان به: -أعني بصالح- وإنما صح منهم بعد ثبوت نبوته عندهم، والعلم بإرساله إليهم، فالإيمان به إذن دليل على العلم بأنه نبي مرسل، وهذا من دقائق الإرداف ولطائفه.

وأمثال ذلك كثيرة كقول الأعرابية في حديث أم زرع: "له إبل قليلات المسارح، كثيرات المبارك، إذا سمعن صوت المزهر[2] أيقن أنهن هوالك"[3] فإن الظاهر من هذا القول أن إبله تترل بفنائه، ولا تبرح ليقرب عليه نحرها للأضياف، فإذا ضرب المزهر للقيان نحرها لضيوفه، لقد اعتادت هذه الحالة وألفتها، وغرض الأعرابية من هذا الكلام أن تصف زوجها بالجود والكرم، ولكنها لم تذكر ذلك بلفظه الدال عليه وإنما أتت بمعان هي أدلة على ذلك من غير تصريح بمرادها. وكذلك قال بعضهم:

وَدِدْتُ وَمَا تُغْنِي الوِدَادَةُ أَنَّنِي ... بِمَا فِي ضَمِيرِ الحَاجِبِيَّةِ عَالِمُ
فَإِنْ كان خيرًا سرَّنِي وعَلِمْتُه ... وإن كان شرًّا لَمْ تَلُمْنِي اللَّوَائِمُ[4]

فإن المراد من قوله: "لم تلمني اللوائم" أني أهجرها، فأضرب عن ذلك جانبًا، ولم يذكر اللفظ المختص به، ولكنه ذكر ما هو عليه، ورادف له. وفيما أشرنا إليه من ذلك كفاية للمتأمل.

---

(١) الأعراف: ٧٥.

(٢) المزهر: العود الذي يضرب به، والجمع مزاهر [تارج العروس: (زهر)].

(٣) أخرجه البخاري (٥١٨٩)، ومسلم (٢٤٤٨).

(٤) البيتان من الطويل، وهما لكثير عزة، والأول في خزانة الأدب- (٣٨٣/٨، ٣٩٠)، وشرح ديوان الحماسة للمرزوقي- (١٢٨٧)، وليس في ديوانه، وبلا نسبة في شرح ديوان الحماسة للمرزوقي- (١٥٧٠).

والقسم الثالث من الكناية وهو المجاورة

وذلك أن يريد المؤلف ذكر شيء فيترك ذكره جانبًا إلى ما جاوره، فيقتصر عليه، اكتفاء بدلالته على المعنى المقصود، كقول عنترة:

وشَككْتُ بالرُّمْحِ الأَصَمِّ ثِيَابَهُ ليسَ الكَرِيمُ علَى القَنَا[1] بِمُحَرَّمِ[2]

أراد بالثياب هاهنا نفسه؛ لأنه وصف المشكوك بالكرم ولا توصف الثياب به، فثبت حينئذ أنه أراد ما تشتمل عليه الثياب، وفي ذلك من الحسن ما لا ينكره العارف بهذه الصناعة، وقال أيضًا:

بِزُجَاجَةٍ صَفْراءَ ذاتِ أَسِرَّةٍ قُرِنَتْ بِأَزْهَرَ في الشِّمَالِ مُفَدَّمِ[3][4]

الصفراء ها هنا الخمر، والذكر للزجاجة حيث هي مجاورة لها، ومشتملة عليها. وذهب بعض المفسرين في قوله تعالى: ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ﴾[5] أنه أراد بالثياب القلب والجسد أي: قلبك فطهر أو جسدك. وأمثال هذا كثيرة فاعرفه.

---

(١) القنا: جمع قناة، والقناة من الرماح ما كان أجوف كالقصبة [اللسان: (قنا)].

(٢) البيت من الكامل، وهو في ديوانه- (٢١٠)، ولسان العرب- (طهر)، (شكك)، وجمهرة اللغة- (١٣٩)، وأساس البلاغة- (شكك)، وبلا نسبة في لسان العرب- (سبب)، وتاج العروس- (سبب).

(٣) مفدم: إبريق مفدم ومفدوم: على رأسه فدام وهو ما يشد به ليف أو غيره [أساس البلاغة: (فدم)].

(٤) البيت من الكامل، وهو لعنترة في ديوانه ص(٢٠٦)، ولسان العرب (سرر)، (فدم)، وتهذيب اللغة (١٢/٢٨٦)، وتاج العروس (سرر)، وفي شرح ديوان عنترة- دار الكتب العلمية- بيروت- الطبعة الأولى- ١٩٨٥م- (١٢٢).

(٥) المدثر: ٤.

obeikandi.com

القسم الرابع في الكناية: ما ليس بتمثيل ولا إرداف ولا مجاورة

كقوله تعالى: ﴿أَوَمَنْ يُنَشَّأُ فِي الْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ﴾[1] فكنى عن النساء أنهم يتزينون في الحلية أي: الزينة والنعمة، وهو إذا احتاج إلى مجاورة الخصوم كان غير مبين[2]، أي: ليس عنده بيان، ولا يأتي ببرهان يحاجّ به من يخاصمه، وذلك لضعف عقول النساء ونقصانهن عن فطرة الرجال، ومن هذا الباب قول أبي نواس:

تَقُولُ التي من بيتها خفّ محملي عَزِيزٌ علينا أَنْ نَرَاكَ تَسِيرُ[3]

ألا ترى إلى حسن هذه الكناية عن ذكر امرأته بقوله: "التي من بيتها خف محملي" فإنه من ألطفها مذهبًا، وكذلك قول نصيب[4]:

فَعَاجُوا[5] فَأَثْنَوْا بالَّذِي أَنْتَ أَهْلُهُ ولو سَكَتُوا أَثْنَتْ عَلَيْكَ الحَقَائِبُ[6]

قال الجاحظ: "نحن قوم نسحر بالبيان، ونموّه بالقول، والناس ينظرون إلى الحال ويقضون بالعيان فأثر ذلك في أمرنا أثرًا ينطق إذا سكتنا، فإن المدعي بغير بينة متعرض للتكذيب"[7]. فهذا معنى قول نصيب فعل به ما ترى. وأمثال الكناية كثيرة، فاعرفها.

---

(١) الزخرف: ١٨.

(٢) قال الزمخشري: "ينشأ في الحلية" أي: يتربى في الزينة والنعمة، وهو إذا احتاج إلى مجاثاة الخصوم، ومجاراة الرجال كان غير مبين، ليس عنده بيان.." [الكشاف: (٤١٥/٣)].

(٣) البيت من الطويل، وهو في ديوانه- (٩٥)، ومعاهد التنصيص ص(٢٤١٧)، وفي الزهرة ص(١١٥٧)، ويروى "مركبي" بدلاً من "محملي".

(٤) نُصيب بن رباح، أبو محجن، مولى عبدالعزيز بن مروان، شاعر فحل، مقدم في النسيب والمدائح، كان عبدًا أسود لراشد بن عبدالعزى من كنانة، من سكان البادية، وأنشد أبياتًا بين يدي عبدالعزيز بن مروان، فاشتراه وأعتقه، توفي سنة ١٠٨هـ [الأعلام: (٣٢/٨)].

(٥) فعاجوا: عاج أي: عطف ومال، ومنه حديث أبي ذر: ثم عاج رأسه إلى المرأة فأمرها بطعام؛ أي أماله إليها والتفت نحوها [اللسان: (عوج)].

(٦) البيت من الطويل، وهو في ديوانه- (٥٩)، والأغاني- (٣١٧/١)، وأمالي المرتضى- (٦١/١)، وخزانة الأدب- (٢٩٦/٥)، وشرح شذور الذهب- (٣٨)، والشعر والشعراء- (٤١٨/١)، ولسان العرب- (حدث)، ودلائل الإعجاز- (٥١١).

(٧) انظر: دلائل الإعجاز ص(٧٢٦).

وأما الضرب الثاني من الكناية
فهو الذي يقبح ذكره ولا يحسن استعماله

كقول أبي الطيب:

إِنِّي علَى شَغَفِي بمـــا في خُمْرِهـــا   لأَعُـــفُّ عمّـــا في سَـــراوِيلاتِهَا[1]

فإن هذه كناية عن النزاهة والعفة. وعلم الله ﷻ أن الفجور لأحسن منها.

ولقد ذكر الشريف الرضي هذا المعنى، فأبرزه في أجمل صورة فقال:

أَحِنُّ إلى ما تَضْمَنُ الخُمْرُ والحِلَـــى   وأَصْدِفُ عَمَّا في ضَمَانِ المـــآزِرِ[2]

ألا ترى إلى هذه الكناية ما ألطفها، والمعنيان سواء، وبهذا تعلم فضل الشاعرين أحدهما على الآخر؛ وذلك إذا أخذا معنى واحدًا فصاغه أحدهما في صياغة مفردة عـــن صياغة الآخر، فاعرف ذلك.

وأما التعريض[3] فقد جوّزه الله تعالى في خطبة النساء كقولـــه تعـــالى: ﴿**وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُمْ بِهِ مِنْ خِطْبَةِ النِّسَاءِ**﴾[4]، فقـــال المفســـرون: التعـــريض

---

(١) البيت من الطويل، وهو للمتنبي في التذكرة الحمدونية ص(٤٧٧١)، والوساطة بـــين المتـــنبي وخصومه لأبي الحسن الجرجاني ص(١٤٥)، وديوان المعـــاني ص(٦٥٢)، وســـر الفصـــاحة ص(١١٧)، وبلا نسبة في الصناعتين ص(٧٢٤).

(٢) البيت من الطويل، وهو في ديوانه من قصيدة له يمدح فيها أباه، مطلعها:

بغير شفيع نال عفو المقادير   أخو الجد لا مستنصرًا بالمعاذر

وفي التذكرة الحمدونية ص(٤٧٧٢).

ويروى "يحن" و"يصدف" بدلاً من "أحن" و"أصدف".

(٣) قال القرطبي: "التعريض ضد التصريح، وهو إفهام المعنى بالشيء المحتمل له ولغيره، وهو عرض الشيء وهو جانبه كأنه يحوم به على الشيء ولا يظهره، وقيل: هو من قولك: عرضت الرجل؛ أي: أهديت إليه تحفة" [تفسير القرطبي (١٨٨/٣)].

(٤) البقرة: ٢٣٥.

بالخطبة لها أن يقول لها، وهي في عدة الوفاة: "إنك لجميلة، وإنك لحسنة" وما أشبه ذلك[1]. ومما جاء من التعريض قوله تعالى: ﴿أَأَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ (٦٢) قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ﴾[2] يعني أن كبير الأصنام غضب أن تعبد هذه الأصنام الصغار، فكسرها، وغرض إبراهيم -صلوات الله عليه- من هذا الكلام إقامة الحجة عليهم؛ لأنه قال: ﴿فَاسْأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ﴾، وذلك على سبيل الاستهزاء بهم، وهذا من رموز الكلام، والقول فيه أنَّ قصد إبراهيم لم يكن الفعل الصادر عنه إلى الصنم، وإنما قصد تقريره لنفسه وإثباته لها على أسلوب تعريضي يبلغ فيه غرضه من إلزام الحجة عليهم، وتبكيتهم والاستهزاء بهم.

ومن بديع التعريض قوله تعالى: ﴿فَقَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلا بَشَرًا مِثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلا الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ﴾[3] فقوله تعالى: ﴿مَا نَرَاكَ إِلا بَشَرًا مِثْلَنَا﴾ تعريض بأنهم أحق بالنبوة منه، وأن الله لو أراد أن يجعلها في أحد من البشر لجعلها فيهم، فقالوا: هب أنك واحد من الملأ وموازيهم في المترلة فما جعلك أحق منهم بها؟ ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ﴾.

ومن مشكلات التعريض حديث عمر بن عبد العزيز -رضي الله عنه- قال: حكت المرأة الصالحة خولة بنت حكيم امرأة عثمان بن مظعون أنَّ النبي ﷺ خرج ذات يوم وهو محتضن أحد ابني بنته وهو يقول: "والله إنكم لتجبنون وتبخلون وتجهلون وإنكم لمن ريحان الله وإن آخر وطأة[4] وطئها الله بوجّ"، واعلم أن "وجّ" واد بالطائف والمراد غزاة حنينٌ، وحنين واد قبل وج؛ لأن غزاةُ حنين آخر غزاة أوقع بها رسول الله ﷺ

---

(١) انظر: تفسير الطبري (٢/٥١٨)، وتفسير الثوري (١/٦٩).

(٢) الأنبياء: ٦٢، ٦٣.

(٣) هود: ٢٧.

(٤) وطأة: موضع القدم وهي كالضغطة، ويعني هنا أخذة، ووقعة [العباب الزاخر: (وطا)].

على المشركين. وأما غزوتا الطائف وتبوك، اللتان كانتا بعد حنين، فلم يكن فيها وطأة أي: قتال، وإنما كانتا مجرد خروج إلى الغزاة حسب ومن غير ملاقاة العدو، أعني المشركين، ولا قتال لهم.

ووجه عطف[1] هذا الكلام، وهو قوله ﷺ: "وإنَّ آخر وطأة وطئها الله بوجّ" على ما قبله من الحديث، هو التأسف على مفارقة أولاده؛ لقرب وفاته؛ لأن غزوة حنين كانت في شوال سنة ثمان، ووفاته ﷺ كانت في ربيع الأول من سنة إحدى عشرة، وبينهما سنتان ونصف، فكأنه قال: "وإنكم لمن ريحان الله أي: من رزقه، وأنا مفارقكم عن قريب بقوله: "وإن آخر وطأة وطئها الله بوجّ" فكان ذلك تعريضًا بما أراده، وقصده من قرب وفاته ﷺ ومفارقته إياهم، أعني أولاده. وهذا من أغرب التعريضات وأعجبها، فاعرفه.

ومن هذا الباب قول الشَّمَيْذَر الحارثي:

بَنِي عَمِّنَا لا تَذْكُرُوا الشِّعْرَ بَعْدَمَا دَفَنتُم بصحراءِ الغُمير[2] القَوَافِيَا[3]

فإنه ليس قصده ما جرى بينهم بهذا الموضع من الغلبة لهم، والقوة عليهم إلا أنه لم يذكر ذلك، بل ذكر الشعر وجعله تعريضًا عنه. أي: لا تفخروا بعد تلك الوقعة، التي جرت لنا ولكم بذلك المكان.

---

(١) في نسخة "عاطف"، وما أثبتناه من المثل السائر ص(١٩٩).

(٢) الغمير: موضع.

(٣) البيت من الطويل، وهو في "التذكرة السعدية في الأشعار العربية" للعبيدي ص(٢٢)، و"الزهرة" لابن داود الأصفهاني ص(١٢٢٤)، و"تحرير التحبير في صناعة الشعر والنثر" لابن أبي الأصبع ص(١٦٦)، وشرح ديوان الحماسة ص(١٧٦)، وبلا نسبة في "عيار الشعر" لابن طباطبا العلوي ص(٤٩)، و"عيون الأخبار" لابن قتيبة الدينوري ص(٢٠٥).

ومن أحسن التعريضات ما كتبه عمرو بن مسعدة[1] إلى المأمون، في حق بعض أصحابه: "أما بعد فقد استشفع بي فلان إلى أمير المؤمنين، ليتطوَّل في إلحاقه بنظرائه من الخاصة، فأعلمته أن أمير المؤمنين لم يجعلني في مراتب المستشفعين، وفي ابتدائه بذلك تعدي طاعته". [فوقع المأمون في ظهر كتابه: "قد عرفت تصريحك له، وتعريضك لنفسك][2]؛ فأجبناك إليهما"[3] وأمثال هذا كثيرة، وفيما أشرنا إليه الكفاية.

---

(١) عمرو بن مسعدة بن سعد بن صول، أبو الفضل الصولي وزير المأمون، وأحد الكتاب البلغاء، كان يوقع بين يدي جعفر بن يحيى البرمكي في أيام الرشيد، في كتب الأدب كثير من رسائله وتوقيعاته، وكان جوادًا ممدحًا فاضلاً نبيلاً، توفي في "أدنه" بتركيا عام ٢١٧هـ-٨٣٢م [الأعلام: (٥/٨٦)].

(٢) زيادة من المثل السائر (١٢٠٠).

(٣) انظر: "الصناعتين" ص(٧٢٠).

obeikandl.com

النوع الثامن من الباب الأول من الفن الثاني
في استعمال العام والخاص في الإثبات

وهو باب من علم البيان تتكاثر فوائده.

اعلم أنه إذا كان الشيئان أحدهما خاص والآخر عام؛ فإن استعمال العام في حالة النفي، أبلغ من استعماله في حالة الإثبات، وكذلك استعمال الخاص في حالة الإثبات أبلغ من استعماله في حالة النفي.

مثال ذلك الإنسانية والحيوانية. فإن إثبات الإنسانية يوجب إثبات الحيوانية، ولا يوجب نفيُها نفي الحيوانية. وكذلك نفي الحيوانية يوجب منه نفي الإنسانية ولا يوجب من إثباتها إثبات الإنسانية.

ومما يدخل في هذا الباب الأسماء المفردة الواقعة على الجنس، التي يكون بينها وبين واحدها تاء التأنيث، فإنه متى أريد النفي، كان استعمال واحدها أبلغ، ومتى أريد الإثبات، كان استعمالها أبلغ.

فالأول وهو الخاص والعام نحو قوله تعالى: ﴿**مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ**﴾[1] ولم يقل "بضوئهم"؛ لأن ذكر النور[2] في حالة النفي أبلغ، من حيث إن الضوء فيه الدلالة على النور وزيادة، فلو قال: ذهب الله بضوئهم، لكان المعنى يعطي ذهاب تلك وبقاء ما يسمى نورًا؛ لأن الإضاءة، هي فرط الإنارة دليل قوله تعالى: ﴿**هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ...**﴾ فكل ضوء نور، وليس كل نور ضوءً. فالغرض من قوله تعالى: ﴿**ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ**﴾ إنما هو إزالة النور عنهم رأسًا، فهو إذا أزاله فقد أزال الضوء. وكذلك أيضًا قوله: ﴿**ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ**﴾؛ لأن كل من ذهب بشيء فقد أذهبه، وليس كل

---

(١) البقرة: ١٧.

(٢) في نسخة: لأن ذلك النور، والتصحيح من المثل السائر ص(٨٣٤).

من أذهب شيئًا، فقد ذهب به؛ لأن الذهاب بالشيء هو استصحاب له، ومضيّ بـه، وفي ذلك نوع احتجار بالمذهوب به، وإمساك له عن الرجوع إلى حالته، والعـود إلى مكانه، وليس كذلك الإذهاب للشيء، لزوال معنى الاحتجار منه.

وهذا كلام دقيق يحتاج إلى زيادة تأمل ومراجعة. ومما يحمـل علـى ذلـك الأوصاف الخاصة إذا وقعت على شيئين، وكان يلزم وصف أحدهما وصف الآخر، ولا يلزم عكس ذلك؛ نحو الطول والعرض؛ فإنه إذا قيل: مربع عَرْضه مائة ذراع، لـزم أن يكون طوله إما مثلها أو أكثر منها. قال الله تعالى: ﴿**وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ**﴾(1) فإنه إنما خص العرض بالذكر دون الطول؛ لأن الطول أكثر من العرض، والمعنى: أنه إذا كان هذا عرضها فكيف يكون طولها؟ هذا في حالة الإثبات، ولو أريد النفي لكان له أسلوب غير ما ذكرنا، وهو أن كان يخص بـه الطول دون العرض؛ وذلك موضع كثير الإشكال؛ فينبغي أن يكون المؤلـف بصـيرًا باستعماله؛ على اختلاف حالاته وتشعب مذاهبه.

وأما الأسماء المفردة الواقعة على الجنس، فنحو قوله تعالى في قصة نـوح عليه السلام: ﴿**قَالَ الْمَلأُ مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ (٦٠) قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلالَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ**﴾(2) فإنه إنما قال: "ليس بي ضلالة"، ولم يقل: ضلال؛ لأن الضلالة أبلغ في نفي الضلال عنه؛ كما لو قيل لك: "ألك تمر؟" فقلت في الجواب: "ما لي تمرة" كأن ذلك أنفى للتمر. ولو قلت: "مالي تمر" لما كان مؤديًا من المعـنى مـا كان يؤديه القول الأول، فاعرف ذلك(3).

---

(١) آل عمران: ١٣٣.

(٢) الأعراف: ٥٩-٦٠.

(٣) انظر: المثل السائر ص(٨٣٦).

النوع التاسع من الباب الأول من الفن الثاني

في التفسير بعد الإبهام

يفعل ذلك لتفخيم المبهم وإعظامه؛ لأنه هو الذي يطرق السمع أولا، فيذهب السامع كل مذهب، كقوله تعالى: ﴿وقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَلِكَ الأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَؤُلاءِ مَقْطُوعٌ مُصْبِحِينَ﴾[1] ففسر ﴿ذَلِكَ الأَمْرَ﴾ بقوله: ﴿دَابِرَ هَؤُلاءِ مَقْطُوعٌ﴾. وفي إبهامه أولاً، وتفسيره بعد ذلك تفخيم للأمر، وتعظيم لشأنه، فإنه لو قال تعالى: "وقضينا إليه أن دابر هؤلاء مقطوع...." لما كان بهذه المثابة من الفخامة، فإن الإبهام أولاً يوقع السامع في حيرة وتفكر، واستعظام لما قرع سمعه، وتشوقٍ إلى معرفة كنهه، والإطلاع على حقيقته.

ومن هذا الباب قوله تعالى: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ (٦) صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ...﴾[2] لما في الأول من التنبيه، والإشعار بأن الصراط المستقيم هو صراط المؤمن، فدل عليه بأبلغ وجه، كما تقول: "هل أدلك على أكرم الناس وأفضلهم!؟" ثم تقول: "فلان" فيكون ذلك أبلغ في وصفه بالكرم والفضل من قولك: "هل أدلك على فلان الأكرم الأفضل" لأنك تثبت ذكره مجملاً ومفصلاً، فجعلته علمًا في الكرم والفضل، كأنك قلت: من أراد رجلاً جامعًا للخصلتين فعليه بفلان.

وعلى نحو من هذا جاء قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ (٣٨) يَا قَوْمِ إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَإِنَّ الآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ (٣٩) مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلا يُجْزَى إِلا مِثْلَهَا وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾[3] ألا ترى كيف قال: ﴿أَهْدِكُمْ

---

(١) الحجر: ٦٦.

(٢) الفاتحة: ٦-٧.

(٣) غافر: ٣٨-٤٠.

﴿سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾؛ فأبهم: "سبيل الرشاد" ولم يبين أي سبيل هو، ثم فسر ذلك فافتتح كلامه بذم الدنيا، وتصغير شأنها؛ لأن الإخلاد إليها أصل الشر كله، ثم ثنى ذلك بتعظيم الآخرة والإطلاع على حقيقتها، وأنها هي الموطن والمستقر، ثم ثلث بذكر الأعمال، سيئها وحسنها، وعاقبة كل منهما، [ليثبط](1) عما يتلف(2)، وينشط لما يزلف، فكأنه قال: سبيل الرشاد هو الإعراض عن الدنيا، والرغبة في الآخرة، والامتناع من الأعمال السيئة، خوف المقابلة عليها، والمسارعة إلى الأعمال الصالحة، رجاء المجازاة عليها.

وكذلك قوله تعالى: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ..﴾(3) ولم يقل: قواعد البيت، لما في إبهام القواعد، وتبيينها بعد ذلك من الإيضاح، وتفخيم حال [المبين](4) مما ليس في الإضافة.

ومن هذا الباب قوله تعالى: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أَبْلُغُ الأَسْبَابَ (٣٦) أَسْبَابَ السَّمَوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى﴾(5) الآية. لما أراد تفخيم ما أمّل فرعون من بلوغه أسباب السموات، أبهمها أولاً ثم فسرها ثانيًا، ولأنها لما كان بلوغها أمرًا عجيبًا، أراد أن يورده على نفس متشوفة إليه؛ ليعطيه السامع حقه من التعجب، فأبهمه ليشوق إليه نفس هامان، ثم أوضحه بعد ذلك.

ومما يدخل في هذا الباب الابتداء بذكر الضمير ثم الإفصاح بذكر صاحبه بعده، كقوله تعالى: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ﴾(6) فإنه لما أتى

---

(١) في نسخة: "التثبيط"، وما أثبتناه من المثل السائر ص(٨٢٥).

(٢) ثبطه عن الأمر تثبيطًا إذا شغله عنه، والتلفُ: عطبٌ وهلاك في كل شيء، والفعل تلف يتلف تلفًا، وأتلف فلان ماله: أفناه إسرافًا [العين (١/١٨٨، ١٩٦) بتحقيقنا].

(٣) البقرة: ١٢٧.

(٤) في نسخة: "التبيين"، وما أثبتناه من المثل السائر ص(٨٢٦).

(٥) غافر: ٣٦-٣٧.

(٦) يونس: ٦١.

obeikandi.com

بالضمير، الذي هو "منه" قبل صاحبه الذي هو القرآن، كان ذلك تفخيمًا له، وتعظيمًا من أمره، ولو قال: "وما تكون في شأن وما تتلو من قرآن، ولم يذكر الضمير لما كان للكلام تلك الفخامة التي كانت له مع ذكر الضمير، وهذا مثل قولهم: "الكريم العالم الفاضل" ثم يقال: فلان، وقد سبق الكلام عليه، فاعرف ذلك وقس عليه.

وأما الإبهام من غير تفسير، فكثير شائع في القرآن العزيز، كقوله تعالى: ﴿**إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ**﴾(١) فقوله: ﴿**لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ**﴾ أي: الطريقة أو الحالة أو الملة هي أقومها وأسدها، وأي ذلك قدرت لم تجد له مع الإفصاح ذوق البلاغة الذي تجده مع الإبهام، وذلك لذهاب الوهم فيه كل مذهب، وإيقاعه على محتملات كثيرة، وهذا لا يخفى على العارف برموز صناعة التأليف، فاعرفه.

ومما يدخل في هذا الباب الاستثناء العددي، وهو ضرب من التأليف لطيف المأخذ عجيب المغزى، وإنما يفعل ذلك طلبا للمبالغة؛ لأن له تأثيرًا شديدًا في القلب، وموقفًا عظيمًا في النفس، وفائدته أول ما يطرق سمع المخاطب ذكرُ العقد في العدد فيكبر موقع ذلك عنده، وهو شبيه بما ذكرناه من الإبهام أولا ثم التفسير بعده ثانيا، فمن ذلك قوله تعالى: ﴿**وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلا خَمْسِينَ عَامًا**﴾(٢) فإنه إنما قيل: ﴿**أَلْفَ سَنَةٍ إِلا خَمْسِينَ عَامًا**﴾، ولم يقل: تسعماية وخمسين عامًا لفائدة حسنة، وهي ذكر ما ابتلي به نوح من أمته، وما كابده من طول المصابرة، ليكون ذلك تسلية لرسول الله ﷺ وتثبيتًا له، فإن ذلك رأس العدد الذي هو منتهى العقود وأعظمها أوقع وأوصل إلى الغرض من استطالة السامع مُدة صبره، وما لاقاه من قومه، فاعرف ذلك وقس عليه(٣).

---

(١) الإسراء: ٩.

(٢) العنكبوت: ١٤.

(٣) انظر: المثل السائر ص(٨٣١، ٨٣٢).

النوع العاشر من الباب الأول من الفن الثاني

في التعقيب المصدري

وإنما يعمد إلى ذلك لضرب من التأكيد لما تقدمه، والإشعار بتعظيم شأنه أو بالضد من ذلك، فمثال الأول قوله تعالى: ﴿**وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الأَرْضِ..**﴾ إلى قوله: ﴿**وَهُمْ مِنْ فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ آمِنُونَ**﴾[1] و﴿**مَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ**﴾[2] "فصنع الله" من المصادر المؤكدة لما قبلها، كقوله "وعْد الله، وصبغة الله"، ألا ترى أنه لما جاء ذكر هذا الأمر العظيم، الدال على القدرة الباهرة، من النفخ في الصور، وإحياء الأموات، والفزع، وإحضار الناس للحساب ومسير الجبال كالسحاب في سرعتها، وهي عند الرؤية لها والمشاهدة كأنها جامدة، عقب ذلك أن قال: ﴿**صنع الله**﴾ والمعنى أنَّ هذا الأمر العجيب البديع صنع الله، والمعنى: "ويوم ينفخ في الصور، وكان كيت وكيت من الأشياء الباهرة، وأثاب الله المحسنين، وعاقب المجرمين" فجعل هذا الصنع من جملة الأمور التي أتقنها وأتى بها على الحكمة والثواب، حيث قال: ﴿**صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ**﴾ يعني أن مقابلة الحسنة بالثواب، والسيئة بالعقاب من إحكامه للأشياء وإتقانه لها، وإجرائه إياها على قضايا الحكمة، أي: إنه عالم بما تفعل العباد وبما يستوجبون عليه، فيكافئهم على حسب أفعالهم، ثم لخص ذلك بقوله تعالى: ﴿**مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ..**﴾ إلى آخر الآيتين.

فانظر أيها المتأمل إلى بلاغة هذا الكلام وحسن نظمه وترتيبه، ومكانة إضماره، ورصانة تفسيره، وأخذ بعضه برقاب بعض، كأنما أفرغ إفراغًا واحدًا، ولأمر ما أعجز القوي وأخرس الشقاشق[3].

---

(١) النمل: ٨٧-٨٩.

(٢) النمل: ٩٠.

(٣) الشقاشق: الشقشقة لهاة البعير، وهو شيء كالرئة يخرجها البعير إذ هاج، والجمع الشقاشق، ومنه سمي الخطباء: شقاشق، شبهوا المكثار بالبعير كثير الهدر [اللسان: (شقق)].

ونحو هذا "المصدر" إذا جاء عقيب الكلام كان الشاهد بصحته، والمنادي على سداده، وأنه ما كان ينبغي أن يكون إلا كما قد كان. ألا ترى إلى قوله تعالى: صنع الله، وصبغة الله، ووعد الله، وفطرة الله.....بعدما وسمها بإضافتها إليه، بسمة التعظيم، كيف تلاها بقوله: "الذي أتقن كل شيء".

وأما الثاني، وهو ضد الأول، وذلك ما يراد به تصغير الشأن، فكقولك إذا أخرت ذكر إنسان تريد ذمه: "قد ركب هواه، واستمر على غيّه، وتمادى في جهله، وسحب ذيل عجبه..." وما أشبه ذلك. ثم تقول: "صنع الشيطان: الذي يخلب النفوس، ويسلب الألباب....."، وأمثال هذا كثيرة، فاعرفها.

obeikandl.com

النوع الحادي عشر من الباب الأول من الفن الثاني

في التقديم والتأخير مما لا يتعلق بعلم النحو

كتقديم المفعول على الفاعل، وتقديم الحال والظرف، أو غير ذلك، فإن هذا قد أفردنا له بابًا، وجعلناه مقصورًا عليه، ومرَّ ذكره في باب "شجاعة العربية".

وأما هذا الباب فإنه يتعلق بتقديم الأشياء بعضها على بعض في الذكر؛ لاختصاص أحدها بما يوجب له التقدم على الآخر، وذلك مما لا يحصره حد، ولا يأتي عليه شرح. وقد أشرنا نحن إلى نبذة منه، إذا تأملها الناظر في كتابنا هذا، يستدل بها على غيرها.

فمن ذلك تقديم السبب على المسبَّب؛ كقوله تعالى: ﴿**إياك نعبد وإياك نستعين**..﴾[1] فإنه إنما قدم العبادة على الاستعانة؛ لأن تقديم القربة والوسيلة قبل طلب الحاجة أنجح لحصول المطلوب، وأسرع لوقوع الإجابة، ولو قال: إياك نستعين، وإياك نعبد، لكان جائزًا، إلا أنه لا يسد ذلك المسدّ ولا يقع ذلك الموقع، وهذا لا يخفى على المنصف من أرباب هذه الصناعة.

وعلى نحو من ذلك جاء قوله تعالى: ﴿**وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا** (٤٨) **لِنُحْيِيَ بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا وَنُسْقِيَهُ مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَامًا وَأَنَاسِيَّ كَثِيرًا**﴾[2].

ألا ترى كيف قدم حياة الأرض وإسقاء الأنعام على إسقاء الناس؟ وإن كان الناس أشرف محلاً وأعلى مكانًا، وسبب ذلك ما أذكره لك وهو أن حياة الأرض سبب لحياة الأنعام والناس، ولما كانت الأنعام أيضًا من أسباب التعيش والحياة للناس قدمها على الناس في الذكر، ولأن حياة الناس بحياة أرضهم وأنعامهم، فقدم ما هو سبب حياتهم وتعيشهم على سقيهم.

---

(١) الفاتحة: ٥.

(٢) الفرقان: ٤٨-٤٩.

فهذه نكت القرآن العجيبة ورموز أسراره اللطيفة التي إذا مرّ الإنسان عليها من غير أن يتدبرها، ويعطيها أفضل تأمل وتفكر لا يقع على خباياها، ولا يظفر بغرائبها.

ومن هذا النوع تقديم الأكثر على الأقل، كقوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ﴾[1] فإنه إنما قدم الظالم لنفسه للإيذان بكثرته وأن معظم الخلق عليه ثم أتى بعده بالمتصدقين؛ لأنهم قليل بالإضافة إليه، وأخر السابقين بالخيرات، إذ كانوا أقل من القليل أعني من المقتصدين، فقدم الأكثر ثم جاء بعده؛ بالأوسط ثم ذكر الأقل أخيرًا، وذلك لائق في بابه، ولو عكست القضية لكان المعنى أيضًا واقعًا في موقعه؛ لأنه يكون قدم الأفضل فالأفضل؛ وذاك أن السابقين بالخيرات أفضل من المقتصدين، والمقتصدين أفضل من الظالمين؛ ولنوضح في ذلك طريقًا يعرفه مؤلف الكلام، فنقول:

اعلم أنه متى كان الشيئان أحدهما كثير والآخر أقل منه، وكان الأقل أفضل من الأكثر، فأنت بالخيار في تقديم أيهما شئت؛ لأن في كل واحد منهما ما يوجب له التقدم، فاعرف ذلك وقِسْ عليه نظائره وأمثاله.

ومن هذا النحو قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَاءٍ فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[2].

فإنه إنما قدم الماشي على بطنه؛ لأنه أدلّ على القدرة من الماشي على رجلين؛ إذ هو ماش بغير الآلة المخلوقة للمشي، ثم ذكر الماشي على رجلين بعده، وقدمه على الماشي على أربع؛ لأنه أدلّ على القدرة أيضًا حيث كثرت آلات المشي في الأربع، وهذا من باب تقديم الأعجب فالأعجب، فاعرف ذلك.

ومن هذا النوع في التقديم والتأخير أنه إذا كان مطلع الكلام في معنى من

---

(١) فاطر: ٣٢.

(٢) النور: ٤٥.

المعاني ثم يجيء بعده ذكر شيئين أحدهما أفضل من الآخر، وكان معنى المفضول مناسبًا لمطلع الكلام؛ فأنت بالخيار في تقديم أيهما شئت؛ لأنك إذا قدمت الأفضل فهو في موضع التقديم، وإنْ قدمت المفضول فلأنّ مطلع الكلام يناسبه، وذكر الشيء مع ما يناسبه أيضًا وارد في موضعه.

فمن هذا الأسلوب قوله تعالى: ﴿**وَإِنَّا إِذَا أَذَقْنَا الإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ الإِنْسَانَ كَفُورٌ**...﴾ إلى قوله: ﴿...**عَلِيمٌ قَدِيرٌ**﴾[١] فإنه إنما قدم الإناث أولاً على الذكور، مع تقدمهم عليهن، ثم رجع فقدم الذكور وأخر الإناث بعد ما نكرهُنّ وعرّف الذكور؛ لأنه ذكر البلاء في آخر الآية، وكفران الإنسان بنسيانه الرحمة السابقة عنده، ثم عقب ذلك بذكر مُلكه ومشيئه، وذكر قسمة الأولاد، فقدم الإناث؛ لأن سياق الكلام أنه فاعل ما يشاء، لا ما يشاؤه الإنسان، وكان ذكر الإناث، اللاتي هن من جملة ما لا يشاؤه الإنسان ولا يختار أهمَّ، فالأهم واجب التقديم، ولبلاء الجنس الثاني -كانت العرب تعده بلاءً- ذكر البلاء، ولما أخر الذكور وهم أحق بالتقديم ثم تدارك ذلك بتعريفه إيّاهم؛ لأن التعريف تنويه بالذكر، كأنه قال: "ويهب لمن يشاء الفرسان الأعلام المذكورين الذين لا يخفون عليكم" ثم أعطى بعد ذلك كلا الجنسين حقه من التقديم والتأخير، وعرفَ أنَّ تقديم الإناث لم يكن لتقدمهن، ولكن لمقتضى آخر، فقال: ذُكرانا وإناثًا، وهذه دقائق لطيفة، قلما ينتبه لها أو يعثر على رموزها.

ومن هذا الباب قوله تعالى: ﴿**وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلا**...﴾ إلى قوله: ﴿...**وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلا فِي السَّمَاءِ**﴾[٢] فإنه إنما قدم الأرض في الذكر على السماء، ومن حقها التأخير؛ لأنه إنما ذكر شهادته على شئون أهل الأرض وأحوالهم، ووصل ذلك بقوله: ﴿**لا يَعْزُبُ عَنْهُ**﴾ لاءم [بينهما؛ ليلي المعنى المعنى][٣] وأمثال هذا كثيرة، فاعرفه.

---

(١) الشورى: ٤٨-٥٠.

(٢) يونس: ٦١.

(٣) الزيادة من المثل السائر ص(٨٦٧).

النوع الثاني عشر من الباب الأول من الفن الثاني

في عطف المظهر على ضميره والإفصاح به بعده

وهذا إنما يعمد إليه لفائدة؛ وهي إما تعظيم حال المعطوف عليه، والتفخيم من شأنه، وإما ضد ذلك ونقيضه، مثال التعظيم قولك: "ولما تلاقينا وبنو تميم، أقبلوا إلينا يوفضون[1] وابتدروا نحونا يركضون[2]، وجاؤوا كأنهم في تكاثفهم ليل، وفي سرعتهم سيل، فرأينا منهم أسودًا في المقاتلة، وثعالب في المخادعة والمخاتلة[3]، وتناجد[4] بنو تميم علينا بحملة، فلذنا بالفرار، واستبقنا إلى تولية الأدبار" فإنك إنما قلت: "وتناجد بنو تميم" مصرحًا بذكرهم، ولم تقل: وتناجدوا، كما قلت: "أقبلوا" و "ابتدرُوا" و "جاؤوا" للدلالة على التعجب من شجاعتهم والتعظيم لشدتهم وإقدامهم، ولا سيما وقد أضفت إلى ذلك قولك: "لذنا بالفرار" و "استبقنا إلى تولية الأدبار" فكأنك قلت: وتناجد أولئك الفرسان المشاهير، والكماة[5]، وحملوا علينا حملة واحدة، فولينا مدبرين منهزمين.

ومن هذا الباب قوله تعالى: ﴿**أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ** (١٩) **قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنْشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ**...﴾[6] ألا ترى كيف صرح باسمه تعالى في قوله: ﴿**ثُمَّ اللَّهُ يُنْشِئُ**

---

(١) الوفض: العجلة، وأوفض واستوفض: أسرع [اللسان: (وفض)].

(٢) يركضون: قد ركض الرجل إذا فر وعدا [اللسان: (ركض)].

(٣) الختل: تخادع عن غفلة، والمخاتلة: مشي الصياد في خفية لئلا يسمع الصيد حسه [اللسان: (ختل)].

(٤) تناجد: ناجدت فلانًا بارزته بالقتال [العين: (نجد)].

(٥) الكماة: جمع كام وكميٍّ والكميّ هو الشجاع؛ لأنه تكمى السلاح أي تغطى به [المحيط في اللغة: (كمى)].

(٦) العنكبوت: ١٩-٢٠.

النَّشْأَةَ الآخِرَةَ﴾ مع إبهامه مبتدئًا في قوله: **﴿كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنْشِئُ النَّشْأَةَ الآخِرَةَ﴾**؟ والفائدة في ذلك ما ذكرناه ونبّهنا عليه؛ وهو أنه لما كانت الإعادة عندهم من الأمور العظيمة والأشياء المستصعبة، وكان صدر الكلام واقعًا معهم في الإبداء، وقرَّ رأيهم أن ذلك من الله ﷻ احتج عليهم بأن الإعادة إنشاء مثل الإبداء، وإذا كان الله لا يعجزه شيء هو الذي لا يعجزه الإبداء، فوجب أن لا تعجزه الإعادة؛ فللدلالة والتنبيه على عظم هذا الأمر الذي هو الإعادة، أبرز اسمه تعالى إلى العبارة وأوقعه مبتدأ ثانيا، فاعرف ذلك وقس عليه.

وأما الثاني وهو ضد الأول؛ فإنه يقصد به الذم كقوله تعالى: **﴿وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَات قَالُوا مَا هَذَا إِلا رَجُلٌ يُرِيدُ أَنْ يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُكُمْ وَقَالُوا مَا هَذَا إِلا إِفْكٌ مُفْتَرًى وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ إِنْ هَذَا إِلا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾**[1] فإنه إنما قال: "وقال الذين كفروا"، ولم يقل: "وقالوا" كالذي قبله، للدلالة على صدور الكلام عن إنكار عظيم، وغضب شديد، وتعجب من كفرهم بليغ، ولا سيما وقد انضاف إلى ذلك قوله تعالى: "وقالوا للحق لما جاءهم..." وما فيه من الإشارة إلى القائلين، والمقول فيهم، وما في ذلك من المبادهة؛ كأنه قال تعالى: "وقال أولئك الكفرة، المتمردون بجرأتهم على الله، ومكابرتهم لمثل ذلك الحق المنير، قبل أن يذوقوه: إنْ هذا إلا سحرٌ مبين". وأمثال هذا كثيرة، فاعرفها.

---

(١) سبأ: ٤٣.

النوع الثالث عشر من الباب الأول من الفن الثاني

في التخلص والاقتضاب

ولهذا النوع من الكلام، محل كريم، وموقع لطيف.

فأما التخلص؛ فهو أن يأخذ المؤلف في معنى من المعاني، فبينا هو فيه إذْ أخذ في معنى آخر، وجعل الأول سببًا إليه، فيكون بعضه آخذًا برقاب بعض، من غير أن يقطع المؤلف كلامه، ويستأنف كلامًا آخر، بل يكون جميع كلامه، كأنما أفرغ إفراغًا، وذلك مما يدل على حذق الشاعر، وقوة تصرفه، وطول باعه، واتساع قدرته، من أجل أن الشاعر يضيق عليه نطاق الكلام، ويكون متبعًا للوزن والقافية، فلا توافيه الألفاظ على حسب إرادته، ولا تتزن له.

وأما الناثر فإنه مطلق العنان، يمضي حيث شاء، فلذلك يشق التخلص على الشاعر أكثر مما يشق على الناثر.

وأما الاقتضاب؛ فهو ضد التخلص، وذلك أن يقطع الشاعر كلامه الذي هو فيه، ويستأنف كلامًا آخر غيره من مدح أو هجاء أو غير ذلك. ولا يكون للثاني علاقة بالأول، ولا تلفيق بينه وبينه، وهو مذهب القدماء من صَنَعَة الشعر، وسيأتي بيانه.

وأما المحدثون؛ فإنهم تصرفوا في التخلص وأبدعوا، فيه فأظهروا من ذلك العجائب والغرائب كقول علي بن الجهم[1]:

وليلةٌ كَحلَتْ بالنَّفْسِ مُقْلَتُهَا ... ألقَتْ قِناعَ الدُّجَى في كُلِّ أُخْدُودِ
قَدْ كاد يُغْرِقُني أمواجُ ظُلْمَتِها ... لولا اقتباسُ سنًا مِنْ وَجْهِ داودِ[2]

---

(١) علي بن الجهم بن بدر، أبو الحسن، من بني سامة، من لؤي بن غالب، شاعر رقيق، أديب من أهل بغداد كان معاصرًا لأبي تمام، وخص بالمتوكل العباسي ثم غضب عليه المتوكل، فنفاه إلى خراسان، وانتقل إلى حلب ثم خرج منها بجماعة يريد الغزو، فاعترضه فرسان من بني كلب؛ فقاتلهم وجرح ومات من جراحه سنة ٢٤٩هـ [الأعلام (٢٦٩/٤)].

(٢) البيتان من البسيط وهما لعلي بن الجهم في "الكشكول" ص(٨٨٦)، و"زهر الآداب وثمر الألباب" ص(١٢٣١)، و"نصرة الثائر على المثل السائر" (٥١٥) ويروى "السهد" بدلاً من "النفس".

ألا ترى ما ألطف هذا التخلص وأحسنه؛ فإنه ذكر أولاً الليلة وسوادها، وابتداء دجاها، وأنه في غمرات من ظلمتها كالغريق، ثم أدرج في ضمن كلامه، بعد ذلك، ذكر الممدوح بما يناسب ما هو من الظلمة، فذكر الإنارة والإضاءة بقوله: "سنا من وجه داود"، فصار الكلام كأنما أفرغ إفراغًا واحدًا، ومن هذا النحو قول ابن نباتة:

كمن الشُّمُوعِ وقد أَطْلَعَتْ ... مِنَ النَّارِ في كُلِّ رَأْسٍ لِسَانا
أناملُ أعدَائِكَ الخائفينَ ... تَضَرَّعُ تطلبُ مِنْكَ الأمانَا(١)

فهذا هو التخلص البديع في الصنعة الذي استحوذ على مجامع الحسن والرونق، فاعرفه.

وقال أبو العلاء محمد بن غانم المعروف بالغانمي: "إن كتاب الله العزيز خالٍ من الاقتضاب والتخلص". وهذا القول فاسد؛ لأن حقيقة التخلص إنما هي الخروج من كلام إلى كلام آخر غيره بلطيفة تناسب بين الكلام الذي خرج منه والكلام الذي خرج إليه، وفي القرآن العظيم مواضع كثيرة من ذلك، كالخروج من الوعظ والتذكير بالإنذار والبشارة بالجنة إلى أمر ونهي ووعد ووعيد ومن محكم إلى متشابه، ومن صفة لنبي مرسل وملك منزل إلى ذم لشيطان مريد، وجبار عنيد بلطائف دقيقة، ومعان آخذة بالقلب؛ فمما جاء من التخلص في القرآن الكريم قوله تعالى: ﴿**وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ**(٦٩) **إِذْ قَالَ لأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ** (٧٠) **قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ**(٧١) **قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ**...﴾ إلى قوله: ﴿**فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونَ**

---

(١) البيتان من المتقارب، و لم نقف لهما على نسبة واحدة، فهما ينسبان لابن نباتة، وينسب البيتان إلى أبي الحسن الأنباري في "الوافي بالوفيات" ص(٢١٩)، وينسبهما أبو منصور الثعالبي في "خاص الخاص" إلى أبي عبدالله المغلسي ص(٣٨٤)، وينسبهما ابن خلكان في "وفيات الأعيان" ص(٣٧٢٦) إلى أبي الحسن الأنباري، ويروى "كأن" بدلاً من "كمن"، و"سنانا" بدلاً من "لسانًا"، و"أصابع" بدلاً من "أنامل".

مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾[1] هذا كلام يذهل العقول ويحير الألباب، وفيه كفاية لطالب البلاغة والمنتصب لهذه الصناعة، فإنه متى أنعم فيه النظر وتدبر أثناءه[2]، ومطاوي حكمته؛ علم أن في ذلك غنى عن تصفح الكتب المؤلفة في هذا الفن، ألا ترى أيها المتأمل ما أحسن ما رتب إبراهيم عليه السلام كلامه مع المشركين حين سألهم أولا عما يعبدون سؤال مقرر لا سؤال مستفهم، ثم أنحى على آلهتهم، فأبطل أمرها بأنها لا تضر ولا تنفع، ولا تبصر ولا تسمع، وعلى تقليدهم آباءهم الأقدمين، فكسره وأخرجه من أن يكون شبهة فضلا عن أن يكون حجة، ثم أراد الخروج من ذلك إلى ذكر الإله، الذي لا تجب العبادة إلا له، ولا ينبغي الرجوع والإنابة إلا إليه، فصور المسألة في نفسه دونهم بقوله: "فإنهم عدوّ لي إلا رب العالمين" على معنى أني فكرت في أمري، فرأيت عبادتي لها عبادة العدو، وهو الشيطان، فاجتنبتها، وآثرت عبادة من الخير كله منه، وأراهم بذلك أنها نصيحة ينصح بها نفسه؛ لينظروا فيقولوا: ما نصحنا إبراهيم إلا بما نصح به نفسه، فيكون ذلك أدعى لهم إلى القبول لقوله، وابعث على الاستماع منه. ولو قال: "فإنهم عدو لكم" لم يكن بتلك المثابة، فتخلص عند تصويره المسألة في نفسه إلى ذكر الله عز وجل، وأجرى عليه تلك الصفات العظام من تفخيم شأنه، وتعديد نعمه من لدن خلقته وإنشائه إلى حين وفاته مع ما يرجى في الآخرة من رحمته؛ ليعلم بذلك أن من هذه صفاته حقيق بالعبادة وواجب على الخلق الخضوع له، والاستكانة لعظمته، ثم خرج من ذلك إلى ما يلائمه ويناسبه فدعى بدعوات المخلصين، وابتهل إليه ابتهال الأوّابين؛ لأن الطالب مولاه، والراغب إليه إذا قدم قبل سؤاله وضراعته الاعتراف بالنعمة والإقرار بالإحسان كان ذلك أسرع للإجابة، وأنجح لحصول الطلبة، ثم أدرج في ضمن دعائه ذكر البعث، ويوم القيامة ومجازاة الله لمن آمن به واتقاه بالجنة، ولمن ضل عن عبادته بالنار، فجمع الترغيب في طاعته والترهيب من معصيته، ثم سأل المشركين عما كانوا يعبدون من الأصنام

---

(١) الشعراء: ٦٩-١٠٢.

(٢) في نسخة "أبناءه"، وما أثبتناه من المثل السائر ص(١٢٩٤).

سؤال موبخ لهم، مستهزئ بهم، وذكر ما يُدفعون إليه عند ذلك من الندم والحسرة على ما كانوا فيه من الضلال وتمني العود ليؤمنوا.

فانظر أيها المتأمل إلى هذا الكلام الشريف الآخذ بعضه برقاب بعض مع احتوائه على ضروب من المعاني، فيتخلص من كل واحد منها إلى الآخر بلطيفة دقيقة حتى كأنه معنى واحد، فخرج من ذكر الأصنام وتقريعه لأبيه وقومه من عبادتهم إياها مع ما هي عليه من التعري عن صفات الإلهية حيث لا تضر ولا تنفع، ولا تبصر ولا تسمع، إلى ذكر الله تعالى، فوصفه بصفات الإلهية، فعظم شأنه وعدد نعمه؛ ليعلم بذلك أن العبادة لا تصح إلا له. ثم خرج من هذا إلى دعائه إياه وخضوعه له ثم خرج منه إلى ذكر يوم القيامة، وثواب الله وعقابه، فتدبر هذه التخلصات اللطيفة، هذا إلى غيره من تضمن هذا الكلام لأنواع من صناعة التأليف، وهي الإيجاز والكناية والتقديم والتأخير وإنابة الفعل الماضي عن الفعل المضارع.

فأما الإيجاز فلا خفاء به على العارف بما أشرنا إليه في بابه الذي سبق ذكره إلا أن من جملته قوله تعالى: ﴿**وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ** (٩٠) **وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ**﴾ فإنه جمع الترغيب، في طاعته والترهيب من معصيته مع عظمهما، وفخامة شأنهما في هذه الكلمات اليسيرة.

وأما الكناية؛ فقوله تعالى: ﴿**وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ**﴾ فالغاوون هاهنا كناية عن أبيه وقومه، ويدل على ذلك قوله: ﴿**وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ** (٩٢) **مِنْ دُونِ اللَّهِ**﴾ لأن كلامه في الأول كان معهم في عبادتهم الأصنام.

وأما التقديم والتأخير؛ فإن ذكر إبراهيم النعمة وتعديد الإحسان قبل الدعاء وطلب الحاجة.

وأما إنابة الفعل الماضي عن المضارع؛ فقوله تعالى: ﴿**وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ** (٩٠) **وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ** (٩١) **وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ**﴾ بعد قوله: ﴿**وَلا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ** (٨٧) **يَوْمَ لا يَنْفَعُ مَالٌ وَلا بَنُونَ** (٨٨) **إلا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ**﴾، وفي ذلك من الفائدة ما أشرنا إليه في بابه، وقد سبق ذكره، فاعرفه.

ومما استطرف من هذا النوع قول ابن الزمكدم(١):

وليلٍ كَوجهِ البَرقعيدِيِّ ظُلمَةً ... وبَرْدِ أغانيهِ وطولِ قرونِهِ
سريتُ ونومي فيه نومٌ مشرَّدٌ ... كعقلِ سليمان بنِ فَهْدٍ ودينِهِ
على أَوْلقٍ(٢) فيهِ التفاتٌ كأنَّهُ ... أبو جابرٍ في خَبْطِهِ وجُنُونِهِ
إلى أَنْ بدا ضوءُ الصَّباحِ كأنَّهُ ... سنَا وَجْهِ قِرْوَاشٍ وضوءِ جَبِينِهِ(٣)

وهذه الأبيات لها حكاية، وذلك أن هذا الممدوح كان جالسًا مع ندمائه في ليلة من ليالي الشتاء، وفي جملتهم هؤلاء الذين هجاهم الشاعر، وكان البرقعيدي مغنيًا وسليمان بن فهد وزيرًا، وأبو جابر صاحبًا، فالتمس الممدوح من الشاعر أن يهجو المذكورين ويمدحه، فأنشد هذه الأبيات، وقد قال بعض أرباب هذه الصناعات: إن هذا الشاعر لو تحدى بهذه الأبيات؛ لأعجز الشعراء أن يأتوا بمثلها؛ لأنه مع إتيانه بهذا النوع من علم البيان لم يقنع بذلك حق رقي في معانيه المقصودة إلى أسمق المنازل؛ فابتدأ في البيت الأول بهجو البرقعيدي، فجاء في ضمن مراده ذكر أوصاف ليل الشتاء جميعها، ولم يخل منها بشيء وهي الظلمة والبرد والطول، ثم إن هذه الأوصاف لليلة جاءت ملائمة لما وقعت عليه، مطابقة له، وكذلك البيت الثاني والثالث، ثم خرج إلى المدح بألطف وجه وأرق صنعة، فاعرف ذلك؛ فإنه لم يقل في هذا الباب أبدع من هذه الأبيات.

---

(١) هو سليمان بن الفتح الموصلي، أبو علي، ابن زمكدم، شاعر عباسي، له شعر في هجاء أبي إسحاق بن حجر الأنطاكي، وله ثماني قصائد قصار، توفي سنة ٣٩٨هـ.

(٢) الولق: العدو السريع، والأولق شبه الجنون [اللسان: (ولق)].

(٣) الأبيات من الطويل، وهي لابن الزمكدم في "نهاية الأرب في فنون العرب" ص(٤٥٠٥)، وتُنسب إلى الطاهر الجزري في "الوافي بالوفيات" (١٨٦٦٣)، و"فوات الوفيات" ٢٠٠٦، و"وفيات الأعيان" (٤٠٢٧).

ومما جاء على نحو ذلك قول إسحاق بن إبراهيم الموصلي:

وصافيةٍ تُغْشِـي العيـونَ بنورِهـا رهينة عـامٍ في الـدِّنان[1] وعـامِ

أَدَرنا بها الكـأسَ الرويـة بيننـا من الليلِ حتى انجابَ كُـلُّ ظَـلاَمِ

فما ذَرَّ[2] قَرْنُ الشمسِ حتى رأيتنـا مِنَ العيِّ نحكي أَحْمَدَ بْنَ هشامِ[3]

ألا ترى ما أحسن ما خرج هذا الشاعر في الهجاء، فإنه أوهم في الأول الخوض في صفة الخمر ثم استدرج المعنى الذي قصده في صفة الخمر، من حيث لا يعلم السامع لمطلع كلامه أنه يريد ذلك؛ وأمثال هذا كثيرة، فاعرفها.

وأما الاقتضاب؛ فهو الذي أشرنا إليه في صدر هذا النوع، وهـو أن يقطـع المؤلف كلامه ويستأنف كلامًا آخر غيره، من غير علاقة تكون بينه وبين ما قبله، فمن ذلك ما هو أحسن من التخلص، وهو فصل الخطاب، ولنبين في ذلك ما يوقفك عليه، ويأخذ بمجامع قلبك، فنقول: إن أريد فصل الخطاب، الفاصل في الخطاب الذي يفصل بين الصحيح والفاسد، والحق والباطل، والصواب والخطأ، فهو "فَعْل" بمعـنى فاعـل كالقوم والزور، وقال بعضهم: هو "أما بعد" لأن المتكلم يفتتح، إذا تكلـم في الأمـر الذي له شأن؛ بذكر الله ﷻ وتمجيده، فإذا أراد أن يخرج المسوق إليه فصل بينه وبـين ذكر الله ﷻ "أما بعد" وهذا مذهب المحققين من علماء البيان.

قالوا في الفصل الذي هو أحسن من الوصل هذا، وهي علامة وكيـدة مـن الخروج من كلام إلى كلام آخر غيره كقوله تعالى: ﴿**واذْكُرْ عِبَادَنَا إبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولِي الأَيْدِي وَالأَبْصَارِ (٤٥) إِنَّا أَخْلَصْنَاهُمْ بِخَالِصَةٍ ذِكْـرَى الـدَّارِ**﴾ إلى

---

(١) الدنان: جمع "دن" وهي قارورة الخمر.

(٢) ذر: ذرت الشمس تذر ذرورًا: طلعت وظهرت، وقيل: هو أول طلوعها [اللسان: (ذرر)].

(٣) الأبيات من الطويل، وهي في التذكرة الحمدونية لابن حمدون (٤١٧٣) و"الزهرة" (١٢٧٧)، و"الكامل" (١٢٤٤)، ويروى "رقيقة" بدلاً من "بنورها"، و"عام" بدلاً من "عامر" و"موهنًا" بدلاً من "بيننا"، و"الغي" بدلاً من "العي".

openkanal.com

قوله: ﴿...**مُفَتَّحَةً لَهُمُ الأَبْوَابُ**﴾[1] ألا ترى ما ذكر قبل ﴿**هَذَا ذِكْرٌ**﴾ في الأنبيـــاء، وأراد أن يذكر على عقبه بابًا آخر، وهو ذكر الجنة وأهلها، فقال: ﴿**هَذَا ذِكْـــرٌ**﴾ ثم قال: ﴿**وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَآبٍ**﴾. ويدل عليه لما أتم ذكر أهل الجنة وأراد أن يعقبــه بذكر أهل النار قال: ﴿**وَإِنَّ لِلطَّاغِينَ لَشَرَّ مَآبٍ**﴾، وذلك من فصل الخطاب الذي هو ألطف موقعًا من التخلص، فاعرفه.

---

(١) ص: ٤٥-٥٠.

obeikandl.com

النوع الرابع عشر من الباب الأول

من الفن الثاني في المبادئ والافتتاحات

وهو نوع من صناعة التأليف جمّة فوائده، وذلك أن يجعل مطلع الكلام من الشعر والخطب والرسائل دالاً على المعنى المقصود بذلك الشعر أو تلك الخطبة أو تلك الرسائل. ومن أدب ذلك أن لا يذكر الشاعر في افتتاح القصيدة المديح بما يتطير به، وقال بعض علماء البيان: "أحسِنوا معاشرَ الكتاب الابتداءات؛ فإنهن دلائل البيان". وينبغي للشاعر أن يحترز في المدح مما يتطير به من وصف إقفار الديار، ودثور المنازل والأطلال، وتشتت الآلاف، وذم الزمان، وأشباه ذلك، ولا سيما إذا كان في التهاني، فإنه يكون أشد قبحًا، وإنما يستعمل ذلك في الخطوب النازلة، والنوائب الحادثة، ومتى كان الكلام في المديح مؤسسًا على هذا المثال تطير منه سامعه، فإن رأس صناعة التأليف وضع كل شيء مكانه، وإنما خصصت الابتداءات بالاختيار؛ لأنها أول ما يطرق السمع من الكلام، فإنه متى كان الابتداء لائقًا بالمعنى الوارد بعده توفرت الدواعي على استماعه وتزايدت البواعث على الإصغاء إليه، ومن أقبح الابتداءات قول ذي الرمة:

"ما بال عينيك منها الماء ينسكب"(١)

لأن مقابلة الممدوح بهذا الخطاب لا خفاء بقبحه(٢)، وقد أنكر الفضل بن يحيى(٣) على أبي نواس قوله فيه:

"أَرَبْعَ البِلَى إنَّ الخُشُوعَ لَبَادِي"(٤)

---

(١) صدر بيت من البسيط، وهو في "الأغاني" (٧٦٧٩)، والإيضاح في علوم البلاغة ص(٦٤٠)، وفي نهاية الأرب في فنون الأدب ص(٤٥٢٨)، والعمدة ص(٤٦٣)، ويروى عجز البيت: "كأنه من كلى مفرية سرب".

(٢) انظر: الصناعتين ص(٨٤٧-٨٤٨)، والعمدة ص(٤٦٢-٤٦٣).

(٣) الفضل بن يحيى بن خالد البرمكي، وزير الرشيد العباسي، وأخوه في الرضاع، ولد سنة ١٤٧هـ، كان من أجود الناس، استوزره الرشيد مدة قصيرة ثم ولاه خراسان سنة ١٧٨هـ فحسنت فيها سيرته، توفي الفضل في سجنه بالرقة سنة ١٩٣هـ [الأعلام: (١٥١/٥)].

(٤) صدر بيت من الطويل، وهو في ديوانه- (٧٠)، وفي الصناعتين ص(٨٤٨)، والعمدة ص(٤٦٧)، وعيار الشعر ص(٢٠٠)، ويروى عجزه: عليك وإني لم أخنك ودادي.

obeikandi.com

فلما انتهى إلى قوله:

سَلامٌ على الدُّنْيا إِذا مَـــا فَقَــدْتُمُ   بني برمَكٍ مِنْ رائحــينَ وغَــادِي[1]

استحكم تطير الفضل بن يحيى، وقيل: إنه لم يمض على ذلك أسبوع واحــد حتى نكبوا[2]، وحكي أنه لما فرغ المعتصم من بناء قصره بالميدان[3]، جلس فيه وجمــع أهله وأصحابه وأمرهم أن يلبسوا أسنى الملابس، ويظهروا محاسن الزينة، وجلس علــى سرير مرصع بالجواهر وإلى جانبه أسرة، فكلما دخل عليه رجل من أكابر دولته أجلس في الموضع الذي يليق به، فما رأى الناس أحسن من ذلك اليوم، فاستأذن إسحاق بــن إبراهيم الموصلي في الإنشاد فأذن له، فأنشد شعرًا ما سمع بأحسن منه في صفته وصــفة المجلس إلا أنه استفتح بذكر الديار القديمة وبقية آثارها، فقال:

يا دارُ غَيَّــرك البِلَــى ومَحَــاكِ   يا لَيْتَ شِعْرِي ما الَّــذِي أَبْــلاكِ؟![4]

فتطيرَ المعتصم من ذلك، وتغامز الناس على إسحاق بن إبراهيم، وعجبوا كيف ذهب عليه مثل ذلك مع علمه ومعرفته وطول خدمته للملــوك، ثم أقــاموا يــومهم وانصرفوا فما عاد منهم اثنان إلى ذلك المجلس، وخرج المعتصم إلى "سر مــن رأى"[5]،

---

(١) البيت من الطويل، وهو في ديوانه- (٧١).

(٢) انظر: سر الفصاحة ص(٣١٠)، والصناعتين ص(٨٤٨).

(٣) شارع الميدان من محال بغداد بالجانب الشرقي خارج الرصافة، وكان شارعًا مادا من الشماسية إلى سوق الثلاثاء، وفيه قصر أم حبيب بنت الرشيد [معجم البلدان (٣/٣٠٧)].

(٤) البيت من الكامل، وهو في "الإيضاح"- (٣٦٢)، والصناعتين ص(٨٥٠)، والبديع في البديع في نقد الشعر لأسامة بن منقذ ص(٥٢٩).

(٥) وهي مدينة سامراء الآن.

وخرب القصر، فإذا أراد الشاعر أن يذكر دارًا في مديحه؛ فليذكر كما ذكر الخريمي[1]:

ألاَ يَا دَارُ دامَ لكِ السرورُ   وساعَدك النَّضارةُ والحبورُ

وكما قال أشجع[2]:

قَصْرٌ عليهِ تَحِيَّةٌ وسَلاَمُ   نَشَرَتْ عليه جَمَالَها الأيَّامُ[3]

وما أجدر هذا البيت بمفتح شعر إسحاق بن إبراهيم الذي أنشده للمعتصم في ذلك القصر، فإنه لو ذكر هذا وما يجري مجراه لكان حسنًا لائقًا.

وسئل بعضهم عن أحذق الشعراء، فقال: من أجاد الابتداء والمقطع، ألا ترى أن قصيدة أبي نواس التي هي:

يا دارُ ما فعلتْ بكِ الأيامُ   لم يَبْقَ فيكِ بشاشةٌ تُسْتَامُ[4]

قد قيل: إنها من أشرف شعره وأعلاه منزلة، وأن أبا تمام مع تقدمه في صناعة الشعر أتعب نفسه في الإتيان بما يماثلها أو يشابهها فلم يقدر على ذلك، وهي مع شرفها وعلو منزلتها في الشعر مستكرهة الابتداء من حيث النظر؛ لأنها في مدح الخليفة الأمين. وافتتاح المديح بذكر الديار ودروسها يتطير به، ولا سيما في حق الخلفاء والملوك، ولهذا

---

(١) إسحاق بن حسان بن مَوهي، أبو يعقوب الخريمي، شاعر مطبوع، خراساني الأصل من أبناء السغد، ولد في الجزيرة الفراتية، سكن بغداد، واتصل بخريم الناعم فنسب إليه وعمي قبل وفاته سنة ٢١٢هـ [الأعلام: (٢٩٤/١)].

(٢) هو أشجع بن عمرو السلمي أبو الوليد من بني سليم من قيس عيلان، شاعر فحل كان معاصرًا لبشار، ولد باليمامة ونشأ في البصرة، وانتقل إلى الرقة، واستقر ببغداد، مدح البرامكة وانقطع إلى جعفر بن يحيى فقربه من الرشيد، فأعجب الرشيد به، وعاش إلى ما بعد وفاة الرشيد ورثاه، وأخباره كثيرة.

(٣) البيت من الكامل، وهو منسوب إلى أشجع السلمي في "الإيضاح"- (٣٦٣)، والأغاني (١٢٠٧٥/١٨)، وخزانة الأدب ص(٥٦٩).

(٤) البيت من الكامل، وهو في ديوانه- (٦١)، وفي طبقات الشعراء لابن المعتز ص(٣٥٥)، ووفيات الأعيان لابن خلكان ص(٨٧٤)، ويروى عجزه: ضامتك والأيام ليس تضام.

يختار من ذكر الأماكن والمنازل ما راق لفظه، وحسن التلفظ به كالغوير والعقيق وزرود[1] وأشباه ذلك، ويختار أيضًا من أسماء النساء في الغزل نحو "سعاد وأمام وفوز" وما يجري هذا المجرى. ولقد عيب على الأخطل من أجل تغزله باسم "قدور" وهي امرأة كان يحبها؛ فإنه مستقبح في الذكر، وأمثال هذه الأشياء تجب مراعاتها والاعتناء بها، فاعرف ذلك.

ولما نظر أبو العَمَيْثَل[2] في قصيدة أبي تمام وهي:

"أَهُنَّ عوادي يُوسفٍ وصَوَاحِبُهْ"[3]

استرذل ابتداءها فأسقط القصيدة كلها حتى عاد إليه أبو تمام ووقفه على موقع الاختيار منها وهو:

إليكَ جَزَعنا مَغْرِبَ الشَّمْسِ كُلَّمَا   أجزنا ملاً صَلَّتْ عليك سَبَاسِبُهْ[4]

وغير ذلك مما ذكره أبو تمام في قصيدته، فلما وقف أبو العميثل عليه راجع عبدالله بن طاهر فأجازها له.

ولأبي تمام ابتداءات كثيرة تجري هذا المجرى كقوله:

"قَدكَ اتَّئِد أربَيْتَ في الغُلَواءِ"[5]

---

(١) الغوير والعقيق وزرود: أسماء أماكن في بلاد العرب.

(٢) عبدالله بن خليد بن سعد، مؤدب من الشعراء الفضلاء، كان أبوه خليد مولى لبني العباس، نشأ عبدالله في البادية، واتصل بالأمير طاهر بن الحسين، فاستكتبه طاهر، وعهد إليه بتأديب ولده عبدالله فأقام معه في خراسان وتوفي سنة ٢٤٠هـ [الأعلام: (٤/٨٥)].

(٣) صدر بيت من الطويل، وهو في شرح ديوانه- (٤٧)، ويروى عجزه:
فعزمًا فقد ما أدرك السؤل طالبه
وفي العمدة ص(٢٨٦)، والموازنة بين أبي تمام والبحتري للآمدي ص(٢٣).

(٤) البيت من الطويل، وهو في شرح ديوانه- (٤٨)، وفي الحماسة المغربية ص(١٣٢)، ويروى "هبطنا" بدلا من "أجزنا".

(٥) صدر بيت من الكامل لأبي تمام في العمدة ص(١٠٢٥)، وسر الفصاحة ص(١٠٧)، ويروى عجز البيت: كم تعذلون وأنتم سجرائي
ويرى "اتئب" بدلاً من "اتئد".

فإن الابتداء المستكره ليس من شرطه أن يكون مما يتطير به فقط، وإنما يكون مستكرهًا كما أشرنا إليه من قول أبي تمام وما جانسه، فاعرف ذلك.

واعلم أن الابتداء البديع البارع يكون داعيًا إلى الإصغاء إلى ما بعده من الكلام، ألا ترى أن الله تعالى قال: "حَم، ألم، وطسم، وكهيعص". فيقرع الأسماع شيء بديع، ليس لها بمثله عادة فيكون ذلك داعيًا لها إلى الاستماع، ولذلك استحسن من الابتداءات في الكتب "الحمد لله" لأن النفوس تتشوف إلى تمجيد الله ﷻ والثناء عليه، وتميل إلى معرفة ما يأتي بعده من الكلام.

ومن أحسن الابتداءات ما ذكره مهيار[1]؛ فإنه أتى بالمعنى المقصود من أول كلامه فقال:

أمَا وهواها عِذْرَةً وتنصُّلاً ... لقد نقل الواشي إليها فأمحلا
سعى جُهدَه لكن تَجاوَز حدَّهُ ... وكثَّر فارتابت ولو شاء قلَّلا[2]

ألا ترى ما ألطف هذا الاعتذار الذي قد أبرزه في هيئة القول، وأخرجه في معرض النسيب، والمراد به الاعتذار إلى الممدوح، وذلك من أبدع ما يكون في هذا الباب.

ومما جاء على نحو منه قول بعض المتأخرين في أنوشروان الوزير[3]، وقد خلع

---

(١) هو مهيار بن مرزويه الديلمي: شاعر كبير من أهل بغداد، ينعته مترجموه بالكاتب، كان مجوسيًا وأسلم سنة ٣٩٤هـ، على يد الشريف الرضى. له ديوان شعر أربعة أجزاء، كان يقرأ عليه أيام الجمعات في جامع المنصور ببغداد، توفي بالكرخ عام ٤٢٨هـ [الأعلام: (٣١٧/٧)].

(٢) البيتان من الطويل، وهما لمهيار الديلمي في مطلع إحدى قصائده، وهما في "التذكرة الفخرية" ص(٣٢٧)، و"معاهد التنصيص" لعبدالرحيم العباسي ص(٢٣٨٣)، ويروى "وأمحلا" بدلاً من "فأمحلا".

(٣) هو معين الدين شرف الدولة أبو نصر شروان بن خالد، ولد بالري سنة ٤٥٩هـ، ونشأ نشأة الكتاب فتنقلت به الأحوال إلى أن ولي الوزارة للسلطان مغيث الدين محمود ثم عزل ثم ولي أكثر من مرة كانت أُخراهم أن عزل قبل وفاته بعامين، وأقام في داره بالحريم الطاهري بالجانب الغربي من بغداد إلى أن توفي في صفر سنة ٥٣٢هـ [انظر: سير أعلام النبلاء (١٥/٢٠-١٦)].

عليه:

خُلعَت من الحَدَثان أَحصَنُ أَدْرُعِي   فلقد سُنِنَّ علــى الكـريم الأَرْوَعِ[1]

وكذلك قوله وقد وشي في حقه إلى الممدوح:

وراءك أقــوالَ الوشــاةِ الفــواجرِ   ودونك أحــوالَ الغــرام المُخــامر

فلولا ولُوعٌ منك بالصدقِ ما وَشَوْا   ولولا الهوى لم أُنتَــدَب للمعَــاذِرِ[2]

فسلك في هذا القول مذهب مهيار إلا أن في هذا زيادة على ما قاله مهيــار، وهي في المعاتبة على الالتفات إلى الوشاة، والاستماع منهم وذلك من أغرب ما قيل في هذا المعنى، فاعرفه.

ومن الابتداءات في الكتب قول مؤلف الكتاب: "الحمد لله رافع لواء الإيمــان، وقامع أولياء الشرك والبهتان، الذي نصر الإسلام وأطلع نجومه، وخذل الكفر وطمس رسومه"، فإنه قد جيء بالمعنى المقصود، وهو البشرى بهزيمة الكفار من أول الكتــاب، ومتى سمع الإنسان هذا المطلع؛ علم أنه يتضمن البشرى بإدالة المسلمين على المشــركين من غير أن يحتاج إلى وقوف على حديث الوقعة.

ومن ذلك قول بعض الكتاب في زمن المأمون وقد نتجَتْ ناقةٌ شخصَ آدمي، فأمر أن يكتب بذلك إلى البلاد، فقال: "الحمد لله خالق الأنام في بطــون الأنعــام"[3]، فعبَّر عن المراد في أول كلامه. وأمثال ذلك كثيرة، فاعرفها.

---

(١) البيت من الكامل، وهو مطلع إحدى قصائد الحيص بيص، وهو في "خريدة القصر وجريــدة العصر" ص(٢٦٤)، ويروى "جعلت" بدلاً من "خلعت" و"أدرع" بدلاً من "أدرعي".

(٢) البيتان من الطويل، وهما للحيص بيص في "خريدة القصر وجريدة العصر" ص(٣١٩).

(٣) انظر: نهاية الأرب في فنون الأدب ص(٤٥٢٧)، والوافي بالوفيات ص(١٧٩٧١).

النوع الخامس عشر من الباب الأول من الفن الثاني

في قوة اللفظ لقوة المعنى

وهو نوع من علم البيان شريف المحل، لطيف المأخذ، وإنما يعمد إليه لضرب من المبالغة.

اعلم أن اللفظ إذا كان على وزن من الأوزان ثم نقل إلى وزن آخر أكثر منه فلا بد وأن يتضمن من المعنى أكثر مما كان يتضمنه أولاً، والدليل على ذلك أن الألفاظ هي أدلة على المعاني وأمثلة للإبانة عنها، فإذا زيد في الألفاظ أوجبت القسمة زيادة المعاني بقدر ما زيد في الألفاظ. وهذا لا نزاع فيه؛ لبيانه ووضوحه. فمن ذلك "خشن" و"اخشوشن" فمعنى "خشن" دون معنى "اخشوشن" لما فيه من تكرير العين وزيادة الواو. ونحو "فعل" و"افعوعل" وكذلك قولهم "أعشب المكان"، فإذا أرادوا كثرة العشب؛ قالوا: "اعشوشب" ومثله "فعل" و"افتعل" نحو "قدر" و"اقتدر" فاقتدر أقوى معنى من قولهم: "قَدر"، قال الله تعالى: ﴿أَخْذَ عَزِيزٍ مُقْتَدِرٍ﴾[1] فمقتدر هنا أبلغ من "قادر" من حيث كان الموضع لتفخيم الأمر وشدة الأخذ الذي لا يصدر إلا عن وفور الغضب، وكثرة السخط، ومما ينتظم في هذه الأوزان من أسماء الفاعلين، فإن بعضها أبلغ من بعض، نحو "فاعل" و"فعيل" وما جرى مجراها.

ولقد سألني بعض الإخوان عن "فاعل" و "فعيل" وأيهما أبلغ؟ فقلت في الجواب ما أذكره ههنا وهو إن كانت العرب قد قالت: إن "فاعلا" أبلغ من "فعيل" أو إن "فعيلاً" أبلغ من "فاعل" بغير علة أوجبت ذلك ولا سبب اقتضى تمييز أحدهما عن الآخر، إلا تحكمًا محضًا، فذلك مسلم إليهم؛ لأنه لغة القوم وكلامهم، وهم المتحكمون فيه، وإن كانت العرب لم تميز "فاعلا" على "فعيل" ولا "فعيلا" على "فاعل" ولا قالت: إن أحدهما أبلغ من الآخر، فلنا نحن أن نبحث عن ذلك، فإن وجدنا لأحدهما مزية على

---

(١) القمر: ٤٢.

الآخر ذكرناها، وإن لم نجد كان لذلك أسوة بباقي لغتهم، التي لا نعرف لها علة، وإنما نأخذ عنهم بالنقل والتقليد، ولما سألتَ، أيها الأخ، عن الفرق بين "فاعل" و "فعيل" وأيهما أبلغ؟ أنعمت النظر في ذلك مستعينًا بالله، فسنح الفرق بينهما بما أذكره، والله الموفق، فأقول: أما الحكم على أن أحدهما أبلغ من الآخر؛ فهو أن "فاعلا" أبلغ من "فعيل". وأما علة الحكم فمن وجهين:

الأول: أن "فاعلا" لم يرد في كلام العرب إلا اسمًا للفاعل فقط نحو "ضارب" اسم فاعل من "ضرب" و "قاتل" اسم فاعل من قَتَل، وهذا مطرد في بابه لم يأت غيره وأما "فَعِيل" فإنه يكون اسما للفاعل وبمعنى "المفعول" فأما كونه اسمًا للفاعل فنحو "ظريف" اسم فاعل من "ظرف" و "كريم" اسم فاعل من "كرم" وكذلك ما جرى هذا المجرى.

وأما كونه بمعنى "المفعول"؛ فهو نحو "قَتِيل وجَرِيح" اللذين هما بمعنى المقتول والمجروح. فلما كان "فاعل" مختصًا باسم الفاعل لا يشاركه فيه غيره، وفعيل يشترك فيه اسم الفاعل والمفعول كان ما هو مختص بالفاعل وحده أبلغ مما يشترك فيه الفاعل والمفعول، وذلك لقوة الفاعل على المفعول وضعف المفعول عن الفاعل، وما يختص بأمر قوي أبلغ مما يتردد بين أمرين قوي وضعيف. فإن قيل: إن "فاعلاً" قد جاء بمعنى المفعول كما جاء "فعيل" بمعنى المفعول في قوله تعالى: ﴿مَاءٍ دَافِقٍ﴾ أي: مدفوق، قلنا: أما قولك إن "فاعلاً" قد جاء بمعنى المفعول، واستدلالك عليه بالآية، فإنه ضعيف شاذ؛ لأن ذلك لم ينقل جوازه عن العرب و لم يذهب إليه أحد من العلماء، غير أن بعض المفسرين قد ذكره وزيف قوله الجمهور، وأجمعوا على مخالفته[1]، وقالوا: إن معنى قوله

---

(١) قال الجوهري: "دفقت الماء أدفقته دفقًا أي: صببته فهو ماء دافق؛ أي: مدفوق كما قالوا سر كاتم أي: مكتوم؛ لأنه من قولك: دفق الماء على ما لم يسم فاعله، ولا يقال: دفق الماء. وأنكر الأصمعي استعماله لازمًا. وقال الأزهري: "هذا جائز في النعوت"، ومعنى دافق: ذي دفق، كما قال الخليل وسيبويه، وقال الفراء: "أهل الحجاز أفعل لهذا من غيرهم؛ أي: يجعلوا المفعول فاعلاً إذا كان في مذهب نعت" [انظر: الصحاح (دفق)، وتاج العروس (دفق)].

تعالى: "**ماء دافق**" أي: مندفق وذلك أيضًا اسم "فاعل" من "انفعل" نحو "انطلق فهو منطلق" و"انعكف فهو منعكف"، وما جرى هذا المجرى، ثم لو نقل جواز هذا عن العرب وصح عنهم لما كان ناقضًا لدعوانا نحن في "فعيل" وأنه يجيء بمعنى "المفعول" شائعًا كثيرًا في كلامهم ويصح عليه القياس. وما ذكرته أيها المعترض شاذ قليل لا يعتد به ولا يقاس عليه؛ لأنه لم يأت منه إلا لفظة واحدة أو لفظتان أو لفظات كماء دافق وعيشة راضية" والشائع الكثير في كلام العرب وغيره أرجح جانبًا من الشاذ القليل، وما يقاس عليه أبلغ مما ليس بمقيس.

وأما الوجه الثاني في إثبات أنَّ "فاعلاً" أبلغ من "فعيل"؛ فهو أن "فاعلاً" يكون اسمًا للفاعل متعديًا كان أو قاصرًا فهو إذا يعمها جميعًا نحو "غالب وجالس"، وأما "فعيل" فإنه لا يكون اسمًا إلا لفاعلٍ فعله قاصر غير متعد نحو "شريف ونبيه وغليظ" وهو مطرد في هذا الباب لم يأت في كلام العرب غيره، فلما كان "فاعل" اسمًا للفاعل المتعدي فعله والقاصر معًا، و"فعيل" اسمًا للفاعل القاصر فعله فقط كان "فاعل" أبلغ من "فعيل" المتعدي فعل فاعله إلى مفعوله، وقصور فعل "فعيل" عن معموله، فإن قيل: إن "فعيلاً" جاء اسمًا للفاعل المتعدي فعله على غير وزن "فعل" نحو "خطب فهو خطيب" و"علم فهو عليم" وهذا يدل على أن "فعيلاً" مساو "لفاعل" في التعدي لأن "فاعلاً" قد جاء اسمًا للفاعل متعديًا كان فعله أو قاصرًا، وكذلك قد جاء "فعيل" أيضًا كما رأينا.

قلنا هذا الذي أشرت إليه من أن فعيلاً قد جاء اسمًا للفاعل المتعدي فعله على غير وزن "فعل" نحو "خطب فهو خطيب وعلم فهو عليم" مسلم إليك إلا أن ذلك لا يكون ناقضًا لما ذكرناه ولا اعتراضًا عليه؛ لأن الذي أوردته إنما كان يصح لك الاعتراض به على ما أشرنا إليه أن لو كان "خطيب" وحده اسم فاعل من "خطب" ولا يجوز فيه "خاطب" أو كان "عليم" اسم فاعل من علم[1] ولا يجوز فيه "عالم" وكذا

---

(١) في نسخة: عليم.

الأصل في "خطب" أن يكون اسم فاعله "خاطب"؛ ولهذا لا ترى وزن "فعيل" أبدًا وهو اسم فاعل من "فَعَل أو فَعِل" ألا وهو دخيل على "فاعل"؛ لأنه الأصل وعليه القياس. والدليل على ذلك الإطراد والغلبة، لأن من شروط القياس الإطراد والغالب عليه أن يكون كذلك. وهذا موجود في "فَعَل" و "فَعِل" فهو "فاعل"، وأما "فعيل" منهما فهو شاذ نادر والشاذ النادر لا ينقض القياس، والدليل على أن "فعيلاً" شاذ في "فَعَل وفَعِل" فإنه قد جاء فيهما ألفاظ معدودة لا غير، وإنما إطراده وغلبته "فَعُل" نحو "شرُف فهو شريف" و "كرم فهو كريم" و "نَبُهَ فهو نبيه" وكذلك ما جرى هذا المجرى، على أنه قد شذ منه "فاعل" أيضًا نحو "طهُر" فهو طاهر، ولا يقال فيه "طهير"، فاعرفه.

فإن قيل: إن "فعيلاً" هو اسم فاعل من الصفات الذوية، ولسنا نعني بذلك ما كان مقومًا للذات، نحو الحياة التي لا تقوم الذات إلا بها، وإنما نعني بذلك ما كان ملازمًا للذات نحو "عليم وقدير وسميع وبصير" و"فاعل" هو اسم فاعل من الصفات العرضية نحو "ضارب وآكل وشارب" وما يكون مختصًا بصفة الذوات أبلغ مما يكون مختصًا بصفة الأعراض، وأشرف محلاً، الجواب عن ذلك: أنا نقول لو سلم لك يومًا المعترض ما ذكرته واطرد في بابه لكان ناقضًا لما ذكرناه نحن وادعيناه من أن "فاعلاً" أبلغ من "فعيل"، وإنما قد جاء "فاعل" وهو أيضًا اسم الفاعل من صفات الذات نحو "عالم وقادر وسامع" وأشباه ذلك، فقد عم "فاعل" إذن صفات الذوات وصفات الأعراض، وما كان عامًا للأمرين جميعًا كان أبلغ مما اختص بأحدهما دون الآخر.

فإن قيل: قد قلت في كتابك: إن ما كان مختصًا بأمر قوي في بابه أبلغ مما تردد بين أمرين أحدهما قوي والآخر ضعيف، وهذا الحكم قد وجدناه ههنا في "فَعيل وفاعل" ففعيل مختص باسم الفاعل من الصفات الذوية، واسم الفاعل من الصفات العرضية، فالذي يختص بالأشرف الأقوى وحده أبلغ من الذي يتردد[1] بينه وبين ضده،

(١) في نسخة: يترد، والصواب "يتردد".

وهو الأدنى الأضعف.

الجواب عن ذلك: أنا نقول قد سلمنا إليك أن "فاعلاً" الذي هو اسم الفاعل ها هنا متردد بين صفات الذوات والأعراض ولكن من أين لك، أيها المعترض، بصحة ما ذكرته من أن "فعيلاً" الذي هو اسم الفاعل هاهنا يخص صفات الذوات دون صفات الأعراض، فإن هذا شيء لم ينتظم لك سلكه، ولا رسا لك أصله؛ لأنه قد جاء "فعيل" أيضًا وهو "فاعل" من صفات الأعراض نحو "نبيه ووجيه وبصير وفقير" وأشباه [ذلك][1]. فقد استوى إذن "فاعل" و"فعيل" في عمومهما لصفات الذوات والأعراض، ولم يكن لأحدهما مزية على الآخر في هذا المعنى، وتفرد "فاعل" بالمزية على "فعيل" فيما أشرنا إليه قبل هذا الموضع في هذا الباب من تعديه إلى معموله واختصاصه باسم الفاعل دون معنى المفعول، وقد مرّ ذلك مستوفى في مكانه، فاعرفه.

هذا ما صح لنا في الفرق [بين][2] "فاعل وفعيل" وأيهما أبلغ، والله الموفق. ومما أشرنا إليه من ذلك كفاية للعارف بهذه الصناعة، فإنه ينبغي أن يكون خبيرًا بقياس هذه الأشياء على نظائرها وأشباهها.

---

(١) زيادة اقتضاها السياق.

(٢) زيادة اقتضاها السياق.

النوع السادس عشر من الباب الأول من الفن الثاني

في خذلان المخاطب

وهو الأمر بعكس المراد، ويدل ذلك على الاستهانة بالمأمور، وقلة المبالاة بأمره أي أني مقابلك على فعلك ومجازيك بحسنه، فمن ذلك قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ الإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ مِنْ قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَنْدَادًا لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلا إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ﴾(1) فقوله ﴿تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ﴾ من باب الخذلان، كأنه قال له: إذ قد أبيت قبول ما أمرت به من الإيمان والطاعة؛ فمن حقك أن لا تؤمر به بعد ذلك، وتؤمر بتركه، وهذا مبالغة في خذلانه؛ لأن المبالغة في الخذلان أشد من أن يبعث على ضد ما أمر به.

ومن هذا الباب قوله تعالى: ﴿قُلِ اللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَهُ دِينِي (١٤) فَاعْبُدُوا مَا شِئْتُمْ مِنْ دُونِهِ﴾(2) الآية، فإن المراد بهذا الأمر الوارد على وجه التخيير المبالغة في الخذلان، على ما سبق ذكره، وفي هذا الكلام معنيان لطيفان:

الأول: رأى أن عبادتكم لله وعبادتكم لغيره إنما تنفع أو تضر لكم لا لسواكم والله تعالى لا يؤثر ذلك عنده شيئًا؛ لأنه(3) مستغن عن عبادتكم له.

الثاني: توعده لهم بالمقابلة على فعلهم من غير إصراح بالوعيد، وذلك أبلغ من الإصراح به؛ لوقوع الموعود في حيرة من أمره، وترامي وهمه عند ذلك إلى كل خطب عظيم من المجازاة والمقابلة، كقولك لمن عصى: "افعل ما شئت إني مقابلك"، وهذا نوع من علم البيان الشريف.

---

(١) الزمر: ٨.

(٢) الزمر: ١٤-١٥.

(٣) في نسخة "لأن".

النوع السابع عشر من الباب الأول من الفن الثاني

في الاشتقاق

اعلم أنَّ جماعة علماء هذه الصناعة يفضلون الاشتقاق على التجنيس، وليس الأمر كما وقع لهم، بل التجنيس أمر عام لهذين النوعين من الكلام؛ وذلك لأن التجانس في أصل الوضع هو التماثل والتشابه، يقال "جانس الشيء [الشيء][1] إذا ماثله وشابهه، ولما كان الحال كذلك، ورأينا من الألفاظ ما يتماثل ويتشابه في صيغته وبيانه علمنا أن ذلك يطلق عليه اسم "التجانس"، وكذلك لما رأينا من المعاني ما يتماثل ويتشابه علمنا أن ذلك يطلق عليه اسم "التجانس" أيضًا، فالتجانس ينقسم قسمين: أحدهما: تجانس في اللفظ، والآخر: تجانس في المعنى، فأما التجانس في اللفظ فهو على بابه تجانس لم يجعل له اسم آخر كما جعل للتجانس في المعنى؛ فإنه يسمى "الاشتقاق" أي: أن أحد المعنيين مشتق من الآخر، فهذا الموضع الذي كنا بصدد ذكره لا يليق أن نورد فيه إلا ما يختص بالمعاني؛ لأنه من باب الصناعة المعنوية، ولذلك أفردنا "الاشتقاق" وذكرناه هاهنا، وأما التجانس في الألفاظ، فسيأتي ذكره في باب الصناعة اللفظية.

واعلم أن الاشتقاق على ضربين: صغير وكبير، فالصغير: أن يأخذ أصلاً من الأصول فيجمع بين معانيه وإن اختلفت صيغته ومبانيه، كتركيب "س ل م" فإنك تأخذ منه معنى السلامة في تصرفه نحو "سلم وسالم وسلمان وسلمى والسليم" اللديغ: أطلق عليه ذلك تفاؤلاً بسلامته، وعلى هذا جاء غيره من الأصول كقولك: "هشمتك هاشم" و"حاربك محارب" و"سالمك سالم" و"أصاب الأرض صيب"؛ لأن الصيب هو المطر الذي يشتد صوبُه أي: وقعه على الأرض، وأمثال ذلك كثيرة، ولهذا الضرب من الكلام رونق لا يخفى على العارف بهذه الصناعة، فمما جاء منه قول بعضهم:

أمحلتي سلمى لكاظمة أسلما[2]

---

(١) زيادة من المثل السائر ص(١٤٠٢).

(٢) صدر بيت من الكامل، وهو للبحتري في ديوانه، وهو مطلع إحدى قصائده، وفي "الوافي بالوفيات" ص(١٤٩١٢)، و"فوات الوفيات" ص(١٣١٤)، ويروى عجزه:

وتعلما أن الجوى ما هجتما

ويروى "بكاظمة" بدلاً من "لكاظمة".

وكذلك قول الآخر، وهو جرير بن عطية:

وما زَالَ مَعْقُولا عِقَالٌ عن النَّـــدى وما زال محبُوسًا عن خَيرِ حَـــابِسِ[1]

وقال غيره:

لقـــد عَلِـــم القبائـــلُ أنَّ قـــومِي لهـــم حـــدٌّ إذا لَـــبِسَ الحديـــدُ[2]

وأمثال هذه كثيرة، فاعرفها.

وأما الاشتقاق الكبير؛ فهو أن تأخذ أصلاً من الأصول فتعقد عليـــه وعلـــى تراكيبه معنى واحدًا يجمع تلك التراكيب، وما تصرف منها وإن تباعد شيء من ذلـــك رد بلطف الصنعة والتأويل إليها، كما يفعل الاشتقاقيون؛ ولنضرب لذلك مثالاً فنقول: إن لفظة "ق ر م" من الثلاثي لها ستة تراكيب وهي "ق ر م، ق م ر، [ر ق م][3]، ر م ق، م ق ر، م ر ق" فهذه التراكيب الستة يجمعها معنى واحد، وهو القـــوة والشـــدة، فالقرم شدة شهوة اللحم، وقمر الرجل "إذا غلب من يقامره"، و"الرقم" الداهية، وهي الشدة التي تلحق الإنسان من أمره، "وعيش مرمق" أي: ضيق، وذلك نوع من الشـــدة أيضًا، و"المقر" شبه الصبر، يقال: "أمقر الشيء إذا أمرّ" وفي ذلك شدة علـــى الـــذائق وكراهة، "ومرق السهم" إذا نفر من الرمية، وذلك لشدة مضائه وقوته.

واعلم أنه إذا أسقط من تراكيب الكلمة شيء فجائز ذلك في الاشـــتقاق؛ لأن

---

(١) البيت من الطويل، وهو من قصيدة له مطلعها:

ما ذات أرواق تصدى لجؤذر بحيث تلاقى عازب فالأواعس

ويروى "فما" بدلاً من "وما"، و"العلى" بدلاً من "الندى"، و"عن المجد" بدلاً من "عن خير"، و"عن الخير" بدلاً من "عن خير"، وهو في "أخبار أبي تمـــام" للصـــولي ص(٢٠٦)، و"الصـــناعتين" ص(٦٣٤)، و"العمدة في محاسن الشعر وآدابه" ص(٦٨٤).

(٢) البيت من الكامل، وهو للحيان بن ربيعة الطائي، وهو في "البديع" لابـــن المعتـــز ص(٤١)، و"التذكرة السعدية في الأشعار العربية" للعبيدي ص(٣٢).

(٣) زيادة سقطت من النساخ.

الاشتقاق ليس من شرطه كمال تراكيب الكلمة بل من شرطه أن الكلمة كيف تقلبت بها تراكيبها، من تقديم حروفها أو تأخيرها أدت إلى معنى واحد يجمعها. فمثال ما سقط من تراكيب الثلاثي لفظة "و س ق" فإن لها خمسة تراكيب وهي: "و س ق، و ق س، س و ق، ق س و، ق و س". وسقط من جملة التراكيب قسم واحد، وهو "س ق و" وجميع هذه الكلمات المذكورة تدل على القوة والشدة أيضًا، فالوسق من قولهم: "استَوْسَقَ الأمرُ" أي: اجتمع وقوي، والوقس: ابتداء الجرب، وفي ذلك شدة على من يصيب وبلاء، والسَّوق: متابعة السيرة، وفي هذا عناء وشدة للسائق والمسوق، والقَسْوة: شدة القلب وغلظه، والقَوْسُ: معروف، وفيه نوع من الشدة والقوة لنزعه السهم، وإخراجه إلى ذلك المرمى المتباعد.

واعلم أنا لا ندعي أن هذا يطرد في جميع اللغة بل قد جاء شيء منها كذلك، وهذا مما يدل على شرفها وحكمتها؛ لأن الكلمة الواحدة تتقلب على ضروب من التقاليب، وهي مع ذلك دالة على معنى واحد، وهذا من أعجب الأسرار التي توجد في لغة العرب وأغربها، فاعرفه[1].

---

(١) قال ابن الأثير: "الاستعمال في النظم والنثر يقع في الاشتقاق الصغير دون الكبير، وسبب ذلك أن الاشتقاق الصغير تكثر الألفاظ الواردة عليه، والاشتقاق الكبير لا يكاد يوجد في اللغة إلا قليلاً، وأيضًا فإن الحسن اللفظ الذي هو الفصاحة إنما يقع في الاشتقاق الصغير، ولا يقع في الاشتقاق الكبير، ألا ترى إلى هذين الأصلين الواردين هاهنا، وهما "ق ر م"، و"و س ق" إذا نظرنا إلى تراكيبها، وأردنا أن نسكبها في الاستعمال لم يأت منهما مثل ما يأتي في الاشتقاق الصغير حسنًا ورونقًا؛ لأن ذاك لفظه لفظ تجنيس، ومعناه معنى اشتقاق، والاشتقاق ليس كذلك" [المثل السائر ص(١٤٠٩)].

النوع الثامن عشر(*) من الباب الأول من الفن الثاني

في الحروف العاطفة والجارة

وهو نوع ينبغي لمؤلف الكلام مراعاته والعناية به؛ لأن معانيه ودقائقه لا يتنبه لها إلا الفطن اللبيب، وما رأيت أحدًا من علماء هذه الصناعة تعرض له ولا ذكره ولا أقول إنهم لم يعرفوا ذلك أصلاً؛ لأن هذا النوع من الكلام أشهر من أن يخفى؛ لأنه مذكور في كتب العربية جميعها، ولست أعني بإيرادها هنا ما يذكره النحويون من أن الحروف العاطفة تتبع المعطوف [المعطوف](1) عليه في الإعراب، ولا أن الحروف الجارة تجر ما تدخل عليه بل أمرًا وراء ذلك، وإن كان المرجع فيه إلى الأصل الذي ذكره علماء العربية في كتبهم فأقول:

إن أكثر الناس يجعلون ما ينبغي أن يعطف بالواو معطوفًا بالفاء، وما ينبغي أن يعطف بالفاء معطوفًا بـ"ثم"، وكذلك يجعلون ما ينبغي أن يكون بـ"على" بـ"في" في حروف الجر. وفي هذه الأشياء دقائق، أذكرها لك أيها المتأمل، لتعلم السر فيها.

فأما حرف العطف فنحو قوله تعالى: ﴿**قُتِلَ الإِنْسَانُ مَا أَكْفَرَهُ** (١٧) **مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ**(١٨) **مِنْ نُطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ** (١٩) **ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ** (٢٠) **ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ** (٢١) **ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنْشَرَهُ**﴾(2) ألا ترى أنه لما قال: ﴿**مِنْ نُطْفَةٍ خَلَقَهُ**﴾ كيف قال: "فقدره"، ولم يقل: "ثم قدره" لأن التقدير لما كان تابعًا للخلقة، وملازما لها، عطفه عليها بالفاء، وذلك بخلاف قوله: ﴿**ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ**﴾؛ لأن بين خلقته وتقديره في بطن أمه وبين إخراجه منها وتسهيل سبيله مهلة وزمانا، فلذلك عطفه بـ"ثم" وعلى هذا جاء قوله تعالى: ﴿**ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ**﴾، وقوله: ﴿**ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنْشَرَهُ**﴾ لأن بين إخراجه من بطن أمه وبين موته تراخيًا وفسحة، وكذلك بين موته ونشوره أيضا، ولهذا

(*) في نسخة: النوع الثالث.

(١) زيادة من المثل السائر ص(٨٦٨).

(٢) عبس: ١٧-٢٣.

عطفهما بـــ"ثم". ولما لم يكن بين موت الإنسان وإقباره تراخ ولا مهلة عطفه بالفـــاء، وأمثال هذا كثيرة، فينبغي لمؤلف الكلام تدبرها والإتيان بها في أماكنها.

واعلم أن في حروف العطف موضعًا تلتبس فيه الفاء والواو، وهو موضع يحتاج إلى فضل تأمل؛ لأنه شديد الاشتباه والالتباس؛ وذلك أن فعل المطاوعة لا يعطف عليـــه إلا بالفاء دون الواو، وقد يجيء من الأفعال ما يلتبس بفعل المطاوعة ويعطي ظاهره أنه كذلك، إلا أن معناه يكون مخالفا لمعنى فعل المطاوعة، فينعطف حينئذ بالواو لا بالفـــاء، وهذا موضع غامض يجب على المؤلف التحرز من الوقوع فيه، فمن ذلك قوله تعـــالى: ﴿وَلا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا﴾[1] فقوله تعـــالى: **"أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ"** هاهنا بمعنى صادفناه [غافلاً][2]، لأنه لو كان كذلك لكان معطوفًا عليـــه بالفاء، وقيل: "فاتبع هواه" وذلك أنه يكون مطاوعًا وفعل المطاوعة إنما يكون معطوفًـــا بالفاء دون الواو كقولك: "أعطيته فأخذ ودعوته فأجاب"، ولا تقول: "أعطيته وأخـــذ ولا دعوته وأجاب" كما لا تقول: "كسرته وانكسر" وكذلك لو كان معنى ﴿أَغْفَلْنَا﴾ في الآية "صددنا" و "منعنا" لكان معطوفًا بالفاء، وكان يقال: "ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا فاتبع هواه" [فلما لم يكن كذلك وكان العطف عليه بالواو؛ فطريقه أنه لمـــا قال: "أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه][3] أن يكون معناه: "وجدناه غافلاً" وإذا وجد غافلاً فقد غفل لا محالة، وكأنه قال: ﴿وَلا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَـــا وَاتَّبَـــعَ هَوَاهُ﴾ أي: لا تطع من فعل كذا وكذا. يُعدِّد أفعاله، التي توجب ترك طاعته، فاعرف ذلك وقس عليه.

وأما حرف الجر، فنحو قوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ

---

(١) الكهف: ٢٨.

(٢) زيادة من المثل السائر ص(٨٧٣).

(٣) زيادة من المثل السائر ص(٨٧٤).

﴿قُلِ اللَّهُ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾[1] ألا ترى إلى بداعة هذا المعنى المقصود بمخالفة حرفي الجر هاهنا فإنه إنما خولف بينهما في الدخول على الحق والباطل لأن صاحب الحق كأنه مستعلٍ على فرس جواد يركض حيث يشاء، وصاحب الضلال كأنه منغمس في ضلاله مرتبك فيه فلا يدري أين يتوجه، وهذا معنى دقيق قلما يراعى في الكلام وكثيرًا ما سمعت إذا كان الرجل يلوم صديقه أو يُعاتب خليله على أمر من الأمور فيقول: له "أنت على ضلالك القديم كما أعهدك" وهذا وإن كان جائزًا في الكلام إلا أن استعمال "في" هاهنا أولى لما أشرنا إليه، ومن هذا النوع قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ﴾[2] فإنه إنما عدل عن اللام إلى "في" في الثلاثة الأخيرة للإيذان بأنهم أرسخ في الاستحقاق والتصدق عليهم ممن سبق ذكره؛ لأن "في" للوعاء فنبه على أنهم أحقاء بأن توضع فيهم الصدقات [ويُجعلوا مظنة لها][3] وذلك لما في فك الرقاب وفي الغُرم من التخلص، وتكرير "في" في قوله تعالى **"وفي سبيل الله"** فيه فضل وترجيح له على الرقاب وعلى الغارمين، وأمثال هذا مما يوجب مراعاته والاعتناء به، فاعرفه.

---

(١) سبأ: ٢٤.

(٢) التوبة: ٦٠.

(٣) في نسخة: "وتجعل مظلة لها"، وما أثبتناه من المثل السائر ص(٨٧٦).

النوع التاسع عشر من الباب الأول من الفن الثاني

في التكرير(١)

وهو قسمان: أحدهما يوجد في اللفظ والمعنى، والآخر يوجد في المعنى دون اللفظ، فأما الذي يوجد في اللفظ والمعنى فكقولك لمن تستدعيه: "أسرِعْ أسرِع" ومنه قول أبي الطيب المتنبي:

ولم أرَ مِثْل جِيراني ومِثلي   لِمثْلي عِنْدَ مِثْلِهِمُ مُقَامُ(٢)

وأما الذي يوجد في المعنى دون اللفظ فكقولك: "أطعني ولا تعصني" فإن الأمر بالطاعة نهي عن المعصية.

وكل من هذين القسمين ينقسم إلى مفيد وغير ذلك؛ فالمفيد يأتي في الكلام تأكيدًا له وتشييدًا من أمره، وإنما يفعل ذلك للدلالة على عظم محل الشيء، الذي كررت فيه كلامك، والإشعار "بفخامة"(٣) شأنه وعلو قدره، أو الدلالة على حقارته والإعلام بهوانه واتضاعه(٤)، وغير المفيد لا يأتي في الكلام إلا عبثًا وخطلا من غير حاجة إليه.

فأما الأول، وهو الذي يوجد في اللفظ والمعنى ويدل على معنى فهو ضربان: مفيد وغير مفيد، فالضرب الأول، وهو المفيد نوعان: الأول إذا كان التكرير في اللفظ

---

(١) قال ابن الأثير: "اعلم أن هذا النوع من مقاتل علم البيان، وهو دقيق المأخذ، وحده هو: دلالة اللفظ على المعنى مرددًا، وربما اشتبه على أكثر الناس بالإطناب، فلا حاجة إلى إعادته هاهنا" [المثل السائر ص(١٠٨٨)].

(٢) البيت من الوافر، وهو في شرح ديوانه- (١٤٦). في قصيدة مطلعها:

فؤاد ما تسليه المدام   وعمر مثل ما تهب اللئام.

وهو في "الكشكول" ص(٨٨٩)، و"يتيمة الدهر في شعراء العصر" لأبي منصور الثعالبي ص(٣٢٦).

(٣) في نسخة "فخامته".

(٤) في نسخة "وإيضاعه".

والمعنى يدل على معنى واحد المقصود به غرضان مختلفان كقوله تعالى: ﴿وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ (٧) لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ﴾(١) هذا تكرير في اللفظ والمعنى "يحق الحق وليحقّ الحق" وإنما جيء به هاهنا لاختلاف المراد، وذلك أن الأول تمييز بين الإرادتين، والثاني بيان لغرضه فيما فعل من اختيار ذات الشوكة على غيرها لهم، ونصرهم عليها، وأنه ما نصرهم ولا خذل أولئك إلا لهذا الغرض.

ومن هذا الباب قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ...﴾ إلى قوله: ﴿فَاتَّقُونِ﴾(٢) ألا ترى إلى هذا التكرير في قوله: **"قل إني أمرت أن أعبد الله مخلصًا له الدين "** وقوله: **"قل الله أعبد مخلصًا له ديني"** والمراد به غرضان مختلفان وذلك أن الأول: إخبار بأنه مأمور من جهة الله ﷻ بإحداث العبادة له والإخلاص في دينه، والثاني: إخبار بأنه يخص الله وحده دون غيره بالعبادة، مخلصًا له دينه، ولدلالته على ذلك قدم المعبود على فعل العبادة في الثاني وأخّره في الأول؛ لأن الكلام أولاً واقع في الفعل نفسه وإيجاده، وثانيًا فيمن يفعل الفعل لأجله، ولذلك رتب عليه ﴿فَاعْبُدُوا مَا شِئْتُمْ مِنْ دُونِهِ﴾.

ومما أورد على نحو من ذلك قوله تعالى: ﴿قُلْ يأيها الْكَافِرُونَ..﴾(٣) إلى آخرها فقوله: **"لا أعبد"** يعني في المستقبل لا تطلبوا مني عبادة إلهكم، ولا أنتم فاعلون فيه ما أطلب منكم من عبادة إلهين. **"ولا أنا عابد ما عبدتم"** أي: "وما كنت قط عابدًا فيما سلف ما عبدتم فيه، يعني أنه لم يُعْهد في عبادة صنم في الجاهلية في وقت ما،

---

(١) الأنفال: ٧-٨.

(٢) الزمر: (١١-١٢).

(٣) الكافرون: (١-٦).

فكيف يرجى ذلك في الإسلام؟! ولا أنتم عابدون في الماضي في وقت مّا ما أنا على عبادته الآن". وأمثال هذا كثيرة، فاعرفه.

ومن هذا الجنس قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ (١٠٥) إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلا تَتَّقُونَ (١٠٦) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٠٧) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ(١٠٨) وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٠٩) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾[١] فإنه إنما كرر قوله: "فاتقوا الله وأطيعوني" ليؤكده عندهم وليقرره في نفوسهم مع تعليق كل واحد منهما بعلة؛ فجعل علة الأول كونه أمينًا فيما بينهم، وجعل علة الثاني حسم طمعه عنهم وخلوه من الأغراض فيما يدعوهم إليه.

من هذا النحو قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو الأَوْتَادِ (١٢) وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَابُ الأَيْكَةِ أُولَئِكَ الأَحْزَابُ (١٣) إِنْ كُلٌّ إِلا كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ﴾[٢] وإنما كرر تكذيبهم هاهنا لأنه لم يأت به على أسلوب واحد، بل تنوع فيه بضروب من الصنعة، فذكره أولاً في الجملة الخبرية على وجه الإبهام، ثم جاء به بالجملة الاستثنائية، فأوضحه بأن كل واحد من الأحزاب كذّبَ جميع الرسل؛ لأنهم إذا كذبوا واحدًا منهم فقد كذبوا جميعهم، وفي تكرير التكذيب وإيضاحه بعد إبهامه، والتنوع في تكريره بالجملة الخبرية أولاً وبالاستثنائية ثانيًا، وما في الاستثناء من الوضع على جهة التأكيد والتخصيص من المبالغة المسجلة عليهم، باستحقاق أشد العذاب في أبلغه[٣].

وهذا باب من تكرير اللفظ والمعنى غامض، وبه يعرف مواقع التكرير والفرق بينه وبين غيره، فافهمه.

---

(١) الشعراء: ١٠٥-١١٠.

(٢) ص: ١٢-١٤.

(٣) انظر: المثل السائر ص(١٠٩٧).

الفرع الثاني من الضرب الأول

إذا كان التكرير في اللفظ والمعنى يدل على معنى واحد والمراد به غرض واحد كقوله تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ...﴾ إلى قوله: ﴿...لَمُبْلِسِينَ﴾[1] فقوله: ﴿مِنْ قَبْلِهِ﴾ بعد قوله: ﴿من قبل﴾ فيه الدلالة على أنَّ عهدهم بالمطر قد بعد وتطاول فاستحكم يأسهم، وتمادى إبلاسهم، فكان الاستبشار على قدر اهتمامهم.

ومثل هذا قوله تعالى: ﴿فَكَانَ عَاقِبَتَهُمَا أَنَّهُمَا فِي النَّارِ خَالِدَيْنِ فِيهَا﴾[2] وكذلك قوله تعالى: ﴿لا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوْا وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا فَلا تَحْسَبَنَّهُمْ بِمَفَازَةٍ مِنَ الْعَذَابِ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[3] ومن هذا الجنس قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ (٣٨) يَا قَوْمِ إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَإِنَّ الآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ﴾[4] فإنه إنما كرر نداء قومه هاهنا لزيادة التنبيه لهم، والإيقاظ عن سنة الغفلة، ولأنهم قومه وعشيرته وهم فيما يوبقُهم من الضلال، وهو يعلم وجه صلاحهم، ونصيحتهم عليه واجبة، فهو يَتَحزّن لهم، ويتلطف بهم، ويستدعي بذلك أن لا يتهموه، فإنَّ سرورهم سروره وغمَّهم غمه وإن لم يترلوا على نصيحته لهم. وهذا من التكرير الذي هو أبلغ من الإيجاز وأشدّ موقعًا من الاختصار، فاعرفه.

وعلى نحو منه جاء قوله تعالى في سورة القمر: ﴿فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ﴾[5]،

---

(١) الروم: ٤٨-٤٩.

(٢) الحشر: ١٧.

(٣) آل عمران: ١٨٨.

(٤) غافر: ٣٨-٣٩.

(٥) القمر: ٣٧.

وقوله: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ﴾[1] فإنه تكرر ذلك في السورة كثيرًا، وفائدته أن يجددوا عند استماع كل نبأ من أنباء الأولين ادِّكارًا واتِّعاظًا، وأن يستأنفوا تنبيهًا واستيقاظًا، إذا سمعوا الحث على ذلك، والبعث إليه وأن تُقرع لهم العصا مرات، لئلا يغلبهم السهو، وتستولي عليهم الغفلة.

وهكذا حكم التكرير في قوله تعالى في سورة الرحمن -جل وعلا: ﴿فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ وذلك عند ذكر كل نعمة عددها على عباده، وأمثال هذا في القرآن الكريم كثيرة، فاعرفها.

---

(١) القمر: ١٧.

obeikandl.com

الضرب الثاني من التكرير في اللفظ والمعنى

وهو غير المفيد

وهو الذي يكون وجوده وعدمه سواءً؛ لأنه لا يأتي [إلا][1] بمعنى واحد فقط، فمن ذلك ما أوردناه في صدر هذا الباب قول أبي الطيب المتنبي:

و لم أرَ مِثْلَ جيراني ومِثْلِي ... لِمِثْلِي عند مِثْلِهِمُ مُقامُ[2]

إنه يقول: لم أر مثل جيراني في سوء الجوار وقلة المراعاة، ولا مثلي في مصابرتهم ومقامي عندهم، إلا أنه قد كرر هذا المعنى في البيت مرتين، وعلى نحو ذلك جاء قوله:

فَقَلْقَلْتُ بالهمِّ الذي قَلْقَلَ الحشا ... قَلاقِلَ عِيسٍ كلُّهن قلاقِلُ[3]

فإن الصاحب إسماعيل بن عباد[4] أنكر على أبي الطيب هذا البيت لأجل التكرير الذي فيه، ورأيت الواحدي ذكر في شرحه لشعر أبي الطيب أنه لا يلزمه من هذا عيب وأنه قد جرت عادة الشعراء بمثل هذا كقول أبي منصور الثعالبي:

وإذا البَلابِلُ أطرَبَتْ بهديلها ... فانفِ البلابلَ باحتساء بَلابِلِ[5]

---

(١) زيادة اقتضاها السياق.

(٢) سبق تخريجه.

(٣) البيت من الطويل، وهو في شرح ديوانه- (٧٨)، وفي العمدة ص(٧٠٩)، وسر الفصاحة ص(١٦٧).

(٤) هو إسماعيل بن عباد بن العباس، أبو القاسم الطالقاني، وزير غلب عليه الأدب فكان من نوادر الدهر علمًا، استوزره مؤيد الدولة ابن بويه الديلمي ثم أخوه فجر الدولة، ولقب بالصاحب لصحبته مؤيد الدولة في صباه، ولد في "الطالقان" من أعمال قزوين له تصانيف منها: "المحيط"، وكتاب "الوزراء"، و"الكشف عن مساوئ شعر المتنبي" توفي عام ٣٨٥هـ [الأعلام: (٣١٦/١)].

(٥) البيت من الكامل، وهو في "الإيضاح"- (٣٣٠)، وأورده محمد بن علي الجرجاني في الإشارات- (٢٩٦). ويروى "أفصحت بلغاتها" بدلاً من "أطربت بهديلها"، وهو في "خاص الخاص" ص(٢١٥) وينسب إلى الثعالبي في "نهاية الأرب" ص(٤٤٨٩).

ولقد أصاب الصاحب بن عباد في استقباح بيت أبي الطيب، وأخطأ الواحدي في الاعتذار عنه، وتمثيل ذلك بقول الثعالبي. وبيانه أن بيت أبي الطيب قد ورد فيه ذكر القلقلة والقلاقل أربع مرات، وهن دلائل معنىً واحدًا لا غير، وهو الحركة يقول: "وحركت بالهم الذي حرك الحشا نوقًا سراع الحركة كلهن متحركات" وهذا من أقبح ما يكون من التكرير، وأما بيت الثعالبي الذي مثله الواحدي ببيت أبي الطيب فليس مثالاً لأن لفظة "البلابل" قد وردت فيه ثلاث مرات. وكل منها دال على معنى، والبلابل الأولى جمع بلبل، وهو طائر حسن الصوت، والبلابل الثانية جمع بلبلة، وهي وسواس الصدر، والبلابل الثالثة جمع بُلبُلة وهي مخرج الماء من الإبريق، فهو يقول: وإذا الأطيار من البلابل هَدَلَت وغردت فانف البلابل من قلبك باحتساء الخمر من بلابل الأباريق، وهذا من أخف ما يكون من التجنيس. ومن هاهنا وقع السهو للواحدي، وهو أن "البلابل" في شعر الثعالبي تدل على معانٍ مختلفة و "القلاقل" في شعر أبي الطيب تدل على معنى واحد، فاعرف ذلك وقس عليه.

obeikandl.com

القسم الثاني من النوع الأول في التكرير

وهو الذي يوجد في المعنى دون اللفظ، وهو ضربان: مفيد وغير مفيد

الضرب الأول المفيد وهو فرعان:

الأول: إذا كان التكرير في المعنى يدل على معنيين مختلفين كدلالته على الجنس والعدد، وهو باب من التكرير مشكل؛ لأنه يسبق إلى الوهم أنه تكرير محض، يدل على معنى واحد فقط، وليس كذلك. فمما جاء منه قوله تعالى: ﴿**وَقَالَ اللَّهُ لا تَتَّخِذُوا إِلَهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ**..﴾(١) ألا ترى أن العرب إنما جمعت بين العدد والمعدود فيما وراء الواحد والاثنين فقالوا: "عندي رجال ثلاثة وأفراس أربعة" لأن المعدود عارٍ من الدلالة على العدد المخصوص، فأما "رجل ورجلان وفرس وفرسان" **فمعدودان**. فالفائدة إذن في قوله تعالى: "**إلهين اثنين وإله واحد**" وهو أن الاسم الحامل لمعنى الإفراد والتثنية على الجنسية والعدد المخصوص، فإذا أريدت الدلالة على أنَّ المعني به واحد منهما وكان الذي يساق إليه الحديث هو العدد شفع بما يؤكده، **فدل به على القصد** إليه والعناية به. ألا ترى أنك لو قلت "إنما هو إله" ولم تؤكده بواحد لم يحسن، وخيّل إنك تثبت الإلهية لا الوحدانية. وهذا باب من تكرير المعاني وعر المسلك **دقيق المغزى** وبه تحل مشكلات من التكرير، فاعرفه.

ومن هذا النحو إذا كان التكرير في المعنى يدل على معنيين: أحدهما خاص والآخر عام كقوله تعالى: ﴿**وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ**..﴾(٢) الآية فإن الأمر بالمعروف داخل تحت الدعاء إلى الخير؛ لأن الأمر بالمعروف خاص والخير عام.

فكل أمر بالمعروف خير وليس كل خير أمرًا بالمعروف؛ لأن الخير أنواع كثيرة،

---

(١) النحل: ٥١.

(٢) آل عمران: ١٠٤.

من جملتها الأمر بالمعروف، ففائدة التكرير هنا أنه ذكر الخاص بعد ذكر العام، للتنبيه على فضله كقوله تعالى: ﴿حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلاةِ الْوُسْطَى﴾[1] الآية. وأمثال ذلك كثيرة، فاعرفها.

الفرع الثاني من الضرب الأول من القسم الثاني
إذا كان التكرير في المعنى يدل [على][2] معنى واحد

وقد سبق مثاله، في أول هذا الباب، كقولك: "أطعني ولا تعصني" لأن الأمر بالطاعة نهي عن المعصية، والفائدة في ذلك تثبيت الطاعة في نفس المخاطب، والتقرير لها في قلبه. والكلام في هذا الموضع من التكرير كالكلام في الموضع الذي قبله من تكرير اللفظ والمعنى، إذ كان المراد به غرضًا واحدًا.

---

(١) البقرة: ٢٣٨.

(٢) الزيادة من المثل السائر ص(١١٢٣).

obeikandl.com

الضرب الثاني من القسم الثاني

في تكرير المعنى دون اللفظ

وهو غير المفيد

فمن ذلك قول ابن هانئ المغربي:

سارت به صِيغ القصائد شُرَّدًا ... فكأنما كانت صبًا وقبولاً[1]

فكأنه قد قال "فكأنما كانت صبًا وصَبا" لأن الصَّبا هي القبول، وليس ذلك مثل التكرير في قوله تعالى: ﴿حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلاةِ الْوُسْطَى﴾[2] فيما يرجع إلى تكرير اللفظ والمعنى. ولا مثل التكرير في قوله تعالى: ﴿وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ﴾[3] فيما يرجع إلى تكرير المعنى دون اللفظ؛ لأن كل واحدة من هاتين الآيتين تشتمل على معنيين: خاص وعام، وقول ابن هانئ "صبًا وقبولا" لا يعطي إلا معنًى واحدًا لا غير، وهذا لا يخفى على العارف بصناعة التأليف.

ومن هذا النحو قول الصابي في كتاب: "وصل كتابك بعد تأخير وإبطاء، وانتظار له واستبطاء" فإن التأخير والإبطاء بمعنى واحد، وقد يكون لهذا وجه في التجويز، وهو التقرير في نفس المخاطب لبعد الأمد، وتطاول المدة في انقطاع كتابه عنه، وذلك مما لا بأس به في هذا الموضع، وأمثال ذلك كثيرة، فاعرفها.

---

(١) البيت من الكامل، وهو في ديوانه من قصيدة له مطلعها:

أتظن راحًا في الشمال شمولاً ... أتظنها سكرى تجر ذيولاً

الصبا والقبول: اسمان لريح، ومهب أولاهما من موضع مطلع الشمس إذا استوى الليل والنهار [اللسان: (صبا، قبل)].

(٢) البقرة: ٢٣٨.

(٣) آل عمران: ١٠٤.

النوع العشرون من الباب الأول من الفن الثاني

في تناسب المعاني[1] وهو ثلاثة أضرب

الضرب الأول: المطابقة[2] وهي المقابلة

اعلم أن جماعة العلماء من أرباب هذه الصناعة قد أجمعوا على أن المطابقة في الكلام: هي الجمع بين الشيء وضدِّه، كالسواد والبياض والليل والنهار، وخالفهم في ذلك أبو الفرج قدامة بن جعفر الكاتب؛ فقال: "المطابقة إيراد لفظتين متساويتين في البناء والصيغة مختلفتين في المعنى"[3]. وهذا الذي ذكره قدامة هو [التجنيس][4] بعينه، غير أن الأسماء لا مشاحة منها إلا إذا كانت مشتقة، ولننظر نحن في مخالفة قدامة لجماعة العلماء في اسم المطابقة ليعلم الحق في أي الجهتين مقره، وذلك أنَّا ننظر إلى أصل المطابقة في وضع اللغة فإن كانت مناسبة لما أجمع عليه العلماء تحققنا أن الحق معهم، وإن كانت مناسبة لما ذكره قدامة تحققنا أن الحق في يده فرأينا: أصل الطباق في اللغة من "طابق البعير في سيره" إذا وضع رجله موضع يده، وهذا يقوي ما ذكره قدامة، لأن اليد غير الرجل لا ضدها، والموضع الذي يقعان منه واحد، وكذلك المعنيان يكونان

---

(١) قال جعفر بن يحيى: "البلاغة تناسب المعاني وعذوبة الألفاظ، وأن يكون للكلام حد يحجزه عن الخروج إلى غيره، وعن دخول غيره عليه؛ كقول علي –رضي الله عنه–: أين من سعى واجتهد وأعد واحتشد، وجمع وعدد وبنى وشيد وفرش ومهد؛ فأتبع كل لفظة لفظة تناسبها، ولو قلب بعض الألفاظ إلى بعض لكان كلامًا مستويًا، ولكن أين سماء من أرض" [شرح أدب الكاتب لابن الجواليقي ص(١٩٤)].

(٢) قال ابن الأثير: "وهذا النوع يسمى البديع أيضًا، وهو في المعاني ضد التجنيس في الألفاظ؛ لأن التجنيس هو أن يتحد اللفظ مع اختلاف المعنى، وهذا هو أن يكون المعنيان ضدين" [المثل السائر ص(١٣١٨، ١٣١٩)].

(٣) انظر: الصناعتين ص(٥٩٠).

(٤) زيادة من المثل السائر ص(١٣١٩).

غَيْرَيْنِ أي مختلفين، واللفظ الذي يجمعهما واحد، فقدامة سمّى هذا النوع من الكلام المطابقة، حيث كان الاسم مشتقا مما سمي به، وذلك مناسب وواقع إلا أنه قد جعل للتجنيس اسمًا آخر هو المطابقة، ولا بأس به. وأما جماعة العلماء فكأنهم سمّوا هذا الضرب من الكلام مطابقًا بغير اشتقاق، ولا مناسبة بينه وبين مسماه. كذا هو الظاهر لنا من هذا الأمر، إلا أن يكونوا قد علموا لذلك مناسبة لطيفة، لم نطلع نحن عليها، ولنرجع نحن إلى هذا النوع من التأليف ونحقق الكلام فيه؛ فنقول:

اعلم أن الأليق من حيث المعنى أن يسمى هذا النوع "المقابلة"؛ لأنه لا يخلو الحال في ذلك من ثلاثة أقسام: إما أن يقابل الشيء بضده أو بغيره [أو بمثله][1] وليس لنا قسم رابع[2].

فأما القسم الأول: وهو مقابلة الشيء بضده، كالسواد والبياض وما جرى مجراه فكقوله تعالى: ﴿**فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلا وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا**﴾[3] ألا ترى إلى صحة هذه المقابلة البديعة؛ حيث قابل الضحك بالبكاء والقليل بالكثير؟. وكذلك قوله تعالى: ﴿**لِكَيْلا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ**﴾[4] وهذا من أحسن ما يجيء في هذا الباب. وقال رسول الله ﷺ: "خير المال عين ساهرة لعين نائمة"[5].

---

(١) زيادة يؤيدها ما يأتي في تفصيل الكلام.

(٢) ذكر ابن الأثير في المثل السائر ص(١٣٢١): "الأليق من حيث المعنى أن يسمى هذا النوع المقابلة؛ لأنه لا يخلو الحال فيه من وجهين: إما أن يقابل الشيء بضده، أو يقابل بما ليس ضده، وليس لنا وجه ثالث".

(٣) التوبة: ٨١.

(٤) الحديد: ٢٣.

(٥) ذكره ابن الجوزي في "صفة الصفوة" (٢٠٥/١) بلا إسناد ولا عزو.

ومن هذا قول بعضهم في السحاب:

ولـه بِـلا حُـزْنٍ ولا بمسـرّةٍ ... ضَـحِكٌ يُـرَاوِحُ بَيْنَـهُ وبُكَـاءُ[1]

فقابل الضحك بالبكاء، والحزن بالسرور في بيت واحد إلا أن في ذلك نظـرًا، من حيث ترتيب التفسير، لا من حيث المقابلة؛ لأن ترتيب التفسير يقتضـي أن كـان قال: "فله بلا حزن ولا بمسرة" "بكاء يراوح بينه وضحك". وهذا لا كبير عيب فيـه، وإنما الأولى والأليق ما أشرنا إليه، فاعرفه، وسيأتي بيانه، وقال آخر:

فلا الجودُ يُفْنِي المالَ والجدُّ مُقْبِـلُ ... ولا البخلُ يُبْقِي المالَ والجدُّ مُدْبِرُ[2]

ألا ترى إلى هذه المقابلة البديعة التي قد أتى بها هذا الشاعر؛ فإنه قابل الجـود بالبخل ويُفني بيبقي ومُقْبِل بمدبر؟ وهذا الكلام هو السهل الممتنع، الذي هو كـالنجم تراه قريبًا على صفحات الماء وهو بأفق السماء.

ومن هذا النوع أيضًا قول البحتري:

وأمَّة كانَ قُبْحُ الجَوْرِ يُسـخِطُها ... دهرًا فأصبح حُسنُ العدل يُرضِيها[3]

فقابل الحسن بالقبح، والجور بالعدل، والسخط بالرضى، وذلك بديع في بابه، فاعرفه.

---

(١) البيت للحسين بن مطير الأسدي، من قصيدة له مطلعها:

كثرت لكثرة قطره أطباؤه ... فإذا تحلب فاضت الأطباء

وهو في العقد الفريد ص(٢٣٢٩)، ويروى "يؤلف" بدلاً من "يراوح".

(٢) البيت من الطويل، وهو لأبي الطيب المتنبي في الإيضاح- (٢٩٣)، ومعاهد التنصيص ص(١٠٨٩).

(٣) البيت من البسيط، وهو من قصيدة مطلعها:

ميلوا إلى الدار من ليلى نحييها ... نعم ونسألها عن بعض أهليها

وهو في "ثمار القلوب" ص(٤٦٢)، و"خاص الخاص" ص(٢٥٧)، و"لباب الآداب"، و"يتيمة الدهر" ص(٤٦٢)، وينسبه عبدالرحيم العباسي في كتابه "معاهد التنصيص" ص(١٠٩٠) إلى أبي تمام.

وأما القسم الثاني وهو مقابلة الشيء بغيره؛ **فهو ضربان: أحدهما: ما كان بين** المقابل والمقابل له مناسبة وتقابل، كقول بعضهم:

يَجْزُونَ مِنْ ظُلْمِ أَهْلِ الظُّلْمِ مَغْفِرةً ومِنْ إساءةِ أهلِ السُّوء إحسانا[1]

فقابل الظلم بالمغفرة، والظلم ليس ضدَّ المغفرة، وإنما هو ضد العدل **إلا أنه لما** كانت المغفرة قريبة من العدل مناسبة له حسنت المقابلة بينها وبين الظلم، وأمثال هذه كثيرة.

---

(١) البيت من البسيط، وهو للباخرزي في ديوانه من قصيدة له مطلعها:

وفي السحاب لمغناه وإن خانا وواصل الخصب مرعاه وإن بانا

وهو في "التذكرة السعدية" للعبيدي ص(١٢) وبلا نسبة في "العقد الفريد" ص(١٤٢٤)، وفي الصناعتين ص(٦٠٩).

obeikandl.com

الضرب الثاني من القسم الثاني

في المقابلة

وهو أن يقابل الشيء بما بينه وبينه بعد ولا مناسبة بحال من الأحوال وذلك مما لا يحسن استعماله في التأليف، مما جاء منه قول بعضهم:

أَمْ هَلْ ظعائنُ بالعلْيَاءِ رافِعَةٌ ... وإنْ تكامل فيها الدَلُّ والشَّنَبُ[1]

فإن ذلك غير مناسب؛ لأنه إنما يكون يحسن الدل مع الغنج والشنب مع اللّعَس أو ما يجري مجراه من أوصاف الثغر والفم[2].

وأما القسم الثالث من النوع العشرين فهو أن يقابل الشيء بمثله، وهو ضربان: أحدهما: التقابل في اللفظ والمعنى، والآخر: التقابل في المعنى دون اللفظ.

فالضرب الأول كقوله تعالى: ﴿نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾[3]، وكقوله تعالى: ﴿وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا﴾[4] وأمثال هذا كثيرة.

والضرب الثاني فهو أن تقابل الجملة بمثلها: إن كانت مستقبلة [قوبلت بمستقبلة][5] وإن كانت ماضية قوبلت بماضية، وربما قوبل الماضي بالمستقبل، والمستقبل

---

(١) البيت من البسيط وهو للكميت بن زيد الأسدي، في التذكرة الحمدونية ص(٤٧٢٦)، والكامل في اللغة والأدب ص(٩١٤)، وسر الفصاحة ص(٣٣٧)، ويروى البيت:

وقد رأينا بها حورًا منعمة ... بيضًا تكامل فيها الدل والشنب

(٢) قال ابن الأثير: "ومما يتصل بهذا الضرب ضرب من الكلام يسمى "المؤاخاة بين المعاني، والمؤاخاة بين المباني"، وكان ينبغي أن نعقد له بابًا مفردًا لكنا لما رأيناه ينظر إلى التقابل من وجه وصلناه به. وأما المؤاخاة بين المعاني؛ فهو أن يذكر المعنى مع أخيه لا مع الأجنبي، مثله أن تذكر وصفًا من الأوصاف وتقرنه بما يقرب منه ويلتئم به، فإن ذكرته مع ما يبعد منه كان ذلك قدحًا في الصناعة وإن كان جائزًا" [المثل السائر ص(١٣٣٦-١٣٣٧)].

(٣) التوبة: ٧.

(٤) النمل: ٥٠.

(٥) الزيادة من المثل السائر ص(١٣٤٩).

بالماضي، وذلك إذا كان أحدهما في معنى الآخر؛ فمن ذلك قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَى نَفْسِي وَإِنِ اهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِي إِلَيَّ رَبِّي﴾(١) فإن هذا تقابل من جهة المعنى، ولو كان التقابل من جهة اللفظ لقال: "وإن اهتديت فإنما أهتدي لها".

وبيان تقابل هذا الكلام من جهة المعنى هو أن النفس كل ما هو عليها فهو بها، أعني أنّ كل ما هو وبال عليها وضار لها فهو بسببها ومنها؛ لأنها الأمارة بالسوء، وكل ما حولها مما [ينفعها](٢) فبهداية ربها وتوفيقه إياها. وهذا حكم عام لكل مكلف، وإنما أمر رسول الله ﷺ أن يسنده إلى نفسه؛ لأن الرسول إذا دخل تحته مع علو محله وسداد طريقه كان غيره أولى به، ومن هذا الضرب أيضًا قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا اللَّيْلَ لِيَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾(٣) فإنَّه لم يراع التقابل في قوله: "ليسكنوا فيه والنهار مبصرًا"؛ لأن القياس يقتضي أن يكون "والنهار ليبصروا فيه" وإنما هو مراعى من جهة المعنى، لا من حيث اللفظ، وهكذا النظم المطبوع غير المتكلف؛ لأن معنى قوله: "مبصرًا" ليبصروا فيه طُرُقَ التقلب في الحاجات.

ومن مقابلة الشيء بمثله أنه إذا ذكر المؤلف ألفاظًا تقتضي جوابًا فالمرضي عندنا أن يأتي بتلك الألفاظ في الجواب من غير عدول عنها إلى غيرها مما هو في معناها، فمن ذلك قوله تعالى: ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا﴾(٤).

ومما عيب في هذا الباب قول بعضهم: "من افترى ذنبا عامدًا أو اكتسب جرمًا قاصدًا لزمه ما جناه وحاق به ما توخاه". والأليق أن كان قال: "لزمه ما اقترف وحاق به ما اكتسب"؛ ليكون أحسن طباقا وإن كان ذلك جائزًا في الكلام من حيث إن معناه صواب، لكنه عدول عن الأليق والأولى في هذا الباب. وأمثال هذا كثيرة، فاعرفها.

---

(١) سبأ: ٥٠.

(٢) في نسخة (ينفيها) وما أثبتناه من المثل السائر ص(١٣٥٠).

(٣) النمل: ٨٦.

(٤) الشورى: ٤٠.

واعلم أن في تقابل المعاني بابًا عجيب الأمر يحتاج إلى فضل تأمل وزيادة نظر وتدبر، وهو تخليص بالفواصل من الكلام المنثور، وبالأعجاز من أبيات الشعر، مما جاء من ذلك قوله تعالى في حق المنافقين: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لا تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ (١١) أَلا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لا يَشْعُرُونَ﴾[١]، وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ أَلا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِنْ لا يَعْلَمُونَ﴾[٢] ألا ترى كيف فصل الآية الأخيرة بـ"يعلمون" والآية التي قبلها بـ"يشعرون" وإنما فعل ذلك؛ لأن أمر الديانة والوقوف على أن المؤمنين على الحق وهم على الباطل يحتاج إلى نظر واستدلال، حتى يكتسب الناظر العلم والمعرفة بذلك. وأما النفاق وما فيه من البغي المؤدي إلى الفتنة والفساد في الأرض فأمر دنيوي مبني على العادات، معلوم عند الناس، خصوصًا عند العرب، وما كان فيهم من التجارب والتعاود؛ فهو كالمحسوس عندهم فلذلك قال فيه: "يشعرون"، وأيضا فإنه لما ذكر السفه في الآية الأخيرة وهو جهل كان ذكر العلم معه أحسن طباقًا، فقال: " لا يعلمون"، وآيات القرآن الكريم جميعها فصلت هكذا، كقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الأَرْضُ مُخْضَرَّةً إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾[٣]، وكقوله: ﴿لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾[٤]، وكقوله: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي الأَرْضِ وَالْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ...﴾ إلى قوله: ﴿لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾[٥] فإنه إنما فُصِلَت الآية الأولى بـ"لطيف خبير" لأن ذلك في موضع الرحمة لخلقه بإنزال الغيث، وإخراج النبات من الأرض، ولأنه خبير بمنفعتهم ومضرهم في إنزال الغيث وغيره.

---

(١) البقرة: ١١-١٢.

(٢) البقرة: ١٣.

(٣) الحج: ٦٣.

(٤) الحج: ٦٤.

(٥) الحج: ٦٥.

فأما الآية الثانية فإنما فصلت بـ"غني حميد"؛ لأنه قال: "ما في السموات وما في الأرض" فعرف الناس بأن جميع ما في السموات والأرض له لا لحاجة بل هو غني عنها جواد بها؛ لأنه ليس كل غني نافعًا بغناه إلا إذا كان جوادًا منعما، وإذا جاد وأنعم حَمِدَهُ المنعَمُ عليه، واستحق عليه الحمد، فذكر الحمد ليدل على أنه الغني النافع بغناه خلقهُ.

وأما الآية الثالثة فإنما فصلت بـ"رؤوف رحيم" لأنه لما عدَّد للناس ما أنعم به عليهم من تسخير ما في الأرض لهم، وإجراء الفُلك في البحر بهم، وتسييرهم في ذلك الهول العظيم، وجَعْلِه السماء فوقهم، وإمساكِهِ إياها عن الوقوع حَسُنَ أنْ يَفْصِلَ ذلك بقوله: "رؤوف رحيم" أي: إنَّ هذا الفعل فعل رؤوف رحيم.

واعلم أيها المتأمل لكتابنا هذا أنَّه قلَّما توجد هذه الملاءمة والمناسبة في كلام ناظم أو ناثر. وهذا الباب ليس في علم البيان أكثر نفعًا منه، ولا أعظم فائدة، وهو مع ذلك دقيق المسلك ضيق المذهب. فعليكم -معشر المنتصبين لهذه الصناعة- بتدّبر مطاويه، وإمعان النظر في مشكلاته، وكفى بما أشرنا إليه مثالاً لمن له لب.

ومِمَّا جاء من هذا الباب في الشعر قول المتنبي:

وَقَفْتَ وما في الموت شكٌّ لِواقفٍ ... كأنَّك في جَفْنِ الرَّدَى وهو نائمُ
تمرُّ بك الأبطالُ كَلْمَى[1] هزيمةً ... وَوَجهُك وَضَّاحٌ وثغرُكَ باسِمُ[2]

ولقد أُخذ عليه ذلك، وقيل: لو جعل آخر البيت الثاني آخر الأول لكان أولى؛ وحكاية أخذه عليه أنه استنشده سيف الدولة يوما قصيدتهُ التي أولها:

"على قدر أهل العزم تأتي العزائم". فلما بلغ إلى قوله: "وقفت وما في الموت شك لواقف" البيتين قال له: وقد انتقدت عليك هذين البيتين كما انتقد على

---

(١) كلمى: جمع كليم وهو الجريح [اللسان: (كلم)].

(٢) البيتان من الطويل، وهما في شرح ديوانه- (١٤٠)، والبديع في البديع في نقد الشعر لأسامة بن منقذ ص(٢٥٧)، وفي الكشكول ص(٨٢٣).

امرئ القيس قوله:

كأنّيَ لَمْ أركَـبْ جـوادًا للَـذَّةٍ … ولم أتَـبطَّنْ كاعبًـا ذاتَ خَلْخـالِ
ولَمْ أَسْبَأْ الزِّقَ[1] الرويَّ ولم أقُـلْ … لخيْليَ كُرِّي كَرَّةً بَعْـدَ إجفـالِ[2][3]

فبيتاك لم يلتئم شطراهما كما لم يلتئم بيتا امرئ القيس، وكان ينبغي أن يقول:

كـأني لم أركـب جـوادًا ولم أقـل لخيلي..............................
ولـم أسبأ الـزِّق الـــــــرويَّ ....

وكذلك ينبغي أن تقول:

وَقَفْتَ وما في الموتِ شكٌّ لواقفٍ … وَوَجْهُكَ وضّـاحٌ وثغـرُكَ باسِـمُ
تمرُّ بك الأبطال كَلْمـى هزيمـةً … كأنّكَ في جَفنِ الردى وهـو نَـائمُ

فقال المتنبي: إنْ صح أنَّ الذي استدرك على امرئ القيس هـذا وهـو أعلـم بالشعر منه فقد أخطأ امرؤ القيس وأخطأتُ ومولانا يعلم أن الثوب لا يعلمه البـزاز كما يعلمه الحائك؛ لأن البزاز يعلم جملته، والحائك يعلم تفاصيله. وإنّما قـرن امـرؤ القيس النساء بلذة الركوب للصيد وقَرَنَ السماحة بسباء الخمر للاتصاف بالشجاعة في مُنازلة الأعداء، وكذلك لما ذكرت الموت في صدر البيت الأول أتبعته بذكر الـردى في آخره، ليكون أحسن طباقًا وتلازمًا. ولما كان وجه الجريح المنهزم يكون عبوسًا وعينه باكية: قلت: "وجهك وضاح وثغرك باسم" لأجمع بين الأضداد في المعـنى. فأعجـب سيف الدولة كلامه[4]. وأمثال ذلك كثيرة إلا أنه يحتاج الناقد لها والمميز بين جيـدها ورديئها إلى فكرة صافية، وروية زائدة.

---

(١) الزِّق: السقاء والجمع أزقاق [اللسان: (زقق)].

(٢) جفل القوم: أسرعوا الهزيمة والهرب [أساس البلاغة: (جفل)].

(٣) البيتان من الطويل، وهما في ديوان امرئ القيس ص(١٢٧)، والبيت الأول جاء في لسان العرب- (بطن)، وتهذيب اللغة- (٣٧٦/١٣)، وتاج العروس- (خلل)، (بطن)، وأساس البلاغة- (بطن).

(٤) انظر: الحماسة الحمدونية ص(٥٥٩٦)، ونهاية الأرب في فنون الأدب ص(٢٤٨٢) ويتيمـة الدهر ص(٣٠).

obeikandl.com

الضرب الثاني من النوع العشرين
في صحة التقسيم[1] وفساده

اعلم أنا لم نرد بالتقسيم هاهنا ما تقتضيه القسمة العقلية كما يذهب إليه المتكلمون، فإن القسمة العقلية تقتضي أشياء مستحيلة، كما قالوا: "الجواهر لا تخلو إما أن تكون مجتمعة أو مفترقة، أو لا مجتمعة ولا مفترقة، أو مجتمعة مفترقة معًا، أو بعضها مجتمعة، وبعضها مفترقة". ألا ترى أن هذه القسمة صحيحة من حيث العقل لاستيفاء الأقسام جميعها، وإن كان من جملتها ما يستحيل وجوده، فإنَّ الشيء لا يكون مجتمعًا مفترقًا في حالة واحدة، وإنما نريد نحن بالتقسيم هاهنا ما يقتضيه المعنى، مما يمكن وجوده؛ وهو أن يأتي المؤلف إلى جميع أقسام الكلام المحتملة فيستوفيها، غير تارك منها قسمًا واحدًا. فمن ذلك قوله تعالى: ﴿**ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ..**﴾[2] فإنه لا يخلو العالم من هذه الأقسام الثلاثة: إما عاص ظالم لنفسه وإما مطيع مبادر إلى الخيرات، وإما مقتصد بينهما، وهذا من أصح التقسيمات وأكملها، فاعرفه.

ومن هذا النحو قوله تعالى: ﴿**وَكُنْتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً (٧) فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ(٨) وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ (٩) وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ**﴾[3] الآية. واعلم أنَّ هذه الآية مماثلة في المعنى لما سبق ذكره، فأصحاب المشأمة هم الظالمون لأنفسهم. وأصحاب المَيْمَنَة هم المقتصدون والسابقون هم السابقون بالخيرات. وعلى نحوٍ من ذلك جاء قوله تعالى: ﴿**هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ الْبَرْقَ**

---

(١) قال أبو هلال العسكري: "التقسيم الصحيح: أن تقسم الكلام قسمة مستوية تحتوي على جميع أنواعه، ولا يخرج منها جنس من أجناسه" [الصناعتين ص(٦٦٢)].

(٢) فاطر: ٣٢.

(٣) الواقعة: ٧-١٠.

﴿خَوْفًا وَطَمَعًا..﴾[1]. ألا ترى إلى بداعة هذه القسمة؟ فإن الناس عند رؤية البرق بين خائف وطامع، وليس لهم ثالث.

وكان جماعة من أرباب هذه الصناعة المنتصبين في صدرها يعجبون بقول بعض الأعراب في هذا المعنى، ويقولون: إنّ ذلك من أصح التقسيمات، وهو قوله: "النعم ثلاث: نعمة في حال كونها نعمة ونعمة تُرجى مستقبلة، ونعمة تأتي غير محتسبة، فأبقى الله عليك ما أنت فيه، وحقق ظنك فيما ترتجيه، وتفضل عليك بما لم تحتسبه"؛ فقالوا: إنه ليس في أقسام النعم التي يقع الانتفاع بها قسم رابع سوى ما ذكره الأعرابي. وهذا القول فاسد؛ وهو أنّ في أقسام النعم التي قسمها هاهنا نقصًا لا بد منه، وزيادة لا حاجة إليها، فأما النقص؛ فإغفاله ذكر النعمة الماضية، وأما الزيادة؛ فقوله بعد النعمة المستقبلة: التي تأتي غير محتسبة، وهذا خطأ؛ لأن النعمة التي تأتي غير محتسبة هي داخلة في قسم المستقبل، وذلك أنّ النعمة المستقبلة تنقسم إلى قسمين: أحدهما يرجى حصوله ويتوقع بلوغه، والآخر لا يحتسب ولا يشعر بوجوده، فقوله: "ونعمة تأتي غير محتسبة" يوهم أنّ هذا القسم غير المستقبل، وهو داخل في جملته، ولو قال: "ونعمة مستقبلة" من غير أن يقول: "ونعمة تأتي غير محتسبة" لكان قوله كافيًا، إذ النعمة التي ترجى والنعمة التي لا تحتسب تدخلان تحت قسم المستقبل، وكان ينبغي أن يقول: "النعم ثلاث نعمة ماضية، ونعمة في حال كونها، ونعمة تأتي مستقبلة، فأحسن الله آثار النعمة الماضية وأبقى عليك النعمة التي أنت فيها، ووفر حظك من النعمة التي تستقبلها". ألا ترى لو قال ذلك لكان قد طبق به مفصل الصواب، فافهم ما ذكرناه وقس عليه.

ووقف أعرابي على مجلس الحسن، فقال: "رحم الله من أعطى من سعة أو واسى من كفاف أو آثر من قلة"؛ فقال الحسن: ما ترك لأحد عُذرًا، فانصرف الأعرابي بخير كثير[2].

---

(١) الرعد: ١٢.

(٢) انظر: البيان والتبيين ص(١٣٣٧)، والعقد الفريد ص(٢٢٥٢)، ومحاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء والبلغاء للراغبي الأصفهاني ص(١٨٣٠).

ومن هذا الضرب ما ذكره أبو هلال العسكري في كتابه[1] وذلك أنه أخذ على جميل قوله:

لو أنَّ في قَلْبي كَقَدْرِ قُلامةٍ حُبًّا وَصَلْتُكِ أو أتتْكِ رسائلي[2]

فقال أبو هلال: "إن إتيان الرسائل داخل في جملة الوصل، وليس الأمر كما وقع له، فإن "جميلاً" أراد به "وصلتك" أي: أتيتك زائرًا أو قاصدًا أو "كنت راسلتك مراسلة".

والوصل لا يخرج عن هذين القسمين إما رسالة وإما زيارة.

ومن أعجب ما شاهدته في هذا الباب ما ذكره أبو العلاء محمد بن غانم المعروف بالغانمي، وهو قول العباس بن الأحنف:

وصالُكُمُ هجرٌ وهجرُكُمُ قِلىً وعطفُكُمُ صدٌّ وسِلمكُمُ حَرْبُ[3]

ثم روى المشار إليه عن أبي القاسم الآمدي –رحمه الله– أنّه قال: إنَّ بعض نَقَدَة الكلام من البلغاء لما سمع هذا البيت قال: "والله هذا أحسن من تقسيمات إقليدس[4]"[5].

(١) يعني كتاب "الصناعتين" انظر: ص(٤٢٤).

(٢) البيت من الكامل، وهو في ديوانه- (١٧٨)، والأغاني- (٨/١٠٠)، وخزانة الأدب- (٥/٢٢٢)، ويروى "أن" بدلا من "كان"، و"فضلا لغيرك ما" بدلا من "حبا وصلتك أو".

(٣) البيت من الطويل، وهو في ديوانه من قصيدة له مطلعها:

ألا ليت ذات الخال تلقى من الهوى عشير الذي ألقى فيلتئم الشعب

وهو في "الأغاني" ص(٦٥٤٨)، و"وفيات الأعيان" ص(١٢١٢).

(٤) رجل من علماء الروم، يسمى بهذا الاسم، وضع كتابًا فيه أشكالاً كثيرة مختلفة تدل على حقائق الأشياء المعلومة والمغيبة، يشحذ الذهن، ويدقق الفهم، ويلطف المعرفة، ويصفي الحاسة، ويثبت الروية، ومنه افتتح الخط، وعرفت مقادير حروف المعجم" [معجم الأدباء ص(٨٧٧)].

(٥) انظر: العمدة ص(٧٦١)، ويتيمة الدهر في شهراء أهل العصر ص(٣٩٣).

ومن العجب كيف ذكر الغانمي ذلك في كتابه وفاته النظر فيه مع تقدمه في هذه الصناعة.

وأعجب من ذلك قول أبي القاسم الآمدي، وأعجب منهما جميعًا استحسان ناقد الكلام لهذا التقسيم، ألا ترى أنّ هذا البيت قد بني عليه شيء آخر من جنسه فإنَّه لو أضيف له بيت غيره فقيل:

ولِينكُمُ عُنفٌ وقُربُكمُ نوًى وإعطاؤكُمْ منعٌ وصِدقُكُمُ كِذْبُ

لجاز ذلك وربما يحتمل أن يزاد على هذا البيت الثاني بيت ثالث ورابع، ولو كان ذلك التقسيم في البيت الأول صحيحًا لما احتمل أن يضاف إليه شيء آخر ألبتة، لأن من شرط صحة التقسيم أن لا يحتمل الزيادة.

ومما جاء على نحو من هذا قول بعضهم في حق مكسورين في الحرب: "فمن بين جريح مضرج بدمائه، وهارب لا يلتفت إلى ورائه"(١). فإن الجريح قد يكون هاربًا، والهارب قد يكون جريحًا، ولو قال: "فمن بين قتيل ومأسور وناج" لصح له التقسيم لأن المكسورين في الحرب، الذين دارت عليهم الدائرة، لا يخرجون عن هذه الأقسام الثلاثة، فإمّا قتيل أو مأسور أو نازح، وأمّا الجريح فإنَّه يدخل في جملة الناجي والمأسور؛ لأنّ كلاً منهما يجوز أن يكون جريحًا أو أن لا يكون، فاعرف ذلك، وقس عليه.

---

(١) انظر: الصناعتين ص(٦٦٦)، وخريدة القصر وجريدة العصر ص(٥٧٥٦)، وسر الفصاحة ص(٤٠٣).

الضرب الثالث من النوع العشرين

وترتيبه في التفسير وما يصح من ذلك وما يفسد

اعلم أنَّ صحة ترتيب التفسير[1] هي أنْ يذكر المؤلف في كلامه معاني مختلفة، فإذا عاد إليها بالذكر ليفسرها، قدَّمَ المُقدَّم وأخَّرَ المُؤخَّرَ، وإذا لم يراع المؤلف ذلك كان مأخوذًا عليه، لأنَّه يخل بشطر من الصناعة، فمن ذلك قول بعضهم:

غَيْثٌ ولَيْثٌ فغيثٌ حـين تَسألُهُ ... عُرفًا وليثٌ لدَى الهَيْجَاءِ ضِرْغَامُ

تَحيَا الأنامُ به في الجَدْبِ إنْ قحطُوا ... جُودًا ويَشقَى به يومَ الوَغَى الهامُ[2]

ومن هذا الباب قوله تعالى: ﴿**وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً**﴾[3]، وكذلك قوله تعالى: ﴿**وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ**﴾[4]. فلمَّا قدَّم اللَّيل في الذكر على النَّهار قدر سبب الليل، وهو السكون على سبب النهار، وهو التعيش، وذلك في غاية الحسن.

ومن هذا النحو قول بعضهم:

يومُ المُتيَّم فيكِ حَولٌ كاملٌ ... يتعاقبُ الفَصلان فيه إذا أتى

ما بين حرِّ جوًى وماءِ مدامعٍ ... إن حَنَّ صافٍ وإنْ بكى وَجْدًا شتَا[5]

---

(١) قال قدامة بن جعفر في صحة التفسير: "هي أن يضع الشاعر معاني يريد أن يذكر أحوالها في شعره الذي يصنعه، فإذا ذكرها أتى بها من غير أن يخالف معنى ما أتى به منها، ولا يزيد أو ينقص" [نقد الشعر ص(١٣٣)].

(٢) البيتان من البسيط وهما لأبي مسهر الرملي في "الوافي بالوفيات" ص(٦٠٦٥)، و"معجم الأدباء" ص(١٠١٦)، و"نهاية الأرب في فنون الأدب" ص(٤٥٢١).

(٣) الإسراء: ١٢.

(٤) القصص: ٧٣.

(٥) البيتان من الكامل، وهما لناصح الدين الأرجاني في ديوانه من قصيدة مطلعها:

يا معرضا قد آن أن تتلفتا ... تعذيب قلب المستهام إلى متى

ويروى في البيت الأول "منك" بدلا من "فيك"، ويروى في البيت الثاني "نار حشا" بدلا من "حر جوى".

وهذا من أصح التفسير، فاعرفه، ومن ذلك قول الآخر وهو غاية في بابه:

شكوتُ فقالتْ كلُّ هـذا تـبرُّمٌ ... بحُبّي أراح اللهُ قلبَـكَ مـن حُبِّـي

فلمَّا كتمتُ الحبَّ قالتْ لَشدَّ مـا ... صَبَرتَ وما هذا بفعلِ شَجي القلـبِ

وأَدْنُو فتُقْصِـيني فأبعُـدُ طالبًـا ... رضاها فتَعْتَدُّ التباعـدَ مـن ذنبِـي

فشكوايَ تُؤذيها وصبري يسوءها ... وتجزَعُ من بُعْدي وتَنْفِرُ مـن قُربِـي

فيا قومُ هل من حِيلـةٍ تعرفونهـا ... أعينوا بها واستوجبوا الأجرَ من ربِي[1]

فما ترك هذا الشاعر شيئا من المعاني التي ذكرها أولاً فيما يلاقيه من الحب والبلوى إلا فسّرها على هذا الترتيب، فاعرف ذلك.

ومما أخذ على الفرزدق من هذا النحو قوله:

لقدْ خُنْتَ[2] قَومًا لو لَجأْتَ إليْهِمُ ... طريـدَ دَم أو حـاملاً ثِقْـلَ مَغْـرَمِ

لأَلْفَيْتَ مِنْهُمْ مُعْطِيًـا أو مُطَاعِنَـا ... وراءك شَـزْرًا بالوشِـيجِ المُقَـوِّمِ[3]

لأنه أصاب في التفسير وأخطأ في الترتيب، وذلك أنه أتى بتفسير ما هو أول في البيت الأول ثانيًا في البيت الثاني وهو قوله: "طريد دم" فقال: "أو مطاعنا"، وكذلك أتى بتفسير ما هو ثان في البيت الأول أولاً في البيت الثاني وهو قوله: "حاملاً ثقل

---

(١) الأبيات من الطويل، وتنسب في "خريدة القصر" ص(٤٧٥٧) إلى عبدالحليم بن عبدالواحد، وهي بلا نسبة في "الزهرة" ص(٩٢)، و"العقد الفريد" ص(٢٣٢٣)، و"الكامل" ص(٤٦٤)، و"ديوان المعاني" ص(٦٤٦).

(٢) في نسخة: (جئت).

(٣) البيتان من الطويل، وهما في ديوانه- (١٨٧)، وفي الإيضاح- (٣٠٢)، والصناعتين ص(٦٧٢)، ونقد الشعر ص(١٣٣)، وسر الفصاحة ص(٤٥٧)، ويروى في البيت الثاني "فيهم" بدلا من "منهم".

الشزر: النظر عن اليمين والشمال [اللسان: (شزر)].

والوشيج: شجر الرماح، وقيل: سميت بذلك؛ لأنه تنبت عروقها تحت الأرض [اللسان: (وشج)].

مغرم" فقال: "لألفيت منهم معطيا"، والأولى أنْ كان أتى بتفسير ذلك مرتبًا؛ ففسر ما هو أول في البيت الأول بما هو ثان في البيت الثاني، وما هو ثانٍ في البيت الأول بما هو ثان في البيت الثاني؛ وذلك لو سَلِمَ له الوزن. إلا أنَّ هذا لا كبير عيب فيه. وإنَّما الأحسن ما أشرنا إليه.

واعلم أنَّ الناظم إذ أتى بمثل ما أتى به الفرزدق لا ينكر عليه ذلك، كما ينكر على الناثر، وذلك أنَّ الناظم يضطره الوزن والقافية إلى اعتماد غير الواجب في تأليفه، وترك الأولى في صناعته، كما اضطر الوزن والقافية الفرزدق، فإنَّه لو أراد أنْ يأتي بمقتضى الصنعة لقال:

لقد خُنْتَ(١) قومًا لو لجأتَ إليهمُ ... طَرِيدَ دَمٍ أو حاملاً ثِقْلَ مَغرمِ

"لألفيتَ منهم طاعنًا بالوشِيجِ المقَوَّمِ أو مُعْطِيَا"

وهذا ما يفسد به الوزن والقافية.

وأما الناثر لا يُضطَّر إلى مثل ذلك لتصرفه كيف شاء، ولهذا كان الناثر مؤاخذًا بأداء هذه الصناعة أكثر مما يؤاخذ الشاعر، فاعرف ذلك.

ومما أخذ على الفرزدق قوله أيضًا:

كيفَ أَسْلُو وأنت حِقْفٌ(٢) وغُصنٌ ... وغزالٌ لَحْظًا ورِدْفًا وقدًّا

والأصل في هذا أن قال: ردفا وقدًّا ولحظًا" وأمثال هذا كثيرة، فاعرفها.

وأما فساد التفسير(٣) في هذا الباب فهو أن يأتي المؤلف بكلام يفسره تفسيرًا لا يناسبه، وذلك عيب لا يسامح فيه بحال من الأحوال كقول بعضهم:

---

(١) في نسخة: جئت.

(٢) حقف: ما اعوج من الرمل واستطال، والظبي الحاقف هو الذي نام وانحنى وتثنى في نومه [اللسان: (حقف)].

(٣) فساد التفسير هو أن يقرر معنى ثم يحاول تفسير ما قرره، فلا يأتي بما يطابق ما قدمه، فيفسد تفسيره ويغاير تقريره [نضرة الإغريض في نصرة القريض للمظفر العلوي ص(٤٣٧)].

obeikandi.com

فيأيُّهَا الحيرانُ في ظُلْمَـةِ الـدُّجَى ... ومَنْ خاف أنْ يلقاه بَغْيٌ مِنَ العِدَا[1]

تعالَ إليه تلقَ من نـورِ وَجْهِـهِ ... ضياءً ومن كفّيه بحرًا مـن النَّـدَى

وكان يجب لهذا الشاعر أن يجعل بإزاء "بغي من العدا" ما يناسبه من النصرة أو الإدالة أو الإعانة أو ما جرى هذا المجرى، ليكون ذلك تفسيرًا كما جعل بإزاء الظلمة الضياء، وفسرها به، فأما إن وضع بإزاء ما يتخوف منه "بحرًا من الندى" لا يكون تفسيرًا له وأمثال هذا كثيرة، فلتجتنب.

---

(١) البيتان بلا نسبة في البديع في البديع ص(٢٦٠)، والصناعتين ص(٦٧٥)، وسر الفصاحة ص(٤٥٨).

obeikandl.com

النوع الحادي والعشرون من الباب الأول من الفن الثاني
في الخطاب بالجملة الفعلية والخطاب بالجملة الاسمية المؤكدة
بأنّ المشدّدة وتفضيل أحدهما على الآخر[1]

وذلك كقولنا "قام زيدٌ"، و"إن زيدًا قائم" فقولنا: قام زيدٌ معناه؛ الإخبار عن زيدٍ بالقيام، وقولنا: إن زيدًا قائم معناه: الإخبار عن زيد بالقيام أيضًا. إلا أن في الثاني زيادة ليست في الأول، وهو توكيده بإنَّ المشددة التي من شأنها الإثبات لما يأتي بعدها من الكلام، فمن هذا النحو قوله تعالى: ﴿**وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ**﴾[2]؛ فإنهم إنما خاطبوا المؤمنين بالجملة الفعلية، وشياطينهم بالجملة الاسمية المحققة بإن المشددة، فقالوا: في خطاب المؤمنين "آمنا" ولإخوانهم "إنا معكم"[*] لأنهم في مخاطبة إخوانهم بما أخبروا به عن

---

(١) قال ابن الأثير: "لم أذكر هذا الموضع لأن يجري الأمر فيه على ما جرى مجراه فقط بل لأن يقاس عليه مواضع أخرى مما تماثله وتشابهه، ولو كان شبهًا بعيدًا، وإنما يعدل عن أحد الخطابين إلى الآخر لضرب التأكيد والمبالغة" [المثل السائر ص(٨٧٧)].

(٢) البقرة: ١٤.

(*) هذا الكلام يدل على التفات المصنف إلى أن البلاغة تقتضي رعاية حال المتكلم كذلك لا حال المخاطب وحده، الأمر الذي غفل عنه كثير من منظري البلاغة من المتأخرين، وقد التفت إليه المفسرون البيانيون في تفاسيرهم القيمة، وقد أفاد المصنف من الزمخشري رائد التفسير البياني في كشافه حيث يقول في تفسير هذه الآية: فإن قلت: لم كانت مخاطبتهم المؤمنين بالجملة الفعلية، وشياطينهم بالاسمية محققة بإن؟ قلت: ليس ما خاطبوا به المؤمنين جديراً بأقوى الكلامين وأوكدهما لأنهما فى ادعاء حدوث الإيمان منهم ونشئه من قبلهم لا فى ادعاء أنهم أو حديون فى الإيمان غير مشقوق فيه غبارهم، وذلك إما لأن أنفسهم لا تساعدهم عليه إذ ليس لهم من عقائدهم باعث ومحرك، وهكذا كل قول لم يصدر عن أريحية وصدق رغبة واعتقاد، وإما لأنه لا يروج عنهم لو قالوه على لفظ التوكيد والمبالغة، وكيف يقولونه ويطمعون فى رواجه بين ظهرانى المهاجرين والأنصار والذين مثلهم فى التوراة والإنجيل، ألا ترى إلى حكاية الله قول=

أنفسهم من الثبات على اعتقاد الكفر والبعد من أن يزلوا على صِدق ورغبة ووفور نشاط، وكان ذلك متقبَّلا منهم ورائجًا عند إخوانهم، وما قالوه للمؤمنين فإنما قالوه تكلفًا وإظهارًا للإيمان، خوفًا ومداجاة، وكانوا يعلمون أنهم لو قالوه بأوكد لفظ وأشده لما راج لهم عند المؤمنين إلا رواجًا ظاهرًا لا باطنًا، ولأنهم ليس لهم من عقائدهم باعث قوي على النطق في خطاب المؤمنين بمثل ما خاطبوا به إخوانهم "إنا معكم" وهذه نكت دقيقة ولطائف خفية لا توجد في نوع من الكلام العربي إلا في القرآن الكريم، وما أكثر ذلك وأمثاله في أثنائه وأوفره! مودعًا في غضونه، فاعرفه وقس عليه.

=المؤمنين (ربنا إننا آمنا)، وأما مخاطبة إخوانهم فهم فيما أخبروا به عن أنفسهم من الثبات على اليهودية والقرار على اعتقاد الكفر، والبعد من أن ينزلوا عنه على صدق ورغبة ووفور نشاط وارتياح للتكلم به، وما قالوه من ذلك فهو رائج عندهم متقبل منهم فكان مظنة للتحقيق ومئنة للتوكيد.

وقد فصلنا الكلام في رعاية حال المتكلم في دراسة لنا في سورة البقرة ضمن سلسلة: البلاغة بين التنظير والتطبيق، فراجعه إن شئت.

النوع الثاني والعشرون من الباب الأول من الفن الثاني

في ورود لام التأكيد في الكلام

ولا يجيء ذلك إلا لضرب من المبالغة، وفائدتها في التأليف أنه إذا عبر عن أمر يَعِزُّ وجوده، أو فعل يعظم إحداثه ووقوعه، جيء بها محقِّقة لذلك، وشاهدة، فمن هذا الباب قوله عز وجل: ﴿أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ (٦٣) أَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ(٦٤) لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ (٦٥) إِنَّا لَمُغْرَمُونَ (٦٦) بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ(٦٧) أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ (٦٨) أَأَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنْزِلُونَ(٦٩) لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا فَلَوْلا تَشْكُرُونَ﴾[(١)]. ألا ترى كيف أدخلت "اللام" في آية المطعوم دون آية المشروب، وإنما جاءت كذلك لأن جعل الماء العذب ملحًا أسهل إمكانًا، والموجود من الماء الملح أكثر من الموجود من الماء العذب، وكثيرًا ما إذا جرت المياه العذبة على الأراضي المتغيرة التربة أحالتها إلى الملوحة والمرارة، فلم يحتج في جعل الماء العذب ملحًا إلى زيادة تأكيد، فلذلك لم تدخل عليه "لام التأكيد" المفيدة زيادة للتحقيق، وأما المطعوم فإنَّ جعله حطامًا لما كان خارجًا عن المعتاد أو هو غير مألوف، وإذا وقع فلا يكون إلا عن سخط شديد وغضب زائد، لذلك قرن بلام التأكيد زيادة في تحقيق أمره وتقرير إيجاده وكونه. وهكذا يفعل بكل أمر فيه خصوصية، فاعرفه.

---

(١) الواقعة: ٦٣-٧٠.

النوع الثالث والعشرون من الباب الأول من الفن الثاني

في الاقتصاد والإفراط والتفريط

فأما الاقتصاد؛ فهو أن يكون المعنى المضمن في العبارة على حسب ما يقتضيه المعبَّر عنه في مترلته.

وأما التفريط والإفراط؛ فهو أن يكون المعنى المضمّن في العبارة بخلاف ما يقتضيه مترلة المعبّر عنه، فإما انحطاطًا دونها وهو التفريط، وإما تجاوزًا عنها؛ وهو الإفراط، لأن أصل التفريط في وضع اللغة من "فرّط في الأمر إذا قصّر فيه وضيّعه"، وأصل الإفراط في وضع اللغة من "أفرط في الأمر إذا تجاوز فيه الحد"؛ فالتفريط عيب في الكلام فاحش، وذلك كقول الأعشى:

وما مُزبِدٌ من خليجِ الفراتِ جَونٌ غوارِبُهُ تَلْتَطِمْ
بأَجْوَدَ مِنْه بِمَاعُونِهِ إذا ما سماؤهُمُ لم تَغِمْ[1]

فإنه قد مدح ملكًا بأنه يجودُ بماعونه، والماعون هو كل ما يستعار من قدوم أو قصعةٍ أو قِدْرٍ أو ما أشبه ذلك، وليس للملوك في بذله مدح ألبتة، بل هو إلى [الهجاء][*] أقرب منه إلى المدح، فهذا من أقبح التفريط.

ومن هذا الباب قول أبي تمام:

ما زال يَهْذي بالمكارِمِ والعُلا حتى ظننَّا أنَّهُ مَحْمُومُ[2]

---

(١) البيتان من المتقارب، وهما في ديوانه من قصيدة له مطلعها:

أهجر غانية أم تُلِمْ أم الحبلُ واه بها منجذم

وهما في عيار الشعر ص(١٥٦).

(*) في ط: (الذي).

(٢) البيت من الكامل، وهو في ديوانه من قصيدة له مطلعها:

أسقى طلولهم أجش هزيم وغدت عليهم نضرة ونعيم

وهو في شرح ديوانه- (٢٨٣)، وفي الصناعتين ص(٧١٧)، وسر الفصاحة ص(٢٦٩).

فإنه أراد أن يبالغ في ذكر الممدوح باللهج بالمكارم والعلا، فقال: "مازال يهذي" ولا أعلم ما كانت حال أبي تمام عند قوله هذا البيت، ولا أعلم أي أمر اضطره إليه، مع سعة مجال العربية، وانفساح مداها؟! ثم ما كفاه ذلك، حتى قال: "ظننت أنه محموم"، وعلى نحو من ذلك، قول بعضهم:

وتَلْحقُهُ عند المكارمِ هِزَّةٌ كما انتفضَ المجهودُ مِنْ أُمِّ مِلْدَمِ[1]

ومن أقبح ما رأيناه في هذا الفن، قول أبي تمام:

أنت دَلْوٌ وذو السَّماحِ أبو مو سى قَلِيبٌ، وأنت دَلْو القَلِيبِ[2]

ومُراد أبي تمام من ذلك، أنه سبب لعطاء المشار إليه، كما أن الدلو سبب في امتياح الماء من القليب، فهذا وأمثاله مما لا يجوز استعماله وإن كان المعنى المقصود به حسنًا. ولهذا كان للمدح ألفاظ لا يجوز استعمالها في الذم، وللذم ألفاظ لا يجوز استعمالها في المدح، ألا ترى أن من المعاني ما يعبر عنه بألفاظ متعددة، ويكون المعنى المندرج تحتها واحدًا؛ فمن الألفاظ ما يحسن استعماله في المدح، ومنها ما لا يحسن استعماله في الذم، ولو كان هذا الأمر يرجع إلى المعنى فقط لكانت جميع الألفاظ الدالة عليه شرعًا[3] سواءً في الاستعمال، وإنما هذا نعود فيه إلى العرف دون الأصل، ولنضرب لذلك مثالاً فنقول: هل يجوز أن يخاطب الملك، فيقال له: "وحق دماغك"

---

(١) البيت من الطويل، وهو للحيص بيص، ومن قصيدة له مطلعها:

أقم يا حسامي في صوانك واهجم شربت دمًا لم أروك بالدم

وفي خريدة القصر وجريدة العصر ص(٤١٢)، ويروى الشطر الأول: "إذا قيل هذا مفخر ظل مائسًا"، وأم ملدم: كنية الحُمَّى، والعرب تقول: قالت الحمى أنا أم ملدم آكل اللحم وأمص الدم [اللسان: (لدم)].

(٢) البيت من الرمل، وهو في "الصناعتين" ص(٦٦٤).

(٣) يقال: هذه شرعة هذه؛ أي: مثلها [الصحاح: (شرع)].

obeikandi.com

قياسًا على أن يقال له: "وحق رأسك"؟ فإن هذا مما لا يجيزه أحد ألبتة ألا ترى أن المؤلف إذا أراد المدح؛ ذكر الرأس والهامة والكاهل وما جرى هذا المجرى، وإذا أراد الهجو؛ ذكر الدماغ والقفا والقذال وما جرى هذا المجرى وإن كانت معاني الجميع متقاربة. ولأجل ذلك حسنت الكناية في الموضع الذي يقبح فيه التصريح، وأمثال هذا الضرب من الكلام كثيرة، فاعرفه.

وأما الإفراط؛ فهو بمنزلة ما روي عن النبي ﷺ وذلك أن رجلاً جاءه فكلمه، فقال: "ما شاء الله وشئت"، فقال له رسول الله ﷺ: أجعلتني لله ندًا"؟ قل: "ما شاء الله وحده"(*).

ومن هذا الباب قول عنترة:

وأنا المنِيَّةُ في المواطِنِ كلِّها ... والطَّعنُ منِّي سابقُ الآجالِ(١)

فإن الطعن لا يسبق الأجل، إذ الأجل لا يتقدم ولا يتأخر، وقد قيل: "سابق" أقرب أمرًا من كونه تاليًا، غير أن كليهما إفراط في القول.

ومما جاء على نحو من هذا قول بشار:

إذا ما غَضِبْنَا غَضْبةً مُضَرِيَّةً ... هتَكْنا حجابَ الشَّمْسِ أو قَطَرتْ دَما(٢)

(*) أخرجه أحمد (١/٢١٤)، والبخاري في "الأدب المفرد" (٧٨٧)، وابن ماجه (٢١١٧)، والبيهقي (٣/٢١٧)، وغيرهم من حديث ابن عباس مرفوعًا، وإسناده حسن كما في "الصحيحة" (١٣٩).

(١) البيت من الكامل، وهو في شرح ديوانه- (١٠٦)، والحيوان ص(٣٢٧٥)، وزهر الآداب وثمر الألباب ص(٢٣٠٢)، والشعر والشعراء ص(٢٥٥)، ويروى "حين تشتجر القنا" بدلا من "في المواطن كلها".

(٢) البيت من الطويل، وهو للقحيف العقيلي، وينسب لبشار بن برد في الأزمنة والأمكنة للمرزوقي ص(٧٦٤)، والأشباه والنظائر للخالديان ص(١٤٣)، و الشعر والشعراء ص(٨٦٨).

وقال أبو عثمان الجاحظ في كتاب الحيوان: "لم نعلم أحدا أسرف في القول كالنابغة حيث يقول:

إذا مَا غَزَا بالجيشِ حَلَّقَ فوقَهُ　　عَصَائِبُ طَيْرٍ تَهْتَدي بعصائب

جوانحُ قد أيقنَّ أنَّ قبيلَهُ　　إذا ما الْتَقَى الجَمْعَانِ أَوَّلُ غالبِ(١)

لأنه ليس عند الطيور في اتباع الجموع والعساكر إلا ما يسقط من ركابهم ودوابهم؛ إذ كانوا قد رأوا ذلك من تلك الجموع وألفوه منها، فأما أن يقصدوا بالأمل واليقين لأحد الجمعين بالإدالة والغلبة فهذا لم يقله أحد"(٢).

وقيل إن بعض أفراد هذه الصناعة لما سمع قول قيس بن الخطيم:

مَلَكْتُ بِهَا كَفِّي فَأَنْهَرْتُ فَتْقَهَا　　يَرَى قائمٌ مِنْ دونِهَا ما وراءَهَا(٣)

قال: "هذا لم يطعنه وإنما فتح فيه بابا أو دربًا".

واعلم أن علماء البيان في استعمال الإفراط على ثلاثة أضرب:

١-فمنهم من يكرهه ولا يراه صوابًا كأبي عثمان الجاحظ فيما روي عنه.

٢-ومنهم من يختاره ويؤثر كقدامة بن جعفر الكاتب فإنه كان يقول: "الغلو عندي كان أجود المذهبين، فإن أحسن الشعر أكذبه".

٣-ومنهم من يذهب إلى التوسط بين الغلو والتفريط، وهو الاقتصاد، وذلك

---

(١) البيتان من الطويل، وهما في ديوانه- (٤٢-٤٣)، وفي دلائل الإعجاز- (٥٠١)، وفيه يروى "الصفان" بدلا من "الجمعان"، الأول في خزانة الأدب- (٢٨٩/٤)، والشعر والشعراء- (١٧٥)، ولسان العرب- (عصب)، (حلق)، وبلا نسبة في شرح التصريح- (٢٢٧/٢)، وشرح المفصل- (٦٨/١)، والثاني في أساس البلاغة- (جنح)، ومقاييس اللغة- (٩٩/٢).

(٢) انظر: الحيوان (٣١٥٨/٦).

(٣) البيت من الطويل، وهو في ديوانه- (٤٦)، وديوان الأدب- (٣٠١/٢)، وتهذيب اللغة (٢٧٧/٦)، (٢٧١/١٠)، وشرح ديوان الحماسة للمرزوقي- (١٨٤)، وتاج العروس- (نهر)، (ملك)، والمعاني الكبير- (٩٧٨، ٩٨٣، ١٠٦٢، ١٠٨٠)، ولسان العرب- (نهر)، (ملك).

obeikandi.com

أن يجعل الغلو، وهو الإفراط مثلاً ثم يُستثني فيه بـ (لو) أو بـ "كاد" أو ما جرى هذا المجرى، فيدرك مراده ويسلم من عيب عائب أو طعن طاعن، وذلك كقول بعضهم:

يكـــادُ يُمْسِـــكُهُ عِرْفَـــانُ راحتِـــهِ ركنُ الحَطِيمِ إذا ما جاءَ يَسْـــتَلِمُ[(1)]

وكقول أبي عبادة البحتري:

ولو انَّ مُشْتَاقًا تكلّفَ فـــوقَ مـــا في وسعهِ لَسَـــعَى إليـــكَ المِنْـــبرُ[(2)]

وهذا المذهب المتوسط أليق المذاهب الثلاثة، وأدخلها في الصنعة، فاعرفه.

---

(١) البيت من البسيط، وهو للفرزدق في ديوانه من قصيدة مطلعها:

هذا الذي تعرف البطحاء وطأته والبيت يعرفه والحل والحرم

وهو في الأشباه والنظائر ص(٥٦٨)، والأغاني (١٠٠٨٨/١٥)، وشرح ديوان الحماسة ص(٢٦٣١)، وبلا نسبة في "البيان والتبيين" ص(٥٠٣).

(٢) البيت من الكامل، وهو للبحتري في الأشباه والنظائر ص(٥٦٨)، والصناعتين ص(٣٨٥)، والموازنة بين أبي تمام والبحتري ص(٤٣٥)، وزهر الآداب وثمر الألباب للحصري القيرواني ص(١٥٠).

obeikandl.com

النوع الرابع والعشرون من الباب الأول من الفن الثاني

في المعاظلة

وهو نوع من التأليف يجب اجتنابه؛ لأنه عيب في الكلام فاحش، وأصل المعاظلة في اللغة من تعاظلت الجرادتان: إذا ركبت إحداهما الأخرى، فسُمي الكلام الذي تداخلت معانيه، وركب بعضها فوق بعض المعاظلة، مأخوذًا من ذلك وهو اسم لائق بمسماه.

ووصف عمر بن الخطاب ﷺ زهير بن أبي سلمى؛ فقال: "كان لا يعاظل بين الكلام"[(١)].

واعلم أن هذا الباب يجب تدبره لاختلاف أهل هذه الصناعة فيه، فقال قدامة: "التعاظل: تداخل بعض الكلام فيما ليس من جنسه، ولا أعرف ذلك إلا فاحش الاستعارة كقول أوس بن حجر:

وذاتُ هِدْمٍ عارٍ نَواشِرُهَا[(٢)] تُصْمِتُ بالمَاءِ تَوْلَبًا جَدِعًا[(٣)]

فسمَّى الصبي[(٤)] "تولبًا"، والتولبُ: ولد الحمار[(٥)].

هذا ما ذكره قدامة، وهو خطأ؛ لأنه لو كان ما ذهب إليه صحيحًا، لكان أصل المعاظلة، في وضع اللغة دخول الشيء فيما ليس من جنسه، وليس أصلها في وضع اللغة كذلك، بل هو التداخل والتراكب.

وهذا المثال الذي مثل به قدامة لا تداخل في معانيه ولا تراكب، وإنما هو

---

(١) ذكره ابن قتيبة في "غريب الحديث" (٣٤/٢)، والزمخشري في "الفائق" (٣/٣)، وابن الأثير في "النهاية" (٥١٠/٣).

(٢) النواشر: عروق باطن الذراع ومفردها ناشرة [اللسان: (نشر)].

(٣) البيت من المنسرح، وهو في ديوانه (٥٥)، ولسان العرب (تلب)، (جدع)، (هدم)، وتهذيب اللغة (٣٤٦/١)، وتاج العروس (تلب)، (هدم)، والمزهر (٣٧٨/٢)، والخصائص (٣٠٦/٣)، ولبشر بن أبي خازم في ديوانه (١٢٧)، ولأوس بن حجر، أو لبشر ابن أبي خازم في تاج العروس (جدع)، وبلا نسبة في جمهرة اللغة (١٣١٣)، ومقاييس اللغة (٤٣٢/١).

(٤) في نسخة: "الظبي".

(٥) انظر: نقد الشعر ص(١٨٨).

استعارة فاحشة فقط، فوجب حينئذ أن لا تسمى معاظلة"؛ لأن حقيقة المعاظلة ليست موجودة فيه.

وأما جماعة الأصحاب من علماء البيان، فإنهم خالفوا قدامة فيما ذهب إليه، والحق في أيديهم؛ لاتباعهم في ذلك حقيقة هذا الاسم الذي وضع له في أصل اللغة.

وقد مثله الغانمي بقول الفرزدق:

وما مِثْلُهُ في النَّاسِ إلا مُمَلَّكًا   أَبُو أُمِّهِ حَيٌّ أَبُوهُ يُقَارِبُهُ[1]

وهذا مثال حسن لوقوعه على ما مثل به، ألا ترى إلى تداخل معاني هذا البيت بتقديم ما كان يجب تأخيره، وتأخير ما كان يجب تقديمه؟ لأن الأصل في معنى هذا البيت: "وما مثله في الناس حي يقاربه، إلا مملَّكًا، أبو أمه أبوه".

واعلم أن هذا الذي أشرنا إليه من المعاظلة بابه التقديم والتأخير، وقد سبق ذكره في كتابنا هذا. إلا أن المعاظلة، قد جعل لها أهل هذه الصناعة بابًا مفردًا في كتبهم، فلم نر مخالفتهم في هذا القدر، لكنا بينا حقيقتها في بابها وأشرنا إليها بأوضح إشارةٍ وألحظها ليعرف موضعها من التأليف[2].

---

(١) البيت من الطويل، وهو للفرزدق في لسان العرب- (ملك)، ومعاهد التنصيص- (١/٤٣)، وأسرار البلاغة ص(٢٥)، وبلا نسبة في الخصائص- (١/١٤٦، ٣٢٩)، (٢/٣٩٣).

(٢) قال ابن الأثير: "وإذا حققت القول في بيان المعاظلة والكشف عن حقيقتها؛ فإني أتبع ذلك بتقسيم القسم اللفظي منها الذي أنا بصدد ذكره هاهنا فأقول: إني تأملت بالاستقراء من الأشعار قديمها ومحدثها، ومن النظر في حقيقتها فوجدتها تنقسم إلى خمسة أقسام:

١- أدوات الكلام: نحو من وإلى وعن وعلى، وأشباهها؛ فإن منها ما يسهل النطق به إذا ورد مع أخواته، ومنها ما لا يسهل، بل يرد ثقيلاً على اللسان.

٢- تكرير الحروف: وهو تكرير حرف واحد أو حرفين في كل لفظة من ألفاظ الكلام المنثور أو المنظوم؛ فيثقل حينئذ النطق به.

٣- أن ترد ألفاظ على صيغة الفعل يتبع بعضها بعضًا، فمنها ما يختلف بين ماض ومستقبل، ومنها ما لا يختلف.

٤- ما تضمن مضافات كثيرة.

٥- أن ترد صفات متعددة على نحو واحد [المثل السائر ص(٥٣٩-٥٥٥) باختصار].

النوع الخامس والعشرون من الباب الأول من الفن الثاني

في التضمين(١)

وهو مما يزدادُ به الكلام حلاوة ويكتسب به رونقًا وطلاوةً، ولا سيما إذا كان التضمين بآيات من القرآن الكريم؛ فإنها تكون في الكلام كالشاهدة له، والمنادية على سداده.

واعلم أن التضمين على ضربين: أحدهما: تضمين الإسناد، وذلك يقع في بيتين من الشعر وفقرتين من الكلام المنثور، على أن يكون الأول مسندًا إلى الثاني، فلا يقوم الأول بنفسه، ولا يتم معناه إلا بالثاني؛ فمما جاء من ذلك قول بعضهم:

ومِنَ البلْوَى التي ليـ ... ـس لها في النَّاسِ كُنْهُ
أنّ مَنْ يعرفُ شيئًا ... يَدَّعِي أكثرَ منهُ(٢)

ألا ترى أن البيت الأول لم يقم بنفسه ولا تمّ معناه إلا بالبيت الثاني؟ ويجوز أن

---

(١) قال ابن رشيق القيرواني: "التضمين هو قصدك إلى البيت من الشعر أو القسيم، فتأتي به في أواخر شعرك أو في وسطه كالمتمثل" [العمدة ص(٨٩٣)]، وقال ابن الأثير: "هذا النوع فيه نظر بين حسن يكتسب به الكلام طلاوة، وبين معيب عند قوم، وهو عندهم معدود من عيوب الشعر، ولكل من هذين القسمين مقام؛ فأما الحسن الذي يكتسب به الكلام طلاوة؛ فهو أن يضمن الآيات والأخبار النبوية، وذلك يرد على وجهين: أحدهما تضمين كلي، والآخر تضمين جزئي، فأما التضمين الكلي؛ فهو أن تذكر الآية والخبر بجملتها، وأما التضمين الجزئي؛ فهو أن تدرج بعض الآية والخبر في ضمن كلام فيكون جزءً منه، وأما المعيب عند قوم؛ فهو تضمين الإسناد.." [المثل السائر ص(١٤١٠)].

(٢) البيتان من مجزوء الرمل، وهما لمنصور بن إسماعيل الفقيه في التمثيل والمحاضرة ص(٢١١)، وبلا نسبة في "الكشكول" ص(١١٧٤).

يكون البيت الثاني لغير قائل البيت الأول كقول بعضهم:

ولما أتـــاني مـــن حِمـــاك تحيَّـــةٌ ... تَضوَّعَ من أثنائها المسـك والنَّـدُّ

وقفتُ فأَعْيَيْتُ الرسولَ تسـاؤلاً ... وأَنْشَدْتُهُ بيتًـا لـه المَثَلُ الفـردُ

وحدَّثتني يا سعد عنهم فـزدتني ... جنونًا فزدني من حديثك يا سـعدُ[(١)]

وأمثال هذا الضرب من الكلام كثيرة، فاعرفها.

الضرب الآخر من التضمين: وهو أن يضمِّن الشاعر شعره، أو النـاثر نثـره، بكلام لغيره قصدًا [للاستعانة][(٢)] على إتمام المراد، وتأكيدًا لمعناه، ولو لم يذكر ذلـك التضمين لكان المعنى صحيحًا لا يحتاج إلى تمام. وربما ضمَّن الشاعر شعره بنصف بيت أو أقل منه كما قال جحظة[(٣)]:

قُمْ فاسْقِنِيهَا يـا غُـلامُ وغَنِّنِـي ... "ذَهَبَ الذينَ يُعَاشُ في أَكْنَـافِهِم"[(٤)]

ألا ترى أنه لو لم يقل في هذا البيت: "ذهب الذين يعَاشُ في أَكْنَافِهِم" لكـان

---

(١) الأبيات من الطويل، وتنسب ليزيد بن معاوية في تزيين الأسواق في أخبار العشـاق لـداود الأنطاكي ص(١٠٥٥)، والبيت الثالث ينسب للعباس بن الأحنف في الكشكول لبهاء الـدين العاملي ص(١١٧٤)، والوافي بالوفيات للصفدي ص(١٣٤٢١)، ويروى البيت الأول والثاني:

إذا ما أتى من نحو أرضك مخبر ... تضوّع من أرجائه المسك والند

وقفت فأضجرت الرسولا مسائلاً ... وأنشدته بيتًا له المثل الغـرد

(٢) في نسخة: "للاستعارة" وما أثبتناه من المثل السائر ص(١٤١٥).

(٣) أحمد بن جعفر بن موسى بن الوزير يحيى بن خالد بن برمك، أبو الحسن نديم أديب مغن، من بقايا البرامكة، من أهل بغداد، ولد سنة ٢٢٤هـ، كان في عينيه نتوء فلقبه ابن المعتز بجحظـة، وكان كثير الرواية للأخبار، متصرفًا في فنون من العلم كاللغة والنجوم، تـوفي سـنة ٣٢٤هـ [الأعلام (١٠٧/١)].

(٤) البيت من الكامل، وهو لجحظة البرمكي في ديوانه، وفي ديوان المعاني ص(١٤٣٦)، ووفيات الأعيان ص(٢١٢)، وبلا نسبة في البديع في البديع ص(٤٦٣)، ويروى الشطر الأول: "هات اسقنيها بالكبير وغني".

المعنى صحيحًا لا يفتقر إلى شيء آخر يتممه؟ فإن قوله: "قُمْ فَاسْقِنيهَا يا غُلامُ وغَنِّني" فيه كفاية، إذ لا حاجة إلى تعيين الغناء أي شيء هو؛ لأن في ذلك زيادة على المعنى المفهوم لا على الغرض المقصود[(١)].

وقد استعمل هذا الضرب كثيرًا الخطيب عبدالرحيم بن نباتة[(٢)] كقوله في بعض خطبه: "فيا أيها الغفلة المطرقون، أما أنتم بهذا الحديث مصدقون!؟ ما لكم منه لا تُشفقون؟! ﴿فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنْطِقُونَ﴾[(٣)].

وكقوله في ذكر يوم القيامة: "فيومئذ تفد الخلائق على الله بُهْمًا، فيحاسبهم على ما أحاط به علمًا، ويُنفذ في كل عاملٍ بعمله حكمًا: ﴿وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا﴾[(٤)]. ألا ترى إلى براعة هذا التضمين، الذي كأنه رصع[(٥)] في هذا الموضع رصعًا!؟

وكذلك قوله في ذكر يوم القيامة: "هنالك يقع الحساب على ما أحصاه الله كتابًا، وتكون الأعمال المشوبة بالنِّفاق سرابًا ﴿يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلائِكَةُ صَفًّا لا يَتَكَلَّمُونَ إِلا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا﴾[(٦)] [(٧)].

---

(١) ضمن جحظة البرمكي هذا البيت من قول لبيد بن ربيعة:

ذهب الذين يعاش في أكنافهم   وبقيت في خلف كجلد الأجرب

[ديوان المعاني لأبي هلال العسكري ص(١٤٣٦)].

(٢) عبدالرحيم محمد بن إسماعيل بن نباتة الفارقي، أبو يحيى: صاحب الخطب المنبرية، كان مقدمًا في علوم الأدب، وأجمعوا على أن خطبه لم يعمل مثلها في موضوعها، ولد في ميافارقين (بديار بكر) ونسبته إليها، وسكن حلب فكان خطيبها، وتوفي بها سنة ٣٧٤هـ [الأعلام (٣/٣٤٧)].

(٣) الذاريات: ٢٣.

(٤) طه: ١١١.

(٥) في نسخة: "وضع"، يقال: رصع به –بالكسر- يرصع رصعًا إذا لزق به.

(٦) النبأ: ٣٨.

(٧) انظر: الإيضاح في علوم البلاغة (١/٣٨١)، وصبح الأعشى (١/٢٣٧).

وعلى نحو من ذلك جاء قوله: "أسكتهم، والله الذي أنطقهم، وأبادهم الذي خلقهم، وسيُجدُّهم كما أخلقهم، ويجمعهم كما فرَّقهم، يوم يعيد الله العالمين خلقًا جديدًا، ويجعل الظالمين لنار جهنم وقودًا، يوم تكونون شهداء على الناس، ﴿وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾[1]. ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا﴾[2].[3]

وكقوله في صفة أهل الجنة: "قد أنسوا بجوار الجبار، وكوشفوا بحقائق الأسرار، وتبوؤا منازل الشهداء والأبرار، ﴿وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ (٢٣) سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ﴾[4].

وعلى هذا النهج ورد قوله في ذكر القيامة: "هناك يرفع الحجاب، ويوضع الكتاب، ويجمع من وجب له الثواب، ومن حق عليه العقاب، ﴿فَضُرِبَ بَيْنَهُمْ بِسُورٍ لَهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ﴾[5].[6]

وأمثال هذه التضمينات في الخطب التي للشيخ عبد الرحيم كثيرة، فاعرفها، فهي من أعجب ما يجيء في هذا الباب.

---

(١) البقرة: ١٤٣.

(٢) آل عمران: ٣٠.

(٣) انظر: الوافي بالوفيات للصفدي ص(١٥١٤٦)، ووفيات الأعيان لابن خلكان ص(١٩٧٥).

(٤) الرعد: ٢٣-٢٤.

(٥) الحديد: ١٣.

(٦) انظر: الإيضاح في علوم البلاغة ص(٦٢١).

النوع السادس والعشرون من الباب الأول من الفن الثاني

في الاستدراج

وهو التوصل إلى وصول الغرض من المخاطب، والملاطفة له في بلوغ المعنى المقصود، من حيث لا يشعر به، وفي ذلك من الغرائب، والدقائق ما يوثق السامع، ويطربه؛ لأن مبنى صناعة التأليف عليه، ومنشأها منه، فمما جاء من هذا الباب، قوله تعالى: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا (٤١) إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لا يَسْمَعُ وَلا يُبْصِرُ وَلا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا (٤٢) يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا (٤٣) يَا أَبَتِ لا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا (٤٤) يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا﴾[1]. هذا كلام يهز أعطاف السامعين، ويبهج نفوس المتأملين، فعليك أيها المترشح لهذه الصناعة، بإمعان النظر في مطاويه، وترداد الفكر في أثنائه، واتخاذه قدوةً ونهجًا تقتفيه، ألا ترى حين أراد إبراهيم أن ينصح أباه، ويعظه مما كان متورطًا فيه من الخطأ العظيم، الذي عصى به أمر العقل، كيف رتب الكلام معه في أحسن اتساق وانتظام مع استعمال المجاملة واللطف واللين والأدب الجميل، والخلق الحسن؟! مستنصحًا في ذلك بنصيحة ربه؛ وذاك أنه طلب منه أولاً العلة في خطيئته طلب مُنبّه على تماديه، موقظ لإفراطه وتناهيه؛ لأن المعبود لو كان حيًّا، متميزًا، سميعًا بصيرًا، مقتدرًا على الثواب والعقاب، إلا أنه بعض الخلق، لاستسخف عقل من أهّلَهُ للعبادة، ووصفه بالربوبية، ولو كان أشرف الخلق كالملائكة والنبيين، فكيف لمن جعل المعبود جمادًا، لا يسمع ولا يبصر؟! ثم ثنّى ذلك بدعوته إلى الحق، مترفقًا به متطلعًا، فلم يَسِمْ أباه بالجهل المطلق، ولا نعته بالعلم الفائق، ولكنه قال: "إن معي لطائف من العلم، وشيئًا منه. وذلك علم الدلالة على الطريق السويّ، فلا تستنكف، وهب أني

---

(١) مريم: ٤١-٤٥.

وإياك في مسير، وعندي معرفة بالهداية دونك، فاتبعني أُنجك من أن تضل وتتيه، ثم ثَلَّثَ ذلك بتثبيطه ونهيه عما كان عليه، بأن الشيطان الذي استعصى على ربك الرحمن الذي جَمِيعُ ما عندك من النعم من عنده، وهو عدوّك وعدو أبيك آدم، هو الذي ورّطك في هذه الورطة، وألقاك في هذه الضلالة. إلا أن إبراهيم عليه السلام لإمعانه في الإخلاص، لم يذكر من جنايتي الشيطان، إلا التي تختص منها بالله عز وجل: عصيانهُ واستكباره، ولم يلتفت إلى ذكر معاداته لآدم عليه السلام وذريته، ثم ربَّعَ ذلك بتخويفه سوء العاقبة وما ينتج عليه من الوبال، ولم يخل هذا الكلام من حسن أدب، بحيث لم يصرح بأن العقاب لاحق لأبيه، ولكن قال: "إني أخاف أن يمسك عذاب" فذكر الخوف والمس إعظامًا لهما، ونكر [العذاب][1]، وجعل ولاية الشيطان ودخوله في جملة أشياعه، أكبر من العذاب، وصدَّر كل نصيحة من النصائح الأربع بقوله: "يا أبت"؛ توسلاً إليه واستعطافًا، فقال له في الجواب: ﴿**قَالَ أَرَاغِبٌ أَنْتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ لأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا**﴾[2].

ألا ترى كيف أقبل عليه الشيخ بفظاظة الكفر وغِلَظ العناد، فناداه باسمه ولم يقابل قوله: "يا أبت" بابني؟ وقدم الخبر على المبتدأ في قوله: "أراغب أنت عن آلهتي يا إبراهيم"؛ لأنه كان أهم عنده وفيه ضروب من التعجب والإنكار، لرغبة إبراهيم عن آلهته وأن آلهته لا ينبغي أن يرغب أحد عنها.

ومن هذا الباب، قوله تعالى: ﴿**وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ وَإِنْ يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِنْ يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ**﴾[3]. ألا ترى ما أحسن مأخذ هذا الكلام وألطف مغزاه؟ فإنه أخذهم

(١) في نسخة: العقاب.

(٢) مريم: ٤٦.

(٣) غافر: ٢٨.

بالاحتجاج على طريقة التقسيم، فقال: لا يخلو هذا الرجل من أن يكون كاذبًا، فكذبه يعود عليه ولا يتخطاه، أو يكون صادقًا فيصيبكم بعض ما يعدكم إن تعرضتم له.

وفي هذا الكلام من حسن الأدب والإنصاف ما أذكره لك، أيها المتأمل، فأقول: إنما قال ﴿يُصِبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ﴾ وقد علم أنه نبي صادق وأن كل ما يعدهم به، لا بد من أن يصيبهم لا بعضه، لأنه احتاج في مقاولة خصوم موسى أن يسلك معهم طريق الإنصاف والملاطفة في القول، ويأتيهم من جهة المناصحة، فجاء بما علم أنه أقرب إلى تسليمهم لقوله، وأدخل في تصديقهم له، وقبولهم منه، فقال: ﴿وَإِنْ يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ﴾. وهو كلام المنصف في مقابلة غير المشتط فيه؛ وذلك أنه حين فرضه صادقا فقد أثبت أنه صادق في جميع ما يَعِدُ به، لكنه أردفه بقوله: ﴿يُصِبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ﴾ ليَهْضِمَهُ بعض حقه في ظاهر الكلام، فيريهم أنه ليس بكلام من أعطاه حقه وافيًا، فضلاً من أن يتعصب له. وتقديم الكاذب على الصادق من القبيل، وكذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ﴾ أي: لو كان مسرفًا كذابًا لما هداه للنبوة ولا عضده بالبينات.

فتدبر أيها المتأمل لهذه الدقائق اللطيفة تضع يدك على النقط في صناعة التأليف.

النوع السابع والعشرون من الباب الأول من الفن الثاني
في الإرصاد[1]

وهو نوع من أنواع علم البيان، لطيف المأخذ، دقيق الصنعة؛ وذلك أن يبني الشاعر البيت على قافية قد أرصدها له أي: أعدها في نفسه، فإذا أنشد صدر البيت عرف ما يأتي به في قافيته؛ وذلك من محاسن التأليف؛ لأن خير الكلام ما دل بعضه على بعض. وفي هذه الصناعة يقول ابن نباتة:

خُذْهَا إذا أُنْشِدَتْ للقومِ من طَرَبٍ ... صُدُورُها عُرِفَتْ مِنْهَا قَوَافِيهَا
يَنْسَى لها الرَّاكِبُ العجلانُ حاجتَهُ ... ويُصبحُ الحَاسِدُ الغضبانُ يُطريهَا[2]

فمن هذا الباب قول النابغة:

فِدَاء لامْرِئٍ سارتْ إليْه ... بعذرة رَبِّهَا عَمِّي وخالي
ولو كَفِّي اليمينُ بغتك خوفًا ... لأَفْرَدتُ اليَمِيْنَ مِنَ الشِّمَالِ[3]

ألا ترى أنه يُعلم، إذا عرفت القافية في البيت الأول أن في البيت الثاني يكون ذكرُ الشمال.

وقال البحتري:

أحلّتْ دَمِي من غَيْرِ جُرْمٍ وحَرَّمَتْ ... بلا سَبَبٍ يَوْمَ اللقاءِ كلامي
فَلَيْسَ الَّذِي حَلَّلْتَه بِمُحَلَّلٍ ... وليس الذي حَرَّمْتِهِ بِحَرَامِ[4]

---

(١) قال جلال الدين القزويني: "ويسمى التسهيم أيضًا، وهو أن يجعل قبل العجز من الفقرة أو البيت ما يدل على العجز إذا عرف الروي" [الإيضاح في علوم البلاغة ص(٥٢٣)].

(٢) البيتان من البسيط وهما في ديوانه من قصيدة مطلعها:

هل رقية يستقيل الحب راقيها ... فالطب يزعم أن الحب يعييها

وهو في "سر الفصاحة" ص(٣٠١).

(٣) البيتان من الوافر، وهما في ديوانه من قصيدة مطلعها:

أمن ظلامة الدمن البوالي ... بمرفض الحبي إلى وعال

وهما في لباب الآداب ص(٥٦٩).

(٤) البيتان من الطويل، وهما في ديوانه من قصيدة مطلعها:

ألا هل أتاها بالمغيب سلامي ... وهل خبرت وجدي بها وغرامي

وهما في "البديع في البديع في نقد الشعر" ص(٢١٣)، وفي "الإيضاح" بتحقيقنا ص(٢٩٧).

فليس يذهب على السامع وقد عرف البيت الأول، والمصراع الأول من البيت الثاني منه قاله البحتري، فاعرف ذلك، وقس عليه.

ومن هذا الأسلوب قوله تعالى: ﴿**وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلا أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا وَلَوْلا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ**﴾(١). فإذا وقف السامع على قوله: "**فيما فيه**" عرف أن بعده "**يختلفون**" لما تقدم من الدلالة عليه.

ومن ذلك أيضًا قوله تعالى: ﴿**وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ**﴾(٢). وعلى نحو منه ورد قوله عز من قائل: ﴿**كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ**﴾(٣) فإذا وقف السامع على قوله: "**وإن أوهن البيوت**" يعلم أن بعده "**لبيت العنكبوت**".

وأمثال هذا كثيرة، فاعرفها؛ إلا أن أبا هلال العسكري قد سمى هذا النوع "التوشيح"(٤)، وليس كذلك؛ لأن تسميته "الإرصاد" أولى، وذلك حيث ناسب الاسم مسماه ولاق به، وأما "التوشيح" فهو نوع آخر من التأليف وسيأتي ذكره في بابه.

واعلم أنه قد اختلف أرباب هذه الصناعة في تسمية أنواع علم البيان، حتى إن أحدهم يضع لنوع واحد اسمين، اعتقادًا منه أن ذلك النوع نوعان مختلفان، وليس الأمر كما وقع له بل هما نوع واحد، فممن فعل ذلك "الغانمي" فإنه ذكر في كتابه بابًا من أبواب علم البيان وسماه "التبليغ" وهو أن يأتي الشاعر بالمعنى في البيت تامًا من غير أن يكون للقافية فيما ذكر صنع، ثم يأتي بها لحاجة الشعر إليها حتى يتم وزنه، فيبلغ بذلك

---

(١) يونس: ١٩.

(٢) العنكبوت: ٤٠.

(٣) العنكبوت: ٤١.

(٤) انظر: الصناعتين ص(٧٤٧).

الغاية القصوى، كقول امرئ القيس:

كَأَنَّ عُيُونَ الوَحْشِ حَوْلَ خِبَائِنَا وأَرْحُلِنَا الجَزْعُ[1] الَّذي لَمْ يُثقَّبِ[2]

فإنه قد أتى بالبيت كاملاً قبل القافية ثم لما جاء بها، بلغ بها الأمد الأقصى في التأكيد، ثم إنه ذكر بعد هذا الباب بابًا آخر وسماه "الإشباع"، فقال: هو أن يأتي الشاعر بالبيت معلقًا بالقافية على آخر أجزائه، ولا يكاد يفعل ذلك إلا حذاق الشعراء، وذلك أن الشاعر إذا كان بارعًا جلب بقدرته وذكائه وفطنته إلى البيت، وقد تمت معانيه ويستغني عن الزيادة فيه، قافية متمِّمة لأعاريضه ووزنه، فجعلها نعتًا للمذكور، كقول ذي الرمّة:

قِفِ العِيسَ مِنْ أَطْلالِ مَيَّةَ فاسْألِ رُسُومًا كَأَخْلاقِ الرِّداءِ المُسَلْسَلِ[3]

هذا كلام الغانمي بعينه، والبابان المذكوران سواء، لا فرق بينهما بحال من الأحوال، والدليل على ذلك أن بيت امرئ القيس يتم معناه قبل الإتيان بقافيته، وكذلك بيت ذي الرمة، ألا ترى أن امرأ القيس لما قال:

كَأَنَّ عُيُونَ الوَحْشِ حول خِبَائِنَا وأَرْحُلِنَا الجَزْعُ...

أتى بالتشبيه قبل القافية؟ ولما احتاج إليها جاء بزيادة حسنة، وهو قوله: "لم يثقب"؟!

وهكذا ذو الرمة فإنه لما قال:

قِفِ العِيسِ في أَطْلالِ مَيَّةَ فاسألِ رُسُومًا كأخلاقِ الرِّداء...

أتى بالتشبيه أيضًا قبل الإتيان بالقافية، ولما احتاج إليها أتى بزيادة حسنة وهو قوله: "المسلسل".

---

(١) الجزع: بفتح الجيم وسكون الزاي ضرب من الخرز واحدته: جزعة [اللسان: (جزع)].

(٢) البيت من الطويل، وهو في ديوانه (٣٧)، ولسان العرب (جزع)، وأساس البلاغة (جزع)، وكتاب العين (١/٢١٦)، وتاج العروس (جزع)، والإيضاح (١٧٨)، والمصباح (٢٣١).

(٣) البيت من الطويل، وهو في ديوانه مطلع إحدى قصائده، وفي "العمدة في محاسن الشعر وآدابه" ص(٨٢٩)، و"الصناعتين" ص(٤٧٧) و"الإيضاح" ص(١٧٨).

واعلم أن أبا هلال العسكري قد سمى هذين القسمين بعينهما "الإيغال".

وقال: هو أن يستوفي معنى الكلام قبل البلوغ إلى مقطعه ثم يأتي بالمقطع، فيزيد فيه معنى آخر، وأصل "الإيغال" من أوغل في الأمر، إذا أبعد في الذهاب فيه"(١).

ثم مثل أبو هلال ذلك بقول ذي الرمة:

قِف العِيسَ . . . .

وهذا أقرب أمرًا من الغانمي؛ لأنه ذكره في باب واحد، وسماه باسم واحد، ولم يذكره في باب آخر، كما فعل الغانمي -رحمه الله- وليس الأخذ على الغانمي في ذلك مناقشة على الأسماء وإنما المناقشة له على أن ينتصب لإيراد علم البيان، وتفصيل أبوابه، ويكون أحد الأبواب التي ذكرها داخلاً في الآخر، فيذهب عليه ذلك، ويخفى عنه، وهو أشهر من فلق الصبح(٢).

---

(١) انظر: الصناعتين ص(٧٤٣).

(٢) قال ابن الأثير: "وهاهنا ما هو أغرب من ذاك، وذلك أنه قد سلك قوم في منثور الكلام ومنظومه طرقًا خارجة عن موضوع علم البيان، وهي بنجوة عنه؛ لأنها في واد وعلم البيان في واد.

فمن فعل ذلك الحريري صاحب المقامات؛ فإنه ذكر تلك الرسالة التي هي كلمة معجمة وكلمة مهملة، والرسالة التي هي حرف من حروف ألفاظها معجم والآخر غير معجم، ونظم غيره شعرًا آخر كل بيت منه أول للبيت الذي يليه، وكل هذا وإن تضمن مشقة من الصناعة؛ فإنه خارج عن باب الفصاحة والبلاغة" [المثل السائر ص(١٤٢٦، ١٤٢٧)].

النوع الثامن والعشرون من الباب الأول من الفن الثاني

في التوشيح[١]

وهو أن يبني الشاعر أبيات قصيدته على بحرين مختلفين، فإذا وقف من البيت على القافية الأولى، كان شعرًا مستقيمًا من بحر على عروض، وإذا أضاف إلى ذلك ما بني عليه شعره من القافية الأخرى، كان أيضًا شعرًا مستقيمًا من بحر آخر على عروض، وصار ما يضاف إلى القافية الأولى كالوشاح، فمن ذلك قول بعضهم:

أَسْلَمْ ودُمْتَ على الحوادثِ ما رَسَا ... رُكْنا ثبيرٍ[٢] أو هِضَابُ حِرَاءِ

ونِلِ المُرَادَ مَمَكَّنًا مِنْهُ عَلَى ... رغم الدُّهُور وفُزْ بِطُولِ بَقَاءِ

وهذا من محاسن صناعة التأليف، فاعرفه، ألا ترى إلى هذين البيتين يذكران على قافية أخرى وبحر آخر، نحو قولنا:

أَسْلِمْ ودُمْتَ على الحوا ... دِثِ ما رَسَا رُكْنا ثَبِيرِ

ونَلِ المرادَ مُمَكَّنًا ... مِنْهُ على رَغْمِ الدُّهُورِ

وأمثال هذا كثيرة، فاعرفه، إلا أن فيه نوع إشكال وصعوبة.

---

(١) قال النويري: "التوشيح هو أن يكون معنى الكلام يدل على لفظ آخره فيتنزل المعنى منزلة الوشاح، ويتنزل أول الكلام وآخره منزلة العاتق والكشح اللذين يجول عليهما الوشاح".

وقال قدامة: "هو أن يكون في أول البيت معنى إذا علم علمت منه قافية البيت بشرط أن يكون المعنى المقدم بلفظه من جنس معنى القافية" [انظر: نهاية الأرب في فنون الأدب للنويري ص(٤٥٣٦)، ونقد الشعر ص(١٧٥)].

(٢) ثبير: جبل بمكة [اللسان: (ثبر)].

النوع التاسع والعشرون من الباب الأول من الفن الثاني
في الأخذ والسرقة والإشارة إلى الجيد من ذلك الذي لا بأس به والرديء الذي لا فسحة في استعماله؛ لأنه عيب في الكلام فاحش

اعلم أنه لا يخلو المؤلف السارق معنى من المعاني المسبوق هو إليها من أحد قسمين[1]: إما أن يذكر ذلك المعنى بلفظه من غير تغيير له، وهذا يسمى "النسخ" مأخوذًا من نسخ الكتاب: إذا نقله على هيئته وصورته"، وإما أن يغير لفظه الأول، ويبدله بغيره، وهو ضربان: أحدهما أن يخرجه في معرض جميل وهيئة حسنة، وذلك يسمى "السلخ" مأخوذًا من "سلخ جلد الشاة"؛ لأنه أخذ بعض الشيء المسلوخ، والآخر أن يخرجه من معرض رديء وهيئة قبيحة، وذلك يسمى "المسخ" مأخوذًا من "مسخ الصورة صورة أخرى دونها" كما مسخ الله الآدميين قردة.

فأما القسم الأول وهو "النسخ"[2]؛ فإن أرباب هذه الصناعة يسمونه "وقوع الحافر على الحافر" كقول امرئ القيس:

وقوفًا بها صَحْبِي علـيَّ مَطِـيَّهم   يقولونَ لا تَهلِكْ أسًـى وتجمَّـلِ[3]

وقول طرفة بن العبد البكري:

وقوفًا بها صَحْبِي علـيَّ مَطِـيَّهم   يقولونَ لا تَهْلِكْ أسًـى وتجلَّـدِ[4]

---

(١) ذكر ابن الأثير في "المثل السائر ص(١٤٤٧): "هاهنا قسمان آخران أخللت بذكرهما في الكتاب الذي ألفته، فأحدهما: أخذ المعنى مع الزيادة عليه، والآخر: عكس المعنى إلى ضده، وهذان قسمان ليسا بنسخ ولا سلخ ولا مسخ".

(٢) قال ابن الأثير: "النسخ لا يكون إلا في أخذ المعنى واللفظ جميعًا أو في أخذ المعنى وأكثر اللفظ؛ لأنه مأخوذ من نسخ الكتاب" [المثل السائر ص(١٤٥٦)].

(٣) البيت من الطويل، وهو لامرئ القيس في الأشباه والنظائر (٢٦/١)، والزهرة ص(١٢٩٧)، وخزانة الأدب ص(٢١٥٥)، وطبقات فحول الشعراء ص(٤٧).

(٤) البيت من الطويل، وهو في الإيضاح (٣٤٠)، وطبقات فحول الشعراء ص(٤٧)، والزهرة (١٣٩٨)، والشعر والشعراء ص(٩٧).

والأخذ إذا كان كذلك كان معيبًا وإن ادعى الآخر أنه لم يسمع قول الأول، بل وقع له كما وقع لذلك؛ فإن صحة ذلك لا يعلمه إلا الله ﷻ والعيب لازم للآخر في ظاهر الأمر، وإن كان ما ادعاه صادقًا.

ولعمري إن القوم إذا كانوا من قبيلة واحدة؛ فإن خواطرهم تقع متقاربة، كما أن أخلاقهم وشمائلهم تكون متقاربة، إلا أن الظاهر ما قلناه فإنه ليس لنا إلا الظاهر، والله يتولى السرائر، فاعرف ذلك.

واعلم أن من هذا القسم الذي هو "النسخ" ما يعمد المؤلف الآخر فيأخذ ما ذكره المؤلف الأول، لفظًا ومعنى، ولكنه يغير هيئة ذلك؛ بتقديم بعض الألفاظ التي كانت مقدمة في الأول، وذلك أيضا من قبيح الأخذ وفاحشه، أو أن المؤلف الآخِر يأخذ المعنى من المؤلف الأول ويأتي على أكثر ألفاظه غير تارك منها إلا القليل، وهذا مما يقبح ذكره ولا يجوز استعماله.

وأما القسم الثاني وهو ضربان: الأول: "السلخ" ولا عيب فيه لأحد من أرباب التأليف [فليس للمؤلف](١) غنى عن تناول المعاني ممن تقدمه. ولكن يجب عليه أنه إذا أخذها أن يكسوها ألفاظا جميلة ويخرجها في معرض أنيق وصورة حسنة، ويزيد في بداعة تركيبها وجودة تأليفها؛ فإنه إذا فعل ذلك صار أولى بها ممن تقدمه، وأحق بها ممن سبقه إليها. قال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب -كرم الله وجهه: "لولا أن الكلام يعاد لنفد".

واعلم أن المعاني مشتركة بين أرباب هذه الصناعة وإنما يتفاضلون في تركيبها واختلاف صورها، وقد قيل: "إن أبا عذر الكلام من سبك لفظه على معناه"، والمعنى الجيد جيد وإن كان مسبوقًا إليه، وقد أطبق المتقدمون والمتأخرون على تداول المعاني بينهم، وليس على أحد منهم عيب في ذلك إلا إذا أخذ المعنى بلفظة واحدة فأفسده، وقصر فيه عمن تقدمه.

وأما إذا أخذه فأبرزه في لباس جميل وركبه تركيبًا أنيقًا وأخرجه في معرض

---

(١) زيادة يقتضيها السياق.

جميل حسن؛ فإنه يكون أحق من مبتدعه، فمن ذلك قول بشار:

مَنْ راقَبَ النَّاسَ لم يَظْفَرْ بِحَاجَتِـه   وفَازَ بِالطَّيِّبَـاتِ الفاتِـكُ اللَّهِـجُ[(١)]

أخذه سلم الخاسر بعده فقال:

مَنْ رَاقَبَ النَّـاسَ مَـاتَ هَمًّـا   وفـازَ باللَّـذَّةِ الجَسُـورُ[(٢)]

وهذا البيت أوجز من الأول وأخصر، ولما سمع بذلك بشار قال: "ذهب به ابن الفاعلة"[(٣)].

ومن هذا النحو قول بعضهم نثرًا: "أحق من أثبت لك العذر في حال شغلك من لم يخل ساعة من برّك وقت فراغك" أخذه آخر بعده؛ فقال: "شكر ما تقدم من إحسانك شاغل عن استبطاء ما تأخر منه"[(٤)]، فأتى بالمعنى الذي ذكره الأول، وزاد عليه زيادة مع الإيجاز والاختصار؛ فأما الزيادة فهي الذكر والشكر لما أولاه من الجميل وأسداه إليه من الإحسان؛ وذلك واجب ذكره؛ لأنه من فروض الأعيان على المنعم عليه، وأما الإيجاز فهو أن الكلام الثاني اثنتا عشرة كلمة، والكلام الأول سَبعَ عشرة كلمة، ولما جاء أبو نواس صاغ هذا المعنى صياغة أخرى أكثر اختصارًا؛ فقال:

لا تُسـدِيَنَّ إليّ عارِفَـةً   حتَّى أَقُومَ بِبَعضِ مَـا سَـلَفَا[(٥)]

---

(١) البيت من البسيط، وهو في ديوانه (٦٠)، وأورده محمد بن علي الجرجاني في الإشارات (٣٠٩)، وهو في الإيضاح (٣٤١)، وطبقات الشعراء ص(١٤٩)، ومعجم الأدباء ص(٢٥١٦)، واللهج بالشيء: الولوع به، وقد لهج به يلهج لهجًا؛ إذا أغرى به فثابر عليه [الصحاح: (لهج)].

(٢) البيت من مُخلَّع البسيط، وهو لسلم الخاسر في الإشارات (٣٠٩)، والإيضاح (٣٤١)، والأغاني (١٩/١٢٩٣٥)، والصناعتين (٤٠٦)، ويروى "غمًّا" بدلاً من "همًّا".

(٣) ذكره أبو هلال العسكري في الأوائل ص(٤٠٤).

(٤) انظر: المصون في الأدب لأبي أحمد العسكري ص(٥٩)، والصناعتين ص(٤٠٩).

(٥) البيت من الكامل، وهو في ديوانه من قصيدة مطلعها:

حلت سعاد وأهلها سرفا   قومًا عدى ومحلة قذفا

وهو في "زهرة الآداب" ص(٦٤٠)، و"العمدة في محاسن الشعر" ص(١٢٥٣)، و"نهاية الأرب" ص(٢٠٠٨).

وذلك من بديع هذا الباب.

ومما ورد من هذا الأسلوب قول العرب: "القتل أنفى للقتل"[1] فجاء القرآن الكريم بهذا المعنى وزاد عليه أشياء عجيبة؛ فقال تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ﴾[2]. فمما زادت به الآية على قول العرب: أنه ليس كل قتل ينفي القتل، وإنما القتل الذي ينفي القتل ما كان على وجه القصاص والعدل، ففي ذكر الحياة من إيضاح المعنى المرغوب ما ليس في قول العرب: "القتل أنفى للقتل" ومن ذلك قوله تعالى: ﴿... الْقِصَاصِ حَيَاةٌ﴾ نظير قولهم: "القتل أنفى للقتل"، و"القصاص حياة" أوجز وأخصر؛ لأن " القصاص حياة" عشرة أحرف، و "القتل أنفى للقتل" أربعة عشر حرفًا، ومن ذلك أن في قولهم "القتل أنفى للقتل" تكريرًا يثقل النطق به على اللسان؛ وليس في قوله تعالى: "القصاص حياة" تكرير، فهذه أربع زيادات تفضل بها الآية على قول العرب؛ وكذلك أيضا قول بعض الأعراب:

فَحَيِّ ذَوِي الأَضْغَانِ تَسْبِ عُقُولَهُم   تَحِيَّةَ ذِي الحُسْنَى وقد يُرْفَعُ النَّفَلْ
وإِنْ دَحَسُوا[3] بِالقَولِ فَاعفُ تَكَرُّمًا   وإن كَتَمُوا عنك الحَدِيْثَ فلا تَسَلْ
فَإِنَّ الذِي يُؤْذِيكَ مِنْهُ سَمَاعُهُ   وإن الذي قالوا وراءَكَ لَمْ يُقَلْ[4]

فورد في القرآن الكريم هذا المعنى المذكور في كلمات مختصرات، وهي قوله تعالى: ﴿وَلا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾[5]. ألا ترى إلى هذه الآية حاوية للمعنى المشار إليه في الأبيات مع

---

(١) انظر: مجمع الأمثال ص(٣١٣)، والصناعتين ص(٣٣٦)، وسر الفصاحة ص(٣٥٢).

(٢) البقرة: ١٧٩.

(٣) دحس بين القوم دحسًا: أفسد بينهم [لسان العرب: (دحس)].

(٤) الأبيات من الكامل وهي للعلاء بن الحضرمي، وفي "العمدة" ص(٥٣٤)، و"العقد الفريد" ص(١١٢٠)، وعيون الأخبار ص(٩٧٤)، والتذكرة السعدية ص(١٩٠).

(٥) فصلت: ٣٤.

الإيجاز، فهو أن الشاعر ذكر هذه المعاني في ثلاثة أبيات فيها ثلاث وثلاثون كلمة، والقرآن العزيز أتى بالمعنى في آية واحدة فيها ثلاث عشرة كلمة، وأما حسن التركيب فلا خفاء به، ومن جملته المقابلة بيين الأضداد نحو ذكر السيئ والحسن، والعدو والصديق.

ومن هذا الباب قول النابغة:

إذا مَا غزَا بِالجَيْشِ حَلَّـقَ فَوْقَـهُ ... عَصَائِبُ طَيْـرٍ تَهْتَـدِي بِعَصَـائِبِ
جـوَانِحُ قَـدْ أَيْقَـنَّ أَنَّ قَبِيْلَـهُ ... إذا ما التَقَى الجَمْعَانِ أَوَلُ غَالِـبِ[1]

أخذ هذا المعنى الأفوه[2]؛ فقال:

وتَـرَى الطَّيْـرَ عَلَـى آثَارِنَـا ... رَأْيَ عَـيْنٍ ثِقَـةً أَنْ سَـتُمَارُ[3]

فذكر المعاني المشار إليها في بيت واحد، فحاز فضيلة الإيجاز، التي هي أعلى درجات الكلام، وصار أحق بذلك المعنى من النابغة، وإن سبقه إليه وتقدمه فيه.

ومما جرى هذا المجرى قول أبي العتاهية:

كَمْ نِعْمَـةٍ لا تَسْـتَقِلُّ بِشُـكْرِهَا ... للهِ في طَـيِّ المَكَـارِهِ كَامِنَـهْ[4]

أخذه أبو تمام، فقال:

قد يُنْعِمُ اللهُ بِالبَلْوَى وإِنْ عَظُمَـتْ ... وَيبتلي اللهُ بَعْضَ القـومِ بِـالنِّعَمِ[5]

---

(١) سبق تخريجهما.

(٢) صلاءة بن عمرو بن مالك من بني أود من مذحج، شاعر يماني جاهلي، أبو ربيعة لقب بالأفوه لأنه كان غليظ الشفتين، كان سيد قومه وقائدهم في حروبهم، وهو أحد الحكماء والشعراء في عصره، ولد سنة ٢ ق.هـ وتوفي سنة ٥٠ ق.هـ [الأعلام (٢٠٦/٣)].

(٣) البيت من الرمل، وهو للأفوه في ديوانه (١٣٠)، والإشارات (٣١٤)، والإيضاح (٣٤٩).

(٤) البيت من الكامل وهو لأبي العتاهية في "الصناعتين" ص(٤٣١)، وبدون نسبة في "عيون الأخبار" ص(١٨٧٢)، ويروى "يستقل" بدلاً من "تستقل".

(٥) البيت من البسيط، وهو لأبي تمام في شرح ديوانه (٢٩٧)، والبديع في البديع ص(٤٥)، وفي الحماسة المغربية ص(٧٠١).

فذكر المعنى الذي ذكره أبو العتاهية وعكسه، وهذا من غرائب ما يوجد في باب الأخذ، فاعرفه.

ومن هذا الباب قول أبي تمام أيضًا:

فَإِنْ لَمْ يَجِدْ في قِسْمَةِ العُمْرِ حِيْلَةً وجَازَ له الإِعْطَاءُ مِن حسناته
لَجَادَ بِها من غيرِ شِرْكٍ بِرَبِّهِ وأشْرَكَهُمْ في صَوْمِهِ وصَلاتِهِ[(١)]

أخذه المتنبي؛ فقال:

فَلَو يَمَّمْتَهُمْ في الحَشْرِ تَجْدُو لأَعْطَوْكَ الَّذِي صَلُّوا وصَامُوا[(٢)]

فأتى بالمعنى الذي ذكره أبو تمام، وزاد عليه بقوله: "في الحشر"؛ لأن الإنسان يكون في ذلك اليوم أشد احتياجًا إلى صلاته وصيامه، وأعظم افتقارًا. وأمثال هذا كثيرة، فاعرفها.

وقد يتساوى المؤلفان في إيراد المعنى باللفظ، كقول بشار:

يَسْقُطُ الطَيْرُ حَيْثُ يُلْتَقَطُ الحَبُّ (م) وتُغْشَى مَنَازِلُ الكُرَمَاءِ[(٣)]

أخذهُ غيره؛ فقال و لم يزد عليه شيئًا:

يَزْدَحِمُ النَّاسُ على بابِهِ والمَنْهَلُ العَذْبُ كَثِيرُ الزِّحَامِ[(٤)]

وعلى نحو من ذلك قول الآخر:

وإنَّ بِقَوْمٍ سَوَّدُوكَ لَحَاجَةً إلى سَيِّدٍ لو يَظْفَرُونَ بِسَيِّدِ[(٥)]

---

(١) البيتان من الطويل، وهما لأبي تمام في شرح ديوانه (٦٤)، وروى في البيت الأول "ولو" بدلا من "فإن"، ويروى في البيت الثاني "كفر" بدلا من "شرك".

(٢) البيت من الوافر، وهو للمتنبي في شرح ديوانه (١٤٧)، وفي البديع في البديع ص(٤١٩)، والحماسة المغربية ص(٢٢٩).

(٣) البيت من الخفيف، وهو لبشار في ديوانه من قصيدة مطلعها:

حييا صاحبي أم العلاء واحذرا طرف عينها الحوراء

وهو في "الأغاني" (١٨٢٧/٣)، و"البيان والتبيين" ص(٢٥٠)، وطبقات الشعراء ص(٢٢).

(٤) البيت من السريع، وينسب للجاحظ في التشبيهات لابن أبي عون ص(٤٠١)، وبلا نسبة في البديع في البديع ص(٥٥٦)، والكامل ص(٢٨٠).

(٥) البيت من الطويل، وهو للأحوص الأنصاري في الأغاني (٢٦٧/٤)، والصناعتين (٤٢٣)، وبلا نسبة في البيان والتبيين ص(١٢٨٠).

obeikandl.com

الضرب الثاني من القسم الثاني

وهو "المسخ" وذلك عيب في الكلام فاحش، فما جاء منه قول الشريف الرضي:

أَحِنُّ إلى ما تَضْمَنُ الخُمْر والحلَى   وأَصدِفُ عَمَّا في ضمانِ المآزِرِ[1]

وقال المتنبي:

إِنِّي على شَغَفِي بِمَا في خُمْرِهَا   لأَعُفُّ عَمَّا في سَراوِيلاتِهَا[2]

ألا ترى إلى هذا المسخ ما أقبحه، وذلك لو تأخر زمان المتنبي عن زمان الشريف الرضي.

وبمثل ذلك يعرف التفاضل بين الشاعرين، وبين الكلامين؛ فقول الشريف على ما تراه من اللطافة والحسن، وقول أبي الطيب على ما تراه من الرداءة والقبح، قال تعالى: ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾[3] واعلم أن ما كان من هذا الباب على سبيل "المسخ"؛ فإنه كان على نحو من قول أبي الطيب، وفيما أشرنا إليه كفاية للمتأمل.

وهذا النوع خاتمة الأنواع من باب الصناعة المعنوية، وذلك مبلغ ما عرفناه من علم البيان فيما يختص بالمعاني. إلا أني رأيت أبا محمد عبد الله بن سنان الخفاجي قد ذكر في كتابه نوعًا آخر؛ فقال: "لا يستعمل في الشعر المنظوم والكلام المنثور ألفاظ المتكلمين والنحويين والمهندسين ومعانيهم، والألفاظ التي تختص بها بعض المهن والعلوم؛ لأن الإنسان إذا خاض في علم وتكلم في صناعة وجب عليه أن يستعمل ألفاظ ذلك

---

(١) البيت من الطويل، وهو للشريف الرضي في ديوانه من قصيدة مطلعها:

بغير شفيع نال عفو المقادر   أخو الجد لا مستنصرًا بالمعاذر

ويروى "يحن" بدلاً من "أحن"، وهو في التذكرة الحمدونية ص(٤٧٧٢).

(٢) سبق تخريجه.

(٣) يوسف: ٧٦.

العلم، وأصحاب تلك الصناعة"[1]، ثم مثل ذلك بقول أبي تمام:

مَـوَدَّةٌ ذهَـبٌ أثمارُهـا شَـبَهٌ ... وهِمَّةٌ جَوْهرٌ معروفُهـا عَـرَضُ[2]

وبقوله أيضًا:

خَرْقَاءُ يَلْعَبُ بِـالعقولِ حَبَابُهَـا ... كتلعُّـبِ الأفعـالِ بالأَسْـمَاءِ[3]

هذا ما ذكره الخفاجي في كتابه[4]، ولنا عليه اعتراض، وهو أنا نقول له: ما الموجب لجعلك هذا القسم مما يرفض ولا يستعمل؟ وما السبب في اجتنابه؟ فإن قال: إني إنما أنكرت استعماله وآثرت تركه واجتنابه؛ لأنه غير مفهوم، قلنا له في الجواب:

لا يخلو الأمر في هذا من حالين: إما أنه غير مفهوم للعامة أو للخاصة، فإن كان غير مفهوم للعامة فقط، فليس جهل العامة بهذا النوع من الكلام داعيًا إلى اجتنابه. ولو كان فهم العامة معتبرًا في اختيار الكلام لكان ما تبتذله من ألفاظها مقدمًا على غيره في الاختيار [لأنهم][5] إلى فهمه أقرب من فهم غيره؛ وذلك شيء مدفوع لا يذهب إليه أحد ألبتة، وإن قال: إن هذا النوع غير مفهوم للخاصة، قلنا له: فأنت أيها الشيخ الإمام قد فهمته وعرفته، ولولا فهمك له ومعرفتك به وإلا كيف كنت تنكره وتبعث على اجتنابه؟! وهذا يدل على أنك لست من العامة ولا من الخاصة؛ لأنك قد فهمت ما لم يفهمه الفريقان، وذلك من أعجب الأشياء.

---

(١) انظر: سر الفصاحة ص(٢٧٩).

(٢) البيت من البسيط، وهو لأبي تمام في شرح ديوانه (٣٩٢)، وفي تحرير التحبير في صناعة الشعر والنثر لابن أبي الأصبع ص(٦٨٣)، وخلاصة الأثر للمحبي ص(٤٣١٩)، وسر الفصاحة ص(٢٨٠).

(٣) البيت من الكامل، وهو لأبي تمام في شرح ديوانه (١٥)، والزهرة ص(١٢٨٠)، وسر الفصاحة ص(٢٨٠).

(٤) انظر: سر الفصاحة ص(٢٨٠).

(٥) زيادة اقتضاها السياق.

فإن قال: إني ما أنكرت هذا النوع إلا لأن صناعة التأليف من المنظوم والمنثور لا تستعمل فيها ما ليس من جنسها، قلت له في الجواب: يبطل عليك ذلك باستعمال الفقه من الأحكام السلطانية في المكاتبات، واستعمال الحساب مما يحتاج إليه في الكتابة إلى العمال وأرباب الخراج، واستعمال النجوم في كبس سني الخراج بعضها على بعض، فيكون لما أنكرته أيها الشيخ الإمام من استعمال تلك العلوم أسوة بالفقه والحساب والنجوم، ثم ماذا تنكر من شيء يدل على فضل صاحبه وغزارة علمه؟ أليس من الواجب في صناعة التأليف أن الناظم والناثر ينبغي له أن يستعمل في كل معنى يقصده، ما يليق به وينخرط في سلكه؟ فإن كان ذلك المعنى يحتاج إلى النحو استعمل فيه النحو، وإن كان شيئًا يحتاج إلى الحساب استعمل فيه الحساب، وكذلك باقي العلوم، فإذا أخذ المؤلف معنى يحتاج فيه إلى ذكر أحد هذه العلوم المذكورة ولم يذكره؛ كان ذلك المعنى ناقصًا عما يحتاج إليه، وهذا ليس بخافٍ على اللبيب المنصف، فاعرفه.

obeikandl.com

الباب الثاني

من الفن الثاني من القطب الثاني

في الصناعة اللفظية

وينقسم إلى سبعة أنواع:

النوع الأول في السجع والازدواج

وهو تواطؤ الفواصل من الكلام المنثور على حرف واحد

اعلم أن السجع قد ذمه بعض أصحابنا من أرباب هذه الصناعة[(١)]، ولا أرى لذلك وجهًا سوى عجزهم عن الإتيان به وقصورهم عن سلوك مذهبه، وإلا فلو كان مذمومًا كما ذكر، لما ورد في القرآن الكريم؛ فإنه قد أتى منه شيء كثير، كقوله تعالى: ﴿**إِنَّ اللَّهَ لَعَنَ الْكَافِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا (٦٤) خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلا نَصِيرًا**﴾[(٢)] وكقوله تعالى في سورة "ق": ﴿**بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَرِيجٍ (٥) أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ (٦) وَالأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ**﴾[(٣)] وكقوله تعالى: ﴿**وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا (١) فَالْمُورِيَاتِ قَدْحًا**﴾ إلى قوله: ﴿**جَمْعًا**﴾[(٤)] وأمثال هذا كثيرة، فاعرفه.

وورد على هذا الأسلوب من كلام النبي ﷺ شيء كثير أيضًا؛ فمن ذلك ما

---

(١) قال ابن سنان الخفاجي: ".. فأما قول الرماني: أن السجع عيب والفواصل بلاغة على الإطلاق فغلط؛ لأنه إن أراد بالسجع ما يكون تابعًا للمعنى وكأنه غير مقصود، فذلك بلاغة والفواصل مثله، وإن كان يريد بالسجع ما تقع المعاني تابعة له، وهو مقصود متكلف، فذلك عيب والفواصل مثله" [سر الفصاحة ص(٢٩٢)].

(٢) الأحزاب: ٦٤، ٦٥.

(٣) ق: ٥-٧.

(٤) العاديات: ١-٥.

رواه عبد الله بن سلام قال: لما ورد رسول الله ﷺ المدينة انجفل الناس قبله، وقيل: قدم رسول الله، فجئت في الناس لأنظر إليه، فلما تبينت وجهه عرفت أنه ليس بوجه كذاب، وكان أول شيء تكلم به أن قال: "أيها الناس أفشوا السلام وأطعموا الطعام، وصلوا بالليل والناس نيام، تدخلوا الجنة بسلام"(١) فإن قيل: إن النبي ﷺ قال لبعضهم منكرًا عليه، وقد كلمه بكلام مسجوع: "أسجعًا كسجع الكهّان"(٢) ولولا أن السجع مكروه لما أنكره رسول الله ﷺ.

الجواب عن ذلك أنا نقول: لو كره النبي ﷺ السجع أصلاً لقال أسجعًا؟! ثم سكت، وكان المعنى يدل على إنكار هذا الفعل لِمَ كان، فلما قال: "أسجعًا كسجع الكهان؟!" صار المعنى معلقًا على أمر آخر؛ وهو إنكار الفعل لم كان على هذا الوجه، فعلم أنه إنما ذَمَّ من السجع ما كان مثل سجع الكهان لا غير، وأنه لم يذم السجع على الإطلاق، ومحال أن يذمه على الإطلاق؛ لأن القرآن الكريم قد أتى به، وهو ﷺ قد نطق به في كثير من كلامه، حتى أنه غير الكلمة عن وجهها؛ اتباعًا لها بأخواتها لأجل السجع؛ فقال لابن ابنته -عليهما السلام: "أعيذه من الهامة والسامة، وكل عين لامة"(٣) وإنما أراد مُلمة؛ لأن الأصل فيها من "ألم فهو ملم"، وكذلك قوله ﷺ: "ليرجعن مأزورات غير مأجورات"(٤) طلبًا للتوازن والسجع، وهذا من أدل دليل على فضيلة السجع.

---

(١) أخرجه أحمد (٥/٤٥١)، والترمذي (٢٤٨٥)، والدارمي (١/٣٤٠)، والحديث صححه الشيخ الألباني في "الصحيحة" (٥٦٩).

(٢) أخرجه مسلم في "القسامة والمحاربين"/ باب: دية الجنين (١٦٨٢)، بلفظ: "أسجع كسجع الأعراب".

(٣) أخرجه البخاري في "أحاديث الأنبياء"/ باب: قول الله تعالى: ﴿واتخذ الله إبراهيم خليلاً﴾ (٣٣٧١)، بلفظ: "أعوذ بكلمات الله التامة من كل شيطان وهامة ومن كل عين لامة".

(٤) أخرجه ابن ماجه (١٥٧٨)، والحديث ضعفه الشيخ الألباني في "ضعيف الجامع" (٧٧٣).

واعلم أن الأصل في هذا هو الاعتدال في مقاطع الكلام، والطبع يميل إلى الاعتدال في جميع الأشياء، وحيث انتهى بنا القول إلى هذا الموضع، فلنتبعه بذكر أقسام السجع، وما يحمد منه في الاستعمال، وما يذم، فنقول:

اعلم أولاً: أن السجع لا يحمد على كل حال، ولا في كل موضع، حتى يتوخاه المؤلف في كلامه، بحيث يذهب بفضيلة المعاني لأجله، وذلك أنه إذا صور في نفسه معنى من المعاني، ثم أراد أن يصوغه بلفظ مسجوع، و لم يؤاته ذلك إلا بزيادة على ذلك المعنى أو نقصان منه، ولا يكون محتاجًا إلى الزيادة ولا إلى النقصان، وإنما يضطر إلى ذلك اضطرارًا؛ لأن المعنى الذي يكون قد قصده يحتاج إلى لفظ يدل عليه، وإذا دل عليه بذلك اللفظ لا يكون مسجوعًا، إلا أن يضيف إليه شيئًا آخر، وينقص لأجل الفقرة المطلوبة، فإذا فعل ذلك، فلا بد وأن يزداد الكلام الذي قصده، زيادة لا حاجة إليها، أو ينقص نقصًا لا حاجة إليه؛ وهذا الذي يذم من السجع ويُستقبح، لما فيه من التكلف والتعسف.

وأما إذا كان محمولاً على الطبع غير متكلف؛ فإنه يجيء في غاية الحسن، وهو أعلى درجات الكلام.

واعلم أن السجع ينقسم إلى ثلاثة أقسام:

الأول: أن يكون الفصلان متساويين، لا يزيد أحدهما على الآخر، كقوله تعالى: ﴿**فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلا تَقْهَرْ (٩) وَأَمَّا السَّائِلَ فَلا تَنْهَرْ**﴾[١] وقوله تعالى: ﴿**وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا(١) فَالْمُورِيَاتِ قَدْحًا (٢) فَالْمُغِيرَاتِ صُبْحًا (٣) فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعًا (٤) فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعًا**﴾[٢]. ألا ترى كيف جاءت هذه الفصول متساوية الأجزاء حتى كأنها خرطت في قالب واحد؟ وأمثال ذلك في القرآن الكريم [كثيرة][٣]، وهو أشرف السجع منزلة، وأعلاه درجة للاعتدال الذي فيه.

---

(١) الضحى: ٩-١٠.

(٢) العاديات: ١-٥.

(٣) زيادة اقتضاها السياق.

القسم الثاني: أن يكون الفصل الثاني أطول من الأول، لا طولاً يخرج به عن الاعتدال خروجًا كثيرًا، فإنه يقبح عند ذلك ويستكره؛ فمن جيد هذا القسم قوله تعالى: ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَرِيجٍ (٥) أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ (٦) وَالأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾[١].

ألا ترى أن الفصل الأول تسع كلمات، والفصل الثاني اثنتا عشرة لفظة، والفصل الثالث إحدى عشرة لفظة؟ ومن ذلك أيضًا قوله تعالى في سورة مريم: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا (٨٨) لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا (٨٩) تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا (٩٠) أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا (٩١) وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا...﴾ إلى قوله: ﴿...وَتُنْذِرَ بِهِ قَوْمًا لُدًّا﴾[٢]. وأمثال هذا في القرآن كثيرة، فاعرفها.

القسم الثالث: أن يكون الفصل الآخر أقصر من الأول، وهو عيب عند أرباب هذه الصناعة فاحش؛ وسبب ذلك أن السمع يكون قد استوفى مدة من الفصل الأول بحكم طوله، ثم يجيء الفصل الثاني قصيرًا عن الأول، فيكون كالشيء المبتور، فيبقى الإنسان عند سماعه كمن يريد المضي إلى غاية فيعثر دونها، وإن شك أحدٌ فيما أشرنا إليه من هذا المثال، فليصنع فصلين من الكلام وليكن الأول منها أطول من الثاني، ثم يعرضهما على نفسه؛ فإنه يجد صحة ما ذكرناه.

واعلم أن التصريع[٣] في الشعر بمنزلة السجع في الفصلين من الكلام المنثور،

---

(١) ق: ٥-٧.

(٢) مريم: ٨٨-٩٧.

(٣) قال ابن رشيق القيرواني: "فأما التصريع فهو ما كانت عروض البيت فيه تابعة لضربه؛ تنقص بنقصه، وتزيد بزيادته" [العمدة ص(٣٥٢)].

وفائدته في الشعر أنه يفهم منه قبل كمال[1] البيت الأول من القصيدة قافيتها، وشبه البيت المصرَّع بباب له مصراعان متشاكلان، وقد فعل ذلك القدماء والمحدثون وفيه دلالة على سعة القدرة، وفسحة المجال في أفانين الكلام.

فأما إذا كثر التصريع في القصيدة فلست أراه مختارًا؛ لأن هذه الأصناف من التصريع، والترصيع، والتجنيس، وغيرهم، وإنما يحسن منها في الكلام ما قل وجرى مجرى اللمعة، وكان كالطراز في الثوب، فأما إذا تواتر وكثر؛ فإنه لا يكون مرضيًا لما فيه من أمارات الكلفة.

وقد استعمل التصريع كثيرًا امرؤ القيس، فمما جاء منه في شعره قوله:

قِفَا نَبْكِ مِنْ ذِكْرَى حَبِيبٍ ومَنْزِلِ بِسِقْطِ اللِّوَى بين الدَّخُولِ فَحَوْمَلِ[2]

ثم قال:

أَفَاطِمَ مَهْلاً بَعْضَ هذا التَّدَلُّلِ وإن كنت قد ازمعت هجري فأجملي[3]

ثم قال:

ألاَ يَا أَيُّهَا الليلُ الطَّوِيلُ ألاَ انْجَلِي بِصُبْحٍ ومَا الإِصْبَاحُ مِنْكَ بِأَمْثَلِ[4]

---

(١) في نسخة: "كما أن"، وما أثبتناه من المثل السائر ص(٤٤٩).

(٢) البيت من الطويل، وهو لامرئ القيس في ديوانه- (٨)، والأزهية- (٢٤٤، ٢٤٥)، وجمهرة اللغة- (٥٦٧)، والجني الداني- (٦٣، ٦٤)، وخزانة الأدب- (١/٣٣٢)، (٣/٢٢٤)، والدرر- (٦/٧١)، وسر صناعة الإعراب- (٢/٥٠١)، وشرح شواهد الشافية- (٢٤٢)، وشرح شواهد المغني- (١/٤٦٣)، والكتاب- (٤/٢٠٥).

(٣) البيت من الطويل، وهو في ديوانه ص(١٢)، وخزانة الأدب (١١/٢٢٢)، وشرح شواهد المغنى (١/٢٠)، ويروى "صرمى" بدلاً من "هجرى".

(٤) البيت من الطويل، وهو في ديوانه- (١٨)، والأزهية- (٢٧١)، وخزانة الأدب- (٢/٣٢٦)، وسر صناعة الإعراب- (٢/٥١٣)، ولسان العرب- (شلل)، والمقاصد النحوية- (٤/٣١٧).

وقال حاتم بن عبيد الله الطائي:

أَتَعْرِفُ أَطْلالاً ونُؤْيًا[1] مهدَّما ... كَخَطِّكَ في رَقٍّ كتابًا مُنَمْنَمَا

ألا لا تَلُومَانِي على ما تَقَدَّمَا ... كَفَى بِصُرُوفِ الدَّهْرِ للمرءِ مُحْكَمَا[2]

وهذا وأمثاله هو التصريع الحسن المشار إليه في هذا الباب؛ لأنه بكلمتين غيرين، وأما التصريع بكلمة واحدة فغير لائق، وإن كان جائزًا كقول بعضهم:

فَكُلُّ ذِي غَيْبَةٍ يَئُوبُ ... وغائبُ الموتِ لا يَئُوبُ[3]

وأمثال هذا كثيرة، فاعرفه.

---

(١) النؤى: حفيرة حول الخباء لئلا يدخله ماء المطر [الصحاح: (نأى)].

(٢) البيتان من الطويل، غير متتاليين، وهما في ديوان حاتم الطائي- شرح د/عمر فاروق الطباع- دار الأرقم (٨٠-٨١)، والأغاني (٨/٥٢٢٧)، والحماسة البصرية ص(٦٥٩).

(٣) البيت من مخلع البسيط، وهو لعبيد بن الأبرص في ديوانه من قصيدة مطلعها:

أقفر من أهله ملحوب ... فالقطبيات فالذنوب

وفي "الأشباه والنظائر" ص(٣٩٧)، و"العقد الفريد" ص(٤٠٨٠)، و"الكامل في اللغة والأدب" ص(٨٣٧)، والشعر والشعراء ص(٢٧٤).

النوع الثاني من الباب الثاني

في التجنيس[1]

اعلم أن التجنيس غرة شادخة في وجه الكلام، وقد تصرف العلماء من أرباب هذه الصناعة فيه فغربوا وشرقوا، ولا سيما المحدثين، منهم من صنف للناس فيه كتبًا كثيرة، وجعلوه أبوابًا متعددة، واختلفوا في ذلك [وأدخلوا بعض تلك الأبواب في بعض فمنهم][2] عبد الله بن المعتز وأبو علي الحاتمي[3] وأبو القاسم الآمدي والقاضي أبو الحسن الجرجاني[4]، وقدامة بن جعفر الكاتب وغيرهم، وأفاضوا فيه وأطالوا القول في شرحه.

وإنما سمي هذا النوع من الكلام مجانسًا؛ لأن الكلام يكون تركيبه من جنس واحد.

واعلم أن التجانس ينقسم إلى سبعة أقسام:

الأول: وهو أشرفها وأعلاها قدرًا، وذلك إذا تساوت ألفاظ الكلام في تركيبها ووزنها ويسمى "التجنيس المطلق"[5]، كقوله تعالى: ﴿**وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ**

---

(١) قال ابن المعتز: "التجنيس هو أن تجيء الكلمة تجانس أخرى في بيت شعر وكلام ومجانستها لها أن تشبهها في تأليف حروفها على السبيل الذي ألف الأصمعي كتاب الأجناس عليها، وقال الخليل: الجنس لكل ضرب من الناس والطير والعروض والنحو، فمنه ما تكون الكلمة تجانس أخرى في تأليف حروفها ومعناها ويشتق منها" [البديع ص(٣٨)].

(٢) زيادة من المثل السائر ص(٤٥٧).

(٣) محمد بن الحسن بن المظفر الحاتمي، أبو علي، أديب نقاد من أهل بغداد، نسبته إلى جد له اسمه (حاتم)، كان من حذاق أهل اللغة والأدب، توفي سنة ٣٨٨هـ [الأعلام (٨٢/٦)].

(٤) علي بن عبدالعزيز بن الحسن الجرجاني، أبو الحسن: قاض من العلماء بالأدب، كثير الرحلات له شعر حسن، ولد بجرجان، ولي قضاءها ثم قضاء الريّ، فقضاء القضاة، وتوفي بنيسابور، وهو دون السبعين سنة ٣٩٢هـ [الأعلام (٣٠٠/٤)].

(٥) قال ابن أبي الأصبع: "فمن فروع التجنيس تجنيس التغاير، وهو أن تكون إحدى الكلمتين اسمًا، والأخرى فعلاً، وهذا سماه التبريزي التجنيس المطلق، كقوله تعالى: ﴿**إني وجهت وجهي**﴾، وكقول الرسول ﷺ: "غفار غفر الله لها" [تحرير التحبير في صناعة الشعر والنثر ص(٢٦) باختصار].

﴿الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ﴾[1] وليس في القرآن الكريم من هذا القسم من التجنيس سوى هذه الآية، فاعرفها.

ومن ذلك أيضًا قول بعضهم:

ومري سوابق دمعها فَتواكَفَتْ ساقٌ يجاذبُ فوقَ ساقٍ ساقَا[2]

وكذلك أيضًا قول أبي إسحاق بن عثمان المغربي[3]:

لَمْ يَبْقَ غيرَك إنسانٌ يُلاذُ بِهِ فلاَ بَرِحْتَ لعينِ الدَّهْرِ إِنْسَانَا[4]

فهذا هو التجانس البديع الذي هو أعلى المراتب وأسمى المنازل.

وقال الآخر:

وإذا البَلابِلُ أُطْرِبَتْ بِهَدِيلِهَا فَانْفِ البَلابِلَ باحْتِسَاءِ بِلابِلِ[5]

وقال آخر:

هَلْ لِمَا فَاتَ مِنْ تَلافٍ تَلافِي أَوْ لِشَاكٍ من الصَّبَابَة شَاكِي[6]

---

(١) الروم: ٥٥.

(٢) ذكره ابن الأثير في "المثل السائر" وقال: "فالساق: ساق الشجرة، والساق: القمري من الطيور" [المثل السائر ص(٤٦٤)].

(٣) إبراهيم بن عثمان (أو ابن يحيى بن عثمان) بن محمد الكلبي الأشهبي الغزي، أبو إسحاق: شاعر مجيد من أهل غزة بفلسطين، ولد بها سنة ٤٤١هـ، ورحل رحلة طويلة إلى العراق وخراسان وتوفي بها سنة ٥٢٤هـ [الأعلام (٥٠/١)].

ووقع في المثل السائر ص(٤٦٥): "وهو الشاعر المعروف بالمعري" ولعله تصحيف.

(٤) البيت من البسيط وهو للغزي، وهو في "معاهد التنصيص على شواهد التلخيص"، عبدالرحيم العباسي، و"نهاية الأرب في فنون الأدب" النويري.

(٥) سبق تخريجه.

(٦) البيت من الخفيف، وهو للبحتري في الإيضاح- (٣٢٧)، ويروى: "تلاق تلاف" بدلا من "تلاف تلافي"، ويروى "صبابة شافي"، بدلا من "الصبابة شاكي".

وقال الآخر:

لِقَاؤكَ يُدْنِي مِنَ المُرْتَجَى ... ويَفْتَحُ بابَ الهَوَى المُرْتَجَا(١)

وأمثال هذا كثيرة كقول بعضهم:

قُلْتُ للقلبِ ما دَهَاكَ أَجِبْنِي ... قَالَ لِي بَائِعُ الفَرَانِي فَرَانِي

نَاظِرَاهُ فِيمَا جَنَى نَاظِرَاهُ ... أَو دَعَانِي أَمُتْ بِمَا أَوْدَعَانِي(٢)

وعلى هذا الأسلوب جاء قول بعضهم:

إلى حَتْفِي مَشَى قَدَمِي ... أَرَى قَدَمِي أَرَاقَ دَمِي(٣)

ورأيت الغانمي -رحمه الله- قد ذكر في كتابه بابًا وسماه "رد الأعجاز على الصدور" خارجًا عن باب التجنيس، وهو ضرب منه وقسم من جملة أقسامه كالذي نحن بصدد ذكره هاهنا. فمما أورده الغانمي من الأمثلة في ذلك قول بعضهم:

ونَشْرِي بِجميلِ الصُّنْـ ... ـعِ ذِكْرًا طَيِّبُ النَّشْرِ

ونَفْرِي بِسُيوفِ الهِنْـ ... ـدَ مَنْ أَسْرَفَ في النَّفْرِ

ونَجْرِي في شِرا الحَمْدِ ... عَلَى شاكِلَةِ النَّجْرِ(٤)

ومن ذلك أيضًا قول بعضهم في الشيب:

يَا بَياضًا أَذْرَى دُمُوعِيَ حَتَّى ... عادَ منها سَوادُ عَيْنِي بَيَاضَا(٥)

---

(١) البيت من المتقارب، وهو لأبي الفتح البستي، وفي معاهد التنصيص ص(١٧٣٤)، و"يتيمة الدهر في شعراء أهل العصر" ص(٣٦٤٠).

(٢) البيتان من الخفيف، وهما للظاهر الجزري في "فوات الوفيات" ص(٦٥١)، و"معجم الأدباء" ص(٢٥٤٣).

(٣) البيت من مجزوء الوافر، وهو لأبي الفتح البستي وهو في "الوافي بالوفيات" ص(١٤٨٦)، و"زهر الآداب وثمر الألباب" ص(٧٤٨).

(٤) النجر: الأصل والحسب [اللسان: (نجر)].

(٥) البيت من الخفيف، وهو لمنصور بن الفرج، وهو في العمدة ص(٧١٥)، والبديع ص(٧٨).

obeikandi.com

وكذلك قول البحتري:

وأغرَّ في الزَّمنِ البَهِيمِ مُحجَّلٍ[1] قد رُحتُ منه على أغرَّ مُحجَّلِ

كالهيْكَلِ المبْنِّي إلاَّ أنَّهُ في الحُسْنِ جاء كَصُورةٍ في هَيْكَلِ[2]

وليس الأخذ على الغانمي في ذلك مناقشة على الأسماء وإنما المناقشة له على أنه ينتصب لإيراد علم البيان وتفصيل أبوابه، ويكون أحد الأبواب التي ذكرها داخلاً في الآخر؛ فيذهب عليه ذلك ويخفى عنه، وهو أشهر من فلق الصباح.

---

(١) يوم أغر محجل وأمر أغر محجل: مشهور، والتحجيل بياضًا يكون في قوائم الفرس [أساس البلاغة، اللسان: (حجل)].

(٢) البيتان من الكامل، وهما للبحتري في "نهاية الأرب" ص(٥٧٩١)، وفي "ديوان المعاني" لأبي هلال العسكري ص(١٢١٩).

القسم الثاني

من النوع الثاني في التجنيس

وهو أن تكون الألفاظ متساوية التراكيب، مختلفة الوزن، وذلك دون الأول في المنزلة كقول النبي ﷺ: "اللهم كما حسنت خلقي فحسن خلقي"(١).

ألا ترى إلى هاتين اللفظتين متساويتان في التراكيب مختلفتان في الوزن؛ لأنه تركيب "الخَلق" و"الخُلق" من ثلاثة أحرف هي الخاء واللام والقاف إلا أنهما قد اختلفا في الوزن إذ وزن الخلق "فَعْل"، ووزنُ الخُلق "فُعُل"، ومن هذا القسم قول بعض الكتاب في صفة كتاب وصل إليه من صديق له: "فللزُهْر والزَهْر من نُور بداعته، ونَور براعته إشراق".

وكذلك قول بعضهم: "لا تُنال غُرر المعالي إلا بركوب الغَرر واهتبال الغِرر"(٢).

وقال ابن العميد:

قد ذُبتُ غيرَ حشاشةٍ وذَماءِ(٣) ما بين حَرِّ هوًى وحَرِّ هواءِ(٤)

وأمثالُ هذا كثيرة، فاعرفها.

---

(١) أخرجه أحمد في "مسنده" (٦/٦٨-١٥٥)، وإسناده صحيح كما قال الشيخ الألباني في "الإرواء" (٧٤).

(٢) انظر: معجم الأمثال (١/٤٤٢)، والغرر: جمع الغرة، وهي من الشهر: ليلة استهلال القمر، ومن الهلال طلعته، ومن القوم شريفهم، ومن الرجل وجهه ومن كل شيء: أجله وأبهاره، والغَرر: التعريض للهلاك، والغرر بكسر الغين: الغرة، وهم الجماعة الذين لا خبرة لهم.

(٣) الذماء: بقية الروح في المذبوح، يقال الضب أطول شيء ذماء، وقد ذمى المذبوح يذمي ذماءً إذا تحرك [الصحاح: (ذمى)].

(٤) البيت من الكامل، وهو لابن العميد في "يتيمة الدهر في شعراء العصر" ص(٢٣٤١).

القسم الثالث

من النوع الثاني من التجنيس

وهو أن تكون الألفاظ متساوية في الوزن مختلفة في التركيب بحرف واحد لا غير، فإن زاد على ذلك خرج من باب التجنيس وهذا القسم دون الذي مثله في المترلة؛ فمن ذلك قوله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ (٢٢) إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾[١].

ألا ترى أن وزن هاتين اللفظتين واحد، وأما تركيبهما فإنه مختلف؛ لأن تركيب "ناضرة" من النون والضاد والراء، وتركيب "ناظرة" من النون والظاء والراء، وكذلك قوله تعالى: ﴿ذَلِكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنْتُمْ تَمْرَحُونَ﴾[٢].

وقال تعالى: ﴿وَإِنَّهُ عَلَى ذَلِكَ لَشَهِيدٌ (٧) وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ﴾[٣].

وعلى نحو من هذا ورد قول النبي ﷺ، وهو "الخيل معقود بنواصيها الخير إلى يوم القيامة"[٤].

وقال أبو تمام:

يَمدُّونَ من أيدٍ عواصٍ عَوَاصِمِ ... تَصُولُ بأسيافٍ قَواضٍ قَوَاضِبِ[٥]

وقال البحتري:

مِنْ كُلِّ سَاجِي الطَّرفِ أغيدَ أجيدٍ ... ومُهَفْهَفِ الكَشْحَيْنِ[٦] أحْوى أحورِ[٧]

وقال بعضهم: "لا تنال المكارم إلا بالمكاره". وأشباه ذلك كثيرة لا تحصى.

---

(١) القيامة: ٢٢، ٢٣.

(٢) غافر: ٧٥.

(٣) العاديات: ٧-٨.

(٤) أخرجه البخاري (٢٨٤٩)، ومسلم (١٨٧١).

(٥) البيت من الطويل، وهو لأبي تمام في ديوانه (٢٠٦/١)، وشرح ديوانه (٤٦)، والطرا (٣٦٢/٢)، والإيضاح (٣٢٥).

(٦) الكشح: ما بين الخاصرة إلى الضلع الخلف [اللسان: (كشح)].

(٧) البيت من الكامل، وهو للبحتري في ديوانه من قصيدة له مطلعها:

إن الظباء لغداة سفح محجر ... هيجن حر جوى وفرط تذكر

وهو في الصناعتين ص(٦٤٥)، وبلا نسبة في البديع في البديع ص(١٧).

القسم الرابع

من النوع الثاني من التجنيس

وهو أن تكون الألفاظ مختلفة في الوزن، مختلفة في التركيب بحرف واحد كقوله تعالى: ﴿وَالْتَفَّتِ السَّاقُ بِالسَّاقِ (٢٩) إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَسَاقُ﴾[١] وقال -عز اسمه: ﴿وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾[٢].

ومن هذا القسم قول البحتري:

نَسِيمُ الروضِ في رِيحٍ شَمَالِ ... وصوبُ المُزْنِ في رَاحٍ شَمُولِ[٣]

وذم أعرابي رجلاً، فقال: "كان إذا سأل ألحف، وإذا سئل سوَّف، يحسد على الفضل، ويزهد في الأفضال"[٤].

وقال بعض الشعراء:

تَقَاصَرتْ هِمَمُ الأملاكِ عن مَلِك ... أَضْحَى الثَّنَاءُ عليهِ وهْو مَقْصُورُ

فوَفْرُه بين أَيدِي العُرفِ مُنْتَهَبٌ ... وعِرْضُهُ عن لسانِ الذَّمِّ مَوْفُورُ[٥]

وأمثال هذا كثيرة في التأليف.

---

(١) القيامة: ٢٩-٣٠.

(٢) الكهف: ١٠٤.

(٣) البيت من الوافر، وهو للبحتري في "الصناعتين" ص(٦٣٥)، و"العمدة" ص(٦٦٦)، وخاص الخاص ص(٢٥٦).

(٤) انظر: الأمثال ص(٤٣٢)، ومجمع الأمثال ص(٧١)، والصناعتين ص(٦٢٧).

(٥) البيتان من البسيط، وهما ينسبان في "البديع" إلى إبراهيم بن الفرج البندنيجي ص(٧٩).

القسم الخامس

من النوع الثاني من التجنيس وهو المعكوس

وهو ضربان: أحدهما عكس الألفاظ، والآخر عكس الحروف، فالأول كقول بعضهم: "عادات السادات سادات العادات"[1]، وكقول الآخر: "شيم الأحرار أحرار الشيم"[2]، وقيل للحسن بن سهل[3]: "لا خير في السرف"، فقال: "لا سرف في الخير"[4] فرد اللفظ واستوفى المعنى، وفي هذا القسم قول عتاب بن ورقاء[5]:

إنَّ الليَالي للأَنَامِ مَنَاهِلٌ ... تُطوى وتُنْشَرُ دُونَها الأعمارُ
فَقِصَارُهنَّ مع الهُمومِ طَوِيلةٌ ... وطِوالُهنَّ مع السُّرورِ قِصَارُ[6]

وقال الآخر:

كَمْ مِنْ حِمارٍ على جَوادٍ ... ومِنْ جَوَادٍ على حِمَارِ[7]

---

(١) انظر: الصناعتين ص(٥٢٩)، والنجوم الزاهرة ص(٢٤٥١)، ويتيمة الدهر ص(٣٦٠٣).

(٢) انظر: المدهش لابن الجوزي ص(٨٨٣).

(٣) الحسن بن سهل هو بن عبدالله السرخسي أبو محمد، وزير المأمون العباسي، وأحد كبار القادة والولاة في عصره، اشتهر بالذكاء المفرط، والأدب والفصاحة وحسن التوقيعات، وهو والد بوران زوجة المأمون، أصيب بمرض السويداء ثم شفي منه، وتوفي في سرخس عام ٢١٠هـ [الأعلام: (٢/١٩٢)].

(٤) انظر: الإعجاز والإيجاز ص(٩٨)، واللطف واللطائف للثعالبي ص(٣٩).

(٥) هو عتاب بن ورقاء بن الحارث بن عمرو اليربوعي التميمي، قائد من الأبطال، ولاه مصعب بن الزبير إمارة أصبهان، وانتدبه لقتال الخارجين عليه في الري فسار إليهم، وفتح الري عنوة وانتظم بعد ذلك في أمراء جيش المهلب، ثم انتدبه الحجاج لقتال شبيب بن يزيد، فلحق شبيبًا وقاتله فقتله شبيب في موقعة له معه تعرف بيوم عتاب [الأعلام (٤/٢٠٠)].

(٦) البيتان من الطويل، وهما في الإيضاح (٣٠٠)، ونسيم الصبا لابن حبيب الحلبي ص(٢٠).

(٧) البيت من مخلع البسيط، وهو لأبي هفان المهزمي في المحاسن والمساوئ ص(٥٩٨)، والوافي بالوفيات ص(٢١٢٢)، ويروى "له حمار" بدلاً من "على جواد" و"بلا حمار" بدلاً من "على حمار".

وهذا ضرب من التجانس له حلاوة ورونق، فاعرفه، وقد سماه قدامة بن جعفر الكاتب "التبديل". وذلك اسم مناسب لمسماه؛ لأن المؤلف يأتي بما كان مقدمًا في جزء كلامه الأول مؤخرًا في الثاني، وبما كان مؤخرًا في الأول مقدمًا في الثاني ومثله قدامة بقول بعضهم: "اشكر من أنعم عليك وأنعم على من شكرك"(١)، ومن هذا القسم قوله تعالى: ﴿يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ﴾(٢)، وقوله تعالى: ﴿مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ﴾(٣).

وقال بعضهم:

تلك الثّنايا مِنْ عِقْدِهَا نُظِمَتْ ... أَمْ نُظِمَ العِقْدُ مِن ثناياهَا(٤)

وأشباه ذلك كثيرة، فاعرفها.

وأما الضرب الثاني من القسم، وهو "عكس الحروف" فكقول بعضهم:

أُهْدِيتُ شيئًا يقل لولا ... أحدوثةُ الفأل والتَّبَرُّكْ

كرسِي تَفَاءلْتُ فيه لِمَّا ... رَأَيْتُ مَقْلُوبَهُ "يَسُرُّكْ"(٥)

وكذلك قول الآخر:

كيف السُّرورُ بإقبالٍ وآخرُهُ ... إذا تأملتَهُ مقلوبُ إقبالِ(٦)

وهذا الضرب نادر الاستعمال؛ لأنه قلما تقع كلمة تقلب حروفها فيجيء معناها صوابًا، فاعرف ذلك.

---

(١) انظر: التمثيل والمحاضرة لأبي منصور الثعالبي ص(٥٥٨)، وسر الفصاحة ص(٣٤٢).

(٢) الروم: ١٩.

(٣) فاطر: ٢.

(٤) البيت من المنسرح، وهو للصنوبري، وهو في "الصناعتين" ص(٧٢٨)، و"ديوان المعاني" ص(٥٧٩).

(٥) البيتان من مخلع البسيط، وهما بلا نسبة في "الكشكول" ص(٦٦٩)، وينسبان إلى منصور الفقيه في "نثر النظم وحل العقد" لأبي منصور الثعالبي ص(١٩٤).

(٦) البيت بلا نسبة في "المدهش" لابن الجوزي ص(٦٠٩).

القسم السادس

من النوع الثاني في التجنيس وهو المجنب

وذلك أن يجمع المؤلف بين كلمتين: إحداها كالتبع للأخرى والجنيبة، كقول بعضهم:

أَبا العبَّاسِ لا تَحْسَبْ لِساني ... لشيءٍ من حُلي الأشعار عَارِي
فَلِي طَبْعٌ كسَلْسالٍ معينٍ ... زُلالٍ من ذُرَى الأحجارِ جارِي[1]

وهذا القسم له رونق وطلاوة، فاعرفه.

(١) البيتان من الوافر، وهما لأبي الفتح البستي في "زهر الآداب وثمر الألباب" ص(١٠٢٩)، وفي "نصرة الثائر على المثل السائر" ص(١٨٣)، وفي نهاية الأرب ص(٤٤٦٠).

obeikandl.com

القسم السابع

من النوع الثاني من التجنيس

وهو ما تساوى وزنه وتركيبه، غير أن حروفه تتقدم وتتأخر، وذلك كقول أبي تمام:

بِيضُ الصَّفائحِ لا سُودُ الصَّحَائِفِ في ... مُتُونِهِنَّ جَلاَءُ الشَّكِّ والرِّيَبِ[1]

وأمثال هذا كثيرة، فاعرفه.

---

(١) البيت من البسيط، وهو في "الإيضاح" ص(٣٦٣)، والبديع في البديع في نقد الشعر ص(٣٢)، والعمدة ص(٦٨٧).

obeikandl.com

النوع الثالث من الباب الثاني في الترصيع

وهو نوع من علم البيان وعر المسلك قلما يَختِلُ المؤلفُ بشرك فكره أوابد ألفاظه، وأصله من "ترصيع العقد" وذلك أن يكون في إحدى جانبي العقد من اللآلئ والجواهر مثل ما في الجانب الآخر، ولذلك جعل هذا في الكلام، وهو أن يكون كل لفظة من ألفاظ الفصل الأول مساوية لكل لفظة من ألفاظ الفصل الثاني في الوزن والقافية، وهذا هو أعلى درجات الترصيع وأصعبها مرامًا.

واعلم أن علماء هذه الصناعة قد جعلوا الترصيع منقسمًا إلى قسمين:

أحدهما ما ذكرناه، والآخر أن يكون أحد ألفاظ الفصل الأول مخالفًا لما يوازنه من ألفاظ القسم الثاني.

فالقسم الأول كقول الحريري في مقاماته: "فهو يطبعُ الأسجاع بجواهر لفظه، [ويقرع الأسماع بزواجر وعظه"، فإنه جعل ألفاظ الفصل الأول][1] مساوية لألفاظ الفصل الثاني وزنًا وقافية، فجعل "يطبع" بإزاء "يقرع" و"الأسجاع" بإزاء "الأسماع" و"جواهر" بإزاء "زواجر" و"لفظه" بإزاء "وعظه"، وهذا هو الكلام السهل الممتنع الذي تخاله قريبًا وهو بعيد المنال، عسير الحصول.

وقد ورد هذا القسم كثيرا في الخطب التي أنشأها الشيخ الخطيب عبد الرحيم بن نباتة، فمن ذلك قوله في أول خطبة: "الحمد لله، عاقد أزمّة الأمور بعزائم [أمره][2]، وحاصد أئمة الغرور بقواصم مكره، وموفق عبيده لمغانم ذكره ومحقق مواعيده بلوازم شكره".

ومن ذلك قوله في ذكر الزمان وتقلبه بأهله: "أولئك الذين أَفَلُوا فنجمتم، ورحلوا فأقمتم، وأبادهم الموت، كما علمتم، وأنتم الطامعون في البقاء بعدهم، كما زعمتم، كلا والله ما أشخصوا لتقروا، ولا نغصوا لتسروا، ولا بد أن تمروا حيث مروا، فلا تثقوا بخدع الدنية، ولا تغتروا".

---

(١) زيادة من المثل السائر ص(٤٨٧).

(٢) زيادة من المثل السائر ص(٤٨٩).

ومن ذلك ما جاءنا في بعض خطبه: "أيها الناس، أسيموا القلوب في رياض الحكم، وأديموا النحيب على ابيضاض اللمم، واطلبوا الاعتبار بانتقاض النعم، وأجيلوا الأفكار في انقراض الأمم". وأمثال هذا في كلامه كثير(١).

وأما ما ورد على نحو ذلك نظمًا، فقول ذي الرُمّة:

كحلاءُ في بَرَجٍ صَفْراءُ في دَعَجٍ   كأنَّها فضةٌ قد شَابها ذهبُ(٢)

وهذا القسم قليل الاستعمال في الشعر جدًّا، فاعرفه إن شاء الله.

---

(١) انظر: التذكرة الحمدونية ص(٤٠٤٣).

(٢) البيت من البسيط، وهو في ديوانه- (٣٣)، وجمهرة اللغة- (١٣٣١)، وجمهرة أشعار العرب- (٩٤٥)، والكامل- (٩٣٤)، ورواية الصدر فيه: "بيضاء في دعج صفراء في نعج"، وفي الإيضاح- (٢٢٢)، ويروى "مسها" بدلا من "شابها" و"حوراء" بدلا من "كحلاء".

والبرج: بالتحريك أن يكون بياض العين محدقًا بالسواد كله لا يغيب من سوادها شيء [الصحاح: (برج)].

عين دعجاء: بينة الدعج وهو شدة السواد مع شدة البياض [أساس البلاغة: (دعج)].

القسم الثاني

من النوع الثالث من الترصيع

وهو أن يكون أحد ألفاظ الفصل الأول مخالفًا لما يوازيه من الفصل الثاني، وذلك كقول تأبط شرًّا:

حمالُ أَلْوِيَةٍ شَهَّادُ أنديةٍ   قوّالُ مُحْكمةٍ جَوَّابُ آفاقِ[(1)]

ألا ترى أن "ألوية" مثل "أندية" في الوزن والقافية، ولكن "حمال" لا يماثل "شهاد" قافية وإنما يماثله وزنًا، وكذلك "قوال" موازن "لجواب" و"محكمة" لا يوازن "آفاق".

ومن هذا القسم أيضًا قول الخنساء:

حامي الحقيقةِ محمودُ الخليقةِ مَهْـ   ـدِيُّ الطريقةِ نفّاعٌ وضرَّارُ[(2)]

وكذلك قول الآخر:

سُودٌ ذوائِبُهَا بِيضٌ ترائبُها[(3)]   مَحْضٌ ضرائبُها[(4)] صِيغَتْ من الكَرَمِ[(5)]

وأمثال هذا كثيرة، فاعرفها إن شاء الله تعالى.

---

(١) البيت من البسيط، وهو في ديوانه- (١٣٧)، ولسان العرب- (عول)، وشرح اختيارات المفضل- (١٢٢).

(٢) البيت من البسيط، وهو للخنساء في "الإيضاح" ص(٣٣٣)، والصناعتين ص(٧٣٨)، والعقد الفريد ص(١٩٢٢).

(٣) الترائب: قال أهل اللغة أنها موضع القلادة من الصدر [اللسان: (ترب)].

(٤) الضرائب: جمع ضريبة وهي الطبيعة والسجية، تقول: فلان كريم الضريبة [الصحاح: (ضرب)].

(٥) البيت من البسيط، وهو لأبي صخر الهذلي في شرح أشعار الهذليين- (٩٦٩)، ولسان العرب- (بوب).

النوع الرابع من الباب الثاني

في لزوم ما لا يلزم

وهو نوع من أشق هذه الصناعة مذهبًا، وأوعرها طريقًا؛ لأن المؤلف يلـزم في تأليفه ما لا يجب عليه ليدل به على قوته في الصنعة، واتساع باعه فيها، وانطلاق عنانه.

وقد جمع أبو العلا [أحمد بن][1] عبد الله بن سليمان في ذلك كتابًا، وذكر فيه الجيد الذي لا مطلع فوقه، والرديء الذي لا مهوى تحته، وسنذكر من ذلك طرفًا.

واعلم أن حقيقة هذا النوع هي: أن تكون الحروف التي قبل روي الأبيات من الشعر حرفًا واحدًا، وهذا أيضًا موجود في فواصل الكلام المنثور، ومن أراد معرفة ذلك والإطلاع عليه، فليطلبه من كتاب "اللزوم" لأبي العلاء، وغيره من الكتب المؤلفة في هذا الفن، فإن كتابنا هذا ليس موضوعًا لشرح هذه الأسباب، وإنما وضع لمن عرف الأصل فيها، فنبين له نحن الجيد منها والرديء ونفرق بينهما، ليعلم أين يضع يده في استعمال ذلك واطراحه.

فمما جاء في هذا الباب قولي في حصار قلعة: "فلما رأونا بساحتهم حاضرين، ولهم في عقر دارهم حاصرين، وهم من بأسنا حذرين، تنادوا: ألا ساء صباح المنذرين".

ألا ترى إلى الفقرتين الآخرتين كيف قد لزم فيهما "الذال والراء" نحو "حذر ومنذر"، وأما الفقرتان الأوليان فليستا من هذا القبيل؛ لأنه يجب أن يكون بإزاء "حاضر" كلمة أخرى في آخرها ضاد وراء، إلا أن ذلك كأنه شبيه بما لا يلزم، والسبب فيه ورود الياء والنون المختصة بالجمع بعد الراء، ولو كان هذا معتبرًا في لزوم ما لا يلزم، لوجب أن يكون التأثير للياء والنون، من غير نظر إلى ما قبلهما، وعلى هذا التقدير فلو قال القائل: "فلما رأونا بساحتهم نازلين، ولهم في عقر دارهم حاصرين"، لكان ذلك من باب لزوم ما لا يلزم، وهذا مما لم يذهب إليه أحد، وإنما الأصل ما أشرنا إليه أولاً، فاعرفه.

---

(١) الزيادة من المثل السائر ص(٤٩٢).

واعلم أنه متى صغرت الكلمة الأخيرة من الشعر والكلام المنثور، وجب أن يصغر الباقي اتباعًا للوزن، فمن ذلك قولُ بعضهم:

عزَّ علَى ليلى بذي سُدَيرِ ... سوءُ مَبيتي ليلةَ الغُمَيْرِ
مُقَبِّضًا نفسيَ في طُميرِ[1] ... تنتهضُ الرعدةُ في ظُهَيري
يهفو إليَّ الزُّورُ من صُدَيري ... ظمآنَ في ريحٍ وفي مُطَيرِ
وأزرقيّ ليس بالقُديرِ ... من لدُ ما ظُهْرٍ إلى سُحَيرِ
حتى بَدَتْ لي جبهةُ القُمَيرِ ... لأرْبعٍ خَلَوْنَ من شُهَيْرِ

ألا ترى إلى هذا الشاعر، كيف لزم التصغير في هذه الأبيات جميعها؟ فإن ذلك من محاسن الصنعة، فاعرفه.

واعلم أنا لا نبعث المؤلف على استعمال هذا القسم من الكلام حتى يجيء به متكلفًا وحشيًا فيكون قد قصد جودة الصنعة وإظهار القدرة عليها والقوة فيها، فيلقيه ذلك فيما يستكره من الألفاظ وتعافه الأسماع، وما مثل المتكلف لهذا الضرب من الكلام حتى يأتي به في صورة قبيحة، إلا مثل الصائغ الذي يأخذ مصوغًا رديًا فيجيد فيه عمله، ويخرج فيه بديع صنعته فيكون عند ذلك قد راعى الفرع، وأهمل الأصل، فتذهب جودة الصنعة في رداءة المصوغ.

وأما إذا أتى المؤلف بهذا الضرب من الكلام، غير متكلف ولا وحشي كان له رونق وطلاوة، وقد استعمل ذلك أبو العلاء المعري في كتابه فأتى منه بشيء ينبو عنه الطبع كقوله في قافية التاء مع الخاء:

بِنتُ عن الدنيا ولا بِنْتَ لي ... فيها ولا عِرْسٌ ولا أُخْتُ
وقد تحمَّلتُ من الوزرِ ما ... تعجزُ أن تحملَهُ البُخْتُ[2]
إنْ مَدَحوني ساءني مدحُهُمْ ... وخِلْتُ أنّي في الثّرى سُخْتُ[3]

---

(١) الطمير: تصغير طمر وهو الخبء، والمطمورة: حفرة أو مكان تحت الأرض قد هيئ خفيًا [تاج العروس، والعين: (طمر)].

(٢) البخت: الإبل الخراسانية [العين: (بخت)].

(٣) الأبيات من السريع، وهي لأبي العلاء المعري في ديوانه من قصيدة البيت الأول مطلعها.

openkaraz.com

وقال في الخاء المضمومة مع الباء:

لا يَفْقِدَنَّ خيرُكم مَجَالِسَكُمْ ... ولا تكونوا كأنَّكُمْ سَبَخُ
ولا كقومٍ حديثُ يومِهمُ ... ما أكلوا أمْسَهُم وما طَبخُوا[1]

وأمثال هذا كثيرة في كتابه، وله من ذلك البديع النادر الذي تتقاصر دونه الفصحاء.

كقوله:

ليل بلا نورٍ أجَنّ بمهمهٍ[2] ... حبس الأدلة ليس فيه منارُ
وهي الحياة فعفةٌ أو فتنةٌ ... ثم المماتُ فجنةٌ أو نارُ[3]

وقال:

يلقاكَ بالماءِ النُّمَيرِ الفتي ... وفي ضمير النفس نارٌ تَقِدْ
يعطيكَ لفظًا لَيِّنًا مسُّهُ ... ومثلُ حَدِّ السَّيفِ ما يَعْتَقِدْ

وقال أيضًا:

تنازعَ في الدنيا سِوَاكَ وما لَهُ ... ولا لكَ شيءٌ في الحقيقةِ فيهَا
ولكنَّهَا مِلْكٌ لربٍّ مُقَدِّرٍ ... يعيرُ جُنوبَ الأرضِ مُرْتَدفيها
ولم تحظَ في ذاك النِّزاعِ بطائلٍ ... مِنَ الأمرِ إلا أن تُعَدَّ سفيها
أيَا نَفْسُ لا تَعْظُمْ عليكِ خُطوبُهَا ... فمُتَّفِقُوها مثلُ مختلفيها
تداعَوْا إلى النزْرِ القليلِ فجالدوا ... عليه وخلَّوْهَا لمغترِفيها
وما أمُّ صِلٍّ أو حليلةُ ضيغمٍ ... بأظلمَ مِنْ دنياكِ فاعترفيها
تُلاقي الوفودَ القادميها بفرحةٍ ... وتبكي على آثار منصرفيها

---

(١) البيتان من المنسرح، وهما لأبي العلاء المعري في ديوانه من قصيدة هذان البيتان مطلعها.

(٢) المهمه: القفر من الأرض والجمع: مهامه [جمهرة اللغة: (مهمه)].

(٣) البيتان من الكامل، وهما لأبي العلاء المعري في ديوانه من قصيدة له مطلعها:

يا ظالمًا عقد اليدين مصليًا ... من دون ظلمك يعقد الزنار

ولم يتوازنْ في القياس نعيمُها وسَيِّئَةٌ أوْدتْ بمقترفيها

وما هي إلا شاكةٌ[1] ليسَ عندها وجدُّك أرطابٌ لمخترفيها

كما نبذت للطير والوحش رازم[2] فألقت شرورًا بين مختطفيها

تناءتْ عن الإنصافِ من ضيم لم يجد سبيلاً إلى غايات منتصفيها

فأَطْبِق فمًا عنها وكفًّا ومقلةً وقُل لغويِّ الناس فاكَ لفيهَا

كأنَّ التي في الكأسِ يطفو حَبابُها سِمامُ حَبابٍ عند مُرتَشِفيهَا[3]

وله من جملة قصيدة:

أرى الدُّنيا وما وُصِفتْ ببرٍّ إذا أغنتْ فقيرًا أوْهَقَتْهُ[4]

إذا خُشِيتْ لشرٍّ عَجَّلَتْهُ وإن رُجِيَتْ لخيرٍ عوَّقَتْهُ

حياةٌ كالحبالة[5] ذاتُ مكرٍ ونفسُ المرء صيدٌ أعلقتْهُ

وأنظر سَهمَها قد أرسلته إليّ بنكبة أو فوقتْهُ

فلا يُخدعْ بحيلتها أديبٌ وإن هي سَوَّرَتْه ومَنْطَقَتْهُ[6]

أذاقَتْهُ شَهِيًّا مِن جَناهَا وصَرَّتْ فَاهُ عَمَّا ذَوَّقَتْهُ[7]

وأمثال هذه كثيرة في شعره، فاعرفها؛ فإنها من محاسن لزوم ما لا يلزم.

---

(١) في نسخة: شاكلة، وتروى شوكة.

(٢) رازم: الرازم من الإبل الثابت على الأرض الذي لا يقوم من الهزال [اللسان: (رزم)].

(٣) الأبيات من الطويل، وهي لأبي العلاء المعري في ديوانه البيت الأول مطلعها.

(٤) أوهقته: الوهق: الحبل المغار يرمى فيه أنشوطة فتؤخذ فيه الدابة والإنسان [اللسان: (وهق)].

(٥) الحبالة: المصيدة [المحكم: (حبل)].

(٦) في نسخة: ونطقته.

(٧) الأبيات من الوافر، وهي لأبي العلاء المعري في ديوانه من قصيدة مطلعها:

أخوك معذب يا أم دفر أظلته الخطوب وأرهقته

والبيتان الأول والثاني في "المدهش" ص(٧٢٩).

وعليك أيها المنتصب لاستعمال هذا النوع من الكلام أن تسلك هذا المـــذهب القويم وتنهج هذا اللقم الواضح، غير متصيد له ولا مكثر منه حتى تخلَّ بالمعنى المنـــدرج تحته، وتذهب برونقه وطلاوته.

وقد ورد من هذا الباب قول طرفة بن العبد:

ألم ترَ أنَّ المـــالَ يُكْســـبُ أَهْلَـــهُ   نضوحًا إذا لم تُعـــطَ منـــه نواســـبُهْ
أرى كلَّ مـــالٍ لا محالـــةَ ذاهبًـــا   وأفضلُهُ ما ورَّث الحمـــدَ كاســـبُهْ

ألا ترى ما أحسن هذا الأسلوب، وألطف مأخذه، وعلى متنه ينبغي أن يكون الاستعمال، فاعرفه.

النوع الخامس من الباب الثاني

في الموازنة

وهي أن تكون ألفاظ الفواصل من الكلام المنثور متساوية في الوزن، وذلك نوع من التأليف شريف المحل، لطيف الموقع، وللكلام به طلاوة ورونق، وسبب ذلك الاعتدال؛ لأنه مطلوب في جميع الأشياء، وحيث كانت مقاطع الكلام معتدلة في الوزن لذ بها السمع، ووقعت من القلب موقع الاستحسان، وهذا لا مراء فيه بحال من الأحوال لبيانه ووضوحه.

فمما جاء من ذلك قوله تعالى: ﴿**وَآتَيْنَاهُمَا الْكِتَابَ الْمُسْتَبِينَ** (١١٧) **وَهَدَيْنَاهُمَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ**﴾[١] وكذلك قوله تعالى: ﴿**قَالَ يَا هَارُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا** (٩٢) **أَلا تَتَّبِعَنِ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي** (٩٣) **قَالَ يَا ابْنَ أُمَّ لا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلا بِرَأْسِي إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي**﴾[٢]. وعلى نحو منه ورد قوله تعالى: ﴿**مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وِزْرًا** (١٠٠) **خَالِدِينَ فِيهِ وَسَاءَ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حِمْلا**﴾[٣].

ومن هذا الأسلوب قوله تعالى: ﴿**يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لا عِوَجَ لَهُ وَخَشَعَتِ الأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ فَلا تَسْمَعُ إِلا هَمْسًا** (١٠٨) **يَوْمَئِذٍ لا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلا** (١٠٩) **يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا**﴾[٤].

وعلى هذا المنهج جاء قوله تعالى: ﴿**وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ**

---

(١) الصافات: ١١٧-١١٨.

(٢) طه: ٩٢-٩٤.

(٣) طه: ١٠٠-١٠١.

(٤) طه: ١٠٧-١١٠.

مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا (١١٣) فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ وَلا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾[١].

ومن ذلك قوله ﷻ: ﴿فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ فَلا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى (١١٧) إِنَّ لَكَ أَلا تَجُوعَ فِيهَا وَلا تَعْرَى (١١٨) وَأَنَّكَ لا تَظْمَأُ فِيهَا وَلا تَضْحَى﴾[٢]. وأمثال هذا في القرآن كثيرة، فاعرفه.

(١) طه: ١١٣-١١٤.

(٢) طه: ١١٧-١١٩.

obeikandl.com

النوع السادس من الباب الثاني

في اختلاف صيغ الألفاظ

وهو من صناعة التأليف بمنزلة علية ومكانة شريفة

اعلم أن الألفاظ إذا نقلت من أسلوب إلى أسلوب كنقلها من الواحد إلى الجمع أو إلى التثنية، أو إلى التأنيث أو إلى غير ذلك انتقل حسنها وصار قبحًا، أو قبحها وصار حسنًا، دليل ذلك؛ أن التاء التي تزاد في آخر الاسم للفرق في الصفة نحو: مقعد ومقعَدة، ألا ترى إلى لفظة "مقعد" الدالة على مكان الجلوس تجمع على مقاعد، ولفظة "مقعدة" الدالة على المحل المخصوص من الحيوان تجمع على "مقاعد" أيضًا؛ فإذا وردت هذه اللفظة -أعني "مقاعد"- في الكلام، والمراد جمع "مقعد" استُقبحت لمماثلتها لجمع "مقعدة" وذلك مما يكره ذكره؛ وإذا وردت منفردة برأسها لم تستقبح ولا تستكره، قال الله تعالى: ﴿فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِيكٍ مُقْتَدِرٍ﴾[(١)]، ولأجل ذلك لما جاءت لفظة "مقاعد" في القرآن الكريم أضيفت إلى ما لا يحتمل معه الاستقباح، فقال جل وعلا: ﴿وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ﴾[(٢)] ولولا إضافة مقاعد إلى القتال لاستقبح إيرادها هاهنا، وهذا لا يخفى على من له أدنى معرفة بهذه الصناعة، إلا أن هذا المثال الذي مثلناه لا يطرد فيما هذا سبيله، وإنما يقع في بعض الألفاظ دون بعض، وقد نبهنا عليه في كتابنا ليعرف محله من التأليف.

ومن ذلك أيضًا ما أشرنا إليه في صدر الكتاب في باب الألفاظ المركبة، وهو أنك ترى بعض الألفاظ تروقك في كلام ما، وتزداد بها إعجابًا واستحسانًا، ثم تراها في كلام آخر فتثقل عليك وتستكرهها؛ مثال ذلك: أن لفظة "الأخدع" قد وردت في بيتين من الشعر، وهي في أحدهما لائقة حسنة، وفي الآخر ثقيلة مستكرهة، كقول

---

(١) القمر: ٥٥.

(٢) آل عمران: ١٢١.

الصمة بن عبد الله[1]:

تَلَّفتُّ نحو الحيِّ حتى كأنَّني وَجِعتُ من الإصْغاءِ لِيتًا[2] وأَخْدَعَا[3][4]

وكقول أبي تمام:

يا دهرُ قَوِّمْ مِنْ أَخْدَعَيْكَ فَقَدْ أَضْجَجْتَ هذا الأنامَ من خُرُقِكْ[5]

ألا ترى أنه قد وجد لهذه اللفظة في بيت أبي تمام من الثقل على النفس والكراهة أضعاف ما وجد لها في بيت الصمة بن عبد الله من الروح والخفة والإيناس والبهجة!؟ وهذا ما لا يمكن النزاع فيه لظهوره، وليس سبب ذلك إلا ما أشرنا إليه من اختلاف الصيغة؛ ألا ترى أن لفظة "الأخدع" قد جاءت هاهنا موحدة ومثناة، وهي حسنة في حالة الإنفراد، مستكرهة في حالة التثنية.

وقد يكون ذلك لأمر يرجع إلى التركيب لا إلى الألفاظ، وذلك أن يكون التركيب مختل النظام، مضطرب الترتيب فتجيء ألفاظه عند ذلك مستكرهة، مستثقلة، لكونها واردة في غير أماكنها، وإن كانت من حيث إنفرادها حسنة لائقة، وقد تقدم الكلام على ذلك في باب تركيب الألفاظ، فاعرفه.

---

(١) سبق ترجمته.

(٢) الليت: بالكسر: صفحة العنق [الصحاح: (ليت)].

(٣) الأخدع: عرق في موضع المحجمين [الصحاح: (خدع)].

(٤) سبق تخريجه.

(٥) سبق تخريجه

النوع السابع من الباب الثاني
في تكرير الحروف

اعلم أن هذا النوع لا يتعلق بتكرير الألفاظ ولا تكرير المعاني مما سبق ذكره في باب التكرير؛ لأن تكرار الحروف هو أن يأتي حرف واحد أو حرفان في كل لفظة من ألفاظ الكلام أو في أكثرها، فيثقل على اللسان النطق بها، فمن ذلك ما أنشده الجاحظ:

وقَبرُ حربٍ بمكانٍ قَفْرٍ ... وليس قُرْبَ قبرِ حربٍ قبرُ[1]

ألا ترى إلى هذه الراءات، والقافات التي في هذا البيت من الشعر؟ فإنها في تتابعها كالسلسلة، ولا خفاء بما على الناطق بها من الكلفة، وليس الكلام العاري من ذلك بمعوز ولا بعزيز، ولا هو بالذي لا يستطيعه إلا الشاعر المبرز أو الكاتب المفلق بل هو مما يصعب النطق به، ولذلك كان كلام الناس في محاوراتهم، ومكاتباتهم، خاليًا من هذا القبيل، وذلك لأنه لا يحصل إلا بالتكلف والقصد للإتيان به، فأما إذا أرسل الإنسان نفسه على سجيتها، وخلّى بينها وبين طبعها فإنه لا يعرض له ذلك. فليت شعري أي أمر يضطر مؤلف الكلام حتى يأتي به مستكرهًا ثقيلاً على اللسان، ويترك ما هو أسهل عليه.

ألم تعلم أن العرب الذين هم الأصل في هذه اللغة قد عدلوا عن تكرار الحروف في كثير من كلامهم؟ وذاك أنه تكررت الحروف عندهم أدغموها استحسانًا، فقالوا: في جعل لك "جَعلْ لَك"، وفي تضربونني "تضربوني" . وكذلك "استعد فلان للأمر" إذا تأهب له والأصل فيه "استعدد"، "واستتب الأمر" إذا تهيأ وكمل وأشباه هذا كثيرة في كلام العرب، حتى إنهم لشدة كراهتهم لتكرار الحروف أبدلوا أحد الحرفين، لما تكرر، حرفًا آخر غيره، فقالوا: أمليت الكتاب" والأصل من ذلك "أمللت" فأبدلوا "اللام" ياء طلبًا للخفة على اللسان، وفرارًا من الثقل والاستكراه.

---

(١) سبق تخريجه.

واعلم أن ورود الإدغام في هذه اللغة أقوى دليل على كراهة العرب لتكرار الحروف وفيما أشرنا إليه كفاية للمتأمل، فاعرفه.

وحيث انتهى بنا الكلام إلى هذا المقام، وفرغنا من جميع الأنواع في علم البيان والأقسام، فلنجعل خاتمته حمد الله على توفيقه، والهداية إلى أقوم طريقه، ونرغب إليه في العصمة من الزلل؛ والإرشاد في القول والعمل، فإن عثر الناظر في كتابنا هذا على سقطة، أو وقع في أثنائه على هفوة أو غلطة، فليُغضِ عنها إغضاء الصافح، وليسترها ستر المتجاوز المسامح، فإن الكريم من ستر العورة، وأقال العثرة.

تم الكتاب بمنه تعالى

وقد كتب في آخره:

وكان الفراغ من تحريره نهار الثلاثاء عشرين من شهر شوال سنة ألف وثلثماية وأربعة عشر هجرية، على نبينا أفضل الصلاة والسلام وأزكى التحية ونقل هذا الكتاب على ذمة الكتبخانة الخديوية، بخط الفقير الحقير محمود صالح، غفر الله له ولوالديه وللمسلمين، والحمد لله رب العالمين، آمين.

obeikandi.com

ومنثور ... الشيخ الإمام
العالم العلامة لسان الأدب
وترجمان عرب أبي الفتح
نصر الله بن محمد بن محمد بن
عبد الكريم الجزري الشهير
بابن الأثير رحمه الله
تعالى وعفا
عنه

الورقة الأولى من النسخة (٢٧٠) بلاغة

obeikandl.com

[illegible]

[illegible]

به كمال وصفه وكان ذلك [illegible]

الذي تميز به عن جميع صنوف جنسه [illegible]

ورد في القرآن المجيد مقرونا بالحسنى من معظم في

الوجود فقال تعالى الرحمن علم القرآن خلق الانسان

علمه البيان نحمده على ترادف الائه وتهاديه

والتحاق راجحها بغواديها حمدا يكون بالزيادة ضمينا

وبالملاء الخيرات قمينا ونصلي على رسوله محمد الصادع

بامره القائم بدينه في سره وجهره وعلى آله مصابيح

الايمان وزهره واصحابه عماد الاسلام وذخره

اما بعد فلما كان تأليف الكلام مما لا يوقف على

غوره ولا يعرف كنه امره الا بالاطلاع على علم البيان

الذي هو لهذه الصناعة بمنزلة ميزان ... حين

شدوت نبذة من الكلام المنثور الى معرفة حقه المذكور

فشرعت عند ذلك في تطلبه وبحثت عن تصانيفه وكتبه

فلم اترك في تحصيله سبيلا الا انتهجته ولا غادرت في دركه

بابا الا ولجته حتى اتضح عندي باديه وخافيه وانكشف

بي

ورقة داخلية من النسخة (٢٧٠) بلاغة

[illegible] تصديت [illegible]

[illegible]

[illegible] قوله تعالى

[illegible] سال بشير وسأبه [illegible]

[illegible] يومئذ يتبعون الداعي

[illegible] فلا تسمع الا همسا يومئذ

[illegible] الرحمن ورضي له قولا يعلم ما بين

[illegible]

وصرفنا فيه من الوعيد لعلهم يتقون

الله الملك الحق ولا تعجل بالقرآن من

[illegible]

[illegible] وزوجك فلا يخرجنكما من

[illegible] فيها ولا تعرى وانك لا تظمأ فيها

قرآن كثيرة فاعرف

صيغ الالفاظ وهو من صناعة التأليف

[illegible] اعلم ان الالفاظ اذا نقلت من

[illegible] من الواحد الى الجمع او الى التثنية او الى

[illegible] حسنا وصار قبيحا او قبيحا وصار

[illegible] التي تزاد في آخر الاسم للفرق في الصفة

[illegible] لفظة مقعد الدالة على مكان الجلوس

[illegible] الدالة على المحل المخصوص من

[illegible] وردت هذه اللفظة اعني مقاعد

[illegible] مستقبحة لمماثلتها الجمع مقعدة

[illegible] مفردة برأسها لم تستقبح ولا

[illegible] صدق عند مليك مقتدر ولاجل ذلك

[illegible] اضيفت الى ما يحققها

[illegible] غدوت من اهلك تبوء المؤمنين

[redacted]

[illegible] هذه الصناعة [illegible]

المثال الذي مثلناه لا يطرد فيها هذا سبيله وانما يقع في بعض

الالفاظ دون بعض وقد نبهنا عليه في كتاب ليعرف محله من

التأليف ومن ذلك ايضا ما اشرنا اليه في صدر الكتاب في باب

الالفاظ المركبة وهو انك ترى بعض الالفاظ يروقك في كلام

ما وتزداد بها اعجابا واستحسانا ثم تراها في كلام آخر فتثقل

عليك وتستكرهها مثال ذلك ان لفظة الاخدع قد وردت

في بيتين من الشعر وهي في احدهما لائقة حسنة وفي الاخرى

ثقيلة مستكرهة كقول الصمة ابن عبد الله

تلفت نحو الحي حتى كانني ... وجعت من الاصغاء ليتا واخدعا

وكقول ابي تمام

يا دهر قوم من اخدعيك فقد ... اضججت هذا الانام من خرقك

الاترى انه قد وجد لهذه اللفظة في بيت ابي تمام من الثقل على

النفس والكراهة اضعاف ما وجد لها في بيت الصمة ابن عبد الله

من الروح والخفة والايناس والبهجة وهذا مما لا يمكن النزاع

فيه لظهوره وليس سبب ذلك الا ما اشرنا اليه من اختلاف

الصيغة الاترى ان لفظة الاخدع قد جاءت ههنا موحدة

ومثناة وهي حسنة في حالة الانفراد مستكرهة في حالة التثنية

وقد يكون ذلك لامر يرجع الى التركيب لا الى الالفاظ وذلك ان

يكون التركيب مختل النظام مضطرب الترتيب فتجيء الفاظه عند

ذلك مستكرهة مستثقلة لكونها واردة في غير اماكنها وان كانت

من حيث انفرادها حسنة لائقة وقد تقدم الكلام على ذلك في

باب تركيب الالفاظ فاعرفه ... من الباب الثاني في تكرير

الحروف اعلم ان هذا النوع لا يتعلق بتكرير الالفاظ ولا تكرير

المعاني مما سبق ذكره في باب التكرير لان تكرار الحروف هو ان

يأتي حرف واحد او حرفان في كل لفظة من الفاظ الكلام او في

اكثرها فيثقل على اللسان النطق بها فمن ذلك ما انشده الجاحظ

وقبر حرب بمكان قفر ... وليس قرب قبر حرب قبر

[redacted]

فانها في تتابعها كالسلسلة ركة خفاء بما على الناطق بها من الكلفة

الورقة الأخيرة من النسخة (٢٧٠) بلاغة

من المتوفين الأئمة المشهورين فيه كأبي الحسن علي بن
عيسى الرماني وأبي القاسم الحسن بن بشر الآمدي
وأبي [illegible] وقدامة بن جعفر الكاتب وأبي
هلال العسكري وأبي [illegible] محمد بن غانم المعروف بالغانمي
وأبي محمد عبد الله بن سنان الخفاجي وغيرهم ممن له
كتاب أشار إليه وقول يعتمد الناصر عليه ثم المعتضي
على ذلك مدة من الدهر وانقضى دونه برهة من العمر
بحثت في أثناء ذلك الكريم من هذا النحو أشياء طريفة
ووجدت في مطاويه من هذا النوع نكتا دقيقة لطيفة
فعرضتها بعد ذلك على الأقسام التي ذكرها هؤلاء الأعلام
وشرحوها والأصناف التي بينوها في تصانيفهم ونحوها
وألفيتهم قد غفلوا عنها ولم ينبهوا على شيء منها
فكان ذلك باعثا لي على تتبع آيات القرآن العزيز والكشف
عن سره المكنون فاستخرجت منه حينئذ ثلاثين ضربا
من علم البيان لم يأت بها أحد من أولئك العلماء
الأثبات وكان ما انفردت به في هذا الفن وعمدته
[illegible] بحيث حررت [illegible]
[illegible] حيث أن أترد لها
[illegible] يكون مقصورا

الورقة الأولى من (١٦٦) مجاميع مصطفى فاضل

obeikandi.com

بسم الله الرحمن الرحيم

... ... ولا ... ... الآيات وظاهرا

... ... ورتب به نطق ...

... ... ذلك عليه من الاحسان

... ... مجنون و ... فضله لما

... ... مقرون بالاحسان من العدم الى

الوجود ... تعالى الرحمن علم القرآن خلق الانسان

... ... على ترادف الآئه وتهاديها

... ... حمدا يكون بزيادة ...

... ...

... ... بمدينته في سره وجهره وعلى آله مفاتيح

الايمان وزهره واصحابه ملاذ الاسلام وذخره

فلما كان تأليف الكلام مما لا يوقف على

غوره ولا يعرف كنه امره الا بالاطلاع على علم البيان

الذي هو ... صناعة بمنزلة الميزان ... حين

شذبت ... من الكلام المنثور الى معرفة هذا المذكور

... ... في ... و ... عن تصانيفه وكتبه

... ... سبيلا لا ... ولا ادري في ...

... ... عندنا ... و ... وا...

ورقة داخلية من (١٦٦) مجاميع مصطفى فاضل

obeikandl.com

... يبدلوا عن تكرار الحروف في كثير من كلامهم ورده في الصفة نحو

الحرف عندهم ادغموه استحسانا فقالوا في جمل لك جعلت ...

تقربوني تقربوني وكذلك استعد فلان للامر اذا تاهب له ...

والاصل استعداد واستب الامر اذا تهيا والاصل فيه استببت

واشباه هذا كثيرة في كلام حتى انهم لشدة كراهتهم لتكرار الحروف

لبدلوا احد الحرفين لما تكرر احرفا اخر غيره فقالوا امليت الكتاب

والاصل في ذلك امللت فابدلوا اللام يا طلبا للخفة على اللسان

وفرارا من الثقل والاستكراه واعلم ان ورود الادغام في هذه

اللغة اقوى دليل على كراهة العرب لتكرار الحروف وفيما اشرنا

اليه كفاية للمتامل فاعرفه وحيث انتهى بنا الكلام وفرغنا

من جميع الانواع في علم البيان والاقسام فلنجعل خاتمة حمد

الله على توفيقه الى اقوم طريقه ونرغب اليه في العصمة

من الزلل والارشاد في القول والعمل فان عثر الناظر في كتابنا

هذا على سقطة او ... في اثباته على هفوة او غلطة فليغض

عنها اغضا الصافح ويسترها ستر المتجاوز المسامح فان الكريم من

ستر العورة واقال العثرة

اخر الكتاب الموسوم بالجامع الكبير في صناعة

المنظوم من الكلام والمنثور رحم الله مصنفه

امين

تم

ورقة داخلية من (١٠٧) الحسيني

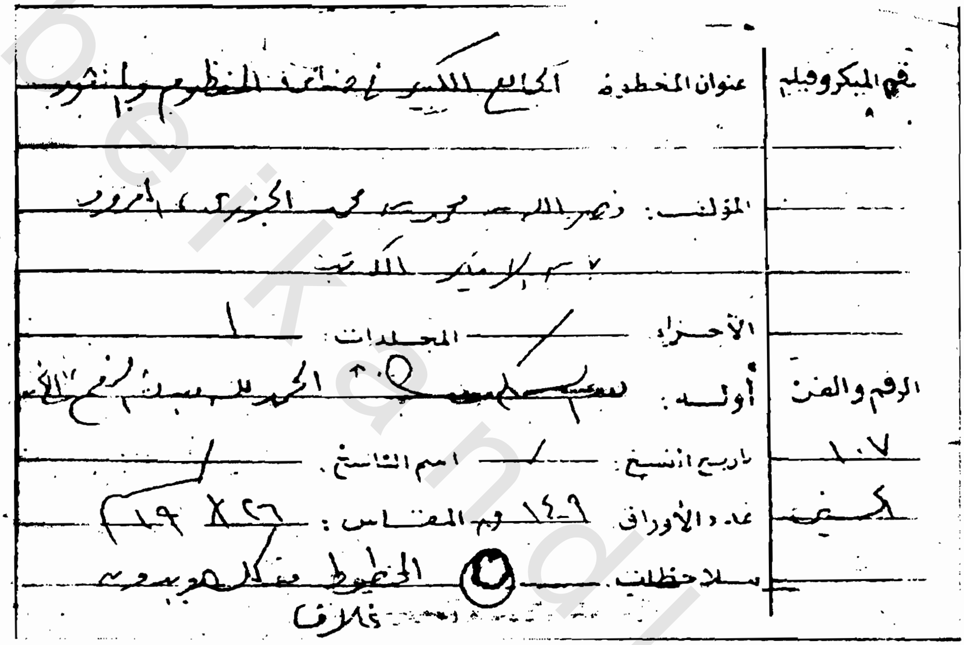

الصفحة الأخيرة من نسخة الحسيني (١٠٧)

obeikandl.com

بسم الله الرحمن الرحيم وهو حسبي وكفى
الحمد لله مبدي النعماء أولاً وآخراً ومسدي الآلاء باطناً وظاهراً
الذي فطر الإنسان بحكمته ولطفه وركب فيه النطق [illegible]
فكان ذلك علماً من أعلام الإحسان [illegible] عن جميع أصناف الحيوان [illegible]
مفصلاً لما ورد في القرآن المجيد [illegible] بالإخراج من العدم إلى الوجود فقال
تعالى الرحمن علم القرآن خلق الإنسان علمه البيان. نحمده على ترادف الآلاء
[illegible]
[illegible] ونصلي على رسوله محمد الصادع بأمره القائم بدينه في سره وجهره
وعلى آله مصابيح الإيمان وزهره وأصحابه ملاذ الإسلام وذخره. أما بعد
فلما كان تأليف الكلام مما لا يوقف على [illegible] إلا بالاطلاع على علم
البيان الذي هو لهذه الصناعة بمنزلة الميزان [illegible]
[illegible] هذا العلم المذكور [illegible] عند ذلك في تطلبه والبحث
عن تصانيفه [illegible] في تحصيله سبيلاً إلا انتهجته ولا [illegible] في إدراكه
باباً إلا ولجته حتى [illegible] وانكشفت لي أقوال الأئمة المشهورين
فيه كأبي الحسن علي بن عيسى الرماني وأبي القاسم حسن بن بشر الآمدي وأبي عثمان
الجاحظ وقدامة بن جعفر الكاتب وأبي هلال العسكري وأبي العلاء [illegible]
المعروف [illegible] وأبي محمد عبد الله بن سنان الخفاجي وغيرهم ممن له كتاب [illegible]
[illegible]

الورقة الأولى من (١٣١) بلاغة تيمور

الحقيقة ومجازه وليجعله مؤلف الكلام رأس بضاعته ويعلم به مواقع الصواب
في صناعته فلما شرعت في تلفيقه ورأيت ما يحتاج القول فيه وتحقيقه
عاودت النظر في تصانيف العلماء المذكورين والمشتهرين في أقوال الأئمة هذه الصناعة
المشهورين فصح لي عند ذلك لطائف رائقة ونوادر حسنة فإنه هي كالشاهد
لما رسموه والمشيد لما نصروا عليه وعينوه وقلما تركت قولا من أقوالهم خاله
من غير زيادة أودعتها في خلاله فجاء هذا الكتاب لعرائس علم البيان مبينا
ولما ذكره أرباب هذه الصناعة وما لم يذكروه متضمنا فأوردت في صدره
ما يجب على مؤلف الكلام علمه وينبغي معرفته وفهمه ثم شفعت ذلك بذكر الفصاحة
والبلاغة وصفة الكلام فيهما أحسن الصياغة فأوضحت ما أشكل من طريقتهما
وبينت أقوال العلماء وحققتها مما أضفته إلى ذلك من زيادات مناسبة
واحترازات واضحة ثم شرحت بعد ذلك جميع أنواع علم البيان وأشبعت القول
فيها بحسب الإمكان وسميته بكتاب الجامع الكبير في صناعة المنظوم
من الكلام والمنثور وجعلت مدار الكتاب على قطبين القطب الأول
في الأشياء العامة القطب الثاني في الأشياء الخاصة وينقسم
القطب الأول إلى فنين الفن الأول فيما يجب على مؤلف الكلام الإحاطة به
وهو أربعة أبواب الباب الأول في آلة التأليف الباب الثاني
في أدواته الباب الثالث في الطريق إلى صناعة النثر والنظم الباب
الرابع في الحقيقة والمجاز الفن الثاني في الكلام على الألفاظ والمعاني في
تفصيل الكلام المنثور على المنظوم وهو ثلاثة أبواب
الباب الأول في الألفاظ المفردة والمركبة وهو قسمان الباب الثاني
في الكلام على المعاني الباب الثالث في تفصيل الكلام المنثور والمنظوم
القطب الثاني وفيه فنان الفن الأول في الفصاحة والبلاغة
الفن الثاني في ذكر أصناف البيان وأقسامها وهو بابان الباب الأول
في الصناعة المعنوية الباب الثاني في الصناعة اللفظية وتفسير الباب
الأول إلى تسعة [illegible] الاستعارة الثاني في التشبيه
الثالث [illegible] الرابع في الإيجاز [illegible]
[illegible] السادس [illegible]

ورقة داخلية من (١٣١) بلاغة تيمور

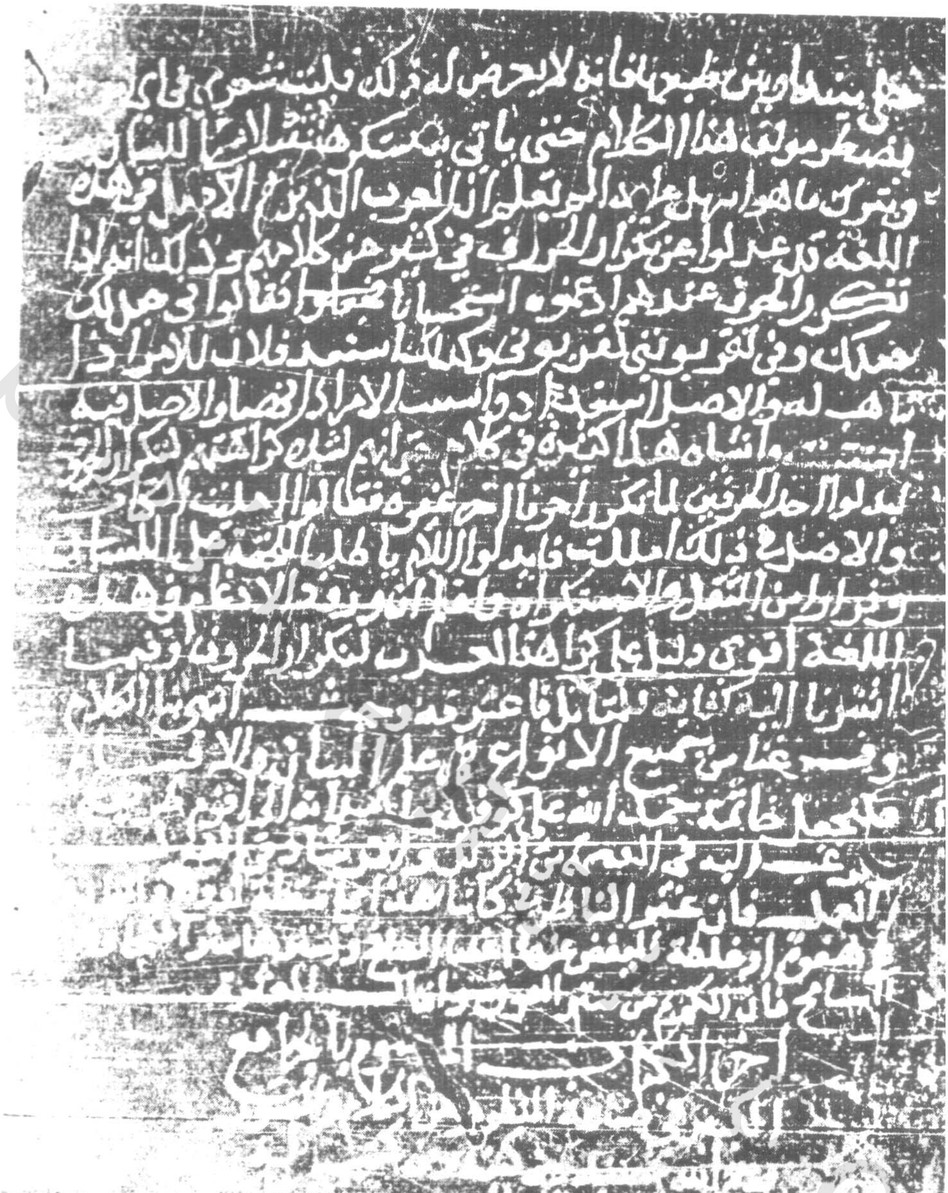

الورقة الأخيرة من (١٣١) بلاغة تيمور

obeikandl.com

الفهارس العامة

١- فهرس الآيات.

٢- فهرس الأحاديث.

٣- فهرس الأشعار.

٤- فهرس المصادر والمراجع.

٥- فهرس كتب المحقق.

٦- فهرس موضوعات الكتاب.

obeikandl.com

فهرس الآيات

الفاتحة

الآية	رقم الآية	الصفحة
﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٢) الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (٣) مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ (٤) إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ (٥) اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ (٦) صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلا الضَّالِّينَ﴾	١-٧	٢٢٧
﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾	٥	٢٤٢
﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ (٦) صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ..﴾	٦-٧	٣١٨

البقرة

الآية	رقم الآية	الصفحة
﴿الم (١) ذَلِكَ الْكِتَابُ لا رَيْبَ فِيهِ﴾	١، ٢	٢٤٤
﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ..﴾	٣	٢٤٢
﴿الم (١) ذَلِكَ الْكِتَابُ لا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ..﴾	١-٥	٢٧٨
﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لا تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ (١١) أَلا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لا يَشْعُرُونَ﴾	١١-١٢	٣٦٩
﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ أَلا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِنْ لا يَعْلَمُونَ﴾	١٣	٣٦٩
﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ﴾	١٤	٣٨٠
﴿ مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ..﴾	١٧	٢٢٠، ٣١٦

﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ﴾	١٧	٢٢٠
﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ﴾	٢٠	٢٦٣
﴿فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ..﴾	٢٤	٣٠٨
﴿فَقُلْنَا اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْفَجَرَتْ مِنْهُ﴾	٦٠	٢٦٢
﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ (٧٢) فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا..﴾	٧٢، ٧٣	٢٥٥
﴿وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ﴾	١٠٢	٢٥٨
﴿بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ..﴾	١١٢	٢٤١
﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ..﴾	١٢٧	٣١٩
﴿فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ﴾	١٣٨	١٨٢
﴿وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾	١٤٣	٣٩٣
﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ﴾	١٧٩	١٩٣، ٤٠٥
﴿وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَى﴾	١٨٩	٢٦٨
﴿فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِنْ رَأْسِهِ فَفِدْيَةٌ﴾	١٩٦	٢٧٢
﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُمْ بِهِ مِنْ خِطْبَةِ النِّسَاءِ﴾	٢٣٥	٣١٢
﴿حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى﴾	٢٣٨	٣٦١، ٣٦٢
﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ﴾	٢٥٨	٢٤٠
﴿أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا..﴾	٢٥٩	٢٤١
﴿فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَانْتَهَى﴾	٢٧٥	٢٣٩

opeikandi.com

آل عمران

﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ..﴾	٢٦	٣٩٨
﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا﴾	٣٠	٣٩٣
﴿أولئك لهم الأمن وهم مهتدون﴾	٨٢	٢٨٦، ٢٨٧
﴿فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾	١٠٦	٢٧٦
﴿وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ..﴾	١٠٤	٣٦٠، ٣٦٢
﴿وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ﴾	١٢١	١٧٥، ٤٣٨
﴿وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ..﴾	١٣٣	٣١٧
﴿لا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوْا وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا..﴾	١٨٨	٣٥٦
﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾	١٩٩	٢٨٦، ٢٨٧

المائدة

﴿إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ﴾	٦	٢٦٢
﴿أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ..﴾	١١٦	٢٥٢، ٢٩٨

الأنعام

﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى﴾	٣٥	٢٦٤

obeikandl.com

﴿قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ..﴾	٤٠	٢٥١
﴿فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي﴾	٧٨	٢٣٩
﴿أُولَئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ﴾	٨٢	٢٨٦
﴿آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الأُنْثَيَيْنِ﴾	١٤٣	٢٥٠

الأعراف

﴿إِنَّ رَحْمَةَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾	٥٦	٢٣٩
﴿وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ﴾	٥٧	٢٣٩
﴿قَالَ الْمَلأُ مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ (٦٠) قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلالَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾	٥٩-٦٠	٣١٧
﴿قَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا..﴾	٧٥	٣٠٩
﴿قَالُوا يَا مُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ﴾	١١٥	٢٩٦، ٢٩٩
﴿فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ..﴾	١٥٧	١٧٤
﴿قُلْ يأيها النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا..﴾	١٥٨	٢٣٠
﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾	١٩٩	٢٨٦

الأنفال

﴿وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ (٧) لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ﴾	٧-٨	٣٥٤

التوبة

﴿نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾	٧	٣٦٧
﴿عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ﴾	٤٣	٣٠٨

obeikandi.com

﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ﴾	٦٠	٣٥٢
﴿فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا﴾	٨١	٣٦٤

يونس

﴿وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلا أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا وَلَوْلا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾	١٩	٣٩٨
﴿هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ..﴾	٢٢	٢٢٩
﴿إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ..﴾	٢٤	٢٢١
﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَرَامًا وَحَلالا﴾	٥٩	٢٤٩
﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ﴾	٦١	٣١٩، ٣٢٥
﴿فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ﴾	٧١	٢٦٥
﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى وَأَخِيهِ أَنْ تَبَوَّآ لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا..﴾	٨٧	٢٣١
﴿أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾	٩٩	٢٥٢

هود

﴿فَقَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلا بَشَرًا مِثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلا الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ..﴾	٢٧	٣١٣
﴿قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ (٥٣) إِنْ نَقُولُ إِلا اعْتَرَاكَ..﴾	٥٣، ٥٤	٢٣٠
﴿لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾	٨٠	٢٧٥
﴿أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنْتُمْ لَهَا كَارِهُونَ﴾	٨٢	٢٥٠
﴿وَيَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾	٩٣	٢٧٩
﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِمَنْ خَافَ عَذَابَ الآخِرَةِ..﴾	١٠٣	٢٣٦

opeikandi.com

يوسف

﴿قَالُوا يَا أَبَانَا مَا لَكَ لا تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ﴾	١١	٢٦٦
﴿وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ﴾	٤٥	٢٦٧
﴿يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ﴾	٤٦	٢٦٧
﴿وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ﴾	٥٠	٢٦٧
﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾	٧٦	٤٠٨
﴿واسْأَلِ الْقَرْيَةَ﴾	٨٢	١٤٩، ٢٦٨
﴿قَالُوا تَاللَّهِ تَفْتَأُ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّى تَكُونَ حَرَضًا..﴾	٨٥	٢٧٧

الرعد

﴿هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا..﴾	١٢	٣٧٢
﴿وَالْمَلائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ (٢٣) سَلامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ﴾	٢٣-٢٤	٣٩٣
﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ﴾	٣١	٣٧٥

إبراهيم

﴿وَبَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا﴾	٢١	٢٣٥

الحجر

﴿وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ إِلا وَلَهَا كِتَابٌ مَعْلُومٌ﴾	٤	٢٨٠
﴿وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَلِكَ الأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَؤُلاءِ مَقْطُوعٌ مُصْبِحِينَ﴾	٦٦	٣١٨
﴿إن الله يأمر بالعدل والإحسان...﴾	٩٠	٢٨٥، ٢٨٧
﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾	٩٤	٢٨٦

obeikandi.com

النحل

الآية	رقمها	الصفحة
﴿أَتَى أَمْرُ اللَّه فَلا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾	١	٢٣٥
﴿وَقَالَ اللَّهُ لا تَتَّخذُوا إِلَهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ..﴾	٥١	٣٦١
﴿وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الأَرْضِ إلا مَنْ شَاءَ اللَّهُ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَاخِرِينَ﴾	٧٥	٢٣٥، ٣٢١
﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ﴾	٩٠	٢٨٥
﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعذْ بِاللَّه مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾	٩٨	٢٦١

مريم

الآية	رقمها	الصفحة
﴿قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا (٢٠) قَالَ كَذَلِك قَالَ رَبُّك هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً..﴾	٢٠، ٢١	٢٦٣
﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا (٤١) إِذْ قَالَ لأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لا يَسْمَعُ وَلا يُبْصِرُ وَلا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا (٤٢) يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا (٤٣) يَا أَبَتِ لا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا (٤٤) يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا﴾	٤١-٤٥	٣٩٤
﴿قَالَ أَرَاغِبٌ أَنْتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ لأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا﴾	٤٦	٣٩٥
﴿أَرَاغِبٌ أَنْتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ﴾	٤٧	٢٤٣
﴿قُلْ مَنْ كَانَ فِي الضَّلالَة فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَنُ مَدًّا﴾	٧٥-٧٦	٢٨٧
﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا (٨٨) لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا (٨٩) تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا (٩٠) أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا...﴾	٨٨-٩٧	٢٢٩، ٤١٤

obeikandi.com

﴿وَعَنَت الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا﴾	١١	٣٩٢
﴿فَلا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَنْ لا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَى﴾	١٦	٢٦٢
﴿فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى (٦٧) قُلْنَا لا تَخَفْ..﴾	٦٧، ٦٨	٢٩٦
﴿قُلْنَا لا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الأَعْلَى﴾	٦٨	٢٩٩
﴿وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي..﴾	٧٧-٧٩	٢٨٧
﴿فغشيهم من اليم ما غشيهم﴾	٧٨	٢٨٧
﴿يَا هَارُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا﴾	٩٢	٢٦٥
﴿قَالَ يَا هَارُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا (٩٢) أَلا تَتَّبِعَنِ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي (٩٣) قَالَ يَا ابْنَ أُمَّ لا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلا بِرَأْسِي إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي﴾	٩٢-٩٤	٤٣٦
﴿وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي﴾	٩٤	٢٦٥
﴿فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِنْ أَثَرِ الرَّسُولِ﴾	٩٦	٢٦٨
﴿مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وِزْرًا (١٠٠) خَالِدِينَ فِيهِ وَسَاءَ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حِمْلاً﴾	١٠٠-١٠١	٤٣٦
﴿يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لا عِوَجَ لَهُ وَخَشَعَتِ الأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ فَلا تَسْمَعُ إِلا هَمْسًا (١٠٨) يَوْمَئِذٍ لا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلا (١٠٩) يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا﴾	١٠٨-١١٠	٤٣٦
﴿وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا (١١٣) فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ وَلا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ..﴾	١١٣-١١٤	٤٣٦

obeikandl.com

﴿فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ فَلا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى (١١٧) إِنَّ لَكَ أَلا تَجُوعَ فِيهَا وَلا تَعْرَى (١١٨) وَأَنَّكَ لا تَظْمَأُ فِيهَا وَلا تَضْحَى﴾	١١٧-١١٩	٤٣٧

الإسراء

﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾	٩	٣٢٠
﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً﴾	١٢	٣٧٦
﴿وَقَضَى رَبُّكَ أَلا تَعْبُدُوا إِلا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾	٢٣	٢٦٥
﴿وَلا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ﴾	٢٩	٣٠٤
﴿أَفَأَصْفَاكُمْ رَبُّكُمْ بِالْبَنِينَ وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلائِكَةِ إِنَاثًا..﴾	٤٠	٢٤٩

الكهف

﴿وَلا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا﴾	٢٨	٣٥١
﴿وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ وَتَرَى الأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَاهُمْ..﴾	٤٧	٢٣٥
﴿وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾	١٠٤	٤٢٣

الأنبياء

﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٣٨) لَوْ يَعْلَمُ..﴾	٣٨، ٣٩	٢٧٥
﴿أَأَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ﴾	٦٢	٢٤٩
﴿أَأَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ (٦٢) قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ﴾	٦٢، ٦٣	٣١٣
﴿وَأَدْخَلْنَاهُ فِي رَحْمَتِنَا﴾	٧٥	١٥١
﴿وَمِنَ الشَّيَاطِينِ مَنْ يَغُوصُونَ لَهُ﴾	٨٢	٢٣٩
﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ (٩٢) وَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ كُلٌّ إِلَيْنَا رَاجِعُونَ﴾	٩٢، ٩٣	٢٣٠

﴿حَتَّى إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ..﴾	٩٦	٢٦٨
الحج		
﴿فَإِنَّهَا لا تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ..﴾	٤٦	٢٩٤
﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الأَرْضُ مُخْضَرَّةً إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾	٦٣	٢٣٤، ٣٦٩
﴿لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾	٦٤	٣٦٩
﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي الأَرْضِ وَالْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ...﴾	٦٥	٣٦٩
المؤمنون		
﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ..﴾	٩١	٢٧٥
النور		
﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ...﴾	٣٩	٢١٩
﴿وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَاءٍ فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾	٤٥	٣٢٤
﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ..﴾	٥٤	١٨٢
الفرقان		
﴿وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُقَرَّنِينَ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا..﴾	١٣-١٥	٢٨٨
﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَا مَعَهُ أَخَاهُ هَارُونَ وَزِيرًا﴾	٣٥	٢٦٦
﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا (٤٨) لِنُحْيِيَ بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا وَنُسْقِيَهُ مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَامًا وَأَنَاسِيَّ كَثِيرًا﴾	٤٨-٤٩	٣٢٣

obeikandi.com

الشعراء

﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ (٦٩) إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ (٧٠) قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ (٧١) قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ...﴾	٦٩-١٠٢	٣٢٩
﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ (١٠٥) إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ (١٠٦) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٠٧) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ(١٠٨) وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٠٩) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾	١٠٥-١١٠	٣٥٥
﴿وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ إِلا لَهَا مُنْذِرُونَ﴾	٢٠٥	٢٨٠

النمل

﴿وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا﴾	٥٠	٣٦٧
﴿أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا اللَّيْلَ لِيَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾	٨٦	٣٦٨
﴿وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الأَرْضِ..﴾	٨٧	٢٣٥
﴿وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الأَرْضِ إِلا مَنْ شَاءَ اللَّهُ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَاخِرِينَ..﴾	٨٧-٨٩	٣٢١
﴿مَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾	٩٠	٣٢١

القصص

﴿وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَى مُوسَى الأَمْرَ وَمَا كُنْتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ (٤٤) وَلَكِنَّا أَنْشَأْنَا قُرُونًا..﴾	٤٤، ٤٥	٢٦١
﴿وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ﴾	٧٣	٣٧٦

obeikandi.com

العنكبوت

﴿وَإِنْ جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلا تُطِعْهُمَا﴾	٨	٢٦٥
﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلا خَمْسِينَ عَامًا﴾	١٤	٣٢٠
﴿أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ (١٩) قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنْشِئُ النَّشْأَةَ الآخِرَةَ...﴾	١٩-٢٠	٣٢٦
﴿وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾	٤٠	٣٩٨
﴿كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ﴾	٤١	٣٩٨
﴿يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ﴾	٥٦	٢٧٢
﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ..﴾	٦٨	٣٠٥

الروم

﴿لِلَّهِ الأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ﴾	٤	٢٦٨
﴿يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ﴾	١٩	٤٢٥
﴿مَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ﴾	٤٤	٢٨٥،٢٤٤
﴿اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ...﴾	٤٨-٤٩	٣٥٦
﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ﴾	٥٥	٤١٧
﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ كَذَلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ (٥٥) وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ فَهَذَا يَوْمُ الْبَعْثِ وَلَكِنَّكُمْ كُنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ﴾	٥٥، ٥٦	٢٧٢
﴿وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ فَهَذَا يَوْمُ الْبَعْثِ﴾	٥٦	٣٠٧

لقمان

﴿ووَصَّيْنَا الإنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ..﴾	١٤	٢٥٥

الأحزاب

﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ﴾	٤	٢٩٤
﴿وَامْرَأَةً مُؤْمِنَةً إِنْ وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ...﴾	٥٠	١٥٠
﴿إِنَّ اللَّهَ لَعَنَ الْكَافِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا (٦٤) خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلا نَصِيرًا﴾	٦٤-٦٥	٤١١

سبأ

﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ قُلِ اللَّهُ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ﴾	٢٤	٣٥١
﴿وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَذَا إِلا رَجُلٌ يُرِيدُ أَنْ يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُكُمْ..﴾	٤٣	٣٠٦، ٣٢٧
﴿قُلْ إِنْ ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَى نَفْسِي وَإِنِ اهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِي إِلَيَّ رَبِّي﴾	٥٠	٣٦٨
﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ فَزِعُوا فَلا فَوْتَ وَأُخِذُوا مِنْ مَكَانٍ قَرِيبٍ﴾	٥١	٢٧٥

فاطر

﴿مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ﴾	٢	٤٢٥
﴿وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَاهُ إِلَى بَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَلِكَ النُّشُورُ..﴾	٩	٢١٢، ٢٣٣
﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ﴾	٣٢	٣٢٤، ٣٧٢

obeikandi.com

يس

﴿وَمَا لِيَ لا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾	٢٢	٢٣١
﴿إِنِّي آمَنْتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ﴾	٢٥	٢٣٢
﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (٤٥) وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾	٤٥، ٤٦	٢٧٦

الصافات

﴿لا فِيهَا غَوْلٌ﴾	٤٧	٢٤٤
﴿فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ (١٠٣) وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ (١٠٤) قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾	١٠٣-١٠٥	٢٧٦
﴿وَآتَيْنَاهُمَا الْكِتَابَ الْمُسْتَبِينَ (١١٧) وَهَدَيْنَاهُمَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾	١١٧-١١٨	٤٣٦
﴿أَصْطَفَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ(١٥٣)مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾	١٥٣، ١٥٤	٢٤٩

ص

﴿وَاذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولِي الأَيْدِي وَالأَبْصَارِ (٤٥) إِنَّا أَخْلَصْنَاهُمْ بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ﴾	٤٥-٥٠	٣٣٣
﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو الأَوْتَادِ (١٢) وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَابُ الأَيْكَةِ أُولَئِكَ الأَحْزَابُ (١٣) إِنْ كُلٌّ إِلا كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ﴾	١٢-١٤	٣٥٥

opeikandi.com

الآية	رقمها	الصفحة
الزمر		
﴿وَإِذَا مَسَّ الإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ مِنْ قَبْلُ..﴾	٨	٣٤٦
﴿قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ..﴾	١١	٣٥٤
﴿قُلِ اللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَهُ دِينِي (١٤) فَاعْبُدُوا مَا شِئْتُمْ مِنْ دُونِهِ﴾	١٥-١٤	٣٤٦
﴿أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلإِسْلامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ..﴾	٢٢	٢٦٣
﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ﴾	٦٥	٢٥٨
﴿قُلْ يَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ (٣٩) مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُقِيمٌ﴾	٤٠-٣٩	٢٧٩
غافر		
﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ وَإِنْ يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِنْ يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ﴾	٢٨	٣٩٥
﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أَبْلُغُ الأَسْبَابَ (٣٦) أَسْبَابَ السَّمَوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى﴾	٣٧-٣٦	٣١٩
﴿وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ (٣٨) يَا قَوْمِ إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَإِنَّ الآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ﴾	٣٩-٣٨	٣٥٦
﴿وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ (٣٨) يَا قَوْمِ إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَإِنَّ الآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ...﴾	٤٠-٣٨	٣١٨

obeikandl.com

﴿ذَلِكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنْتُمْ تَمْرَحُونَ﴾	٧٥	٤٢٢
فصلت		
﴿وَلا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾	٣٤	٤٠٥
الشورى		
﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾	١١	٣٠٦
﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا﴾	٤٠	٣٦٨
﴿وَإِنَّا إِذَا أَذَقْنَا الإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ الإِنْسَانَ كَفُورٌ...﴾	٤٨-٥٠	٣٢٥
الزخرف		
﴿أَوَمَنْ يُنَشَّأُ فِي الْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ﴾	١٨	٣١١
﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَةَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ﴾	٣٢	٢٥٢
﴿أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ أَوْ تَهْدِي الْعُمْيَ﴾	٤٠	٢٥١
الأحقاف		
﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَكَفَرْتُمْ بِهِ وَشَهِدَ شَاهِدٌ﴾	١٠	٢٧٣
محمد		
﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ﴾	٤٧	٢٦٦
الحجرات		
﴿أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا﴾	١٢	٣٠٢
﴿قَالَتِ الأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا﴾	١٤	٣٠٨
ق		
﴿ق وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ﴾	١	٢٧٤

﴿أَئذَا متْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَلكَ رَجْعٌ بَعيدٌ﴾	٣	٢٧٤
﴿بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَرِيجٍ (٥) أَفَلَمْ يَنظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ (٦) وَالأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾	٥-٧	٤١١، ٤١٤
الذاريات		
﴿فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ﴾	٢٣	٣٩٢
القمر		
﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ﴾	١٧	٣٥٧
﴿فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ﴾	٣٧	٣٥٦
﴿أَخْذَ عَزِيزٍ مُقْتَدِرٍ﴾	٤٢	٣٤١
﴿فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِيكٍ مُقْتَدِرٍ﴾	٥٥	٤٣٨
الرحمن		
﴿الرَّحْمَنُ (١) عَلَّمَ الْقُرْآنَ (٢) خَلَقَ الإِنْسَانَ..﴾	١-٣	١٢١
﴿وَلَهُ الْجَوَارِ الْمُنْشَآتُ فِي الْبَحْرِ كَالأَعْلامِ﴾	٢٤	٢١٩
الواقعة		
﴿وَكُنْتُمْ أَزْوَاجًا ثَلاثَةً (٧) فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ(٨) وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ (٩) وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ﴾	٧-١٠	٣٧٢
﴿وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ (٢٧) فِي سِدْرٍ مَخْضُودٍ...﴾	٢٧، ٢٨	٣٠٤
﴿وَأَصْحَابُ الشِّمَالِ مَا أَصْحَابُ الشِّمَالِ﴾	٤١، ٤٤	٣٠٤

obeikandl.com

﴿أفرَأَيْتُمْ مَـا تَحرُثُـونَ (٦٣) أَأَنْـتُمْ تَزْرَعُونَـهُ أَمْ نَحْـنُ الزَّارِعُونَ(٦٤) لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا فَظَلْتُمْ تَفكَّهُونَ (٦٥) إِنَّا لَمُغْرَمُونَ (٦٦) بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ(٦٧) أَفَـرَأَيْتُمُ الْمَـاءَ الَّذي تَشْرَبُونَ (٦٨) أَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِـنَ الْمُـزْنِ أَمْ نَحْـنُ الْمُنْزِلُونَ(٦٩) لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا فَلَوْلا تَشْكُرُونَ﴾	٦٣-٧٠	٣٨٢
﴿فَلا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ (٧٥) وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَـوْ تَعْلَمُـونَ عَظِيمٌ (٧٦) إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ (٧٧) فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ﴾	٧٥-٧٨	٢٥٤
الحديد		
﴿لا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ..﴾	١٠	٢٦٣
﴿فَضُرِبَ بَيْنَهُمْ بِسُورٍ لَهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ﴾	١٣	٣٩٣
﴿لِكَيْلا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ﴾	٢٣	٣٦٤
الحشر		
﴿وَظَنُّوا أَنَّهُمْ مَانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنَ اللَّهِ﴾	٢	٢٤٣
﴿فَكَانَ عَاقِبَتَهُمَا أَنَّهُمَا فِي النَّارِ خَالِدَيْنِ فِيهَا﴾	١٧	٣٥٦
التغابن		
﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ لَهُ الْمُلْكُ..﴾	١	٢٤٤
﴿يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ ذَلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ﴾	٩	٢٣٦
الجن		
﴿وَأَنَّا مِنَّا الصَّالِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَلِكَ﴾	١١	٢٦٩
المدثر		
﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ﴾	٥	٣١٠
القيامة		
﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ (٢٢) إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾	٢٢-٢٣	٤٢٢
﴿وَالْتَفَّتِ السَّاقُ بِالسَّاقِ (٢٩) إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَسَاقُ﴾	٢٩-٣٠	٤٢٣

obeikandl.com

النبأ

الآية	رقمها	الصفحة
﴿يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلائِكَةُ صَفًّا لا يَتَكَلَّمُونَ إِلا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا﴾	٣٨	٣٩٢

عبس

الآية	رقمها	الصفحة
﴿قُتِلَ الإِنْسَانُ مَا أَكْفَرَهُ (١٧) مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ (١٨) مِن نُطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ..﴾	١٧-٢٣	٢٨٣، ٣٥٠

التكوير

الآية	رقمها	الصفحة
﴿وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ﴾	١٨	١٥١

الغاشية

الآية	رقمها	الصفحة
﴿لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلا مِنْ ضَرِيعٍ﴾	٦	٣٠٧
﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ (٢١) لَسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ (٢٢) إِلا مَنْ تَوَلَّى وَكَفَرَ (٢٣) فَيُعَذِّبُهُ اللَّهُ الْعَذَابَ الأَكْبَرَ (٢٤) إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ (٢٥) ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ﴾	٢١-٢٦	٢٤٤

الفجر

الآية	رقمها	الصفحة
﴿وَالْفَجْرِ (١) وَلَيَالٍ عَشْرٍ﴾	١، ٢	٢٧٤
﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ﴾	٦	٢٧٤

الضحى

الآية	رقمها	الصفحة
﴿فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلا تَقْهَرْ (٩) وَأَمَّا السَّائِلَ فَلا تَنْهَرْ﴾	٩-١٠	٤١٣

العاديات

الآية	رقمها	الصفحة
﴿وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا (١) فَالْمُورِيَاتِ قَدْحًا (٢) فَالْمُغِيرَاتِ صُبْحًا (٣) فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعًا (٤) فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعًا﴾	١-٥	٤١١، ٤١٣
﴿وَإِنَّهُ عَلَى ذَلِكَ لَشَهِيدٌ (٧) وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ﴾	٧-٨	٤٢٢

الكافرون

الآية	رقمها	الصفحة
﴿قُلْ يَأَيهَا الْكَافِرُونَ (١) لا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ..﴾	١-٦	٣٥٤

opeikandi.com

فهرس الأحاديث

أتيناك يا رسول الله من غوري تهامة.. ١٦٤
أسجعًا كسجع الكهّان ٤١٢
أعيذه من الهامة والسامة، وكل عين لامة ٤١٢
أنزل القرآن على سبعة أحرف.. ١٥٧
أيها الناس أفشوا السلام وأطعموا الطعام، وصلوا بالليل والناس نيام،
تدخلوا الجنة بسلام ٤١٢
خاطبوا الناس على قدر عقولهم ٢٨٩
الخيل معقود بنواصيها الخير إلى يوم القيامة ٤٢٢
روي عن النبي ﷺ أن رجلاً جاءه فكلمه، فقال: "ما شاء الله وشئت"،
فقال له رسول الله ﷺ: أجعلتني لله ندًا"؟ قل: "ما شاء الله وحده". ٣٨٥
قال رسول الله ﷺ لمن قال له "منْ أبَرّ": أمَّك ثم أمَّك. ثم قال بعد ذلك
"أباك" ٢٥٥
قيل إن النبي ﷺ قرأها على الوليد بن المغيرة فقال له: "يا ابن أخي أعد"
فأعاد النبي ﷺ قراءتها عليه، فقال له: "إن له لحلاوة، وإنّ عليه لطلاوة
وإن أعلاه لمثمر، وإن أسفله لمغدق، وما هو بقول بشر" ٢٨٥
لا صلاة لجار المسجد إلاّ في المسجد ٢٧١
له إبل قليلات المسارح، كثيرات المبارك، إذا سمعن صوت المزهر.. ٣٠٩
اللهم كما حسنت خلقي فحسن خلقي ٤٢١
ليرجعن مأزورات غير مأجورات ٤١٢
من محمد رسول الله ﷺ إلى الأقيال العباهلة.. ١٤٥

فهرس الأشعار

حرف الهمزة (أ)

وما العيش إلا نومة وتشرق	وتمر على رأس النخيل وماء	١٥٠
ومعرّس للغيث يخفق بينه	راياتُ كل دُجنة وطفاء	٢١١
صعبت فراض الماء سيء خلقها	فتعلّمت من حسن خلق الماء	٢١٢
وكأنما فوق الأكف بوارق	وكأنما فوق المتون إضاء	٢٢٠
وله بلا حزن ولا بمسرة	ضحك يراوح بينه وبكاء	٣٦٥
اسلم ودمت على الحوادث مارسًا	ركنًا ثبير أو هضاب حراء	٤٠١
يسقط الطير حيث يلتقط الحبْـ	ـبُ وتُغشى منازل الكرماء	٤٠٧
خرقاء يلعب بالعقول حبابها	كتلعب الأفعال بالأسماء	٤٠٩
قد ذبت غير حشاشة وذماء	ما بين حر هوىً وحرّ هواء	٤٢١

حرف الباء (ب)

هل ناشد لي بعقيق اللوى	غزيلاً مرّ على الركب	١٧٩
لكل دهر قد لبست أثؤبا	. . . .	١٨٣
أثمرت أغصان راحته	لجناة الحسن عنّابا	٢٠٩
يوم فتح سقى أسود الضواحي	كثب الموت رائبًا أو حليبًا	٢١٤
أهجر بيتًا بالحجاز تلفّعت	به الخوف والأعداء من كل جانب	٢٣٨
ملوك يبتنون توارثوها	سرادقها المقاول والقبابا	٢٤٨
صدودكم والديار دانية	أهدى لرأسي ومفرقي شيبا	٢٥٧
يُنذرِينَ جندل حائر لجنوبها	فكأنما تذكي سنابكها الحبا	٢٨٢
فعاجوا فأثنوا بالذي أنت أهله	ولو سكتوا أثنت عليك الحقائب	٢١٣
إليك جزعنا مغرب الشمس كلما	أجزنا ملاً صلّت عليك سباسبه	٣٣٨
أهن عوادي يوسف وصواحبه	. . . .	٣٣٨
أمل هل ظعائنُ بالعلياء رافعةٌ	وإن تكامل فيها الدَّلُّ والشنبُ	٣٦٧

obeikandl.com

وصالكم هجرٌ وحبكُم قلىً	وعطفكم صدٌّ وسلمكم حرب	٣٧٤
ولينكم عنف وقربكم نوىً	وإعطاؤكم منع وصدقكم كذب	٣٧٥
شكوتُ فقالت كل هذا تبرم	بحبي أراح الله قلبك من حبي	٣٧٦
أنت دلو وذو السماح أبو مو	سى قليب وأنت دلو القليب	٣٨٤
إذا ما غزا بالجيش حلّق فوقه	عصائب طير تهتدي بعصائب	٤٠٧،٣٨٦
وما مثله في الناس إلا مملكًا	أبو أمه حيٌّ أبوه يقاربه	٣٨٩
كأن عيون الوحش حول خبائنا	وأرحلنا الجزع الذي لم يثقب	٣٩٩
فكل ذي غيبةٍ يؤوب	وغائب الموت لا يؤوب	٤١٦
يمدون من أيدٍ عواصٍ عواصم	تصُول بأسياف قواضٍ قواضب	٤٢٢
بيض الصفائح لا سود الصحائف في	متونهن جلاء الشك والريب	٤٢٧
كحلاء في برج صفراء في دعج	كأنها فضة قد شابها ذهب	٤٢٩
ألم تر أنَّ المال يكسبُ أهله	نضوحًا إذا لم تعط منه نواسبه	٤٣٥

حرف التاء (ت)

تضوعَ مسكًا بطن نعمان إذا مشت	به زينب في نسوةٍ خفرات	١٤٣
إن الكرام بلا كرام منهم	مثل القلوب بلا سويداواتها	١٨٢
لم يكتسب غير الثنا	والحمد في حياته	٢٢٣
يا أيها الراكب المزجي مطيته	سائل بني أسدٍ ما هذه الصوت	٢٣٨
إني على شغفي بما في خمرها	لأعف عمّا في سراويلاتها	٣١٢،٤٠٨
يوم المتيم فيك حولٌ كامل	يتعاقب الفصلان فيه إذا أتى	٣٧٦
فإن لم يجد في قسمة العمر حيلة	وجاز له الإعطاء من حسناته	٤٠٧
بِنتُ عن الدنيا ولا بِنتَ لي	فيها ولا عرسٌ ولا أختُ	٤٣٢

حرف الثاء (ث)

وما راعهم إلا سرادق جعفر	يحفُّ به أسدُ اللقاء الدلاهثُ	١٦٨

obeikandl.com

حرف الجيم (ج)

والصبح يتلو المشتري فكأنه	عُريان يمشي في الدجى بسراجِ	٢٢٢
من راقب الناس لم يظفر بحاجته	وفاز بالطيبات الفاتك اللهجُ	٤٠٤
لقاؤك يُدني من المرتجى	ويفتح باب الهوى المرتجا	٤١٩

حرف الحاء (ح)

فأنت من الغوائل حين تُرمى	ومن ذم الرجال بمنتزاحِ	١٨٥
ولما قضينا من منىً كل حاجةٍ	ومسّح بالأركان من هو ماسح	١٩٤
وقلت لقومٍ في الكنيف تروحوا	عشية بتنا عند ماوان رزّح	٢٠٣
ملا حاجبيك الشعر حتى كأنه	ظباءٌ جرت منها سنيح وبارح	٢٢٤
فقد والشك بيّن لي عناءً	يوشك فراقهم صُردٌ يصيح	٢٥٧،٢٤٦

حرف الخاء (خ)

لا يفقدن خيركم مجالسكم	ولا تكونوا كأنكم سبخ	٤٣٣

حرف الدال (د)

وقوفًا بها صحبي على مطيهم	يقولون لا تهلك أسىً وتجلدِ	٤٠٢،١٣٩
أعزز عليَّ بأن أراك وقد خلا	عن جانبيك مقاعد العوّادِ	١٧٥
وحدثتني يا سعد عنها فزدتني	جنونًا فزدني من حديثك يا سعد	٣٩١،١٩٦
إلى ملكٍ في أيكة المجد لم يزل	على كبد المعروف من نيله بردُ	٢١٤
تبسمٌ وقطوبٌ في ندىً ووغىً	كالغيث والبرد تحت العارض البردِ	٢١٨
لو شئت لم تُفسد سماحة حاتم	كرمًا و لم تهدم مآثر خالد	٢٦٤
وليلة كحلت بالنقس مقلتها	ألقت قناع الدجى في كل أخدود	٣٢٨
سلامٌ على الدنيا إذا ما فقدتم	بني برمكٍ من رائحين وغادي	٣٣٦
أربع البلى إن الخشوع لبادي	. . . .	٣٣٥
لقد علم القبائل أن قومي	لهم حَدٌّ إذا لُبس الحديد	٣٤٨
كيف أسلو وأنت حقفٌ وغصنٌ	وغزالٌ لحظًا وردفًا وقدًّا	٣٧٨

فيا أيها الحيران في ظلمة الدجى	ومن خاف أن يلقاه بغيٌ من العدا	٣٧٩
ولما أتاني من حماك تحيةٌ	تضوّع من أثنائها المسكُ والندُّ	٣٩١
وإنَّ بقومٍ سودوك لحاجة	إلى سيدٍ لو يظفرون بسيّد	٤٠٧
يلقاك بالماء النمير الفتى	وفي ضمير النفس نارٌ تَقِد	٤٣٣

حرف الراء (ر)

أقول للحيان وقد صفرت لهم	وطابي ويومي ضيق الجحر معور	١٧٦
يا طود حلم ظلت معتصمًا به	يا بحر علم عمت في تيَّاره	٢١١
يا طالبًا عجائب الأمور	فعقرة في الدرع ذي القتير	٢٢١
فقلنا أسلموا إنا أخوكم	فقد برئت من الإحَن الصدور	٢٤٠
إلى ملك ما أمه من محارب	أبوه ولا كانت كليب تصاهره	٢٤٦
وليست خراسان التي كان خالد	بها أسد إذْ كان سيفًا أميرها	٢٤٧
فدع الوعيد فما وعيدك ضائري	أطنين أجنحة الذباب يضيرُ	٢٥١
ولقد أجمع رجليّ بها	حذر الموت وإني لفرور	٢٥٨
عليّ نحت القوافي من معادنها	وما عليَّ إذا لم تفهم البقر	٢٦٠
ما أقرب الأشياء حين يسوقها	قدر وأبعدها إذا لم تقدر	٢٨٤
تقول التي من بيتها خف محملي	عزيز علينا أن نراك تسيرُ	٣١١
أحن إلى ما تضمر الخمرُ والحلى	وأصدف عمّا في ضمان المآزر	٣١٢،٤٠٨
ألا يا ديار دام لك السرور	وساعدك النضارة والحبور	٣٣٧
وراءك أقوال الوشاة الفواجر	ودونك أحوال الغرام المخامر	٣٤٠
فلا الجود يغني المال والجد مُقبل	ولا البخل يُبقي المال والجد مدبر	٣٦٥
ولو أن مشتاقًا تكلف فوق ما	في وسعه لسعى إليك المنبرُ	٣٨٧
أسلم ودمت على الحوا	دث مارسًا ركنًا ثبير	٤٠١
من راقب الناس مات همًّا	وفاز باللذة الجسور	٤٠٤
وترى الطير على آثارنا	رأي عين ثقةً أن ستمار	٤٠٦

ونشـــري بجميـــل الصنـــــ — ـــع ذكـــرًا طيـــب النشـــر ٤١٩
من كل ساجي الطرف أغيد أجيد — ومهفهف الكشحين أحوى أحور ٤٢٢
تقاصرت همم الأملاك عن ملـك — أضحى الثناء عليه وهو مقصـور ٤٢٣
إنّ الليـــالي للأنـــام مناهـــلٌ — تطوى وتنشر دونهـــا الأعمـــار ٤٢٤
كم مـــن حمـــار علـــى جـــوادٍ — ومـــن جـــوادٍ علـــى حمـــار ٤٢٤
أبا العبـــاس لا تحســـب لســـاني — لشيء من حلى الأشعار عـــاري ٤٢٦
حامي الحقيقة محمود الخليفة مهـ — ــدي الطريقة نفّـــاع وضـــرار ٤٣٠
عزّ على ليلـــي بـــذي ســـدير — ســـوءُ مبـــيتي ليلـــة الغمـــير ٤٣٢
ليلٌ بـــلا نـــور أجـــنّ بمهمـــه — حبسَ الأدلة لـــيس فيـــه منـــار ٤٣٣

حرف الزاي (ز)

وحديثها السحر الحلال لـــو أنـــه — لم يجـــنِ قتـــل المســـلم المتحـــرز ١٩٦

حرف السين (س)

ورمل كأوراك العـــذاري قطعتـــه — إذا ألبســـته المظلمـــات الحنـــادس ٢٢٤
وما زال معقولاً عقال عن النـــدى — ومازال محبوسًا عن خـــير حـــابس ٣٤٨

حرف الضاد (ض)

مـــودة ذهـــب أثمارهـــا شَـــبهٌ — وهمة جـــوهرٌ معروفهـــا عـــرض ٤٠٩
يا بياضًـــا أذرى دمـــوعي حـــتى — عاد منها ســـواد عـــيني بياضًـــا ٤١٩

حرف العين (ع)

متغطمط غَصب الوحوش مكانهـــا — تياره فالضـــب جـــار الضـــفدع ١٦٩
تلفتُّ نحو الحـــيّ حـــتى وجـــدتني — وَجعتُ من الإصغاء ليتا وأخـــدعا ١٩١
فتىً عِيشَ في معروفه بعـــد موتـــه — كما كان بعد السيل مجراه مَرتعًـــا ٢٢٢
لعمري وما عمـــري علـــيّ بهـــيّن — لقد نطقت بُطلاً علـــيّ الأقـــارع ٢٥٦
ولو شئت أن أبكي دمًـــا لبكيتـــه — عليه ولكن ساحة الصـــبر أوســـع ٢٦٤
وما لامرئ حاولته عنـــك مهـــربٌ — ولو حملتـــه في الســـماء المطـــالع ٢٨٤

obeikandl.com

خُلعت من الحدثان أحصن أدرعـي	فلقد سُنِنَّ علـى الكـريم الأروع	٣٤٠
وذات هـدم عـارٍ نواشـرها	تصـمتُ بالمـاء تولبًـا جِـدعا	٣٨٨

حرف الفاء (ف)

كأن السُهى إنْسان عـينٍ غريقـة	من الدمع يبدو كلما ذرفت ذَرْفًـا	٢٢٢
لا تسـديـنَّ إليّ عارفـةً	حتى أقـوم بـبعض مـا سـلفا	٤٠٤

حرف القاف (ق)

سلي البيدَ أين الجنُ مِنّـا بِجَوْزهـا	وعن ذي المهاري أين منها النقانق	١٧١
وملمومـة سـيفية ربعيـة	يصيح الحصا فيها صياح اللقـالق	١٧٣
كساها رطيب العيش فاعتدلت لها	قداح كأعناق الظبـاء الفـوارق	٢٢٣
ومرى سوابق دمعهـا فتواكفـت	ساق يجاذب فـوق سـاقٍ سـاقًا	٤١٨
حمّـال ألويـة شـهّاد أنديـة	قـوّال محكمـة جـوّاب آفـاق	٤٣٠

حرف الكاف (ك)

يا دهر قَوّمْ من أخـدعيك فقـد	أضججت هذا الأنام من خرقك	١٩١، ٤٣٩
أبيني أفي يمـنى يـديك جعلـتني	فأفرحَ أم صـيّرتني في شمالـك	٣٠٤
يـا دار غيّـرك البلـى ومحـاك	يا ليت شعري ما الذي أبلاك؟!	٣٣٦
هل لما فات من تـلاف تلاقـي	أو لشاكٍ من الصـبابة شـاكي	٤١٨
أهـديت شـيئًا يقـلّ لـولا	أحدوثـة الفـألِ والتـبرك	٤٢٥

حرف اللام (ل)

وقوفًا بها صـحبي علـيَّ مطـيُّهم	يقولون لا تهلـك أسـىً وتجمّـل	١٣٨، ٤٠٢
فقلقلت بالهم الذي قلقـل الحشـا	قلاقـل عـيس كلّهـن قلاقـل	١٧٢، ٣٥٨
فقلـت لـه لمـا تمطّـى بصـلبه	وأردف أعجـازًا ونـاء بكلكـل	٢١٢
كـأن الجفـون علـى مقلـتي	ثيـاب شـققن علـى ثاكـل	٢٢١
وميّـة أجمـل الـثقلين وجهًـا	وسـالفة وأحسـنه قـذالاً	٢٣٩
أيقـتلني والمشـرفيّ مضـاجعي	ومسنونة زرق كأنيـاب أغـوال	٢٥٠

obeikandi.com

لــو أن البــاخلين وأنــت منـهم	رأوك تعلمــوا منـــك المطـــالا	٢٥٦
يقول رجــال يجهلــون خلـيقتي	لعل زيــادًا لا أبــا لــك غافــل	٢٥٦
نظرتُ وشخصي مطلع الشمس ظلّه	إلى الغرب حتى ظلّه الشمس قد غفل	٢٥٨
فقلــت يمــين الله أبــرح قاعــدًا	ولو قطّعوا رأسي لديك وأوصــالي	٢٧٧
فصرنا إلى الحســنى ورقّ كلامهــا	ورُضتُ فــذلّت صــعبة أيّ إذلال	٣٠١
أمــا وهواهــا عــذرة وتنصــلاً	لقد نقل الواشــي إليهــا فــأمحلا	٣٣٩
وإذا البلابــل أطربــت بهديلــها	فانفِ البلابــلَ باحتســاء بلابــلِ	٣٥٨،٤١٨
سارت به صيغ القصــائد شــرّدا	فكأنمــا كانــت صــبًا وقبــولاً	٣٦٢
كــأني لم أركــب جــوادًا للــذّة	ولم أتبطّن كاعبًــا ذات خلخــال	٣٧١
لــو أن في قلــبي كقــدر قلامــة	حُبًّا وصلتك أو أتتــك رســائلي	٣٧٤
وأنــا المنيــة في المــواطن كلــها	والطعــن مــني ســابقُ الآجــالِ	٣٨٥
فــداء لامــرئ ســارت إليــه	بعــذرة ربِّهــا عمــي وخــالي	٣٩٧
قف العيس من أطلال مية فاســأل	رسومًا كأخلاق الرداء المسلسـل	٣٩٩
حيٍّ ذوي الأضغان تسب عقــولهم	تحيةَ ذي الحسنى وقد يرفع النفــل	٤٠٥
قفا نبك من ذكرى حبيب ومــترل	بسقطِ اللوى بين الدخول فحومل	٤١٥
وأغرّ في الــزمن القــديم محجّــلِ	قد رحتُ منه على أغــرَّ محجــلِ	٤٢٠
نســيم الــروض في ريــح شمــال	وصــوبُ الحــزنِ في راحٍ شمــول	٤٢٣
كيف الســرور بإقبــال وآخــرُه	إذا تأملتـــه مقلـــوب إقبـــال	٤٢٥

حرف الميم (م)

أذاق الغواني حســنه مــا أذقــتني	وعفّ فجــازاهن عــني بالصــرم	١٧١
بيضاء تسحب من قيــام فرعهــا	وتغيب فيه وهــو جَثــلٌ أســحمُ	٢١٩
أين الغزال المســتعير مــن النقــا	كفلاً ومن نَوْر الأقــاحي مبسـما	٢٢٥
فأصبحت بعــد خــطّ بهجتــها	كــأنّ قفــرًا رســومَها قلمــا	٢٤٦
أأتــرك أن قلّــت دراهــم خالــد	زيارتـــــه إني إذًا للئـــــيمُ	٢٥٠

obeikandi.com

سئمت تكاليف الحياة ومن يعشْ	ثمانين حولاً لا أبا لك يسأم	٢٥٧
فلا مهجة في الأرض منك منيعة	ولو قطرت في ريق أرقط أرقم	٢٥٧
كأن إبريقهم ظبي على شرف	مفدّم بسبا الكتان ملثوم	٢٨٢
وددت وما تغني الودادة أنني	بما في ضمير الحاجبية عالم	٣٠٩
وشككت بالرمح الأصمّ ثيابه	ليس الكريم على القنا بمحرّم	٣١٠
بزجاجة صفراء ذات أسرّة	قرنت بأزهر في الشمال مفدّم	٣١٠
وصافية تغشى العيون بنورها	رهينة عام في الدّنان وعام	٣٣٣
قصر عليه تحية وسلام	نشرت عليه جمالها الأيام	٣٣٧
يا دار ما فعلت بك الأيام	لم يبق فيك بشاشة تستام	٣٣٧
أمحلّتي سلمى لكاظمة أسلما	....	٣٤٧
ولم أر مثل جيراني ومثلي	لمثلي عند مثلهم مقام	٣٥٣،٣٥٨
وقفتَ وما في الموت شك لواقف	كأنك في جفن الردى وهو نائم	٣٧٠
غيث وليث فغيث حين تسأله	عُرفًا وليث لدى الهيجاء ضرغام	٣٧٦
لقد خنت قومًا لو لجأت إليهم	طريدَ دمٍ أو حاملاً ثقل مَغرم	٣٧٧
وما مُزبد من خليج الفرات	جَونٌ غواربه تلتطم	٣٨٣
ما زال يهذي بالمكارم والعُلا	حتى ظننا أنّه محمومُ	٣٨٣
وتلحقه عند المكارم هِزَة	كما انتفض المجهودُ من أُمّ ملدم	٣٨٤
إذا ما غضبنا غَضبة مُضرية	هتكنا حجاب الشمس أو قطرت دما	٣٨٥
يكاد يمسكه عرفان راحته	ركنُ الحطيم إذا ما جاء يَسْتَلِمُ	٣٨٦
قم فاسقنيها يا غُلام وغنّني	ذهب الذين يعاش في أكنافهم	٣٩١
أحلّت دمي مِنْ غير جرم وحرمت	بلا سبب يوم اللقاء كلامي	٣٩٧
قد ينعم الله بالبلوى وإنْ عظمت	ويبتلي الله بعض القوم بالنِعَم	٤٠٦
فلو يمتهم في الحشر تجدو	لأعطوك الذي صَلُّوا وصاموا	٤٠٧
يزدحم الناس على بابه	والمنهل العذب كثير الزحام	٤٠٧

obeikandi.com

أتعرفَ أطــلالاً ونؤيًــا مهــدَّما	كخطِّك في رقٍّ كتابًــا منمنمــا	٤١٦
إلى حتفــي مشــى قــدمي	أرى قــدمي أراقَ دمــي	٤١٩
ســودٌ ذوائبــها بــيض ترائبــها	محض ضرائبها صيغت من الكــرم	٤٣٠

حرف النون (ن)

اذهــبي في كــلاءة الــرحمن	أنــت مــني في ذمــةٍ وأمــان	١٣٤
اســقني الأســكركة الصِنْــ	ــنَبْرَ في جعضــلفونه	١٦٩
وهل لخشــيف بــالعقيق علاقــة	بقلــبي أم دانيــت غــير مُــدان	١٧٩
فإني قــد لقيــت الغــول تهــوي	بسهب كالصــحيفة صحصحــان	٢٣٣
إن الثمــانين وبلّغتــها	قد أحوجت سمعــي إلى ترجمــان	٢٥٦
. . . .	. . . فقــد جئنــا خراســانًا	٢٧٢
دَرَس المنــا بمتــالعٍ فأبــان	. . . .	٢٨٢
وتردّوا بالمكرمــات فلــم يكــن	لسواهم منــها ســوى الحرمــان	٣٠٨
كــأن الشــموع وقــد أطلعــت	من النــار في كــل رأس لســانا	٣٢٩
يجزون من ظلم أهل الظلم مغفــرة	ومن إساءة أهل الســوء إحســانا	٣٦٦
كم نعمــة لا تســتقل بشــكرها	لله في طــيّ المكــاره كامنــه	٤٠٦
لم يبق غــيرك إنســانٌ يــلاذ بــه	فلا برحت لعين الــدهر إنســانًا	٤١٨
قلت للقلب مــا دهــاك أجــبني	قــال لي بــائع الفــراني فــراني	٤١٩

حرف الهاء (ه)

وتقاسم النــاس الســخاء مجــزءًا	وذهبت أنــت برأسِــه وســنامه	٢١٤
أتتــك أبــا حســن وردة	تلــذُّ النفــوس بأنفاســها	٢٢٣
في طلعة البدر شيء من ملاحتــها	وللقضيب نصــيب مــن تثنيهــا	٢٢٥
وليل كوجــه البرقعِيــدي ظلمــة	وبــرد أغانيــه وطــول قرونــه	٣٣٢
وأمة كان قبح الجــور يُســخطها	دهرًا فأصبح حسن العدل يرضيها	٣٦٥
ملكت بها كفي فــأهْرتُ فتقهــا	يرى قائمٌ من دونها مــا وراءَهــا	٣٨٦

ومــــن البلــــوى الـــتي ليــــــ	ــــــسَ لهـــا في النـــاس كُنـــهُ	٣٩٠
خذها إذا أنشدت للقوم من طربٍ	صدورها عرفت منــها قوافيهـــا	٣٩٧
تلك الثنايا مــن عقــدها نُظمــت	أم نُظِــمَ العقـــد مــن ثناياهـــا	٤٢٥
تنازع في الــدنيا ســواك ومالــهُ	ولا لك شيء في الحقيقــة فيهـــا	٤٣٣
أرى الــدنيا ومــا وصــفت بــبر	إذا أغنـــت فقـــيرًا أوهقتـــه	٤٣٤

حرف الياء (ي)

وقد يجمع الله الشتيتين بعــد مــا	يظُنان كــلَّ الظَّــنِّ أن لا تلاقيــا	١٥٢
مَن لــيس يَرفــلُ إلا في ســوابِغِهُ	مِن تُبعــيٍّ مُفــاض أو ســلوقيِّ	١٧٣
بني عمنا لا تذكروا الشعر بعد مــا	دفنتم بصحراء الغُمــير القوافيــا	٣١٤

obeikandl.com

فهرس المصادر والمراجع

(أ)

- أسرار البلاغة - لعبدالقاهر الجرجاني- بتصحيح السيد رشيد رضا- ط مكتبة محمد علي صبيح.
- أساس البلاغة للزمخشري - دار صادر - بيروت ١٣٩٩هـ.
- الأطول للعصام.
- الأعلام للزركلي - بيروت.
- الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني.
- أمثال الحديث للرامهرمزي ط الدار السلفية - الهند للمرتضى علي بن الحسين. تحقيق أبو الفضل، القاهرة ١٩٥٤م.
- الأنوار الزاهية في ديوان أبي العتاهية. جمع اليسوعي ١٩١٤م المطبعة الكاثوليكية - بيروت.
- الأنوار ومحاسن الأشعار لأبي الحسن علي بن محمد الشمشاطي. تحقيق: صالح مهدي العزاوي. دار الحركة ١٣٩٦هـ/١٩٧٦م.
- الإيضاح في علوم البلاغة للقزويني. تحقيق: محمد محي الدين عبدالحميد. مطبعة السنة المحمدية بالقاهرة. وأخرى شرح د/محمد عبدالمنعم خفاجي ط دار الكتب اللبناني.

(ب)

- البداية والنهاية لابن كثير-ط دار الفكر.
- البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع للشوكاني - مطبعة السعادة ١٣٤٨هـ.
- البديع في نقد الشعر لأسامة بن منقذ. تحقيق: د.أحمد أحمد بدوي. ود.حامد عبدالمجيد/ مطبعة البابي الحلبي-القاهرة: ١٣٨٠هـ/١٩٦٠م.
- البرهان في وجوه البيان لابن وهب الكاتب. تحقيق: د.أحمد مطلوب. ود. خديجة الحديثي/ مطبعة العاني-بغداد ١٩٦٧م.

- البرهان الكاشف عن إعجاز القرآن. لكمال الدين عبدالواحد بن عبدالكريم الزملكاني. تحقيق: د.أحمد مطلوب ود. خديجة الحديثي مطبعة العاني - بغداد.
- بغية الوعاة للسيوطي تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم مطبعة البابي الحلبي ١٣٨٤هـ ١٩٦٤م.
- بلاغة السكاكي منهجا وتطبيقا. لأحمد محمد علي/ دكتوراه بكلية اللغة العربية - جامعة الأزهر.
- البلاغة عند السكاكي. د. أحمد مطلوب/ ط بغداد.
- البلاغة تطور وتاريخ - د/ شوقي ضيف - ط دار المعارف.
- البيان في غريب إعراب القرآن لأبي البركات الأنباري. تحقيق: د. طه عبدالحميد طه، دار الكاتب العربي بالقاهرة ١٣٨٩هـ/١٩٦٩م.
- البيان والتبيين للجاحظ - تحقيق عبدالسلام محمد هارون نشر الخانكي بالقاهرة ط٥ - ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م.

(ت)

- تاريخ الأدب العربي لبروكلمان - ترجمة: عبدالحليم النجار - دار المعارف - مصر.
- تاريخ ابن خلدون-دار الكتاب اللبناني.
- تاريخ علوم البلاغة والتعريف برجالها للشيخ مصطفى المراغي.
- التبيان في المعاني والبيان للطيبي-بتحقيقي-طبعة المكتبة التجارية - بمكة المكرمة.
- التلخيص في علوم البلاغة للخطيب القزويني. بتحقيقي - طبعة دار الكتب العلمية.

(جـ)

- جامع العبارات في تحقيق الاستعارات، علي عصام - دكتوراه بكلية اللغة العربية - جامعة الأزهر.
- الجمان في تشبيه آيات القرآن لابن ناقيا البغدادي. تحقيق: د. أحمد مطلوب، ود.خديجة الحديثي/ دار الحرية ١٣٨٧هـ/١٩٦٨م.
- جمهرة أشعار العرب. تأليف أبي زيد محمد بن أبي الخطاب القرشي/١٩٢٦هـ.

obeikandl.com

- جمهرة الأمثال لأبي هلال العسكري، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، وعبدالمجيد قطامش/ القاهرة ١٩٦٤م.
- جمهرة أنساب العرب لأبي محمد علي بن أحمد الأندلسي. تحقيق عبدالسلام محمد هارون. دار المعارف مصر ط٥.

(ح)

- حدائق البيان في شرح التبيان لعلي بن عيسى شارح التبيان للطيبي - مخطوط بمعهد إحياء المخطوطات العربية بالقاهرة.
- حسن التوسل إلى صناعة الترسل لشهاب الدين محمد الحلبي. تحقيق ودراسة. د.أكرم عثمان يوسف/دار الحرية-١٩٨٠م.
- الحماسة البصرية للبصري. عالم الكتب بيروت.
- حماسة الظرفاء من أشعار المحدثين والقدماء لأبي محمد عبدالله بن محمد العبدلكاني الزوزني. تحقيق: د.محمد جبار المعيبد - دار الحرية - بغداد.

(خـ)

- خزانة الأدب للبغدادي - تحقيق وشرح عبدالسلام محمد هارون، دار الكتاب العربي بالقاهرة ١٣٨٧هـ/١٩٦٧م.
- الخلاصة في أصول الحديث للطيبي. تحقيق: الأستاذ صبحي السامرائي/ مطبعة الإرشاد بغداد ١٣٩١هـ - ١٩٧١م.

(د)

- دائرة المعارف الإسلامية - ط دار الفكر.
- الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة لابن حجر العسقلاني/ مطبعة دار الكتب الحديثة - مصر.
- دلائل الإعجاز لعبدالقاهر الجرجاني. تعليق وشرح: د. محمد عبدالمنعم الخفاجي/ مطبعة الفجالة - القاهرة ١٩٦٩م/١٣٨٩هـ. وأخرى بتحقيق محمد رشيد رضا.
- ديوان أبي الأسود الدؤلي. تحقيق الشيخ محمد حسن، مطبعة المعارف - بغداد ١٩٦٤م.

- ديوان الأعشى الكبير ميمون بن قيس. شرح وتعليق: د/ محمد حسين/ المطبعة النموذجية.
- ديوان أمير المؤمنين علي بن أبي طالب/ مطبوعات العربي/ ١٣٩٣هـ-١٩٧٣م.
- ديوان أوس بن حجر. تحقيق وشرح: د. محمد يوسف نجم - دار صادر بيروت/ط٢.
- ديوان البحتري، دار صادر، بيروت.
- ديوان بشار بن برد، شرح ونشر محمد الطاهر بن عاشور، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٦٧م.
- ديوان البهاء زهير. دار المعارف بمصر.
- ديوان حاتم الطائي - الشركة اللبنانية للكتاب - بيروت. وديوان حاتم الطائي/ دار صادر - بيروت.
- ديوان الحطيئة بشرح ابن السكيت والسكري، والسجستاني. تحقيق: نعمان أمين طه. مطبعة مصطفى البابي الحلبي القاهرة ١٩٥٨م.
- ديوان الحماسة لأبي تمام. تحقيق: د. عبدالمنعم صالح، دار الرشيد للنشر بغداد ١٩٨٠م.
- ديوان الخنساء، دار التراث، بيروت ١٩٦٨م.
- ديوان الشريف الرضي/ طبع المطبعة الأدبية - بيروت ١٣٠٧هـ.
- ديوان الصاحب عباد. تحقيق: الشيخ محمد آل ياسين بيروت ١٩٧٤م.
- ديوان الصنوبري. تحقيق: د. إحسان عباس/ دار الثقافة - بيروت ١٩٧٠م.
- ديوان العباس بن الأحنف. تحقيق: د. عاتكة الخزرجي/ دار الكتب المصرية/ ١٣٧٣هـ-١٩٥٤م.
- ديوان عبيد بن الأبرص/ دار صادر - بيروت.
- ديوان عبيدالله بن قيس الرقيات. تحقيق وشرح: د. محمد يوسف نجم/ دار صادر - بيروت/١٣٧٨هـ-١٩٥٨م.
- ديوان العرجي رواية أبي الفتح عثمان بن جني. شرحه وحققه: خضر الطائي ورشيد

obeikandl.com

العبيدي – ط ١– الشركة الإسلامية للطباعة – ١٣٧٥هـ/١٩٥٦م.
- ديوان عروة بن الورد.
- دايوان علقمة الفحل. شرح: الأعلم الشنتمري. تحقيق: لطفي الصقال – مطبعة الأصيل حلب – ١٣٨٩هـ-١٩٦٩م.
- ديوان علي بن جبلة العكوك. تحقيق: د.أحمد الجنابي – مطبعة الآداب – النجف الأشرف – ١٣٩١هـ – ١٩٧١م.
- ديوان عمرو بن معديكرب. تحقيق د. هاشم الطعان. مطبعة الجمهورية، بغداد ١٩٧٠م.
- ديوان الفرزدق. دار صادر، بيروت ١٩٦٦م.
- ديوان القطامي. تحقيق: د.إبراهيم السامرائي. ود.أحمد مطلوب/ دار الثقافة – بيروت ١٩٦٠م.
- ديوان كثير. تحقيق: د. إحسان عباس، بيروت ١٩٧١م.
- ديوان لبيد بن ربيعة العامري. تحقيق: د. إحسان عباس. التراث العربي – الكويت ١٩٦٢م.
- ديوان مجنون ليلى. جمع وتحقيق وشرح: عبدالستار أحمد فراج – دار مصر للطباعة.
- ديوان مسلم بن الوليد. تحقيق د.سامي الدهان، دار المعارف بمصر ١٩٧٠.
- ديوان ابن نباتة السعدي. دراسة وتحقيق: عبدالأمير مهدي حبيب الطائي – دار الحرية/ ١٣٩٧هـ – ١٩٧٧م.
- ديوان أبي نواس – المطبعة الأهلية – بيروت، وط. مصر.
- ديوان ابن هانئ الأندلسي – دار صادر – بيروت/ ١٣٨٤هـ – ١٩٦٤م.
- ديوان الهذليين نشر القومية للطباعة بالقاهرة ١٣٨٤هـ / ١٩٦٥م.
- ديوان الوأواء الدمشقي. تحقيق: د. سامي الدهان/المطبعة الهاشمية – دمشق ١٣٦٩هـ – ١٩٥٠م/وطبعة ليون.

(س)

- سر الفصاحة لابن سنان الخفاجي. تحقيق علي فودة / مصر ١٩٣٢م.

- سقط الزند لأبي العلاء المعري - دار صادر - بيروت.
- سمط اللآلى. تحقيق: عبدالعزيز الميمني. مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة ١٩٣٦م.

(ش)

- شذرات الذهب في أخبار من ذهب لابن العماد الحنبلي - المكتب التجاري - بيروت - لبنان.
- شرح ديوان جرير، محمد إسماعيل الصاوي - مكتبة دار الثقافة العربية.
- شرح ديوان حسان. ضبط الديوان وصححه: عبدالرحمن الرقوقي - دار الأندلس - بيروت - ١٩٨٠م.
- شرح ديوان عبيد بن الأبرص - دار بيروت، ودار صادر - بيروت - ١٣٧٧هـ-١٩٥٨م.
- شرح ديوان أبي العتاهية - دار التراث - بيروت - ١٣٨٩هـ-١٩٦٩م.
- شرح ديوان أبي فراس الحمداني - منشورات دار الفكر - بيروت.
- شرح ديوان كعب بن زهير. صنعة السكري - الدار القومية - القاهرة - ١٣٨٥هـ-١٩٦٦م.
- شرح شواهد المغني للسيوطي. تحقيق: أحمد ظافر خان مصر ١٣٨٦هـ-١٩٦٦م.
- شرح القصائد العشر للتبريزي. تحقيق: د. فخر الدين قباوة، دار الآفاق الجديدة - بيروت ط٣ ١٣٩٩هـ-١٩٧٣م.
- شرح المعلقات السبع للزوزني. تحقيق: محمد علي.
- شرح مقامات الحريري، دار التراث - بيروت.
- شعر الأخطل، صنعة السكري، تحقيق: د.فخر الدين قباوة - منشورات دار الآفاق الجديدة - بيروت - ط ٢ - ١٣٩٩هـ-١٩٧٩م.
- شعر عبدة بن الطبيب. د.يحيى الجبوري - دار التربية - ١٣٩١هـ-١٩٧١م.
- شعر ابن المعتز، صنعة الصولي. دراسة وتحقيق: د.يونس أحمد السامرائي - دار الحرية

- ١٣٩٨هـ-١٩٧٨م.
- شعر النمر بن تولب، صنعة د. نوري حمودي القيس - مطبعة المعارف - بغداد ١٩٦٩م.
- الشعر والشعراء لابن قتيبة. تحقيق وشرح: أحمد محمد شاكر. دار المعارف.

(ص)

- صبح الأعشى — للقلقشندي - المطبعة الأميرية.
- صحيح الجامع للشيخ الألباني - ط المكتب الإسلامي.
- الصناعتين لأبي هلال العسكري - مصر١٩٧١م. وأخرى تحقيق د.مفيد قميحة.
- صحيح البخاري ط الشعب.
- صحيح مسلم بشرح النووي. طبعة الشعب، وأخرى بتحقيق محمد فؤاد عبدالباقي.
- ضعيف الجامع للشيخ الألباني - ط المكتب الإسلامي.

(ط)

- طبقات الشافعية لأبي بكر هداية الله الحسيني. تحقيق: عادل نويهض - منشورات دار الآفاق الجديدة - بيروت ١٩٧٩م.
- طبقات الشعراء لابن المعتز. تحقيق: عبدالستار أحمد فراج - ط٤ - دار المعارف.
- الطراز ليحى بن حمزة العلوي ط٣، مطبعة المقتطف مصر١٣٣٢هـ-١٩١٤.
- الطيبي وجهوده البلاغية - عبدالحميد هنداوي - ماجستير مخطوط بكلية دار العلوم جامعة القاهرة - ومطبوع نشر المكتبة التجارية-بمكة المكرمة.

(ع)

- العرف الطيب في شرح ديواني أبي الطيب للشيخ ناصيف اليازجي.
- عقود الجمان وشرحه للسيوطي وشرحه للمرشدي ط. المطبعة الميمنية بمصر سنة ١٣٠٦هـ.
- العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده. تأليف: أبي الحسن بن رشيق القيرواني. تحقيق: محمد محي الدين عبدالحميد — ط٢ - مطبعة السعادة ١٣٨٣هـ - ١٩٦٣م.

(ف)

- فتوح الغيب في الكشف عن قناع الريب — للطيبي — مخطوط بدار الكتب المصرية ١٤٥ تفسير.
- فخر الدين الرازي بلاغيا. تأليف: ماهر مهدي هلال - دار الحرية-١٣٩٧هـ - ١٩٧٧م.
- فن البديع. تحقيق: د.عبدالقادر حسين - دار الشروق - ١٤٠٣هـ-١٩٨٣م.
- فن التشبيه. أ.علي الجندي. مكتبة نهضة مصر.

(ق)

- القاموس المحيط للفيروزآبادي.

(ك)

- الكاشف عن حقائق السنن للطيبي شرح مشكاة المصابيح مخطوط بدار الكتب المصرية ٣٠ – حديث قوله.
- الكامل للمبرد/طبع ليبزج. وأخرى ط مكتبة الاستقامة بالقاهرة ١٩٥١م.
- كتاب العين – بتحقيقي طبعة دار الكتب العلمية.
- الكشاف للزمخشري. ط دار المعرفة.
- كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، لحاجي خليفة مطبعة وكالة المعارض ١٩٤٣م.

(ل)

- لسان العرب لابن منظور ط دار المعارف.
- لطائف التبيان في المعاني والتبيان للطيبي - مخطوط بدار الكتب المصرية، ٢٦ بلاغة م وبتحقيقي ط المكتبة التجارية بمكة المكرمة.

(م)

- المثل السائر لابن الأثير – طبعتين – تحقيق: محيي الدين، ود.بدويت طبانة. ود. أحمد الحوفي – دار الرفاعي-الرخاص – ١٤٠٣هـ-١٩٨٣م. وط دار نهضة مصر-الفجالة – القاهرة.

- مجموع أشعار العرب. ليبزج ١٩٠٣هـ.
- المرقصات والمطربات لنور الدين علي بن الوزير أبي عمران - دار حمد ومحيو - بيروت ١٩٧٣م.
- المصباح لبدر الدين بن مالك، المطبعة الخيرية ١٣٤١هـ. وأخرى ط مطبعة الآداب بالقاهرة تحقيق د/حسني عبدالجليل.
- معاني القرآن للأخفش. تحقيق: د. فائز فارس،الشركة الكويتية ط٢ ١٤٠١هـ-١٩٨١م.
- معجم الأدباء لياقوت، تحقيق: مرجوليوث - دار إحياء التراث العربي.
- معجم المؤلفين، عمر رضا كحالة ج٤ المكتبة العربية، دمشق ١٩٥٧م.
- مفتاح السعادة لطاش كبرى زاده. تحقيق: كامل بكري وعبدالوهاب أبو النور، مطبعة الاستقلال مصر ١٩٦٨م.
- المفتاح للسكاكي. بتحقيقي - طبعة دار الكتب العلمية.
- المقتضب للمبرد. تحقيق: الشيخ عضيمة ١٣٨٢هـ - ١٩٦٣م.
- مقتضى الحال بين البلاغة القديمة والنقد الحديث لإبراهيم الخولي - دكتوراه بكلية اللغة العربية بالقاهرة.

(ن)

- نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز-تحقيق: د.بكري شيخ أمين-ط دار العلم للملايين.
- النهاية في غريب الحديث لابن الأثير، تحقيق: طاهر أحمد الزاوي، ومحمود محمد الطناحي - ط٢ - دار الفكر - ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م.
- هدية العارفين - لإسماعيل باشا البغدادي.
- همع الهوامع على شرح جمع الجوامع للسيوطي - بتحقيقي - طبعة المكتبة التوفيقية.

(و)

- وفيات الأعيان لأحمد بن محمد بن خلكان. تحقيق: د.إحسان عباس - طبع دار الثقافة - بيروت.

(ي)

- اليتيمة للثعالبي. تحقيق: محيي الدين عبدالحميد، مطبعة السعادة، القاهرة.

فهرس كتب المحقق

أولاً: البحوث والمؤلفات العلمية في مجال التخصص:

- الإعجاز الصوتي للقرآن الكريم - بالدار الثقافية - القاهرة.
- الإعجاز الصرفي للقرآن الكريم - المكتبة العصرية- بيروت.
- رعاية حال المتكلم في سورة البقرة (دراسة نظرية تطبيقية) - إيداع بدار الكتب رقم ١٣٧١٠/ ٢٠٠١.
- رسالة الأدب المقارن - نشر بصحيفة دار العلوم.
- الدلالة الفنية للأصوات - نشر بصحيفة دار العلوم.
- أسلوب التكرار في ضوء الدراسات الأسلوبية الحديثة (مع التطبيق على التكرار الصوتي) - نشر بصحيفة دار العلوم.
- أنماط المفارقة في شعر أحمد مطر (دراسة نظرية تطبيقية) - إيداع بدار الكتب رقم ١٣٧٠٦/ ٢٠٠١.
- سورة النازعات (قراءة أسلوبية) بحث مرجعي أجيز ضمن بحوث الترقية.
- سورة ق (قراءة أسلوبية) بحث أجيز ضمن بحوث الترقية.

ثانيًا: المؤلفات والكتب الدراسية في مجال التخصص:

- بلاغة الكتاب والسنة عند الإمام الطيبي - (مؤسسة نزار الباز- مكة المكرمة).
- معالم على طريق النقد الأدبي (تأليف) - (مكتبة الثقافة).
- الأدب المقارن بين المفهوم والقيمة (تأليف) - (مكتبة الثقافة).
- علم البلاغة بين التنظير والتطبيق (تأليف) - (مكتبة الثقافة).
- أضواء على مسيرة البلاغة العربية (تأليف) - (مكتبة ا لثقافة).
- التوظيف البلاغي لصيغة الكلمة (دراسة نظرية تطبيقية) - (المكتبة العصرية- بيروت).

ثالثًا: الكتب المحققة في مجال التخصص:

- التبيان في المعاني والبيان للطيبي - (المكتبة التجارية - مكة المكرمة).

obeikandi.com

- علم البديع وفن الفصاحة للطيبي - (المكتبة التجارية - مكة المكرمة).
- لطائف التبيان للطيبي - (المكتبة التجارية - مكة المكرمة).
- شرح الإمام الطيبي على مشكاة المصابيح - (شرح بلاغي - ١٣ مجلدًا بالفهارس - مؤسسة نزار الباز - مكة المكرمة).
- بلاغات النساء لابن طيفور - (مكتبة الفضيلة - مصر).
- مفتاح العلوم للسكاكي - (دار الكتب العلمية - بيروت - تحقيق جديد على ثلاث نسخ خطية).
- تلخيص المفتاح للخطيب القزويني - (دار الكتب العلمية - بيروت - تحقيق جديد على ثلاث نسخ خطية).
- عروس الأفراح شرح تلخيص المفتاح للسبكي - (المكتبة العصرية - بيروت).
- مختصر السعد شرح تلخيص المفتاح للتفتازاني - (المكتبة العصرية - بيروت).
- حاشية الدسوقي على مختصر السعد شرح تلخيص المفتاح - (المكتبة العصرية - بيروت).
- مواهب الفتاح في شرح تلخيص المفتاح لابن يعقوب المغربي - (المكتبة العصرية - بيروت).
- الأطول في علوم البلاغة شرح تلخيص مفتاح العلوم للعلامة إبراهيم بن محمد بن عربشاه عصام الدين الحنفي - (ت٩٤٣هـ) - (دار الكتب العلمية).
- المطول شرح تلخيص مفتاح العلوم تأليف العلامة سعد الدين مسعود بن عمر التفتازاني - (ت٧٩٢هـ) - (دار الكتب العلمية).

رابعًا: الشعر والكتابات الأدبية والدينية:

- نشر ديوانه الشعري (رحلة على جواد النفس) ضمن كتابه (جواهر الأدب في كنوز كلام العرب) - (نشر الدار الثقافية).
- رجال ونساء حول الرسول ﷺ - (مكتبة أبي بكر).
- الفراغ نعمة أم نقمة؟ - (مكتبة التابعين).

obeikandi.com

- الإسراء والمعراج - (مكتبة أبي بكر).
- تيسير العقيدة للمسلم المعاصر - (مكتبة التابعين).
- الحياة الطيبة.
- منهج الدعوة في الواقع المعاصر – (بحث قدم لجائزة الأمير نايف بن عبدالعزيز) في الدراسات الإسلامية المعاصرة.
- صفات يحبها الله ورسوله.
- وكتب أخرى.

obeikandl.com